«التَّكمِلَةُ»

صَلاحُ الأُمَّةِ فِي عُلُوِّ الهِمَّةِ

المجلد العاشر

تأليف

دكتور/سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري — الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم — الشيخ أحمد فريد

الشيخ سعيد عبد العظيم — الشيخ ياسر برهامي

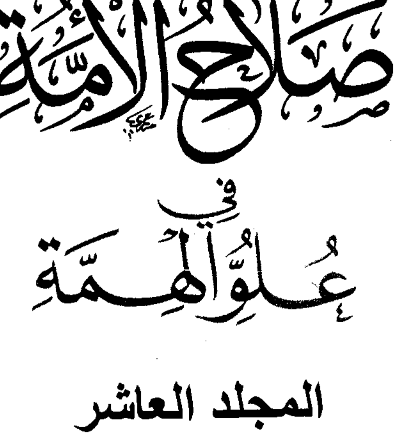
الشيخ محمد عبد المقصود — الشيخ عائض القرني

الشيخ أحمد عيسى — الشيخ أبو إسحاق الحويني

د. حمزة بن يافع الفتحي — أ.د. عبد الرحمن فوده

دار العفاني





المجلد العاشر

الطبعة السابعة

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية

٢٠٦١٢/ ٢٠٠٧

دار العفاني

٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر- القاهرة

ت/ ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧ - ٠١٢/٢٥٧٧٥٧١١

فرع بني سويف - برج الري - حي الرمد - بجوار مجمع المحاكم - بني سويف

ت/ ٠٨٢/٢٣١٧٣٤٤



تكملة علو الهمة في طلب العلم

تكملة فصل علو الهمة في طلب العلم

١- الإمام المجدِّد الناصر للسُّنَّة القامع للبدعة أبو إسحاق الشاطبي وافتراعه لعلم «مقاصد الشريعة» في كتابه «الفذ «الموافقات»:

□ قال عنه العلَّامة الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في مقدمته لكتاب «الموافقات»: «هو الإمام المجدِّد العلَّامة المصلح، الزاهد، الورع، المحتسب، الناصر للسُّنَّة، القامع للبدعة: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى ابن محمد اللخمي نسبًا، المالكي مذهبًا، الأثري مشرَبًا، الشاطبي، ثم الغرناطي مولدًا نحو (سنة ٧٣٠هـ)، ووفاة (سنة ٧٩٠هـ)، نجم لمع من أندلس الإسلام مولِدًا، ونشأة، ووفاة، شيوخًا، منهم:

ابن الفخار، والمقَّري الجد، وابن لُبٍّ، وابن مرزوق، ومنصور الزواوي، وابن الزيات، والشقوري، والبلنسي، وكان معاصرًا لأعلام ثلاثة: لسان الدين بن الخطيب، وابن خلدون، وابن القباب.

وأبو إسحاق هو أستاذ غرناطة في جامعها الأعظم: في القراءات، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والنحو ولسان العرب.

وكان له تلاميذ مشاهير منهم: القاضيان الأخوان: أبو يحيى ابن عاصم، وأبو بكر ابن عاصم، وأبو جعفر بن الفخار، والبياني، والمَجَاري، والقصَّار، وابن فتوح، وغيرهم».

كان إبراهيم الشاطبي من ألمع أعلام عصره بالأندلس، يتبوَّأُ مكانة علمية سامية ويمتاز بتعمقه في علوم العربية وعلوم الشريعة، مما خول له استكناه أسرارها وإبراز مقاصدها وضبط قواعدها وربط فروعها بأصولها.

وقد حدثنا عن شغفه المبكر بالعلم، وتدرجه في تلقيه وفهم مقاصد

الدين إلى أن أدرك كماله وتحقيقه للسعادة، فقال: «لم أزلْ منذ فُتق للفهم عقلي، ووجه شطر العلم طلبي، أنظر في عقلياته وشرعياته وأصوله وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعًا دون آخر، حسبما اقتضاه الزمان والإمكان وأعطته المنة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خضت في لجحه خوض المحسن للسباحة، وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء حتى كدت أتلف في بعض أعماقه، أو أنقطع في رفقتي التي بالأنس بها تجارست على ما قدر لي، غائبًا عن مقال القائل وعذل العاذل، ومعرضًا عن صد الصاد ولوم اللائم إلى أن منَّ علي الرب الكريم الرؤوف الرحيم، فشرح لي من معاني الشريعة ما لم يكن في حسابي، وألقى في نفسي القاصرة أن كتاب الله وسنة نبيه لم يتركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالًا يعتد به فيه، وأن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع، والطلبة فيما شرع، وما سوى ذلك فضلال وبهتان، وإفك وخسران، وأن العاقد عليه بكلتا يديه مستمسك بالعروة الوثقى محصل لكلمتي الخير دنيا وأخرى، وما سواهما فأحلام، وخيالات وأوهام، وقام لي على صحة ذلك البرهان الذي لا شبهة تطرق حول حماه، ولا ترتمي نحو مرماه ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف]، والحمد لله والشكر كثيرًا كما هو أهله، فمن هناك قويت نفسي على المشي في طريقه بمقدار ما يَسَّرَ الله فيه، فابتدأتُ بأصول الدين عملًا واعتقادًا، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول»[1].

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٨- ٩).

وقد شهد كثير من العلماء بفضل الشاطبي ونوَّهُوا بجهوده وحلَّوْهُ بما يستحق من الصفات المصورة لمكانته.

□ قال عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي المُجَاري الأندلسي: «الشيخ الإمام العلامة الشهير نسيج وحده وفريد عصره»[1].

□ وقال في حقه الإمام ابن مرزوق الحفيد: «الشيخ الأستاذ الفقيه الإمام المحقق العلامة الصالح».

□ وقال أحمد بابا السوداني في ترجمته: «الإمام العلامة المحقق القُدوة الحافظ الجليل المجتهد، كان أصوليًا مفسرًا فقيهًا محدثًا لغويًا بيانيًا نظارًا ثبتًا ورعًا صالحًا زاهدًا سُنيًا إمامًا مطلقا بحاثًا مدققًا جدليًا بارعًا في العلوم، من أفراد العلماء المحققين الأثبات وأكابر الأئمة المتفننين الثقات، له القدم الراسخ والإمامة العظمى في الفنون فقهًا وأصولًا وتفسيرًا وحديثًا وعربية وغيرها مع التحري والتحقيق.. على قدم راسخ من الصلاح والعفة والتحري والورع».

ويدل على استحقاقه لهذا التحلية مؤلفاته، وما ذاع له من صيت طيب.

□ قال الشيخ بكر أبوزيد: «وأبو إسحاق: هو مؤلف غرناطة الإبداعي في كُتبه: «الموافقات» في أصول الشريعة ومقاصدها، و«الاعتصام» في السُّنَّة وقمع البدعة، و«الإفادات والإنشادات» و«الفتاوى» مستخرجه من «المعيار» للونشريسي جمعها بعض المعاصرين، وله «المجالس» في شرح البيوع من «صحيح البخاري»، و«شرح الخلاصة

(١) «البرنامج» (١١٦) للمَجَاري.

لابن مالك» وهو -رحمة الله عليه- في مؤلفاته هذه بعيد عن طرق التأليف التقليدية، والعمل المكرور، وإنما يفترعها افتراعًا، ويُبدِع فيها إبداعًا؛ لأنه قد اتخذ القرآن والسُّنَّة له نبراسًا وإمامًا، وحذق «لسان العرب»؛ لغة، ونحو، وفقهًا، واشتقاقًا؛ بما لم يدرك شأوه من لحقه، ولم ينسج على منواله ومسلكه؛ فلا جَرَم كان نجمًا لامعًا، أضاء الأمة الإسلامية في المشارق والمغارب؛ فلفت الأنظار، وعكفت على كتبة الأبصار، واستضاءت بأنوارها بصائر أهل الأمصار.

وهذا الإمام الفذّ -رحمة الله عليه- قد اشتهر في قطره، ثم ذاع صيته في المشارق والمغارب؛ لمناداته بالسُّنَّة، والاعتصام بها، ورفضه الجمود والتقليد، وإنكاره التصوف والبدع المضلّة ودعوته المِلحَّة إلى الدليل، وله في ذلك منازلات ومراسلات مع شيوخ عصره: ابن عرفة، والقَبَّات، وابن عباد الرَّنْدي إلى آخرين سمّاهم صاحب «المعيار» واحتفظ بتدوين هذه المراسلات؛ فجزاه الله خيرًا.. ثم قال الشيخ بكر: «هذه إلماعة معتصرة عن هذا الإمام في حياته العلمية والعملية، وبتاملها يظهر فيها جَليًّا نزعته التجديدية، ودعوته الإصلاحية -شأن كل مجدد ومصلح- وهي تُشبه إلى حدٍّ كبير دعوة التجديد التي قام بها في المشرق شيخ الإسلام -رحمة الله تعالى- مع تباعد الدار، وأن ولادة هذا الإمام بعد وفاة شيخ الإسلام، وكل منهما لم يرحل إلى قطر الآخر».. ثم قال الدكتور بكر أبو زيد عن أوجه التشابه بين الشاطبي وابن تيمية:

«ومن أعظم وجوه التشابه بينهما: ربط الترجيح والاختيار في مسائل الخلاف بالنظر إلى مقاصد الشريعة، وتنقيحها، وتحقيقها، والتدقيق فيها، وهذه من أبرز السمات التي جعلت كُتُب هذيْن الإمامَيْن تحتل مكان

الصَّدارة عند أهل العلم.

وإذا كانت هذه الالتفاتة النفيسة ملحوظة في كتابات الشاطبي، فإن محط الرَّحل فيها هو كتابه الفريد الفارد، ولقد جعل القسم الثالث من كتابه «الموافقات» في مقاصد الشريعة.. وقد أُفرِدت بالتأليف من عدد من علماء المشرق.

□يقول الدكتور بكر: «فلماذا إذًا اشتهر هذا الإمام بها واشتهرت به، ولا يكاد تُعرف إلَّا مِن طريقه، وشغف الناس بكتابه هذا: «الموافقات» نظمًا واختصارًا، وصار لأهل عصرنا بن النصف الثاني من القرن الرابع عشر فما بعد، توجُّهٌ عظيم إلى دراسة «المقاصد» والتأليف فيها استقلالًا، ومحاضرة بلغت نحو الأربعين، من أهمها كتاب ابن عاشور وكتاب علال الفاسي، حتى قُرِّرت مادة مستقلة في الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، كل هذه الجهود من خلال «المقاصد عند الشاطبي»؟؟.

□والجواب من وجوه:

١ - أن الشاطبي -رحمه الله تعالى- أبرز هذا العلم، ولهج به، وأوسعه بحْثًا، وتحليلًا، وتحقيقًا، وتفصيلًا؛ فعقد آصرة النسب بين الأصول والقواعد، ووسع لائحة المقاصد.

٢- في النَّسج والصياغة فارق عامَّة من سَبَقَه؛ إذْ ساقه بنقاوة اللسان العربي متخلِّيًا عن الاصطلاحات الكلامية، والأدوات المنطقية، وكيف لا يكون ذلك وديْدَنُه في كتابه على أن هذه الشريعة عربية لا مدخل فيها للألسن الأعجمية، ودعوته قائمة على ساقها بالتزام اللسان العربي وحِذْقه؟!

٣- بناه إعدادًا على الاستقراء الكلي للأدلة من الكتاب والسنة، بجمع نصوص الوحدة الموضوعية منهما، وضميمة كلام السلف إليهما، وشهود العقل لهما.

٤- أردف هذا باستيلاد أبحاث بسط القول فيها، بما يعزّ نظيره، ومن هذه الأبحاث التي أفترعها، وانفتق ثاقب فكرة عنها:

أ- المصلحة وضوابطها.

ب- القصد في الأفعال وسوء استعمال الحق.

جـ- النوايا بين الحكم والقصد.

د- المقاصد والعقل.

هـ- الغايات العامة للمقاصد.

٥- دعوته الجادة إلى التطبيق العملي بمزج الفروع الفقهية بالمقاصد الشرعية؛ ليستخرج القول الحق فيها.

٦- والكتاب وضعه هذا الإمام؛ ليكون وسيلة إلى فقه الاستنباط، بحذق اللسان، وتشخيص علم المقاصد؛ إلَّا أنه في حقيقته: فقه في الدين، ومثال متميِّز في توظيف الاستقراء الكلي؛ لفهم نصوص الوحيْين، وعلم متكاملٌ بنظام الشريعة وأسس التشريع ومقاصده في مصالح العباد في الداريْن لهذه الوجوه وغيرها؛ بَهَر العلماء، وتسابقوا إليه، وعكفوا عليه.

ولعلَّه في قطره (الغرب الإسلامي) أوَّل منسج في الأصول بركنيْه على هذا الطِّراز، وهو في قطره أول من بسط الكلام على: «علم المقاصد»، ونهض به، وفق مسائله، وشيَّد عمارته، وجال في تفاصيله، وشخَّصها، ولفت الأنظار إلى قواعده الكليَّة، وبَسَطَها، وتعمَّق في بحثها، مناشدًا

باستخراج علل الأحكام، وحكمتها، ومصالحها، وترف أنظار الفقهاء من الخلاف والجدل الفقهي الجامد في الفروعيَّات إلى تطعيمه بالنظر في مقاصد الشارع، وأنها كالحياض الواسعة لهذه الفروعيات والخلافيات فيتقلص ظل الخلاف، وتلتقي الأحكام الاجتهادية ما أمكن في قالب واحد، وفق مقاصدها التي وُضِعت لها، نابعة من مشكاة واحدة، بجامع مقاصد الشريعة الكُلِّية، مُحَقِّقَةً خلود الشريعة وعصمتها، ووحدة أحكامها.

والشاطبي -رحمه الله تعالى- ينصُّ في مقدمته على افتراعه لهذا العلم، أيْ بهذا الاعتبار، كما افترع الإمام الشافعي: «علم أصول الفقه»، والخليل ابن أحمد: «علم العروض»، وابن خلدون: «علم الاجتماع» في «مقدمته»، وهكذا» اهـ.

□ يقول أحمد بابا عن كتاب «الموافقات»: «كتاب «الموافقات» في أصول الفقه كتاب جليل القدر جدًّا لا نظير له، يدلُّ على إمامته وبعد شأوه في العلوم لا سيما علم الأصول، قال الإمام الحفيد ابن مرزوق: كتاب «الموافقات» المذكور من أقبل الكتب»[(١)].

□ وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن الشاطبي هو «الرجل الذي أفرد هذا الفن بالتدوين»[(٢)].

□ وقال ابنه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: «ولقد بنى الإمام الشاطبي حتًّا بهذا التأليف هرمًا شامخًا للثقافة الإسلامية، استطاع أن يشرف منه على مسالك وطرق لتحقيق خلود الدين وعصمته، قلَّ من

---

(١) «نيل الابتهاج» (ص٤٨).

(٢) «مقاصد الشريعة الإسلامية» لمحمد الطاهر بن عاشور (ص٨).

اهتدى إليها قبله، فأصبح الخائضون في معاني الشريعة وأسرارها عالة عليه، وظهرت مزية كتابه ظهورًا عجيبًا في قرننا الحاضر والقرن قبله؛ لما أُشكلت على العالم الإسلامي عند نهضته من كبْوته أوجه الجمع بين أحكام الدين ومستَجدَّات الحياة العصرية؛ فكان كتاب «الموافقات» للشاطبي هو المفزع وإليه المرجع لتصوير ما يقتضيه الدين من استجلاب المصالح، وتفصيل طرق الملاءمة بين حقيقة الدين الخالدة وصور الحياة المختلفة المتعاقبة»[١].

□ ويقول الشيخ علي حسب الله: «وقد جاء أبو إسحاق الشاطبي المتوفى سنة (٧٩٠هـ) في كتابه «الموافقات» بما لم يُسبَق إليه»[٢].

□ وقال الشيخ مصطفى الزرقاء: «ومنذ أن نُشِر كتابه «الاعتصام» في البدع، وكتابه الآخر: «الموافقات» في أصول الشريعة، وكانا من الكنوز الدفينة، أخذ اسم الشاطبي يدور على ألسنة العلماء والفقهاء، وأصبح الكتابان -ولا سيما «الموافقات»- من ركائز التراث الأساسية التي يلجأ إليها أساتذة الشريعة وطلابها المتقدِّمون، تفهُّمًا في دراستهم، وعزوًا وتوثيقًا لأفهامهم فيما يكتبون، ولمع نجم الشاطبي منذئذ بالمشرق في هذا الأفق العلمي، ثم أخذ يزداد سطوعًا حتى أصبح يُستضاء به في بحوث أصول الشريعة ومقاصدها، وتوضَّح الحُجَّة، وتُقام بها فيه المحجة»[٣].

□ ويقول محمد محمود الشنقيطي: «حقُّ هذا الكتاب أن يستنسخ

---

(١) «أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي» (ص٧٦).
(٢) «أصول التشريع الإسلامي» للشيخ علي حسب الله (ص٧).
(٣) تقديم «فتاوىٰ الشاطبي» (ص٨).

ويُطبع في بلاد المسمين لاحتياجهم إليه»[١] .

□ ويتمنَّى الشيخ عبد الله دراز أنْ «لو اتُّخِذ كتاب «الموافقات» منارًا للمسلمين، بتقريره بين العلماء، وإذاعته بين الخاصة؛ لتكون منه مذبَّة تطرد أولئك الأدعياء المتطفِّلين على موائد الشريعة المطهرة».

وذهب رشيد رضا إلى أن الشاطبي يُعَدُّ بكتاب «الموافقات» نظيرًا لابن خلدون في «المقدمة» فكلاهما ابتدع من التأليف ما لم يُسبَق إليه، كما أنهما انتهيا إلى وضع واحد هو أن الأمة الإسلامية التي ابتدع لها هذان العبقريَّان كتابيهما، أو علميْهما الجديديْن، لم تُقبل على إبداعهما العجيب، ولم تنتفع به»[٢] .

□ يقول الشاطبي: «فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض الإنكار، وعمى عنك وجه الاختراع فيه والابتكار، وغرّ الظان أنه شيءٍ ما سُمِع بمثله، ولا أُلِّف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نُسِج على منواله، أو شُكِّل بشكله، وحسبك من شرٍّ سماعه، ومن كل بدع في الشريعة ابتداعه –فلا تلتفت إلى الأشكال دون اختبار- ولا ترم بمظنة الفائدة على غير اعتبار»[٣] .

□ يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيها الباحث عن حقائق أعلى العلوم، الطالب لأسنى نتائج الحلوم، المتعطِّش إلى أحلى موارد الفُهوم، الحائم حول حِميً ظاهر المرسوم، طمعًا في إدراك باطنه الرقوم، معاني مرتوقةٍ في

---

(١) «أشهر الكتب العربية بخزائن دولة أسبانيا» (ق٢١).

(٢) مقدمة «الاعتصام» (١/ ٤).

(٣) «الموافقات» (١/ ١٢- ١٣).

فَتْق تلك الرسوم؛ فإنه قد آن لك أن تُصغيَ إلى من وافق هواك هواه، وأن تُطارح الشَّجَى مَن مَلَكه -مثلك- شجاه، وتعودَ -إذْ شاركته في جَوَاه- محلَّ نجواه، حتى يبثَّ إليك شكواه، لتجري معه في هذا الطريق من حيث جرى، وتسري في عيشه الممتزج ضوؤه بالظُّلمة كما سَرَى، وعند الصباح تحمد إن شاء الله عاقبة السرى.

فلقد قطع في طلب هذا المقصود مَهامِهَ فِيحا، وكابد من طوارق طريقه حسنًا وقبيحًا، ولاقى من وجوهه المعترضة جَهْمًا وصَبيحًا، وعانى من راكبته المختلفة مانعًا ومبيحًا، فإن شئت ألْفيته لتعب السير طليحًا، أو لما حالف من العناء طريحًا، أو لمحاربة العوارض الصَّادَّة جريحًا؛ فلا عيش هنيئًا، ولا موت مريحًا»[1].

□ ويقول عن كتابه: «وعند ذلك فحقَّ على الناظر المتأمِّل، إذا وجد فيه نقصًا أن يُكمِل، وليحسِن الظن بمن حالفَ الليالي والأيام، واستبدل التعب بالراحة والسهر بالمنام؛ حتى أهدى إليك نتيجة عُمْره، ووهب لك يتيمة دهره»[2].

«الاعتصام» للشاطبي:

وللشاطبي كتاب «الاعتصام» وهو من أجل الكتب التي تناولت موضوع البدع وحرّرت الكلام في مسائلها، فقد بحثها بحثًا علميًّا وسبرها بمعيار الأصول الشرعية.

□ ولكنه لم يتم هذا الكتاب الهام، وما أنجزه منه جاء ممتعًا مفيدًا

---

(١) «الموافقات» (١/ ٧- ٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٣).

منحصرًا في عشرة أبواب هي التالية:

«**الباب الأول**: في تعريف البدع ومعناها.

الثاني: في ذم البدع وسوء منقلب أهلها.

الثالث: في أن ذم البدع والمحدثات عام وفيه الكلام على شبه المبتدعة، ومن جعل البدع حسنة وسيئة.

الرابع: في مأخذ أهل البدع في الاستدلال.

الخامس: في البدع الحقيقية والإضافية والفرق بينهما.

السادس: في أحكام البدع وأنها ليست على رتبة واحدة.

السابع: في الابتداع، يختص بالعبادات أم تدخل فيه العادات؟

الثامن: في الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان.

التاسع: في السبب الذي لأجله افترقت فرق المبتدعة عن جماعة المسلمين.

العاشر: في الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه المبتدعة»[(١)].

لقد وضّح الإمام الشاطبي البدع، وفرّق وميّزها عن السنن المشروعة.

□ وقد شهد له ببلوغ شأوٍ بعيد في ذلك بعض الأعلام المؤرخين لثقافتنا الإسلامية مثل أبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي الذي يقول: «للأستاذ أبي إسحاق الشاطبي في تلخيص هذا الأصل من شوائب ما يكدر صفوَهُ اليدُ الطولَى والسعيُ الذي لا يؤدي شكره إلَّا من عرف قدر ما يسَّرَ الله من ذلك على يديه، فجزاه الله عن الإسلام خيرًا».

□ وللشاطبي «شرح جليل على الخلاصة في النحو» يقع في أربعة

(١) انظر مقدمة السيد محمد رشيد رضا.

أسفار كبار، يقول أحمد بابا: «لم يُؤَلَّف عليها مثله بحثًا وتحقيقًا فيما أعلم»[1].

□ وكُتب الشاطبي وأخص «الموافقات» و«الاعتصام» بحر أبحر تغرق فيه البحار، ويرشف الأنهار، بحار لا ساحل لها، تموج بالدرر، وتفضل كثيرًا من المؤلفات يزهو الزهر والثمر، وبفخامة الأسرار التي تفني في استيعابها وسبْر غورها الأعمار، مُبَيِّنة للدقائق، معلمة للشرائع والحقائق.

□ والله إن الشاطبي هو أوْلى الناس بما قاله هو في مدح كتاب «الشفا» للقاضي عياض إذ يقول:

يــا مــن ســما لِمَراقــي المَجْــد مَقْــصَدُه
فنَفْـسُهُ بنفــيس العِلْــم قــد كلفــت

هــذي ريــاضٌ يــروق العقــل مخبَرُهــا
هــي «الــشِّفا» لنفــوس الخلـق إن دفنـت[2]

□ ونختم بما قاله العلَّامة محمد رشيد رضا في مقدمة كتاب «الاعتصام» للشاطبي، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلماء المستقلون في هذه الأمة ثلَّةٌ من الأوَّلين، وقليلٌ من الآخرين، والإمام الشاطبي من هؤلاء القليل، وما رأينا من آثاره إلَّا القليل، رأينا كتاب «الموافقات» من قبل، ورأينا كتاب «الاعتصام» اليوم من هذا القليل فأنشدنا قول الشاعر:

قليلٌ منك يكفيني ولكنْ قليلُك لا يُقال لـه قليـلُ

□ ادخل دار الكتب الخديوية، وارم ببصرك إلى الألوف من المصنَّفات

(١) «النيل» (ص٤٨).

(٢) «الإفادات والإنشادات» للشاطبي (ص١٥١- ١٥٢).

في خزائنها، تر أن كثرتها قلّة، وكثيرها قليل؛ لأن القليل منها هو الذي تجد فيه علمًا صحيحًا لا تجده في غيره؛ لأنه مما فتح الله به على صاحبه دون غيره. وقد كان كتاب «الاعتصام» من هذا القليل، فأحسنت نظارة المعارف إلى الأمة الإسلامية كلها بإجابة مجلس إدارة دار الكتب الخديوية إلى طبعه»، ثم قال: «وقد كتب كثير من العلماء في البِدَع، وكان أكثر ما كتبوا في الترهيب والتفير، والردَّ على المبتدعين، ولكن الفِرَق التي يريد بعضها على بعض يدَّعي كل منها أنه هو المحق، وأن غيره الضال المبتدع؛ إمَّا بالإحداث في الدين، وإمَّا بجهل مقاصده، والجمود على ظواهره، وما رأينا أحدًا منهم هُدِيَ إلى ما هُدِيَ إليه «أبو إسحاق الشاطبي» من البحث العلمي الأصولي في هذا الموضوع وتقسيمِه إلى أبواب يدخل في كل واحدٍ منهما فصول كثيرة.

لولا أن هذا الكِتاب أُلِّف في عصر ضعف العلم والدين في المسلمين لكان مبدأ نهضة جديدة لإحياء السُّنَّة، وإصلاح شؤون الأخلاق والاجتماع، ولكان المصنِّف بهذا الكتاب وبصِنوه كتاب «الموافقات» الذي لم يسبق إلى مثله سابق أيضًا — من أعظم المجدِّدين في الإسلام..»، ثم قال: «كتاب «الموافقات» لا نِدَّ له في بابه «أصول الفقه وحكم الشريعة وأسرارها»، وكتاب «الاعتصام» لا نِدَّ له في بابه، فهو ممتع مشبع — وإن لم يتمه المصنف — رحمه الله تعالى —» اهـ.

✍ فيا للشاطبي من إمام مجدد أعطاه الله من نور البصيرة، وغزارة العلم، وقوة العارضة، وفصيح العبارة ما أعطاه.. حاله مع حال أهل عصره كما يقول القائل:

غزلْتُ لهم غزْلًا دقيقًا فلم أجدْ لغزلي نسَّاجا فكسَّرْت مغزلي

٢- العلامة محمد بن إبراهيم .. المعروف بابن الوزير اليماني:

هو الإمامُ المجتهد المطلق، المفسِّرُ الحافظُ المحدِّث، العلَّامة المُتقِنُ، الأُصولي الفقيه الحُجَّة، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضَى بن المفضَّل ابن منصور.. اشتُهر بابن الوزير اليمني الصنعاني.

وُلد في شهر رجب عام (٧٧٥ هـ) بـ«هجر الظَّهروايين من شظب».

تلقَّى العلمَ عن طائفةٍ من العلماء:

فأخذ العربية عن الهادي بن إبراهيم الوزير، ومحمد بن حمزة بن مظفر.

وأخذ علم الكلام عن علي بن عبدالله بن أبي الخير اليمني.

وأخذ التفسير عن علي بن محمد بن أبي القاسم .

وأخذ الفقه عن عبدالله بن حسن الدواري وغيره من مشايخ صعدة.

وأخذ علم الحديث عن علي بن عبدالله بن ظهيرة بمكة المكرمة، وفي غيرها عن نفيس الدين العلوي.

ومن شيوخه أيضًا: الناصر بن الإمام المطهر الحسني.. ودرس على جماعة عدة.

وقد تلمذ له الكثيرُ من العلماء، وتسابقوا على ورود مشرعِه الصافي والموردِ العذب كثير الزحام، ونذكر من مشهوري تلاميذه:

محمد بن عبدالله بن الهادي الوزير، والإمام الناصر صلاح الدين محمد ابن علي بن محمد، وعبدالله بن محمد بن المطهر، وعبدالله بن محمد بن سليمان الحمزي.

□ قال عنه الإمام الشوكاني: «هو ممن يقصُرُ القلمُ عن التعريف بحاله، وكيف يمكنُ شرحُ حالِ مَن يُزاحِمُ أئمَّةَ المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم ، ويُضايقُ أئمة الأشعرية والمعتزلة في

مقالاتهم، ويتكلمُ في الحديث بكلام أئمته المعتبرين، مع إحاطته بحفظِ غالبِ المتون، ومعرفته لأحوال رجال الأسانيد شخصًا وحالًا وزمانًا ومكانًا، وتبحُّرِه في جميع العلوم العقلية والنقلية على حدٍّ يقصر عنه الوصف، ومَن رام أن يعرف حالَه ومقدار علمِه، فعليه بمطالعةِ مصنَّفاته، فإنها شاهدُ عدلٍ على علو طبقته، فإنه يسرُدُ في المسألة الواحدة من الوجوه ما يُبهِرُ لُبَّ مُطالِعه، ويُعرِّفُه بقِصَرِ باعه بالنسبة إلى علم هذا الإمام، كما يفعله في «العواصم والقواصم»، فإنه يورد كلام شيخِه السيد العلَّامة علي بن محمد بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه، ثم ينسفُه نسفًا بإيراد ما يزيِّفُه به من الحُجَجِ الكثيرة التي لا يجدُ العالِمُ الكبيرُ في قوته استخراجَ البعض منها، وهو في أربعة مجلدات[١] يشتملُ على فوائدَ في أنواع من العلوم لا توجدُ في شيءٍ من الكتب، ولو خَرج هذا الكتاب إلى غير الديار اليمنية، لكان من مفاخر اليمن وأهله، ولكن أبى ذلك لهم[٢] ما جُبلوا عليه من غَمطِ محاسن بعضهم لبعض، ودفنِ مناقب أفاضلهم.

ومن شعر الإمام ابن الوزير -عليه الرحمة-:

العلمُ ميراثُ النبيِّ كذا أتى ... في النصِّ والعلماءُ هُمُ وُرَّاثُهْ

فإذا أردتَ حقيقةً تدري لمن ... ورَّاثه وعرفت ما ميراثُه

ما وَرَّث المختارُ غيرَ حديثِه ... فينا فذاك متاعُهُ وأثاثُهْ

فلنا الحديثُ وراثةً نبويةً ... ولكلِّ مُحدِثٍ بدعةٍ إحداثُهْ

---

(١) وهو الآن مطبوع في تسعة مجلدات بتحقيق العلاّمة المحدث شعيب الأرنؤوط.

(٢) أي: أهل الحسد.

وكان إذا تكلَّم في مسألةٍ لا يحتاجُ الناظرُ بعده إلى النظر في غيره من أيِّ علم كانت، وقد وقفتُ من مسائله التي أَفردها بالتصنيف على عددٍ كثير تكونُ في مجلَّد، وما لم أقف عليه أكثرُ مما وقفتُ عليه، وكلامه لا يُشبِهُ كلامَ أهلِ عصره، ولا كلامَ مَن بعده، بل هو من نَمط كلامِ ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثيرٍ من المباحث بفوائدَ لم يأتِ بها غيرُه -كائنًا مَن كان-، وديوانُ شعره مجلد، وشعرُه أغلبُه في التوسلات والرقائق وتقييدِ الشوارد العلمية، والمجاوبةِ لمن امتُحن به من أهل عصره، فإن له معهم قلاقلَ وزلازل، وكانوا يثُورون عليه ثورةً بعد ثورة، ويَنظِمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخُه -المتقدِّمُ ذِكره [(١)]- برسالةٍ مستقلَّة، فأجابه بما تقدَّم، وكان يُجاوبُهم ويُصاوِلُهم ويُجاولُهم، فيقهرهُم بالحجة، ولم يكن في زمنه مَن يقومُ له لكونه في طبقةٍ ليس فيها أحدٌ من شيوخه -فضلًا عن معارضيه-، والذي يغلِبُ على الظن أن شيوخَه لو جُمعوا جميعًا في ذاتٍ واحدة، لم يبلغ علمُهم إلى مقدارِ علمه، وناهيك بهذا.

ثم بعد هذا انجمع، وأقبل على العبادة، وتمشيخ، وتوحَّش في الفلوات، وانقطع عن الناس، ولم يَبْقَ له شغلٌ بغير ذلك، وتأسَّف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه، ومع أنه في جميعها مشغولٌ بالتصنيف والتدريس والذبِّ عن السنة، والدفعِ عن أعراض أكابر العلماء وأفاضلِ الأمة، والمناضلةِ لأهل البدع ونشرِ علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرضٍ لم يألفْ أهلُها ذلك، لا سيما في تلك الأيام، فله أجرُ العلماء العاملين وأجرُ المجاهدين المجتهدين، ولكنه

(١) أي: علي بن محمد بن محمد.

ذاق حلاوةَ العبادة، وطعمَ لذة الانقطاع على جنابِ الحق، فصغُر في عينيه ما سوى ذلك.

وقد ترجمه بعضُ بني الوزير في كراريس، واستوفى أحواله، ولو ترجمه في مجلدٍ لم يكن وافيًا بحقِّه، وترجمه أيضًا جماعةٌ من علماء الزيدية ومن غيرهم، كالوجيه العطاب اليمني والشريف الفاسي المالكي في كتابه «العقد الثمين» الذي جعله تأريخًا لمكة، والبريهي.. ومدحه غيرُ واحدٍ من أعيان العلماء.

والحاصلُ أنه رجلٌ عرفه الأكابر، وجَهِله الأصاغر، وليس ذلك مختصًّا بعصره، بل هو كائنٌ فيما بعده من العصور إلى عصرنا هذا، ولو قلت: «إن اليمن لم يُنجِبْ مثلَه» لم أُبعد عن الصواب، وفي هذا الوصف ما لا يُحتاج معه إلى غيره.

وما أحسنَ قوله في معاتبة شيخه المتقدِّم ذِكرُه:

عرفتَ قدْري ثم أنكرتَه	فما عدا باللهِ مما بدا؟
وكلَّ يوم لك بي موقفٌ	أسرفتَ في القول بسوءِ البِدا
أمسِ الثنا واليومَ سوءُ الأذى	يا ليت شعري كيف تَضحى غدًا
يا شيبةَ العترةِ في وقته	ومنصبَ التعليم والاهتدا
قد خَلع العلمُ رداءَ الهدى	عليك والشيبُ رداءَ الردى
فصُنْ ردائيك وطهِّرْهما	عن دنسِ الإسراف والاعتدَا»

مؤلفاته:

١- العواصم والقواصم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم.. وهو أعظم كتبه وأفضلها.

٢- البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع. (مطبوع)

٣- التأديب الملكوتي. (مخطوط)

٤- التحفة الصفية في شرح الأبيات الصوفية. (مخطوط)

٥- الأمر بالعزلة في آخر الزمان. (مخطوط)

٦- إيثار الحق على الخلق. (مطبوع)

٧- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان. (مطبوع)

٨- تنقيح الأنظار في علوم الآثار. (مطبوع)

٩- الحسام المشهور. (مخطوط)

١٠- واضحة المناهج وفاضحة الفوالج. (مخطوط)

١١- حصر آيات الأحكام الشرعية. (مخطوط)

١٢- الروض الباسم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم. (مطبوع)

١٣- قبول البشرى بالتيسير لليسرى. (مخطوط)

١٤- القواعد. (مخطوط)

١٥- مجمع الحقائق والرقائق في ممادح رب الخلائق. (طبع مختارات منه)

١٦- نصر الأعيان. (طبع مختارات منه)

١٧- التفسير النبوي. (مخطوط)

□ هذا وقد قال عنه صاحب «مطالع البدور»: «ترجم له الطوائف، وأقرَّ له المُوَالف والمخالف».

□ ومن كلامه العذب رَحِمَهُ اللَّهُ: ما قاله في مقدمة كتابه «الروض

الباسم»: «أما بعد، فإن اللهَ لما اختار محمدًا ﷺ رسولًا أمينًا، ومعلِّمًا مُبينًا، واختار له دينًا قويمًا، وهداه صراطًا مستقيمًا، ارتضاه لجميع البشر إمامًا، وجعله للشرائع النبوية ختامًا، وأقسم في كتابه الكريم تبجيلًا له وتعظيمًا، فقال عزَّ قائلًا كريمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

ثم إنه عز وجل أثار أشواق العارفين إلى الاقتداء برسوله بكثرةِ الثناء عليهم في تنزيله، مثل قوله في التعظيم له والتبجيل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، الشاهدة لمتبعيه بالطريقة القويمة، فلما وعت هذه الآياتِ آذانُ العارفين، وتأمَّلتها قلوبُ الصادقين، حرَصوا على الاقتداء به في أفعاله، والاستماع منه في أقواله، فكانوا له أتبعَ من الظل، وأطوعَ من النعل، فعلَّمهم أركانَ الإسلام وشرائعه وفرائضه ونوافله، وكان بهم رؤوفًا رحيمًا، وعلى تعليمهم حريصًا أمينًا، كما وصفه ربُّ العالمين، حيث قال في كتابه المبين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

فلم يزلْ ﷺ يُرشِدُهم إلى أفضل الأعمال، ويَهديهم إلى أحسن الأخلاق، ويُلزِمُهم ما فيه النجاةُ والفوز في الآخرة والسلامةُ والغبطةُ في الدنيا، من لزوم الواجب والمسنون ومجانبة المكروه وترك الفضول، فلم يترك خيرًا قطُّ إلا أمَرهم به ففعلوه، ودعاهم إليه فأجابوه، حتى لم يكن في زمانه شيءٌ من أعمال البر متروكًا، ولا منهجٌ من مناهج الخير إلَّا مسلوكًا،

فلما تمَّ ما أراد اللهُ تعالى برسوله من هدايةِ أهل الإسلام، وبلَّغ إلى الأنام جميعًا ما عنده من الأحكام من العقائد والآداب والحلال والحرام، أنزل الله في ذلك تنصيصًا وتبيينًا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فكمَّل الدين في ذلك الزمان، ووَضَحت الحُجَّةُ والبرهان، ودُحضت وساوس المشتبهين، وانحسمت قوادحُ المبطلين، إذ لا حُجَّةَ على الله -بعد الرسل- لأحدٍ من العالمين بنصِّ كتابه المبين».

▫ وقال يصفُ أحاديثَ الرسول ﷺ: «فإنه عِلمُ الصدر الأول، والذي عليه -بعد القرآن- المعوَّل، وهو لعلومِ الإسلام أصلٌ وأساس، وهو المفسِّرُ للقرآن بشهادة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٤٤]، وهو الذي قال اللهُ فيه تصريحًا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، وهو الذي وصفه الصادقُ الأمين بمماثلة القرآن المبين، حيث قال في التوبيخ لكل مُتْرَفٍ إِمَّعة: «إني أُوتيتُ القرآنَ ومِثلَه معه»، وهو العلمُ الذي لم يشارِك القرآنَ سواه في الإجماع على كفر جاحدِ المعلوم من لفظه ومعناه، وهو العلم الذي إذا تجاثت الخصومُ للركب، وتفاوتت العلوم في الرتب، أصمَّت مرنانُ نوافله كلَّ مناضل وأصمَتَ برهانُ معارفه كلَّ فاضل، وهو العلم الذي ورَّثه المصطفى المختار والصحابةُ الأبرار والتابعون الأخيار.

وهو العلم الفائضةُ بركاتُه على جميع أقاليم الإسلام، الباقيةُ حسناته في أمر الرسول عليه السلام، وهو العلمُ الذي صانه اللهُ عن عبارات الفلاسفة، وتقيَّدت عن سلوك مناهجه، فهي راسفةٌ في الفلا آسِفة، وهو العلمُ الذي جلَّى الإسلامُ به في ميدان الحجة وصلَّى، وتجمَّل بديباج ملابسه من صام لله وصلَّى، وهو العلم الفاصلُ حين تلجلُجِ الألسنة

بالخطاب، الشاهدُ له بالفضل رجوع عمر بن الخطاب، وهو العلمُ الذي تفجَّرت منه بحارُ العلوم الفقهية والأحكام الشرعية، وتزينت بجواهره التفاسيرُ القرآنية، والشواهد النحوية، والدقائق الوعظية، وهو العلمُ الذي يسلكُ بصاحبه نهجَ السلامة ويوصِّلُه إلى دار الكرامة، والساربُ في رياض حدائقه، الشاربُ من حياض حقائقه، عالمٌ بالسنة، ولابسٌ من كل صوف جُنَّة، وسالكُ مِنهاج الحق إلى الجَنَّة، وهو العلمُ الذي يرجعُ إليه الأصولي -وإن برز في علمه-، والفقيه -وإن برز في ذكائه وفهمه-، والنحوي -وإن برز في تجويد لفظه-، واللغوي -وإن اتسع حفظُه والواعظُ المبصر، والصوفي والمفسر.. كلُّهم إليه راجعون، ولرياضه منتجعون».

وكانت وفاة الإمام ابن الوزير -تغمَّده الله بغفرانه- في السابع والعشرين من شهر محرم سنة أربعين وثمانمئة (٨٤٠)[١].

٣- العلاَّمة مرتضى الزَّبيدي اليمني: (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ - ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م):

هو الإمام محمدُ بنُ محمد بن محمد بن عبدالرزَّاق الحُسينى الزَّبيدى، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، كان علاَّمةً باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنِّفين.

أصلُه من واسط (في العراق)، ومولده بالهند (في بلجرام)، ومنشأه في «زَبيد»[٢] (باليمن).. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتُهر فضله، وانهالت عليه الهدايا والتحف، وكاتَبه ملوكُ الحجاز والهند واليمن والشام

(١) هذه الترجمة مأخوذة من «البدر الطالع» (٦٤٤ : ٦٤٧)، ومقدمة «العواصم والقواصم» بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) بفتح الزاي.

والعراق والمغرب الأقصى والترك والسودان والجزائر.

وزاد اعتقادُ الناس فيه، حتى كان في أهل المغرب كثيرون يزعمون أن مَن حَجَّ ولم يزُر الزَّبيدى ويَصِلْه بشيءٍ لم يكن حَجُّه كاملًا [1]!.

من مؤلفاته:

١- تاج العروس في شرح القاموس.

٢- إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي.

٣- أسانيد الكتب الستة.

٤- عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبى حنيفة.

٥- كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام.

٦- رفع الشكوى وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب.

٧- معجم شيوخه.

٨- ألفية السند -في الحديث- ١٥٠٠ بيت، وشرحها.

٩- مختصر العين في اللغة، اختصر به كتاب «العين» المنسوب للخليل ابن أحمد.

١٠- التكملة والصلة والذيل للقاموس.

١١- إيضاح المدارك بالإفصاح عن العواتك.

١٢- عقد الجمان في بيان شعب الإيمان.

١٣- تحفة القماعيل، في مدح شيخ العرب إسماعيل.

١٤- تحقيق الوسائل لمعرفة المكاتبات والرسائل.

---

(١) هذا غلوٌّ مرفوض.

١٥- جذوة الاقتباس في نسب بني العباس.

١٦- حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق .

١٧- الروض المعطار في نسب السادة آل جعفر الطيار.

١٨- مزيل نقاب الخفاء عن كنى سادتنا بني الوفاء.

١٩- بُلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب.

٢٠- تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير.

٢١- سفينة النجاة المحتوية على بضاعة مزجاة من الفوائد المنتقاة.

٢٢- غاية الابتهاج لمقتفي أسانيد مسلم بن الحجاج.

٢٣- عقد اللآلي المتناثرة في حفظ الأحاديث المتواترة.

٢٤- نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح.

٢٥- العرائس المجلوة في ذكر أولياء فوة .

وكان -عليه رحمة الله- يحسن التركية والفارسية، وبعضًا من لسن الكرج.

وهو من الخمسة الذين وصفهم العلَّامة محمود شاكر بأنهم حامِلو رايةِ الإصلاح الديني، بدايةً من منتصف القرن الحادي عشر الهجري إلى منتصف القرن الثاني عشر [(١)].

والناظر في مؤلَّفات الإمام الزَّبيدي -عليه رحمة الله- يدرك أنه كان بحرًا لا تُكدِّرُه الدِّلاء، وإذا لم يكن له إلا «تاج العروس» و«إتحاف السادة

---

(١) رسالة «في الطريق إلى ثقافتنا» (٨٢) للعلامة محمود شاكر، والمطبوع في أول كتابه «المتنبي».

المتقين» لكفاه شرفًا ودليلًا على علو همته وذكائه المفرط.

تُوفِّي بالطاعون في مصر سنة (١٢٠٥هـ).. رحِمه الله رحمةً واسعة[١].

٤- الإمام جمال الدين أبو الحسن عليُّ بن يوسف القِفْطي.. العلَّامة النحوي:

وُلد أبو الحسن في «قِفْط» سنة (٥٦٨ هـ)، وقَضى بها شطرًا من طفولته، ثم ذهب إلى القاهرة، وتعلَّم بمدارسها، وأخذ عن شيوخها وعلمائها، ثم عاد إليها في ربيع شبابه، وقضى بها حِقبةً من الزمن، نَهل من مواردِ العلم وقَبَسَ من ضياء المعرفة، وتخرَّج على مَن كان بها من العلماء.

وأبوه «يوسف بن إبراهيم» -الملقب بالقاضي الأشرف-، كان كاتبًا ناصع البيان، متصرِّفًا في ضروب الإنشاء، حَسَنَ الترسُّل، مليحَ الخط، وُلد بـ«قِفط» سنة (٥٤٨ هـ)، وقَضى بها صدرًا من حياته، نابِهَ الذكر، مرعيَّ المكانة، ساميَ الرتبة.

ولـمَّا نَشَبت الفتنةُ بها[٢]، وأعلن أهلُها خروجَهم على السلطان صلاح الدين الأيوبي، نَزَح عن البلاد طلبًا للعافية وإيثارًا للسلامة، ثم ذهب إلى القاهرة، واتَّصل بالملوك الأيوبيين، فأنزلوه منزلةً كريمة، وولَّوه أعمالًا بالصعيد، ثم بلبيس وبيت المقدس، وناب عن القاضي الفاضل

---

(١) ترجمة العلامة الزَّبيدي معظمها من «الأعلام» للزِّركلي (٧/ ٧٠).

(٢) وقعت الفتنة بـ قِفط سنة (٥٧٢هـ)، وذلك أن دعيًّا من بني عبدالقوي ادَّعىٰ أنه داود بن العاضد الخليفة الفاطمي، واجتمع الناسُ عليه، فبعث السلطانُ صلاحُ الدين أخاه الملك العادل علىٰ جيش، فقتَل من أهل «قِفط» ثلاثةَ آلاف، وصلَبهم علىٰ الشجرة بعمائمهم وطيالستهم.. انظر: «خطط المقريزي» (١/ ٣٧٦).

بحضرة صلاح الدين.

ولما مَلَك «العادلُ» الشام، لم تَطِبْ للقاضي الأشرف الإقامةُ ببيت المقدس، وغادرها إلى «حَرَّان»، وهناك استوزره الملكُ الأشرف موسى بن العادل، ثم استأذنه في الحج، فأذِن له على أن يعود، ولكنه امتنع من العَود، وذهب إلى اليمن، فاستوزره «أتابك سُنقر»، وأقام في الوزارة زمنًا، ثم بدا له أن ينقطعَ عن خدمة الملوك، فذهب إلى «ذي جبلة»[1]، وآثَرَ العُزلةَ عن الناس، والإخلادَ إلى الوحدة، فأقام بها منفردًا بنفسه، بعيدًا عن الخاصة والعامة إلى أن تُوفِّي سنة (٦٢٤ هـ).

وكانت القاهرة حين وفد «القِفطي» إليها معمورةً بالمدارس، مأهولةً بالعلماء، زاخرةً بالكتب، فأخلى ذَرْعَه للدرس، وقَصَر نفسه على العلم، وأحاط منه بقدْرٍ صالح كبير، ولَقِيَ كثيرًا من العلماء، وأخذ عنهم، وكان ممن لقيه: محمدُ بن محمد بن بُنان الأنباري، وكان شيخًا فاضلًا عالمًا، تصدَّر للإقراء، فلزِمه وأخذ عنه سماعاته، وأجازه في رواياتِه، وسمع منه كتاب «الصِّحَاح» للجَوهري.

وترامت إليه أخبارُ «أبي طاهر السِّلَفي» -نزيل الإسكندرية وعالمها في ذلك الحين-، فارتحل إليه، وانتظم في حلقةِ الطلّاب الذين وفدوا عليه من أطراف البلاد، وكان صغيرًا في ذلك الحين، إلَّا أنه أفاد منه، وتحدَّث عنه في كتاب «إنباه الرواة».

ثم عاوده الحنينُ إلى وطنه، واشتاق إلى ملاعب طفولته ومَنبتِ أهلِه وعشيرته، فسافر إلى «قِفط»، وكان قد اكتمل عقلُه، وأوفى على الغايةِ استعدادُه، وهناك خالط علماءها، وناظَر أدباءها، والتقى بـ«صالح بن

(١) ذو جبلة: من مُدن اليمن.. وكانت من أحسن مدن اليمن وأنزهها وأطيبها.

عادي العذري» نزيلها.

وكان ابنُ عادي ممَّن حذق النحو، وتقصَّى مسائله، وجمع أشتاته، وأحاط بأصوله وفروعه، ونقَّب عن مقيسه وشاذِّه، فلزمه واستفاد منه، وحمل عنه علمًا كثيرًا.

ثم عاد إلى القاهرة ليقضي بها مدةً قصيرة، ويرحلَ عنها فلا يعود.

ففي سنة (٥٩١ هـ) سافر أبوه إلى بيت المقدس واليًا عليها من قبل المِلك العزيز عثمان بن صلاح الدين، فصَحِبه في سفره، ونزل معه ببيت المقدس، وطاب له المُقامُ فيها زمانًا، وهناك عايش أهلَها، ولابس رجالها، ولقي عندهم جوارًا كريمًا، ومنزلًا طيبًا، ولقُوا منه رجلًا محمود الصحبة، جميلَ العشرة ، لطيفَ الطبع، أديبًا بارعًا عذبَ الموارد، وعالمًا فاضلًا جمَّ الفوائد، يتجمَّلُ بالخُلق الكريم والطبع السَّرِيِّ النبيل، فأحبهم وأحبُّوه، واطمأن إليهم واطمأنوا إليه، ثم رغِبوا إليه في أن يتولَّى شيئًا من أمور المُلك، فأبى عليهم، وآثر أنديةَ العلم ومجامعَ الأدب والفضل، وزَهِد في مجالس الحكم وديوان السلطان.

وعَصَفت ببيت المقدس أقدارٌ، وتقلَّبت عليها أهوال، وانتهت إلى أن دخلت في حَوزة الملكِ العادل ووزيره «ابن شكر»، ولم يكن أبوه -القاضي الأشرف- من شيعة العادل، ولا ممن يوادُّون ابنَ شكر، فتوجَّس منهما خِيفةً، وخرج منها بليلٍ، وذهب إلى حرَّان، وعندئذ تعذَّر على القِفطي المُقامُ بعد أبيه، ونبا به المَنزل، فترك بيت المقدس، وقصد إلى حَلَبَ مع من قصد إليها.

وكان السلطانُ «صلاح الدين» أعطى ولايةَ حلب لابنه الملك غازي المعروف بـ «الظاهر» في حياته، ثم ظلَّت في حكمه بعد وفاة أبيه، وتوارثها

أولاده من بعده، فكانت بعيدةً عن الفتن التي شجرت بين خلفاء صلاح الدين، والحالُ فيه خيرٌ من الحال في مصر والعراق وبقيةِ بلاد الشام، فازدهرت فيها الآداب، وأينعت العلوم، ورحَل إليها العلماء، مما طابت له نفسُ القفطي، ووافق هواه، ووجد المكانَ الذي يطمئنُّ له العيشُ فيه.

وفي صدر أيامه بحلب كان مصاحبًا لميمون القصري صديق أبيه، ورفيقِه في الرحلة إلى حلب، وأحدِ الولاة الذي صار لهم نصيبٌ من السلطان، فلازمه على سبيل الصداقة والمودة -لا على سبيل العمل والخدمة-، وفي هذه المدة اجتمع بجماعةٍ من العلماء المقيمين بحلب والواردين عليها، واستفاد بمحاضرتهم، وفقُه بمناظرتهم، ثم جدَّ في شراء الكتب، وسعى في اقتنائها وجلبها، واستطارت شهرتُه بذلك في الآفاق، وتوافد عليه الورَّاقون والناسخون وباعةُ الكتب، كما توافد عليه العلماء والشعراء وذوو الفضل، وكان ممَّن وفد إليه في ذلك الحين «ياقوت بن عبدالله الحَمَوي» -صاحب «معجم الأدباء»-، فآواه إلى ظلّه، وأنزله في داره، وأفرد له مكانًا من مجلسه، وعرف فيه ياقوتُ الفضلَ والعلم، فأذاع بفضله في كلِّ محفل، ورَوى عنه فيما صنف من الكتب، وأهدى إلى خزانته كتابَه «معجم البلدان».

وبينما كان القِفطي مطمئنًّا إلى هذه الحياة الهادئة الخصيبة، يُجالسُ العلماء، ويأخذُ عنهم ويأخذون عنه، ويقتني الكتب، ويقرؤها، ويستوعب ما فيها، ويُحصِّلُ العلوم، ويؤلِّف في شتى نواحيها، وإذا بميمون القصري يموت وزيرُه، فيُلزِمُه أن يَحُلَّ مكانه، فيَقبلُ على كُرهٍ.

□ وفي ذلك يقول ياقوت [1]: «ألزمه ميمونُ القصريُّ خِدمته والاتسام

(١) «معجم الأدباء» (١٥/ ١٨٥).

بكتابته، ففعل ذلك على مضضٍ واستحياء، ودبَّر أموره أحسن تدبير، وساس جُنده أحسنَ سياسة، وفرَّغ باله من كل ما يُشغَلُ به بال الأمراء، وأقطع الأجنادَ إقطاعاتٍ رضُوا بها، وانصرفوا شاكرين له.. لم يُعرف عنه منذ تولَّى أمره إلى أن مات ميمون القصري جنديٌّ اشتكى أو تألَّم، وكان وجيهًا عند ميمون المذكور، يحترمه ويُعظِّمُ شأنَه، ويتبرَّكُ بآرائه إلى أن مات ميمون سنة (٦١٠)».

وعندئذ عاد إلى منزله، والتزم العزلةَ أكثر من عام، يُطالِعُ ويَنسخُ ويستفيد، ولكنه أُلزم بالخدمة مرةً أخرى، فظلَّ متوليًا أمورَ الديوان حتى مات الملك غازي سنة (٦١٣)، وتولَّى المُلْكَ ابنُه «العزيز»، فعاد إلى داره، ومكث ملتزمًا الخَلوة والبعد عن السلطان، وشهابُ الدين طُغريل -وزير العزيز- يُجري عليه رُزقًا يستعينُ به على الانقطاع والخلوة، إلى أن كانت سنة (٦١٦)، حيث ألزمه الأميرُ تولِّيَ أمور الديوان، فلم يجد من قبول ذلك بُدًّا.

وطالت أيامُه في هذه المدة، فإنه ظلَّ من سنة (٦١٦) إلى سنة (٦٢٨) يسوسُ الأمور أحسنَ سياسة، ويَنصحُ للأمير، ويرعى مصالحَ الرعية.

• روى عنه ياقوت: «أنه مرَّ في طريقة بصعلوكٍ شكا إليه أنه قد اتُّهم بسرقةِ المِلح، وأُخذت دابَّته، ثم طولب بجِبايةٍ، فلم يكدْ يستمعُ إلى شكواه، حتى ذهب إلى شهاب الدين طُغريل، وقال له: أيها الأمير، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاثةُ أشياءَ مباحةٌ، الناس مشتركون فيها: الكلأ والماء والمِلح**»[1]، وقد جرى كيتٌ وكيت، ولا يليقُ بمِثلك -وأنت عامَّة

---

(١) لا يصح بهذا اللفظ: ولكن روىٰ الإمام أحمد (٥/ ٣٦٤) وأبو داود (٣٤٤٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٠٤) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٨٥٧) والبيهقي في =

وقتك جالسٌ على مصلَّاك- أن تكون مثلُ هذه الأشياء في بلدك.

فقال: اكتب الساعة إلى جميع النواحي برفع الجبايات ومحوِ اسمها، وأْمُرِ الولاةَ أن يعمَلوا بكتاب الله وسُنةِ رسوله، ومَن وجب فيه حدٌّ من الحدود الشرعية يُقامُ فيه على الفور، ولا يُلتمسُ منه شيءٌ آخر، وأْمُرِ الساعةَ بإراقةِ كلِّ خمرٍ في المدينة، ورَفع ضمانها، واكتُبْ إلى جميع النواحي التي تحت حُكمي بمثل ذلك، وأَوعِدْ مَن يُخالفُ ذلك عقوبتَنا في الدنيا عاجلًا، وعقوبةَ الخالق في الآخرة آجلًا.

فقال القِفطي: فخرجتُ وجلست في الديوان، وكتبتُ بيدي -ولم أستعِنْ بأحدٍ من الكُتَّاب في شيء- من ذلك ثلاثةَ عشَرَ كتابًا إلى وُلاة الأطراف».

ولا تكتــبْ بكفِّــك غــيرَ شيءٍ يَســُرُّكَ في القيامــةِ أن تــراهُ

وكأنه رأى أن طولَ هذه المدة قد أقصاه عن المطالعة وصَرَفه عن التأليف، وحال بينه وبين الانقطاع إلى مجالسِ العلم، فأعفى نفسه من تكاليف السلطان، وخَلع عن عنقه رِبْقةَ الإمارة، «وانقطع في داره مستريحًا من معاناة الديوان، مجتمِعَ الخاطر على شأنه للمطالعة والفِكرة وتأليف الكتب، منقبضًا عن الناس، محبًّا للتفرُّدِ والخَلوة، لا يكادُ يظهرُ لمخلوقٍ»[1].

«السنن الكبرىٰ» (٦/ ١٥٠) وغيرهم عن رجل من الصحابة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس شركاءُ في ثلاث: الماء والكلإ والنار».. وهو حديث صحيح، صححه العلامة شعيب الأرنؤوط في «المسند» (٣٨/ ١٧٤).. وروىٰ ابن ماجة - بإسناد ضعيف- عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ فقال: «الماء والملح والنار».. وضعفه العلامة الألباني.

(١) من ترجمة أخيه مؤيِّد الدين.

ولكنِ الملكُ «العزيز» حينما جاوز حداثتَه واستقلَّ بالمُلك وحده، لم يلبث أن دعاه إليه، واتخذه وزيره، وألقى إليه زِمامَ أموره، مطمئنًّا إلى نفاذِ بصيرته وأصالةِ رأيه، فأصفى له النصح، واجتهد في المشورة، وتوخَّى مناهج الرُّشد، والتزم القصدَ والسَّداد.

ومات العزيز، وتولَّى بعدة ابنُه «الناصر» -ولم تجاوزُ سِنُّه سبعَ سنوات-، فاستمر القِفطيُّ في تدبير المملكة، وفيًّا بالعهد، قائمًا بمصالح المُلك، بعيدَ الصِّيت، مرعيَّ الجانب، إلى أن تُوفِّي سنة (٦٤٦).

علمه وثقافته:

كان القِفطيُّ أديبًا جيِّدَ المَلَكة، وافرَ المحفوظ، عالمًا طويلَ الباع، واسعَ الاطلاع، غزيرَ المادة، واضحَ القصد، مصنِّفًا سديدَ المنهج، جامعًا لأشتات الفوائد ومنثورِ المسائل، جال في كلِّ فن، وشارك في كل ناحيةٍ من نواحي المعرفة.

□ قال ياقوت: «اجتمعتُ بخدمته في «حلب»، فوجدته جمَّ الفضل، كثير النُّبل، عظيمَ القدْر، سَمْحَ الكف، طَلْقَ الوجه، حُلوَ البشاشة، وكنتُ أُلازمُ منزله، ويَحضُرُ أهلُ الفضل وأربابُ العلم، فما رأيتُ أحدًا فاتحه في فنٍّ من فنون العلم -كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق-، إلا قام به أحسنَ قيام، وانتظم في وَسَط عِقدهم أحسنَ انتظام».

وقد تضافرت ظروفُ نشأته وحياته، وتعدُّدُ أسفاره ورِحلاتِه، واتصالُه بشيوخه في حلقاتِ الدرس، ومناظرتُه للعلماء والأدباء في مجالس الأدب والعلم، وعملُه في ديوان الإنشاء، وقراءتُه الموصولة في الكتب

والأسفار: على تكوينِ ذَوقِه الأدبي، وتمكينِه من المعرفة الشاملة، وذلك المحصول الوافر.

كانت أُمُّه بدويَّةً من «عرب قُضاعة»، فصيحةً مطبوعة، تحفظُ الشِّعرَ وترويه، وكان أبوه -على ما عرفناه- كاتبًا من كُتَّاب ديوان الإنشاء، فنشأ القفطيُّ أديبًا صافيَ الديباجة، فتيقَ اللسان، حُرَّ البيان.

وكانت القاهرةُ -حينما ارتحل إليها- مَنهَلًا للعلم والمعرفة، ومَورِدًا للفنون والآداب، حافلةً بالعلماء، وقِبلةً للشعراء والأدباء، ودُورُ الكُتبِ فيها ميسَّرةٌ لكل دارس، ومعاهدُها مفتوحةٌ لكل وافد، والملوكُ الأيوبيُّون مِن وراء ذلك يُشيِّدون المدارس، ويَعقِدون المناظرات، ويُشجِّعون الدارسين، ويُرفِدُون العلماءَ بالهِبات والأُعطيات، فتهيَّأ له من كل ذلك دراسةٌ كاملة، ومعرفةٌ شاملة، فدرس القرآن، وتلقَّى الحديث، وحَذِقَ النحو، وحَفِظ اللغة، ووعى التاريخ، وأحاط بقِسطٍ وافرٍ من الفلسفة والحِكمة وعلم الكلام.

ثم كانت الحصيلةُ تلك المحاضراتُ التي عُقدت بمجلسه في «حلب»، والأحاديث التي دارت حولَ المعقول والمنقول في مسائل العلوم والتحدُّثِ بالغرائب والطرائف، وكُتبُه التي عكف عليها في داره، فاستجلى غوامضَها، واستلهم أسرارها، واستقصى ما فيها استقصاءَ الدارس الحصيف، ونَقَدها نقدَ الصَّيرفيِّ الخبير.

من هذه المنابعِ الصافية تكوَّنت ثقافتُه وتلاقت معارفه، وانسجمت أفكارُه وخواطره، وتألقت منها تلك الكنوزُ التي نَثَر منها في مجالسِه الخاصة، وأوردها كتبَه المتنوِّعة.

غرامه بالكتب:

وقد أُغرم القِفطيُّ بالكتب إغرامًا شديدًا، ونافس في اقتنائها، وبَذل النفيسَ في شرائها، وأنفق وقتَه في حفظها وترتيبها، وأصبحت دارُه في حلب قِبلةَ الورَّاقين ومَقصِدَ النسَّاخين، يَجلِبون له الكتب والأسفار، وهو يضاعفُ لهم الثمن، ويُجزِلُ العطاء، وله في تلك البابةِ أعاجيب.

□ قال ابنُ شاكر [(١)]: «جمع من الكتب ما لا يُوصف، وقُصد بها من الآفاق، وكان لا يُحِبُّ من الدنيا سواها، ولم تكن له دارٌ ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب، وكانت تساوي خمسين ألفَ دينار».

ورُوي أنه اقتنى نسخةً من كتاب «الأنساب» للسمعاني، حُرِّرت بيد المؤلف، إلا أن فيها نقصًا، وبعد الاطِّلاب المديد والافتقادِ الطويل حَصَل على الناقص، إلا أوراقًا بلغه أن «قلانِسِيًّا» [(٢)] قد استعملها قوالبَ لقلانسه، فضاعت، فتأسَّف غايةَ الأسف على هذا الضياع حتى مَرِض، وامتنع أيامًا عن خدمة الأمير في قصره، فصار عِدَّةٌ من الأفاضل والأعيان يزورونه تعزيةً له، كأنه قد مات أحدُ أقاربه المحبوبين!.

وفي كتابه «إنباه الرواة» نجدُه كثيرًا ما يفخر بأنه اقتنى كتابًا بخطِّ مؤلِّفٍ معروف، أو ناسخٍ مشهور، أو عثُر على نسخةٍ فريدةٍ من كتابٍ لا تُوجد عند سواه.

وقد جمع مقدارًا وافرًا من التعليقات والفوائد والطُّرَف التي تعوَّد العلماءُ أن يضعوها على ظهورِ الكتب، ولما اجتمع له قدرٌ صالحٌ منها رأى أنها تستأهلُ أن تكون كتابًا، فكان كتاب «نُهْزة الخاطر ونُزهة الناظر في

(١) «فوات الوفيات» (٢/ ١٢١).

(٢) صانع أغطية الرؤوس.

أحاسن ما نُقل من ظهور الكتب».

وللقِفطيِّ مؤلَّفاتٌ نفيسة زادت على سبعةٍ وعشرين كتابًا، ضاع جُلُّها -مع بالغ الأسى-، ولعلَّ من أشهر ما وصلنا كتابُه القيم: «إنباهُ الرواة على أنباهِ النحاة»[(١)].

هذا وقد تُوفِّي القِفطيُّ عام (٦٢٤ هـ) بعد رحلةٍ زاخرةٍ بالطلب والصبر والمصابرة والإفادة.. رحِمه اللهُ رحمةً واسعة[(٢)].

٥- الإمام بُرهان الدين البقاعي.. إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرُّباط.. صاحب «نظم الدُّرر»:

□ قال الإمام الشوكاني: «نزيلُ القاهرة ثم دمشق، الإمامُ الكبير، بُرهان الدين، وُلد تقريبا سنةَ (٨٠٩) بقرية من عمل «البِقاع»، ونشأ بها، ثم تحوَّل إلى دمشق، ثم فارقها، ودخل بيتَ المقدس، ثم القاهرة، وقرأ على «التاج بن بهادر» في الفقه والنحو، وعلى «ابن الجزري» في القراءات جمعًا للعشرة إلى أثناء سورة البقرة، وأخذ عن التقيِّ الحِصني، والتاج الغرابيلي، والعماد بن شرف، والشرف السبكي، والعلاء القلقشندي، والقاياني، والحافظ ابن حجر، وأبي الفضل المغرِبي، وبرع في جميع العلوم، وفاق الأقران، لا كما قال السخاوي: «إنه ما بلغ رتبةَ العلماء، بل قُصارى أمرِه إدراجُه في الفضلاء، وأنه ما عَلِمَه أتقن فنًّا».. قال: «وتصانيفُه شاهدةٌ بها قلتُه»!!.

---

(١) «الإنباه»: التنبيه.. «الأنباه»: جمع «نبيه».

(٢) هذه الترجمة للقفطي نقلناها باختصار من مقدمة تحقيق كتاب «إنباه الرواة». طبعة: دار صادر. تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضل بن إبراهيم.

قلتُ -الشوكاني-: بل تصانيفُه شاهدةٌ بخلاف ما قاله، وأنه من الأئمَّة المتقنين المتبحِّرين في جميع المعارف، ولكن هذا من كلامِ الأقران في بعضهم بما يخالفُ الإنصاف، لما يجري بينهم من المنافسات، تارةً على العلم، وتارةً على الدنيا.

وقد كان المترجَمُ له (أي البقاعي) منحرفًا عن السخاوي، والسخاويُّ منحرفًا عنه، وجرى بينهما من المناقضةِ والمراسلة والمخالفة ما يُوجبُ عدمَ قبولِ قول أحدهما على الآخر.

ومَن أمعن النظر في كتاب المترجَمِ له في التفسير الذي جعله في المناسبةِ بين الآي والسور، عَلِم أنه من أوعيةِ العلم المُفرِطين في الذكاء، والجامعين بين عِلمَيِ المعقول والمنقول، وكثيرًا ما يُشكِلُ عليَّ شيءٌ في الكتاب العزيز، فأرجعُ إلى مطوَّلاتِ التفاسير ومختصراتها، فلا أجدُ ما يَشفي، وأرجع إلى هذا الكتاب، فأجدُ ما يُفيد في الغالب.

وقد نال منه علماءُ عصره بسبب تصنيف هذا الكتاب، وأنكروا عليه النقلَ من التوراة والإنجيل، وتراسلوا عليه، وأغرَوا به الرؤساء، ورأيتُ له رسالةً يُجيبُ بها عنهم، وينقلُ الأدلةَ على جواز النقل من الكتابَين، وفيها ما يَشفي.

وقد حجَّ ورابط، وانجمع، وأخذ عنه الطلبةُ في فنون، وصنَّف التصانيف، ولما تنكَّر له الناس وبالغوا في أذاه، لمَّ أطرافه، وتوجَّه إلى دمشق.

وقد كان بلغ جماعةٌ من أهل العلم في التعرض له بكل ما يكون إلى حدِّ التكفير، حتى رتَّبوا عليه دعوى عند القاضي المالكي أنه قال: إن بعضَ المغاربة سأله أن يَفصِلَ في تفسيره بين كلام الله وبين تفسيره بقوله: «أي»

أو نحوها، دفعًا لما لعلَّه يُتوهَّمُ، وقد كان رام المالكيُّ الحُكمَ بكفره وإراقةِ دمه بهذه المقالة، حتى ترامى المترجَمُ له على القاضي الزيني بن مزهر، فعذَره وحكم بإسلامه.

وقد امتَحن اللهُ أهلَ تلك الديار بقُضاةٍ من المالكية يتجرَّؤون على سفك الدماء بما لا يَحِلُّ به أدنى تعزير، فأراقوا دماءَ جماعةٍ من أهل العلم جهالةً وضلالةً وجُرأةً على الله، ومخالفةً لشريعة رسول الله ﷺ، وتلاعبًا بدينه، بمجردِ نصوصٍ فقهية واستنباطاتٍ فروعية ليس عليها أثارةٌ من علم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يزل المترجَمُ له رَحِمَهُ اللهُ يُكابدُ الشدائد، ويناهدُ العظائم قبل رحلته من مصر، وبعد رحلته إلى دمشق حتى توفَّاه الله بعد أن تفتَّت كبده -كما قيل- في ليلة السبت ثامن عشر رجب سنة (٨٨٥) ، ودُفن خارج دمشق من جهة قبر عاتكة.

وقد كان برهانُ الدين كثيرَ النظم، جيِّد النثر في تراجمه ومراسلاته ومصنفاته، وهو ممن رثى نفسه في حياته فقال:

نعـم إننـي عـما قريـبٍ لميِّـتٌ ... ومَن ذا الذي يبقى على الحدَثانِ

كأنـك بي أُنعـى عليـك وعنـدها ... تـرى خـبرًا صُـمَّتْ لـه الأُذنـانِ

فلا حسدٌ يبقـى لـديك ولا قِلًـى ... فينطـقُ في مـدحي بـأيِّ معـانِ

وتنظـرُ أوصـافي فـتعلمُ أنهـا ... عَلَـت عـن مـدانٍ في أعـزِّ مكـانِ

ويُمسي رجـالٌ قـد تهـدَّم رُكـنُهم ... فمـدمعهم لي دائـمُ الهمَـلانِ

فكـم مـن عزيـزٍ بي يَـذِلُّ جماحُـه ... ويطمـعُ فيـه ذو شـقًى وهـوانِ

فيا رُبَّ مَن يفجأ بهول يؤوده ... ولو كنت موجودًا لديه دعاني
ويا رُبَّ شخصٍ قد دهته مصيبةٌ ... له القلب أمسى دائمَ الخفقانِ
فيطلبُ من يجلو صداها فلا يرى ... ولو كنتُ جلَّتها يدي ولساني
وكم ظالمٍ نالته مني غضاضةٌ ... لنُصرةِ مظلومٍ ضعيفِ جَنانِ
وكم خِطةٍ سامت ذويها مَعرَّةً ... أُعيدت بضربٍ من يدِي وطِعانِ
فإن يرثِني مَن كنتُ أجمعُ شملَه ... بتشتيت شملي فالوفاءُ رثاني

ومن محاسنه -التي جعلها السخاوي من جملة عيوبه-: ما نقله عنه أنه قال في وصفِ نفسه: «إنه لا يخرجُ عن الكتاب والسُّنة، بل هو متطبِّعٌ بطباع الصحابة» انتهى.

وهذه منقبةٌ شريفة، ومرتبةٌ مَنيفة»[(١)].

٦- الإمام جمال الدين القاسمي[(٢)] زعيم الإصلاح في الشام، وصاحب تفسير «محاسن التأويل» (١٢٨٣هـ- ١٣٣٢هـ) (١٨٦٦-١٩١٤م):

□ قال عنه الشيخ محمد رشيد رضا: «هو علَّامة الشام، ونادرة الأيام، والمجدِّد لعلوم الإسلام، محيي السُّنَّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحدُ حلقات الاتصال بيْن هَدْي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن»[(٣)].

---

(١) ترجمة البقاعي من «البدر الطالع» للشوكاني (٥٠ : ٥٢ . ط: دار ابن كثير).
(٢) معظم الترجمة مأخوذة من كتاب «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة ـ دار القلم، ومقدمة التفسير.
(٣) «مجلة المنار» المجلد السابع عشر (ص٥٥٨).

□ وقال: «إن الرجل كان من خيار مُصلحي المسلمين في هذا العصر»(١).

□ وقال عنه أمير البيان شكيب أرسلان: «وإني لأوصي جميعَ الناشئة الإسلامية التي تُريد أن تفهم الشرع فهمًا ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، أن لا تقدم شيئًا على قراءة تصانيف الشيخ القاسمي»(٢).

□ هو شيخ الشام أبو الفرج محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم ابن صالح... ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي الحسني، وجدته لأبيه من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما فهو من أروحه النبوة.. نشأ في بيت علم ودين وفضل، وُلِد في يوم الإثنين، (الثامن من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٨٣ ـ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٦م) في زقاق المكتبي بمَحَلَّة القنوات بدمشق. ولما بلغ سنَّ التمييز أرسله والده إلى كُتَّاب الشيخ عبد الرحمن بن علي بن شهاب المصري نزيل دمشق، فعلَّمه الترتيل والتلاوة، وبعدما أوفى على ختم الكتاب العزيز، صحبه إلى الخطَّاط الشيخ محمود بن محمد بن مصطفى الخطَّاط التركي ليجوِّد الخطَّ عليه، فبقى عنده ثلاث سنين. وانتقل به والده إلى الشيخ رشيد قزيها المعروف بابن سنان، فقرأ عليه مقدمات في علوم شتى قراءة جد واجتهاد من توحيد وصرف ونحو ومنطق وبيان وعروض وسوى ذلك.

وقصد بعد ذلك إلى الشيخ أحمد الحلواني الكبير شيخ قرَّاء الشام، فجوَّد عليه القرآن المجيد، قرأ عليه ختمة، ثم قرأ كذلك علِيه أكثر من نصف ختمة أخرى على رواية حفص عن عاصم، وحضر دروسه في

(١) «مجلة المنار» (١٧/ ٦٣١).

(٢) في مقدمة كتاب «قواعد التحديث» للقاسمي.

«الميدانية» وشرح «الجزرية» مرتين، وللشيخ خالد الأزهري مرة، وقرأ عليه معظم شرحه على منظومته في التجويد المُسَمَّاة «اللطائف البهية»، وقد لازم قراءته عليه صباح كل ثلاثاء وجمعة مدةً تزيد عن ثماني سنين.

وقرأ على الشيخ سليم العطَّار أحد أجلَّة العلماء الدمشقيين «شرح شذور الذهب» لابن هشام، و«شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك»، و«شرح قطر الندى» للفاكهي، و«مختصر السعد»، و«جمع الجوامع» و«تفسير القاضي البيضاوي»، وكتاب «الشنشوري»، وحضره في حصة وافرة من «صحيح الإمام البخاري» رواية، وسمع من مجالس من «صحيح البخاري» درايةً سنين عديدة، وسمع من بعض «موطأ الإمام مالك»، وكتاب «الشفا» للقاضي عياض، ومعظم كتاب «مصابيح السنة»، وكتاب «الجامع الصغير» وغيرها من الكتاب الأُمَّهات. ولما بلغ القاسمي الثامنة عشرة، كتب له شيخه العطار إجازةً عامةً بجميع مروياته سنة ١٣٠١هـ.

ويتذوَّق القاسمي حلاوة العلم، ويجري في دمائه حبه، فيملأ نهاره كله بالقراءة والدرس والتلقي عن الشيوخ، يطرف على حلقاتهم.. ويبحث عن أكابرهم مستعينًا بتشجيع أبيه الذي لا ينقطع عن الدعاء له بقوله: «الله يرضى عليك كما رضي على الصديق»، وكان والده يهديه الكتب وينشِّطه بأبيات شعر يوجهها إليه أو نثرًا برسائله.

□ وقاده بحثُه سريعًا إلى حلقة الشيخ بكري العطار، فقرأ عليه «شرح الشافية» و«شرح لامية الأفعال»، وسمع منه حصَّةً وافرة من «صحيح البخاري»، ومعظم «صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود»، و«سنن ابن

ماجه»، و«الشمائل» للترمذي، وغيرها من الكتب، وقد حَظِيَ من شيخه بكري العطار بإجازةٍ مكتوبة سنة ١٣٠٢هـ ، وأخذ علوم التصوف من الشيخ محمد بن محمد الخاني شيخ المتصوفة النقشبندية، سمع منه أبوابًا كثيرةً من «صحيح البخاري»، ومن شرحه للقسطلاني، ومن «الموطأ»، وشرحه للزُّرقاني، ومن «سنن أبي داود» مع حاشيته للسندي، ومن «سنن الترمذي». ثم ترك حلقته مع ثنائه عليه وقوله عنه بأنه «من أفضل أشياخي الذين انتفعت بمجالسهم، وتأدبتُ بآدابهم واغتبطت بصحبتهم».

□ وقد حفل سجلُّ القاسمي بإجازات كبار الشيوخ الدمشقيين كإجازة مفتي الشام وعلَّامته محمود حمزة له إجازةً عامة، وأجازه أيضًا مفتي الشام طاهر بن عمر الآمدي، وأجازه نعمان خير الدين الألوسي من بغداد، والشيخ محمد بن خليل القاوقجي من طرابلس، وأجاز له من فاس الشيخ أبو المواهب جعفر الكتاني.

□ ولقد أصيب القاسمي وهو في الخامسة عشرة من عمره بمرض ألزمه الفراش ثلاثةَ أشهر، فصار يتسلَّى بمطالعة الكتب، وجمع وهو على تلك الحالة من فوائده وملاحظاته، مصنَّفًا كبيرًا غريبًا مملوءً باللطائف والنوادر والأبيات الرائقة سَمَّاه «السَّفينة». ومن هنا فقد كانت نفس الرجل ومنذ سن مبكِّرة منفتحةً على آفاق رحيبة، مما أكسبه شخصيةً متميِّزة في عصر اتَّسم الكثيرون فيه بالجمود، فلذلك كاد في ذاك العصر أن يكون متفرِّدًا في تكوينه واستعداداته الفكرية.

□ وكان الشيخ عبد الرزَّاق البيطار هو الحبيب إلى قلب القاسمي، وكان يرى القاسميَّ بمنزلة ولده، وكان يخاطبه في رسائله بـ«ولدي

المعظم»، فلقد كان الشيخ عبد الرزاق يكبر القاسمي بنحو ثلاثين عامًا أو أكثر، وكان البيطار يكتب إليه، ويقول له في بُعده عنه أثناء سفر القاسمي:

يـا مُقـيمًا مـدى الزمـان بقلبـي ... وبعيـدًا بشخـصه عـن عيـاني

أنت روحي إنْ كنتُ لست أراها ... فهـي أدنـى إليَّ مـن كـل داني

□ وقد كان يكيل له المدائح في رسائله كيلًا لا مزيد عليه؛ وخصوصًا في المقدمات، كما كان القاسمي يخاطبه بـ«سيدي ومولاي»، ويُبادله أشواقه بمثلها.

وللشيخ البيطار أثرٌ عظيم في توجُّه القاسمي إلى المنهج السلفي وتركه للصوفية.

□ يقول الشيخ محمد رشيد رضا يُلخِّص الصداقةَ والصلة بين البيطار والقاسمي، وأُنس كل منهما بصاحبه، ولا يُذكر أحدهما إلَّا ويُذكر معه الآخر.. يقول: «وكان يحضر مجالسَ الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدِّد السلفيَّة بالشام، وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه وأخلاقه المرضيَّة ما لم يستفده من غيره»[(١)].

□ ومع أخذ القاسميِّ الحظَّ الوافر من المعرفة الشائعة في عصره لم يخلص للتلقِّي وحده، وإنما جمع إليه كذلك الإقراء المبكِّر، وهذا أمرٌ عجب؛ فقد طُلِب للتدريس وهو في نحو الرابعة عشرة، فقام به بالإضافة إلى تولِّيه وظيفةَ الإعادة في درس والده، فبدأ بإقراء مقدمات العلوم، فكان له درسٌ بعد صلاة المغرب في جامع السنانية، وعقد حلقة في شرح ابن القاسم على متن «الغاية والتقريب» في فقه الشافعية أقرأه مرارًا، ولم

---

(١) «مجلة المنار» (ج٧/ ٥٥٨).

يزل على تلك الحال حتى العشرين، فأُسنِدت إليه وظيفة الإمامة في جامع العناية بحي باب السريجة، فاستمرَّ بها حتى عام (١٣١٧هـ - ١٨٩٩م) حتى تُوفِّي أبوه، فأمَّ الناس مكانه بمحراب جامع السنانية.

وتزوج سنة ١٣٠٧هـ. وبحلول عام ١٣٠٩هـ لما كان له ست وعشرون سنة عُرِف في دمشق عالمًا يقرُّ له العلماء ويختاره أعضاء مجلس إدارة الولاية مع نفر من العلماء؛ ليتولَّوا وظائف تدريس وإرشاد ووعظ في الأقضية السورية خلال شهر رمضان، وكان القاسمي يرى في هذا التكليف طريقًا مهمًّا للدعوة ولنشر العلم الذي أخذ على نفسه حمله وتبليغه للناس كافةً، دون نظرٍ إلى ما يحصل له من نفع بسببه وهما ألفَا قرش، مكافأةً مجزئة تعادل عشرين ليرة ذهبية.

□ ولما تُوفِّي والده سنة ١٣١٧هـ، أخذ مكانه في الدرس بعد إلحاح شديد عليه ابتداءً من ليلة الأحد في ٣ ذي القعدة ١٣١٧هـ، واختار كتاب «رياض الصالحين»، وظل يملأُ ربوع الشام علمًا وتعليمًا ودعوةً إلى السلفية، حتى وافته المنيَّة في مساء السبت في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٣٢هـ - الثامن عشر من أبريل ١٩١٤م..

مَن مثلُه في القوم يذكرُ عِلمَه ... والعلمُ لا نلقاه غيرَ عمائمِ!

كَهْلٌ وقد خضع الشيوخُ لفضله ... في مَشرَبٍ يصفو وخُلقٍ هاشمي

مَن بعده للطوس في تحريره ... والطوسُ يَرثيه بحزنٍ دائمِ

مَن بعده للدرس في تقريره ... والدرسُ يَبكيه بدمعٍ ساجمِ

دعواه: قال اللهُ قال رسولُه ... والعقلُ رائدُه فيا للواهمِ

مِن كل تأليفٍ يفوقُ بوصفه ... وبجمعه يحلو لكلِّ مُنادمِ

حتـى عـلا في كـل قُطْـرٍ شـأنه ودرى المفكـر صـاحيًا مـن نـائِمِ

دعوته للسلفية:

□ لم يكن قبل القاسمي وعبد الرزَّاق البيطار أيُّ أثرٍ للدعوة السلفية التي انقطعت بعد ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، فجاء بالسلفية لبلاد الشام، فدُهِش لها الأهالي -فضلًا عن الحكومة-، التي أخذت تتعقبهما خوفًا من أن يستقطبا الناسَ إلى السلفية كما صنع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية-، ولكن كما يقول القائل:

يا دامي العينيْن والكفَّيْن إن الليـــلَ زائـــلْ
لا غرفـةُ التعـذيب باقيـةٌ ولا زُرُدُ الـــسلاسلْ
وحبـوبُ سُـنبلةٍ تجـفُّ سـتملأ الـوادي سـنابلْ

□ وكان تحوُّلُ الشيخ إلى السلفية في عام ١٣١٠، متأثرًا بالشيخ عبد الرزَّاق البيطار في أوائل العقد الثالث من عمره.. حتى وافى عام ١٣١٣هـ وحوكم القاسمي -مع ثُلَّةٍ من رفاقه- بتهمة السلفية، وغدا القاسمي صاحب دعوى لها أبعادها، وأولُ ما جَهر به القاسميُّ من أفكاره في الشام هو الأخذُ بالاجتهاد، وحاول فتحَ الباب الذي أُغلِق منذ زمان طويل ووُضِعت عليه الأثقال.. قال رَحِمَهُ اللهُ:

زعـم النـاسُ بـأني مـذهبيٌّ يُـدعَى الجمالي
وإليـه حيـنما أُفـ ـتِي الورى أعزو مقالي
لا وعَمْـرِ الحـقِّ إني سـلفيُّ الانتحـالِ
مـذهبي مـا في كتـاب الله ربي المتعـالي

ثم ما صحَّ من الأخـ ـبار لا قِيلٍ وقالِ
أقتفي الحقَّ ولا أر ضى بآراءِ الرجال
وأَرَى التقليدَ جهلًا وعَمًى في كلِّ حال

□ وقال:

أقول كما قال الأئمةُ قبلنا صحيحُ حديث المصطفى هو مذهبي
أألبَسُ ثوبَ القِيل والقال باليًا ولا أتحلَّى بالرداءِ المُذَهَّبِ

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

زعموا بأن من اقتفى الآثارَا أَوْلَى الذين تقدَّموا الإنْكارَا
كلَّا فأجْرُ الاجتهاد لهم سوى متعصِّب يتأوَّلُ الأخبارا

□ قال معالي العلَّامة الكبير «محمد بك كرد علي»: «تَلِدُ الولَّاداتُ كلَّ يوم أولادًا، وتَطوي الأرض أُناسًا لا يُحصي عددَهم غيرُ خالقهم، ولكن مَن يؤثرون الأثر فيذكرون في حياتهم وبعد مماتهم أقلُّ من القليل، وأقل منهم في أهل هذا الشرق التعِس، وفي أهل الإسلام خاصة، وذلك لأن العالم الإسلامي بعد أن هبَّت أعاصيرُ الاختلافات في القرون الوسطى، وحاربت حكوماتُ تلك الأيام رجالاتِ المعقولات، وأحرارَ الأفكار، ضعف مستوى العقل لأنها لم يطلق لها العنان، وتقاصرت الهمم لأنها لم تجد منشطًا، فقلَّ جدًّا النابغون النابهون، وما ننسى لا ننسى ما وقع لشيخ الإسلام بل عالم السنة وإمام الأئمة ومحمود شباب الحنيفية السمحاء: «تقي الدين ابن تيمية» فقد عُذِّب في القرن الثامن سنين كثيرةً في سجون القاهرة والإسكندرية ودمشق، وناله من أذى أدعياء العلم في عصره، حسدًا منهم لمكانته ما يُبكِّي تذكُّرُه المُقَلَ، ويهوِّنُ بعده كلَّ اعتداء على

العلماء ينالهم من أهل الحشو والجمود. ومن قرأ تاريخ رجالنا في القرون الثلاثة التالية -أي في القرون الثامن والتاسع والعاشر- أو القرون الثلاثة التي سبقتها -أي الخامس والسادس والسابع- يعرفُ أن كثيرين قضَوا شهداءَ أفكارهم، وعُذِّبوا وأُوذوا في سبيلها لأنهم رأوا غير ما رآه العلماء الرسميون ومَن مالأهم من أرباب الزعامات في أيامهم.

ومنذ اضطر مثل حجةِ الإسلام (أبي حامد الغزالي) في القرن الخامس أن يهجر العراق تخلصًا من حاسديه الذين لا يعدمون عندما تصبح إرادتهم حجةً للاستعانة بالسلطة الزمنية للنيل ممن أربى عليهم، وإيقاف تيار أفكاره، إلى عصر ابن تيمية الذي ناله ما ناله في مصر والشام حتى قَضَى في سجن دمشق شهيدَ الإصلاح، إلى أن جاء القرن العاشر والذي يليه من القرون، وقد أصبحت العلومُ رسميةً والمدارسُ صورية، والأوقافُ المحبوسة على العلماء مأكولةً مهضومة؛ منذ جرى كل هذا والأمةُ لا تكاد تفرحُ لها بعالم حقيقي يكسرُ قيودَ التقليد، ويقول بالأخذ من كل علم، فنَدُر النبوغ؛ لأنه ندُر أن يلقى العالمُ ما يُنشِّطُ عزيمته، وكان قُصارى من تسمو به الهمةُ إلى أخذ نفسه بمذاهب التعلم والتعليم أن يقتبسَ من كتب الفروع ما لا يخرج به عن مألوف معاصريه، ومن حكَّم عقلَه في بعض المسائل كان اتهامُه بأمانته من أيسر الأشياء، وطردُه من حظيرة الحظوة لدى العامة -ومن سموا أنفسهم بالخاصة- من الأمور المتعارفة، أما التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق، فهذا لا يخلو منه عالم يريد أن يخرج بالناس من الظلمات إلى النور، ولكنَّ إرادة المولى سبحانه قضت بأن لا تُحرمُ هذه الأمة من أعلام يَصْدَعون بالحق فيجدِّدون لها أمر دينها، ويستطيبون الأذى في إثارة العقول والرجوع بالشرع إلى الحد الذي

رسمه الشارعُ وأصحابه والتابعون والأئمة الهادون المهديون، ومن هؤلاء المجددين: نابغةُ دمشق، فقيدُنا العزيز السيد «جمال الدين القاسمي» الذي يعرفه قراء هذه المجلة بما نشره في سِنِيْها الماضية من آثار علمه وأدبه، فقد قضى حياةً طيبةً ولم يَعُقْه عن الاشتغال ما لقيه من تثبيطِ المثبطين في أول أمره، وتنغيص الحاسدين في أواسط عمره -ممن لا يخلو منهم مصر ولا عصر-، خصوصًا في بلاد يُستمد منها كل شيءٍ من ولاة أمرها.

نشأ السيد «القاسمي» في بيت فضل وفضيلة، وكان والدُه وجده من المعروفين بالأدب ومكارم الأخلاق. وهذا من النوادر في عصر لا يكبر رجاله في العيون إلَّا على مقدار عدِّهم في صفوف أهل الرسم، وفي دور قلَّ أن ينجُبَ فيه ولدٌ لنجيب صُمَّ أو تصامم منذ أوائل سن التحصيل عن كل ما يقف عثرةً في سبيل الطالب، فكان منذ وعى على نفسه يعملُ على تهذيبها، ولا يكادُ يمضي عليه يومٌ لم يستفد منه فائدةً ولم يقيد شاردة، فظهرت عليه مخايلُ النبوغ ولمَّا يبلغ العشرين، فما بالك به وقد نيَّف على الأربعين وقارب أن يتم العقد الخمسين؟!

جُمَّاعُ الأسباب التي نجح بها فقيدنا: طهارة نفسه من المطامع الأشعبية، وشغفُه بالعلم للذته ونفعه في إنارة القلوب، واعتقادُ أنه منج في الدنيا والآخرة، فهو لم يجعل الدين سلمًا إلى الدنيا، وجسرًا مؤلفًا يجتاز عليه لحيازة مظهر خلاب، والتصدرِ في المجالس بمفاخر الهندام، وبرَّاق الثياب، بل فرَّغ قلبَه ووقته للعمل النافع، فبورك له بساعاتِ عمره القصير، ويا للأسف!.

ولو عدَّدنا ما كتبه من مصنفات، وقِسْناه بالنسبة لهذا العصر الذي

أضحت فيه بضاعةُ العلم مزجاةً بائرة، لما قلَّ عن اللحاق بالمكثرين من التأليف في المتأخرين أمثال «السيوطي»، و«ابن السبكي»، وأضرابهما مع ملاحظة ما بين العصور والبيئات من الفوارق.

تذرَّع الفقيدُ بعامة ذرائع النفع لهذه الأمة، فكان إمامًا في تآليفه الوفيرة، إمامًا في دروسه الكثيرة، إمامًا في محرابه ومنبره ومصلاه، رأسًا في مضاء العزيمة، ورأسًا في العفة، وهذه الصفة هي السرُّ الأعظم الذي دار عليه محورُ نبوغه؛ لأنه لو صانَع طمعًا في حطام الدنيا لما خرج من صفوف أهل محيطه، ولكان عالمًا وسطًا يشتغل بالتفاهات ويعيش في تقيةٍ ويموت كذلك.

كان -أجزل الله ثوابه- إذا لقيه المُماحك في أحد المجامع عرضًا، أو غشيه في درسه وبيته ناقدًا أو ناقمًا علَّمه من حيث لا يشعر، وهداه إلى المحبة بلين القول، فإذا أيقن أنه من المكابرين الموهين أعرض عنه وقال: «سلامًا»، ولذلك لم يلق ما لقيه أشداءُ العلماء والفلاسفة في العصور الماضية من الإرهاق والإعنات أمثال «ابن حزم الأندلسي»؛ لأنه كان يتلطف في المناظرة وإقناع المخالف، فإذا رأى المناقش بمعزل عن الفهم سكت عنه، نعم كان مثال التلطف في بثِّ الفكر فلم يصكَّ به -كما قيل- معارضَه صكَّ الجندل ويُنشقه متلقِّنَه انتشاق الخردل.

قام الأستاذ في دَورٍ زهد الناس فيه في العلوم الدينية إلَّا قليلًا، فأعاد إليها في هذه الديار بنور عقله شيئًا من بهائها السابق، ولقد كان يجتمع به الموافقُ والمخالف فما كانا يصدرانِ عنه إلَّا معجَبين بعقله مقرِّين بفضله معترفين بقصورِ كثيرٍ -حتى من المشاهير- عن إدراك شأوه، يخلف

الألباب ويستميل العقول، فكأنه خُلق من معدنِ اللطف ورقةِ الشمائل، لم تجد الغلظةُ سبيلًا إلى قلبه، ولا الفظاظةُ أثرًا في كلامه وقلمه، ولا عجب إذا كثُر في آخِر أمره أنصاره وعشقته النفوسُ فأكبرت الخطبَ فيه.

□ جاء في الأثر: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلَّا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه».

□ دخل «عبد اللطيف البغدادي» فيلسوف الإسلام على «القاضي الفاضل» فقال: «رأيت شيخًا ضئيلًا، كله رأسٌ وقلب، وهو يكتب ويُملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوانَ الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملةِ أعضائه».

وهذا التعريف يصدق من أكثر وجوهه على الشيخ القاسمي فإنه كان نحيل الجسم، كبير الروح، ولو تهيأ لجمال الدين مثلُ صلاح الدين لسرت أفكاره أكثر مما سرت، وراقت أسفارُه أكثر مما وُفق إليه، ولكن إذا عظم المطلوب قلَّ المساعد، وقديمًا زكا غرْسُ العلم في الشرق في ظل الملوك والأمراء، واليوم يزكو في الغرب في حمى الجامعات والمجامع والجمعيات، والعلمُ مذ كان محتاج إلى العلماء.

برز الفقيد الراحل -وأي تبريز- في علوم الشرع وما إليها، ولم يفْته النظر في علوم المدنية، فألمَّ بأكثرها إلمامًا كافيًا لتكون له عونًا على فهم أسرار الشريعة، أما وقد جمع الفضيلتين، فلا تجد لكلامه مسحةً من الجمود المعهود لكثيرين ممن يقتصرون على العلم والعِلمين، ويعُدُّون ما عداهما لغوًا.

فهو عالمٌ ديني كامل، ولكنه كان يقرأ العلوم المدنية ويطالع صحفها ومجلاتها وكتبَها الحديثة، كما يطالعها المنقطعون إلى هذه العلوم وزيادة، ولا ينكر شيئًا يقال له علم أو فن، ولذلك لم يَمُجَّه العصريون ولا غيرهم.

□ ربما قال مَن لم يعرف أن هذا كلامُ صديقٍ فُجع بصديق تسلسلت الصداقة بين بيتيهما منذ نحو ثمانين عامًا وعين الحب رمداء، أما أنا فلا أصِيل معترضًا إلَّا على الرجوع إلى كتب الشيخ، وقراءة بعض ما طبع منها، وتحكيم العقل والإنصاف، وأنا الضامن بأن لا يلبث أن يساهمني قولي، ويوقن بأن المرحوم جوَّد تآليفه التي تنمُّ عن عقله وعلمه أكثر مما جودها كثير من متأخري المؤلفين من بعد عصر السيوطي ممن شُهد لهم بالإجادة، ولو سمحت له الحالُ أكثر مما سمحت، ومُتِّع بحرية القول والعمل أكثر مما مُتِّع، لجاء منه أضعاف ما جاء، ولكنَّ ضيق العيش وضيق المضطرب لا يُرجى منها أكثرُ مما تمَّ على يد فقيدنا العظيم من الأعمال والآثار وقد أُغلقت دونه أبواب الدواعي والبواعث رَحِمَهُ اللَّهُ، وبارك لنا فيمن خلَّف من مريديه ومعاصريه، ومن ساروا بسيرته حتى لا نقع تحت مضمون الحديث: «**إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعه من العِباد، ولكن يقبض العلمَ بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤساءَ جهَّالًا فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**».

□ ولقد كتبنا في تأبين الشيخ غداةَ وفاته في جريدة «الإصلاح» ما نصه: «لا تحضُرني عبارة تُشعِرُ بمبلغ الحزن الذي نال دمشق بفقد مَن كان عالمها الكبير وأستاذَها العالم النحرير، فقد كان أحدَ أفراد هذا العصر المعدودين في التحقيق بأسرار الشريعة».

□ وهو -ولا مِراء- عالمُ الكتاب والسنة بلا مدافع، خُلق ليعمل على بث الدين المبين خاليًا من حشو المتأخرين الجامدين وتضليل المخرفين والمعطلين، لم يكد فقيدُنا العزيز يطرُقُ هذه الموضوعات ويُهيبُ بالناس إلى الأخذ بمذاهب السلف، ويتلطف في إبلاغها العقولَ المظلمة في دروسه وتآليفه، حتى أخذ بعضُ أهل الجمود يغتابونه ويُحَذِّرُون عوامَّهم بدون برهانٍ من الأخذ عنه، ولكنَّ ظُلمةَ تقليدهم ما لَبثت أن انقشعت بنور اجتهاده، وتراجع أمرُ خصومه بعد قليل، وقد بَهر الناسَ فضلُه وعلمه، وأنشؤوا بعد أن كادوا يزيفون أقواله في مجامعهم الخاصة والعامة، يتَّبعون أقواله المدعومة بالسنة الصحيحة ومذاهب الأئمة، وأكبرُ دليل على ذلك ما شهدناه يوم مشهدِه الأخير من إجماع من كانوا خصومه أمسِ على إعظام الخَطْب فيه، والإقرار له بفضائل كانوا في حياته يغمطونه إياها، ولكنَّ المعاصرة حرمان.

□ رأيت رجالًا كثيرين من أهل الإسلام وغيرهم وفي مصر والشام خاصةً، فلم أر همةً تفوقُ همةَ صديقي الراحل، ولا نفَسًا طويلًا على العمل ودؤوبًا عليه أكثرَ منه، ولا غرامًا بالإفادة والاستفادة، ولا حبًّا بالعلم للعلم، فقد قضى عن تسعٍ وأربعين عامًا، وخلَّف ما خلَّف من عشرات من مصنفاته الدينية العصرية النافعة؛ منها تفسيره الذي لم يُطبع، ومنها مقالاته الممتعة وأبحاثه المستوفاة، وأثَّر في عقول كثير من الطلبة الذين تخرجوا به، وأخذوا أحكام الحلال والحرام عنه، دع دروسَ وعظه للعامة وحلقات خاصته، ومع كل هذا كان حتى الرمق الأخير أشبهَ بطالبٍ يريد أن يجوزَ الامتحان لنيل شهادة العالمية، وكلما كان يُوغل في طلب المزيد من العلم والتحقيق، تراه آسفًا على عدم إشباع أبحاثه حقَّها

أحيانًا من النظر البليغ.

□ رُزق الصدِيقُ العلامة صفاتٍ إذا جُمع بعضها لغيره عُد قريعَ دهره ووحيدَ عصره، فقد كان طَلْقَ اللسان، وطلْقَ المُحيًّا، وافر العقل، سريع الخاطر، سريعَ الكتابة، جميل العهد، جميل الود، وكان جمال الدين والدنيا، ما اجتمع به أحدٌ إلَّا وتمنى لو طال بحديثه استمتاعُه ليزيد في الأخذ عنه، والتشبع بفضائله والاغتراف من بحر علمه.

□ وبينما كنت ترى الأستاذ على قَدَم السلف الصالح، عالمًا كبيرًا بين الفقهاء والأصوليين والمحدِّثين والمفسرين، إذا هو من الأفراد المختصين بالأدب وما يتعلق به، وبينا تراه يؤلف ويطبع، إذا بك تراه يواظب على تدريس طلبته ووعظ المستمعين في درسه وخطبه، ومع كل هذه الأعمال التي قد يكون فيها انقباضٌ في صدر العامل، تراه يَهِشُّ ويَبِشُّ كل ساعة، ويَفسح من وقته شطرًا ليَغْشَ مجلسَه أوفياؤه وأخلاؤه وطلابُ الفوائد منه، فهو علَّامةٌ بين العلماء، منوَّر ممدن بين المنورين بنور المدنية الصحيحة.

□ ذهب مثال الرجل الصالح، عفيفُ الطُّعمة، لم يَسِفَّ إلى ما يَسِفُّ إليه بعض من يتذوقون قليلًا من المعارف، وما أنكر إلَّا المنكر، ولا أمر إلَّا بالمعروف، ومِن ضيق ذاتِ يده كان يتصدقُ في السر، ولا يخلو ساعةً من عبادةٍ وذكر، وما فَقْدُه جللٌ على دمشق، بل على الشام، بل على أهل الإسلام، وشهرتُه التي نالها في العالم الإسلامي في هذه السن من الكهولة هي مما استحقه أو أقلّ مما يستحقه؛ لأنه حقيقةُ العالم العامل الذي يحبب الدين حتى لمن لم يتدين حياته.

✍ فاللهم عوِّض المسلمين عن هذه الدرة اليتيمة التي أُصيبوا بها،

وارحمه عدادَ حسناته، وارزُقْنا الصبر عليه، وجميع أسرته ومريديه وأحبابه الذين فُجعوا به».

مؤلفات القاسمي:

□ كان جمال الدين يدعو أهل العلم وأصحاب الفكر النيِّر إلى التأليف، ويحثهم عليه؛ لأنه يرى أنَّ «الكتاب خير من ألف داعية وخطيب؛ إذ يقرؤه الموافقُ والمخالف. فإن المعارض لا بد إذا بَلَغه أنه قد طلع شيءٌ ضده أن يطالعه ويردَّ عليه، فإذا أنصف رجع إلى الحق».

وقد أخذ نفسَه بالتأليف منذ كان صغير السن، وأعانه على الكتابة قلمٌ سيَّال يشبه فكره، ودأب على التصنيف والتنظيم، وسرعة في الذاكرة والمراجعة. ولئن كانت أوقاتُه مملوءةً بالعمل مطالعةً وتدريسًا وتوجيهًا وقيامًا بشؤون الأسرة الكبيرة، فإنه قد خصص وقتَ الضحى للتأليف، وهو الوقت الذي ينشغل فيه غالبُ الناس، يعتزلهم في سُدَّة جامع السنانية أو ربما في البيت أو في حجرة له كانت بمدرسة عبد الله باشا العظم قرب سوق الخياطين.

وربما كان ذلك لأن الشيخ لا يتمكنُ في ذلك الوقت من التدريس، فاستفاد من تلك الفترة الحيوية.

على أنه كان يستثمر كل دقيقة تمرُّ به، حتى إنه ليكتب في كل مكان يمكن أن يكتب فيه، في القطار كما مر بنا، وفي البيت، وفي العربة، وفي النزهات. ربما توقف مرات في الطريق ليسجِّل خاطرةً سنحت له في دفتر صغير أعدَّه لهذا الغرض، يحملُه في جيبه أينما ذهب. بل إنه ليكتبُ وهو مريض، لا تمنعُه عن التأليف إلَّا حالةٌ قاهرة. ورأينا أنه ألَّف خلال رحلته

الأولى إلى مصر كتاب «شذرة من السيرة المحمدية» وطبعه هناك. وأنهى كتابه عن البواسير وعلاجها وهو في نزهة بين أصحابه في ربوة دمشق، وكتب جزءً من كتابه «قواعد التحديث» في بيت المقدس.

كان هذا الاهتمامُ بالتأليف في زمنٍ قلَّ فيه الكَتَبة والمؤلفون، واكتفى العلماء بما بين أيديهم مِن كتبٍ لم يعُد كثيرٌ منها يصلح لزمنهم وما جدَّ فيه من جديدِ الأفكار والأساليب. ولم يكونوا ليفكروا بالبحث عن أفضل منها.. وظل الشيوخُ -بما فيهم المشهورون- يقررون كتبًا معينةً وحواشي محددة، لا يخرجون عنها، ولا يَحيدون عن عباراتها وألفاظها.

ويُعدُّ القاسميُّ من المكثرين في التأليف رغم كثرة شواغله، وكونه ربَّ أسرةٍ كبيرة تحتاج إلى رعاية وخدمة، وقد أحصى ولده ظافر من كتبه ٨٧ كتابًا، ذكر أن عشرة منها ضاعت، أخذ عناوينها من مجلة المنار، وقال: «هي موجودة، ولا شك أنها دخلت في جملة مكتبته التي انتقلت من مكانها ثلاث مرات».

□ إلَّا أن عاصم البيطار قال: «إن والده الشيخ محمد بهجة أوصلها إلى ١١٠ مصنفات دون أن يعيِّن أسماءها، ولا أن يُثبت الزيادات التي يراها.

والحق الذي يبدو بعد التتبع أن ابنه قد فاته بعض الكتب التي نشرت أسماؤها في المنار وغيرها من الصحف، كما لم يعدَّ من مؤلفاته تلك الرسائل التي أوردها أبوه في مفكراته، ولذلك فقد كان البيطار على حق في قوله، كما سنرى من القائمة التي أحصينا فيها ما كتبه الشيخ.

على أن كتب القاسمي التي جاوزت المئة -وبعضها من أجزاء كمحاسن التأويل وكثير منها رسائل في قضايا معينة- كنوز تحفل بنوادر

الفوائد وجميل الفرائد، فيها ثمرةُ مطالعاتٍ خصبة غنيةٍ، واطلاع شامل على المكتبة الإسلامية مطبوعها ومخطوطها على السواء.

ولعل أقدم مؤلفاته مجموعٌ لطيف سماه «السفينة» جمع فيه عام ١٢٩٩هـ -وكان له من العمر ١٦ سنة - مختارات من مطالعاته في كتب شتى.

وقد أجمع مَن يعرف القاسمي أن أجلَّ كتبه تفسيره المسمى «محاسن التأويل» (١٧ مجلدًا)، ومن أنفع مؤلفاته «قواعد التحديث»، وهو من المراجع المهمة في بابه «وموعظة المؤمنين تلخيص إحياء علوم الدين». ومن كتبه الجميلة «تعطير المشام في مآثر دمشق الشام» ولا يزال مخطوطًا و«شمس الجمال على منتخب كنز العمال»، و«الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين».

□ وغالب هذه المؤلفات تمثل دعوة القاسمي في الحث على التمسك بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة وهجرِ التقليد ومحاربة البدع والضلالات.

* وهذه قائمة بمؤلفاته:

- آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي.
- الآراء الفلسفية في الموت وفي علاج الخوف منه، وفي رفع الأوهام عنه، وفي رحمة وجوده، وفي أن الحياة الحقيقية بعد الموت.
- الأجوبة المرضية عما أورده كمال الدين بن الهمام على المستدلين بثبوت سنة المغرب القبلية.
- أجوبة المسائل.
- الاحتياط للخروج من الخلاف.
- الارتفاق بمسائل الطلاق.

- إرشاد الخلق بعمل البرق.
- إزالة الأوهام بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي هم به عليه الصلاة والسلام.
- الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس.
- الإسراء والمعراج.
- إصلاح المساجد من البدع والعوائد.
- أعداء الإصلاح (مقالة).
- إعلام الجاحد على قتل الجماعة المتمالئة بالواحد.
- إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية.
- إفادة من صحا في تفسير سورة الضحى.
- إقامة الحجة على المصلي جماعة قبل الراتب وأقوال سائر أئمة المذاهب.
- الأقوال المروية فيمن حلف بالطلاق في قضية.
- الأنوار القدسية على متن الشمسية.
- أوامر مهمة في إصلاح القضاء الشرعي وفي تنفيذ بعض العقود على مذهب الشافعية وغيرهم.
- الأوراد المأثورة.
- إيضاح الفطرة في أهل الفترة.
- بحث في جمع القراءات المتعارفة.
- بديع المكنون في مسائل أهل الفنون.

- بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم.
- بيت القصيد في ترجمة الإمام الوالد السعيد.
- تاريخ الجهمية والمعتزلة.
- تاريخ رحلتي إلى المدينة المنورة.
- تعطير المشام في مآثر دمشق الشام.
- تعليقات على أوائل سنن أبي داود.
- تعليقات على حصول المأمور لصديق حسن خان.
- تفسير آية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ.. ﴾ الآية.
- تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب.
- تنبيه الغمر في رد شبهة طهارة الخمر.
- تنوير اللب في معرفة القلب.
- ثمرة التسارع إلى الحب في الله تعالى وترك التقاطع.
- جدول في مخارج الحروف وصفاتها.
- الجواب السني عن سؤال السيد أحمد الحسني.
- جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل (مقالة).
- جواب المسألة الحورانية.
- جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب.
- الجوهر الصاف في نقابة الأشراف.
- حاشية على الروضة الندية شرح الدرر البهية، لصديق حسن خان.

- حسن السبك في الرحلة إلى قضاء النبك.
- حياة البخاري.
- درء الموهوم من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم.
- دلائل التوحيد.
- رحلتنا إلى الأقطار المصرية.
- الرحلة إلى حمص وحماة.
- رد على مسيحيٍّ[1] يزعم أن نعيم الجنة رُوحاني لا جسماني.
- رسالة في أوامر من شيخ مشايخ الإسلام.
- رسالة في علم الأصول.
- رسالة من المسح على الرجلين.
- رفع المناقضات بين ما يزيد في العمر وبين المقدرات.
- زبدة الأخبار في ولدان الكفار.
- زوال الغشاء عن وقت العشاء.
- السطوات في الرد على من منع العشاء قبل الصلوات.
- السفينة.
- سؤال مستشرق وجواب حكيم.
- السوانح.
- الشاي والقهوة والدخان.
- الشذرة البهية في حل ألغاز نحوية وأدبية.

(١) لا يجوز أن يطلق على النصارىٰ لفظ «مسيحي»، فانتبه.

- شذرة من السيرة المحمدية.
- شرح أربع رسائل في الأصول.
- شرح العقائد.
- شرح لباب المحصول في علم الأصول لابن رُشيِّق.
- شرح لقطة العجلان.
- شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير والفقه.
- شرف الأسباط.
- شمس الجمال على منتخب كنز العمال.
- الطالع السعيد في مهمات الأسانيد.
- الطالع المسعود على تفسير أبي السعود.
- الطائر الميمون في حل لغز الكنز المدفون.
- طراز الخلعة في حل قول الرملي: وأقسام الاسم تسعة.
- العقود النظيمة في ذكرى مولد النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة ومحاسن شريعته القويمة.
- غنيمة الهمة في كشف الغمة.
- فتاوى مهمة الشريعة الإسلامية.
- الفتوى في الإسلام.
- فصل الكلام في حقيقة عود الروح للميت حين السلام.
- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين.
- في رحلتي إلى البيت المقدس.
- قاموس الصناعات الشامية.
- قواعد أصولية.
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث.

- قواعد تفسيرية.
- كتاب الأولياء.
- كتاب دون عنوان ولا تاريخ.
- كناشة.
- الكنى والألقاب (مقالة).
- الكواكب السيارة في مدائح الفوارة.
- الكوكب المنير في مولد البشير النذير.
- لزوم المراتب في الأدب مع الإمام الراتب.
- اللف والنشر في طبقات المدرسين تحت قبة النسر.
- ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير.
- مجموع متون أصولية.
- مجموعة خطب.
- مجموعة لطيفة في نصوص إجازات منيفة.
- محاسن التأويل «تفسير القاسمي».
- محاورة في الفوتوغراف.
- مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن.
- مسائل الإظهار.
- المسح على الجوربين.
- المسند الأحمد على مسند الإمام أحمد.
- مفكرات القاسمي.
- منتخب التوسلات.
- المنتزه الأرفع في الفصول الأربع.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين.

- ميزان الجرح والتعديل.
- النغمة الرحمانية شرح متن الميدانية.
- نقد النصائح الكافية.
- هداية الألباب لتفسير آية ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].
- الوعظ المطلوب من قوت القلوب.
- وفاء الحبيب وعده بإيضاح جهة الوحدة.
- ينابيع العرفان في مسائل الأرواح بعد مفارقة الأبدان.

□ قال عاصم البيطار: «إن النظر المتأنِّي فيما ترك علَّامة الشام القاسمي من آثار وأقوال في مختلف وجوه العلم، يدلُّ على أن ثقافته كانت شيئًا فريدًا بين معاصريه، فقد كانت ثقافةً موسوعية، لم تقف عند حدود علوم الشريعة واللغة والاجتماع، بل عُنيت بما استَحدثه العصر من مكتشفات ومخترعات، وما وصل إليه العلمُ من آراءٍ ونظريات، واستخدام ذلك كلِّه في خدمة الدين وإقامةِ المجتمع الإسلامي على أفضل الأسس والقواعد التي لا تفقدُ صِبغتَها الإسلامية، ولا تتنكرُ لتقدمٍ سليم أو معطياتٍ علمية نافعة؛ لأن الإسلام دينُ فطرةٍ مؤمنة وعقلٍ متفتح، ونظامٌ عام ينتظم الحياةَ كلَّها ودولةً فاضلة، فلا غرابةَ إذا حدَّثَنا عن العمل بالبرق والكهرباء والهاتف، التي بدأت مفهوماتها تصل إلى أسماع بعض الناس في الشرق آنذاك، ولا عجب إذا وضع رسائلَ في القهوة والشاي وبعض المعارف الطبيَّة، إلى جانب آثاره الجليلة في التاريخ والتفسير والحديث والاجتماع والأخلاق».

«محاسن التأويل» أعظم محاسن القاسمي ومؤلفاته:

لو لم يكن للقاسمي إلَّا تفسيره العظيم المُسَمَّى بـ «محاسن التأويل» لكفاه شرفًا، فهذا التفسير من أعظم كتب تفاسير المتقدمين والمتأخرين.

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة هذا التفسير: «أما بعد، فإن أكرم ما تمتد إليه أعناق الهمم، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم، العلمُ الذي هو حياة القلب، وصحة اللب؛ وأجلُّ أصنافه وأرفعها، وأكمل معالمه وأنفعها، هي العلوم الشرعية، والمعارف الدينية. إذ بها انتظام صلاح العباد، واغتنام الفلاح في المعاد. وعلمُ التفسير، من بينها، أعلاها شانًا، وأقواها برهانًا، وأوثقها بنيانًا، وأوضحها تبيانًا. فإنه مأخذها وأساسها، وإليه يستندُ اقتناصها واقتباسها، بل هو -كما وُصف به- رئيسُها ورأسُها. كيف لا وموضوعه، هو الكتاب المجيد، كليةُ الشريعة، وعمدةُ الملة، ويُنبوعُ الحكمة، وآية الرسالة، ونورُ الأبصار والبصائر. وإنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسُّك بشيء يخالفه. فلا جرم، لزم من رام الاطلاع على كليات الشريعة الغراء، وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها النجباء، أن يتخذه سميره وأنيسه، ويجعله على المدى -نظرًا وعملًا- جليسه. فيوشك أن يفوز بالبُغية، ويظفر بالطِّلْبة، ويجد نفسه من السابقين، وفي الرعيل الأول المهتدين، ويشرق في قلبه نورُ الإيقان، وتطلُعُ في بصيرته شمسُ العرفان، ويتبوأ في الدنيا والآخرة مكانًا عليًا، وتدرج النبوة بين جنبيه وإن لم يكن نبيًّا.

وإني كنتُ حرَّكتُ الهمَّة إلى تحصيل ما فيه من الفنون، والاكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون، فأكببت على النظر فيه، وشغفت بتدبُّر لآلئ عقوده ودراريه، وتصفَّحت ما قُدِّر لي من تفاسير السابقين، وتعرَّفت،

حين درست ما تخلَّلها من الغث والسمين، ورأيتُ كُلًّا بقدر وسعه حام حول مقاصده، وبمقدار طاقته جال في ميدان دلائله وشواهده، وبعد أن صَرَفت في الكشف عن حقائقه شطرًا من عمري، ووقفتُ على الفحص عن دقائقه قدرًا من دهري، أردت أن أنخرط في سلك مفسِّريه الأكابر، قبل أن تُبلَى السرائر وتفنى العناصر، وأكون بخدمته موسومًا، وفي حملته منظومًا، فشحذت كليل العزم، وأيقظت نائم الهم، واستخرت الله تعالى في تحرير قواعده، وتفسير مقاصده، في كتاب اسمه بعون الله الجليل «محاسن التأويل».

وقد اشتغل القاسمي في تأليفه منذ عام ١٣١٧هـ ، وأتمَّه في رمضان ١٣٢٧هـ ، ثم أعاد فيه النظر، وخصَّص لمراجعته موعدًا ليلتيْن في الأسبوع حتى أنجزه عام ١٣٢٩هـ .

فلله درُّ القاسمي من إمام تبقى سيرتُه عطرةً مدى الأيام والأزمان.

٧- إمام الهند الشيخ محمد أنور شاه الكَشْميري[1] **(١٢٩٢هـ- ١٣٥٢هـ) :**

هو حافظُ العصر، ومُسْنِدُ الوقت، المحدِّثُ المفسِّرُ، الفقيهُ الحنفي، الأصولي المكين، المتكلِّم النظَّار، المؤرِّخ الأديب، اللُّغَوي الشاعر، البحَّاثة النقَّادة، المحقِّق الموهوبُ، الإمامُ الشيخ، محمد أنور شاه الكَشْمِيري، ابنُ الشيخ مُعَظَّم شاه، ابنِ عبد الكبير شاه الكشميري. جاء سَلَفُه من بغداد، ونزلوا مُلْتَان، ثم رحلوا منها إلى لاهُور، ومنها إلى كَشْمِير، فأصبحَتْ لهم

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب «تراجم ستة من كبار فقهاء العالم الإسلامي» لعبدالفتاح أبو غدة، وقد أخذ هو الترجمة من «نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور» للشيخ محمد يوسف البَنُوري، وما كتبه الشيخ محمد بدر في مقدمته لكتاب «فيض الباري» للشيخ أنور الكشميري.

مُستقرًّا ومُقَامًا.

وُلِدَ في ٢٧ من شوال سنة ١٢٩٢، في قرية وُدْوَان -بوزن لُبْنان- التابعةِ لمدينةِ كشمير: جَنَّةِ الدنيا وزهرةِ الربيع الدائم. ونشأ في بيتِ علمٍ وصلاح، في رعايةٍ دقيقةٍ، وتربيةٍ عجيبةٍ، وكان على درجةٍ عاليةٍ جدًّا من الفطنة والذكاء النادر، وكان والده عالمًا فاضلًا في جملةٍ من العلوم الشرعية والعلوم الرياضية وبعض العلوم الآلية فتعلَّم منه ومن شيوخ بلاده، حتى فاق أقرانَه نُبوغًا في زمن يسير، وكان وهو صغيرٌ في الطلب يقرأ «مختَصَرَ القدوري» في الفقه، ويَسألُ المدرِّسَ أسئلةً تحتاجُ في الإجابة عنها إلى مراجعة «الهداية» وشروحِها. ورأى بعضُ أعلامِ عصره تعليقاتِه على كتبه الدراسية، فتفرَّس فيه أنه سيكونُ غزَّاليَّ عصرِه ورازِيَّ دهرِه.

فحصَّل علومَ العربية والفقهَ والأصولَ والتفسيرَ والحديثَ وغيرَها تحصيلَ فهمٍ وإتقانٍ، ولـمَّا يَبلُغْ الثانيةَ عشرة من العمر، وكان علمُ الفقه والفتوى في رحاب كشمير مما يُتسابَقُ في حَلْبَةِ رِهانِه، فكان الشيخُ الناشئ الموهوبُ يفتي الناسَ وهو في الثانية عشرة من العمر، ويأتي فتاواه في سَدادِها عديلةً لفتاوى كبار الشيوخ هناك!!!

المعهود في الصغير ابن اثنتي عشرة سنة أنه لا يكاد يُحسِن أحكام الطهارة والوضوء، أمَّا أن يكون فقيهًا ومُفْتيًا في هذا السن، فهذا شيء عُجاب، يكون لأفراد قليلين في العالَم، والله يختصُّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

□ ورحل من بلدته كشمير ليلقَى العلماء، ويُشامَّ الناس، فرحل إلى أكبر جامعة إسلامية في الهند «دار العلوم الإسلامية» في بلدة دِيوبَنْد، وهي

على مئة ميل من الجانب الغربي الشمالي لدهلي عاصمة الهند، وتلقَّى العلوم على أكابر العلماء في هذه الجامعة.

وكان أَكْبَرُ هؤلاء الأجلَّة: الشيخَ محمود حَسَن الملقَّب بشيخ العالم، والمعروف بشيخ الهند شيخَ الجامعة الديوبندية، وهو مُرْتَوٍ من علوم القرآن والسنَّةِ والفقهِ والأصولِ وغيرِها من العلوم، مع مواهبَ فِطرية عالية، فوجدَ الشيخُ الكشميريُّ عنده ضالَّتَهُ التي يَنشُدُها، والعلومَ التي يتطلَّبُها، والإمامةَ الفذَّةَ التي تُشْبعُ نَهَمَهُ وتُلاقِي نُبوغَه، وَتُغَذِّي طُموحَهُ وذكاءَه، فملأ من مَعارفِهِ ومَداركِهِ قَلْبَه ولُبَّه، ونَهِل منها وعَبَّ، ولازَمَ الشيخَ مُلازمةً أكسبته الفضائلَ الفريدةَ، والعلومَ الدقيقةَ فيما أَخَذَ عنه.

وأَخَذَ أيضًا عن العلامة المحدِّث الشيخ محمد إسحاق الكشميري، ثم المَدَني، فاستكْمَلَ على هذين الشيخين الكبيرينِ -وغيرِهما من شيوخِ تلك الجامعة- ما بقي من العلوم التي تُدْرَسُ هناك.

وكان لهذين الشيخين الجليلين استئثارٌ برُوحِه ومَشاعره، لِمَا آتاهما الله من المعارف والنبوغ، فقرأ عليهما جملةً حسنة من كبار كتب السنَّة، فقرأ على الأول -شيخ الهند- «صحيح البخاري»، و«سنن أبي داود» و«جامع الترمذي»، كما قرأ عليه أيضًا الجزأين الأخيرين من كتاب «الهداية» وهو من أعظم كتب الفقه الحنفي التي تعتني بالدليل والتعليلِ والمحاكمة بين المذاهب الفقهية.

وقرأ على الثاني -الشيخ إسحاق الكشميري- «صحيح مسلم» و«سنن النسائي»، و«سنن ابن ماجَهْ».

□ وفَرَغَ من قراءة هذه الكتب وإتقانِها على هؤلاء الجهابذة في سنة

١٣١٣، وقد جاوزت سِنُّهُ العشرين سَنَةً، وغدا بعدَ تخرُّجه على يد أولئك العلماء في دِيوْبَنْد: عالِمًا فاضلًا مرموقًا، نابغًا في علوم الرواية والدراية، وهو ما يزال في مُقْتَبَل شبابه، فاستَشرَفَتْ إليه العُيون، وتعلَّقَتْ به القلوب، وتوجَّهَتْ إليه الأنظارُ.

علوُّ همته في نشر العلم وإنشاءِ معاهِدِه:

□ وبعد أن اكتَمَلَتْ مَعارفُه، ذهب إلى مدينة دِهْلِي، فدرَّسَ فيها في «مدرسة عبد الرَّبِّ» عدَّةَ شهور، وتفرَّسَ فيه بعضُ الصلحاء من أصدقائه مَخايِلَ النجابةِ الباهرة، فأصَرَّ عليه أن يَنهضَ بتأسيس مدرسة عربية في دِهْلِي، فاستجاب لذلك وأسَّسَ فيها: «المدرسة العربية الأَمِينيَّة» نسبةً إلى صديقِه محمد أمين، أسَّسها بمساعدةِ أهلِ الخيرِ والثروة، وكلُّ مَدارِس الهند الإسلامية وجامعاتُها الدينية تقومُ على إمدادِ أهل الإيمان واليَسار من المسلمين، جزاهم الله الخير، وما تزال «المدرسة العربية الأمينية» قائمةً إلى اليوم والحمدُ لله.

□ وشاع صِيتُ هذه المدرسة في أقطار الهند، وقُصِدَتْ من كل جانب، وشَرَعَ الشيخ نفسُه يُدَرِّسُ فيها العلومَ وأعاظمَ الكتبِ من الحديثِ والتفسيرِ والبيانِ والمعقولِ وغيرِها، وبَقي على الإفادةِ والتدريس عِدَّةَ سنين، وتَخَرَّجَ على يديه الأفواجُ الكثيرةُ من الطلبةِ الذين غَدَوْا كبارَ العلماء في تلك الديار بعدَه.

ثم أغراه الحنينُ إلى مَأْلَفِه وبَلَدِه كشمير، وكان قد اطمأنَّ إلى بُسُوقِ المدرسةِ الأمينيَّةِ واستكمالِ وجودِها، فتوجَّه إلى كشمير، وأسَّس فيها مدرسةً دينيةً علمية سمَّاها «الفيضَ العام» فدرَّس فيها وأفتَى ونَصح الأمَّة

قَلَمًا ولسانًا، وأزال كثيرًا مما راج هنا من البدع والرسوم المُحْدَثة، فانقشَعَتْ بوجودِهِ سحائبُ الجهل المتراكمة، وتلألأت آثارُ السنَّةِ النبوية الشريفة.

□ ورحل إلى مكة والمدينة سنة ١٣٢٣هـ، واغتنم فرصة قربه من مكتبات المدينة المنورة الخَطِّية، وخاصة مكتبة شيخ الإسلام «عارف حكمت»، والمكتبة المحمودية، فانكبَّ على مطالعة نفائسهما من التفسير والحديث وغيرهما. وبعد عودته إلى كشمير أراد المجاورة في المدينة المنورة، فأمره شيخه «محمود الحسن» أن يقيم في ديوبند لينتفع الناس بعلمه، وأمره بتدريس «صحيح مسلم» و«سنن النسائي»، و«سنن ابن ماجه»، فنهض بها على خير وجه، وكانت فاتحة تدريسِهِ في أكبر جامعةٍ دينية في الهند: «دار العلوم الإسلامية»، واستمرَّ على ذلك إلى سنة ١٣٣٢.

□ ثم أراد شيخُه السَّفَر إلى الحج والزِّيارةِ في عام ١٣٣٣، فاستَخْلَفَهُ نائبًا عنه في التدريس وصَدَارةِ المدرِّسين، فأَخَذَ يُدرِّس «صحيح البخاري»، و«سنن أبي داود»، و«جامع الترمذي» وغيرَها من أمهاتِ كتب الحديث، وكان من أمرِ الشيخ محمود الحَسَن أنْ أَسَرَتْهُ الحكومةُ البريطانية الغاشمة، لزعامتِهِ العِلميةِ والدينية في الهند، واحتجزَتْهُ في جزيرة مَالطَة! فبَقِيَ الشيخُ الكشميريُّ قائمًا مَقَامه، في تدريس كتبِ الحديث: «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي»، وغيرِهما.

وقَضَى في «ديوبند» ثُلُثَ عمره، وجَرَتْ من قلبِهِ وفَمِهِ ينابيعُ الحِكمة ومَنابعُ العلم والمعرفة، حتى استفادَ منها رجالٌ من الأفاضلِ وأماثلِ العصر، وتَضَلَّع من لا يُحصَى عَدَدًا من الأصاغرِ والأكابر، وتخرَّج في تلك

الحِقبة أكثرُ من ألفَيْ عالِمٍ ممن قرأوا عليه أمهاتِ كتب الحديث، وكان الشيخُ مَحطًّا للرحال، وكان دَرْسُهُ جامعًا للبدائع، تَنحَلُّ فيه مُشْكِلَاتُ سائِرِ العلوم.

نهوضه في وجه القاديانية:

وفي عهد إقامتِهِ في «دِيوبَنْد» سَلَّ صَارِمَه العَضْبَ، لقطع عُروقِ الثُّلَّةِ الباغيةِ القاديانية، بلاغًا وإرشادًا ودَرْسًا وتأليفًا، واستَحَثَّ من العلماء والطلبةِ وعامَّةِ الأمةِ الإسلامية: الهِمَمَ المتوانيةَ والجهودَ المتقاعِدة، إلى مُقاومةِ هذه الفئة الضالَّة المُضِلَّة، وإلى قَمْع هذه الفتنةِ العمياء، حتى أيقَظَ الرُّقود، ونَبَّه الغافلين، من أصحابِ الجرائد والمجلاتِ على مكايِد هذه الفِرْقَةِ الكائدةِ للإسلام ودسائِسها، فأثمر اللهُ تعالى نَهضتَهُ المباركة، وأقْبَرَ تلك الفتنةَ بسعيِهِ وعلمِهِ وقلمِهِ ولسانِهِ وتأليفه، فكان له في هذا المضمار مآثِرُ جليلة لا تُنْسى على تقادُمِ الأزمان.

وألَّفَ في نقضِ نِحْلَةِ «القاديانيَّة» وهَدْمِها تآليفَ فريدة، منها: «إكفار الملحدين في ضروريات الدين»، و«عقيدةُ الإسلام بحياةِ عيسى عليه السلام»، و«تحيةُ الإسلام بحياةِ عيسى عليه السلام»، و«خاتمُ النبيين»، بالفارسية، و«التصريحُ بما تواتَرَ في نزول المسيح»، وهو أفضَلُ كتابٍ اعتنَى بجَمْع الأحاديثِ والآثار في دَحْضِ هذه النِّحْلَةِ لتلك الفِرقةِ الضالةِ، وهَتْكِ معتَقَدِها.

□ وفي سنة ١٣٤٦ استقال من منصبه في درسه في «ديوبند»، ورحل إلى «دابيل» على بعد ١٥٠ مِيل من مدينة بُمْباي، ونشأ بوجودِهِ الميمونِ هناك معهدٌ عِلميٌّ كبيرةٌ يُسمَّى: «الجامعة الإسلامية»، وإدارةُ تأليفٍ

ونَشْرٍ تسمَّى «المجلس العلمي».

ونَشرَ المجلسُ المذكور في حياة الشيخ وبعدَهُ كتبًا نفيسة في شتى المواضيع والعلوم، قاربَتْ الأربعين كتابًا، تلقَّفها العلماءُ من كل جانب، منها «نَصْبُ الراية في تخريج أحاديث الهداية» للحافظ الزيلعي، و«إكفار المُلْحِدين في ضروريات الدين» للكشميري نفسِه، وهو من خير الكتب الفقهيةِ في موضوعِه، و«فيضُ الباري بشرح صحيح البخاري» له أيضًا، و«زادُ الفقير» في الفقه للكمال بن الهُمام، و«مصنَّفُ عبد الرزاق»، وغيرُها من الكتب النافعة.

تاريخ وفاته:

وبقي الشيخُ في «الجامعة الإسلامية» في «دابِيل» خمسَ سنوات، يَشتغِلُ بالدرس والتأليف والوعظِ والتذكير، فاستنارت هاتيك البقاعُ بنور عُلومِه: عِلمًا وعَمَلًا وسُنةً وحديثًا وفقهًا وأُصولًا، فقَوَّم بوجوده الأَوَدَ، وأصلح الله به أُمَّةً هناك، غيرَ أنه اجْتَوَى المُقامَ في «دابِيل»، وما طاب له هواؤها، فابْتُلي ببعض الأمراض، فعاد إلى «ديوبند» رجاءَ أن يكون لتغيير المُناخ أثرٌ في تحسُّن صحته، ولكنَّ العِلَّة قد اشتَدَّت عليه، وتمكَّن منه المرض، فتوفاه الله في ليلةِ الإثنين ثالثِ صَفَر سنةَ ١٣٥٢ رحمه الله تعالى.

وقد خَلَّف مآثِرَ قائمةً مذكورة، وآثارًا في العلمِ ونَشْرِه صالحةً مبرورة، بما أقامه من المعاهد الإسلامية الكبرى، وبالأجيال العالِمِةِ التي تخرَّجَتْ به من كبار الفقهاء والمحدِّثين في بلادِ الهند والباكستان، فكانت حياتُهُ مصْدرَ خيرٍ وتزكيةٍ وعلمٍ وإصلاحٍ للمسلمين في تلك الديار. وقد أَورَث

تلامذتَهُ تلك الهِمَّةَ القَعساء، فانتشروا في الهند وباكستان، يَنشُرون العلم ويؤسِّسون المعاهدَ الإسلامية على مِنواله، فما تَرى عالمًا بارزًا منهم إلَّا وهو مؤسِّسُ مدرسةٍ كبيرةٍ، أو مُديرُ جامعةٍ مشهورة، تَتخرَّجُ بهم أفواجُ العلماء، وتَرْتَوِي من مَعِينهم القلوبُ الظِّمَاء.

استبحاره المُدْهش في علوم الرِّوَاية والدِّرَاية، وحافظته المُحَيِّرة للألباب وسرعة مطالعته:

□ يقول الشيخ أبو المحاسن محمد يوسف البَنُوري رحمه الله تعالى، في «نفحة العنبر من حياة إمام العصر الشيخ أنور»[1] تحت هذا العنوان ما نصُّه باختصارٍ يسيرٍ: «كان الشيخُ -الكشميري- رَحِمَهُ اللهُ آيةً من آيات الله العظام، ونادرةً من نوادر العصر، إمامًا في الحقائق والمعارف، لا يُساهَم ولا يُزاحَم، وقُدرةً لأماثل العصرِ الحاضر في حلِّ الدقائق ومشكلات العلوم، وغوامض الأبحاث العلمية والعرفانية، بحيث لا يُناضَل ولا يُنازَع.

كان إمامًا حجةً في علوم القرآن وعلوم الحديث، مُتْقِنًا في كشف مغزاها ومرماها، وكان مرجعًا للأمة الإسلامية في إيضاح معناها ومبناها، كان حافظًا مُوعِيًا لمذاهب علماءِ الأمةِ المحمدية مع التغلغل في تخريجها وتنقيحها، واعيًا لأقوالهم المختلفة الشتيتة، قادِرًا على اختيار بعضِها من بعض ترجيحًا، أحاط بالعلوم العقلية والفنون الحِكَمِية الحديثة والقديمة، بالرأي الثاقِب والحُكِم النافذ، كان نَقيب العلوم العربية الأدبية غائصًا في بحارِها وغِمارِها.

(١) (ص٢٤- ٣٦).

□ جَمَع الله له من شَمْل الفضائل والفواضل ما تَكِلُّ الألسنةُ عن تفصيلها، وتتلَعْثَمُ عن بيانها، ويَتكَفْكَفُ سَنَا المِزْبَر عن تَسْطِيرِ جميعها. فآثره الله بالقريحة الوَقَّادة، ما خلتْ القرون عن أمثالها، وأردفه بقوة الحافظة ما بلغ غايةً ليس دونها غاية، حتى عَلِمنا عِلمَ يقين صِحَّةَ ما أُثِر لنا من قوة الحافظة للمُحدِّثين وسائر السلف الصالح في العهد الغابر في كتب الطبقات والرجال والتاريخ، بل كأنَّا رأي العين، فلم تبق لنا رِيبَة ولا خطرة من الوَهْم، فقد أبدى الصريحُ لنا عن الرَّغْوَة.

□ بلغني عن الشيخ الفقيه المحدث مولانا حسين أحمد المهاجر المدني أنه قال: «سمعتُ حضرةَ الشيخ -الكشميري- رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: إذا طالعتُ كتابًا مُرتجلًا، ولم أُرِد ادخار مباحثِهِ، يبقى في حفظي إلى نحو خمس عشرة سنة.

ثم مع هذه الحافِظة وُفِّق لغزارة المطالعة وسُرعتها بحيث تتحيَّرُ منه العقول، حتى تُطْوَى من بين يديه ذخائرُ من المكنونات العلمية كلَّ يوم، حتى سمعتُ من بعض خواصِّ معارفه: أنه أول ما كان يُطالِعُ «مسند أحمد» المطبوع بمصر، كان يُطالِعُ كلَّ يوم نحو مئتي صفحة منه، مع غورٍ وإمعانٍ في أسانيده وحلِّ مُشْكِلاتِه.

□ وسمعتُ من حضرة الشيخ قولَهُ رَحِمَهُ اللهُ: «إني طالعتُ أولًا «مسند أحمد» فلَخَّصتُ منه أدلة الحنفية والأحاديثَ المفيدة لهم في عدة أيام، ولكن مع هذه السُّرْعة كان ينقلُ أحاديثَه أينما احتاج له في المشكلات والمعضلات مع ضبط تامٍّ لأحوالِ رُواتِها وطبقاتِها. ثم طالع «مسند أحمد» مرةً ثانيةً في أواخر عمره لالتقاط أحاديث نزول سيدنا عيسى على نبيِّنا

وعليه السلام.

ثم مكنَه الله من حُسن الإلقاء على الطلبة، والإملاء على الأشهاد، بجَزَالة التعبير ونفاسة التحبير.

□ وهاك أمثلةً يسيرةً من سرعة مطالعته، ودقة نظره، واستبحارِه في سائر العلوم النقلية والعقلية:

١- طالَع في سنة ١٣٢١ من الهجرة كتابَ «فتح القدير» للشيخ المحقق العارف كمال الدين ابن الهُمام رَحِمَهُ اللَّهُ مع «التكملة» في بضع وعشرين يومًا، وكَتَب تلخيصَه إلى كتاب الحج، وأجاب عن إيراداته التي أوردها على صاحب «الهداية»، وناقش فيها في جزء لطيف. كلُّ ذلك في تلك البرهة القصيرة، ثم استغنى عن المراجعة لنقل مباحثه في جميع المسائل مدةَ عمره، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ حكى لنا هذه الواقعة في سنة ١٣٤٧ الهجرية تحديثًا بنعمة ربه، وحثًا لأشواق الطلبة ولَوَاعِجِهم إلى مطالعةِ الكُتب ومُقَاساة الشدائد فيها.

□ وكان أكبر مؤلِّف -في العالم في العصر الحاضرة الذي تربو مصنفاته على مئين، حتى فاق في كثرة التصانيف على السيوطي- حكيم الأمة محمد أشرف على التهانوي يسأله عن أمور من غوامض المسائل ومشكلات الفتاوى.

□ وكان الشيخ الفقيه المحدث خليل أحمد السهارنفوري صاحب «بذل المجهود شرح سنن أبي داود» يسأله عما يُشكل عليه في تأليفه.

□ وكان شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي ربما يقول له: «هل لأحد في ذلك قول؟ وهل عثرت لأحد على حلِّ هذه المشكلة؟ اعترافًا بسعة

علمه وغزارة مطالعته وتبحره واطلاعه الواسع».

□ وهذا الشيخ مولانا محمد ظهير حسن النِّيْمَوِي رَحِمَهُ اللَّهُ، المحدث الشهير، صاحب «آثار السنن»، كان يستفيدُ من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالتراسل والتكاتب في غوامض الحديث، وكان يستعين به في تأليف كتابِه «آثار السنن»، وكان يَعرِضُ عليه ما يُؤلِّفه قِطْعَةً قِطْعَةً، هكذا سمعتُ عن حضرة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال في كتابه «نيل الفرقدين»: «وقد كان الشيخُ «النيموي» المرحومُ حين تأليفه ذلك الكتاب يُرسِل إليّ قطعةً قطعةً حتى إني كنتُ مرافقًا فيه، وزِدتُ عليه أشياءَ كثيرةً بعده» اهـ.

وكان الشيخ إذ ذاك شابًّا، والمحدث النيموي كان شيخًا بازلًا.

فناهيك بأمثال هؤلاء أعلامِ العصر شُهودًا عُدولًا قولًا وعملًا، وكثيرًا ما رأينا في جملة من أسفاره في بلاد الفنجاب أنه كان يجتمع لزيارته طوائف من المشايخ، والعلماءُ المدرسون المُكبُّون على مطالعة الفنون ليلًا ونهارًا، ويَسألونَه حَلَّ ما أشكل عليهم في أي كتاب من أي علم كان.

فرجلٌ يَسأَل في الفقه، ورجلٌ في الحديث، وعالمٌ في معضلات النحو، وآخر في دقائق العلوم الإلهية والطبيعية، وغيرُه في العلوم الآلية، وواحدٌ في التاريخ بل في مبهماتِه ومشكلاتِه، وآخرُ في سِير المصنفين وعاداتِهم، هكذا واحدٌ بعد واحد، فتارةً يُخاطِب هذا وتارةً يُجاوِب هذا، وتَارةً ذلك ومرة ذاك، فيَشتفي ويَشفي، حتى ترى أنه بحرٌ يموج، أو مُزنة تَهْمِي، أو وادٍ يسيل، إذا شرع في الحديث خِلْتَ أنه لا يُحسنُ غيرَه، وإذا شرع في استطراد غوامض الفقه ظننت أنه لا يعلم غيرَه، وإذا شرع في البلاغة ودقائِقها حسبتَ أن الشيخ عبد القاهر رَحِمَهُ اللَّهُ عَادَ منشورًا.

□ لا ريب أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان حبر الأمة، فكان عالمًا بمنابت القصيص[١]، جمع الله له شمل الفضائل والفواضل، ولقد صدق القائل:

لــيس عــلى الله بمُــستنكرٍ أن يجمــع العــالم في واحــد

هذا، وكانت قد انعقَدتْ حَفلةُ تأبينٍ عظيمةٌ بالجامعة الإسلامية بعد وفاة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تعزيةً ورِثاءً، وقد ألقى شيخُنا مُحقِّقُ العصر مولانا العثماني فيها خُطبةً باللغة الأردية، مُؤَثِّرةً بليغةً ناجعةً، فبَكَى وأبكَى حتى ذَرَفَتْ العيونُ، ووَجِلَتْ القلوبُ، وقد قيل: عينٌ عَرَفَتْ فَذرَفَتْ.

أريدُ أن أُهدي للناظرين طَرَفَها وأَزُفَّ إليهم عَرائسَ أبكارِ الكلماتِ التي التَقَطتُها من تلك المقالة الناجعة، فإنها كلمةٌ كَشَفَتْ عن وجوهِ مُخدَّراتِ مآثِرِ الشيخ لِثَامَ الشكِّ والارتياب، بحيث يَرتاحُ لها أولو البصائر والألباب، فدونك كلمةً جامعةً مُلخَّصةً مترجمةً إلى العربية ترفُل في أذيالها، وتَبدُو للمشتاقين بحُسنِها وجمالِها. قال:

أيها السادةُ! قد أُرخيَتْ اليومَ على العلم والفضل سُدولُ الظَّلام، إذ قد نَزَلتْ داهيةٌ عظيمةٌ أصبحَتْ أربابُ الفضلِ والعِلم قاطبةً بها يَتَامى، ما أريدُ أن الطَّلَبَةَ وأصحابَ التحصيل أصبحُوا يَتَامى، بل العلماءُ والشيوخُ وأساتذةُ الطَّلبة أَضحَوا يَتَامَى، فَقَدوا من يَقومُ بحَلِّ مشكلاتهم.

بليةٌ قد غَشِيَتْ العالَمَ الإسلامي بأسرِه، لم يبقَ لنا اليومَ من يَحُلُّ لنا مُشكلاتِ القرآن، وغوامضَ الحديث، فإلى من يُرجَع في المُعضِلات، وممن

---

(١) القَصِيص جمعُ قَصيصة، وهي شُجَيْرة تنبت عند الكَمْأة، فيُستدلُ على الكَمْأة بها، وهذا مثل يُضرَب للرجل العالم بما يُحتاج إليه، كما في «مجمع الأمثال» للمَيْداني (١/ ٥٣).

نَستَطِبُّ سَقامَنا، قد تَزَلْزَل اليومَ أساسُ العلم، وانهَدَّ عمود المِلَّةِ الإسلامية، فهذه ثَلْمَةٌ لا يُرجَى سَدادُها.

رُبَّ مَسَائلَ مُعضِلةٍ قد أَعْوزني دواؤها فاستَقريْتُ لها أسفارَ القدماءِ، وتَصفَّحتُ بها زُبُرَ كبارِ المحققين، فلم أَفُز بما يَشفي غليلَ صدري، فراجعتُ حضرةَ الشيخ الأنور -أنارَ اللهُ مرقَدَه- فشَفَى صدري بكلماتٍ مُختَصرةٍ جامعةٍ مُنقَّحَةٍ، تَطمَئِنُّ به النفوسُ، وتَقَرُّ به الأعينُ، وتَسكُنُ إليه القلوبُ، أو أَرشَدَني إلى زُبُرٍ وأسفارٍ يكونُ هناك المَحيصُ عنها، فيكون الأمرُ كما يقول.

وهكذا كلما كان يُسأَل عن دقائق المسائل مما بَلَغ الغايةَ دقتُها، ومما تَعَسَّر على الأذكياءِ المتبحرين انفصامُها، يُجيبُ عنها ارتجالًا من غير رَوِيَّةٍ وإمعان نظر، كأن قد حَلَّ جميعَ هذه المُشكلات من زمانٍ مديدٍ، وفَرَغ عنها مُطمئِنَّ القلب، فقد رَزَقه اللهُ علمًا وسيعًا أحاط بسائر مُشكلاتِ العلوم من جميع جهاتها.

□ اشتهر في الناس أنه كان في قوة حافظتِه، ومُواظبتِه المطالعةَ ليلًا ونهارًا، وتَبحُّرِه في العلوم، فقيدَ المثل وحيدًا، ولكن الذي هو أكبرُ مزاياه عندي أنه كان خبيرًا مُطَّلعًا على أرواحِ العلوم وحقائِقِها، وهذه هي غايةُ مَعارِج العلم ونهايةُ مَدارِجه.

لو سألني أحدٌ: هل رأيتَ الحافظ ابنَ حجر العسقلاني؟ وهل لاقيتَ الحافظ تقي الدين ابنَ دقيق العيد؟ أو سلطانَ العلماء عزَّ الدين بن عبدالسلام رحمهم الله؟ فلو أجبتَه بقولي: نعم، لكنتُ صادقًا تشبيهًا واستعارةً، ولا غَرْوَ، فإنه كان مُتصِفًا بتلك المزايا التي امتازوا اليومَ بها في

الأمة، ولو سَمَحتِ الأيامُ بوجوده في تلك القرون المبارَكة لعُدَّ في طبقتهم، ولكان مِثلَهم اليوم في الأمة الحاضرة، فأُحِسُّ أن اليومَ قد تُوفي الحافظ ابنُ حجر، والحافظ ابنُ دقيق العيد، وسلطانُ العلماء، وحُرمنا من استفادة علومِهم وبَركاتهم اليوم.

□ ثم فوق ذلك ما جَمَع اللهُ فيه من الوَرَع، والزُّهْد، والتواضُعِ وحُسْنِ الخُلُق، شمائلَ كريمةٍ قَلَّما تجتمع في عالِمٍ، وإن اتصف بها أحدٌ واجتَمَعَتْ فيه هذه المَلَكات والشمائلُ الحَسَنة، فمن أين لنا وَجهٌ كوجه الشيخ الأنور؟ حيث تَنبَعِثُ أشِعَّتُه، ويَتَهَلَّلُ جَبينُه، وتَقَرُّ العيونُ بمرآه، وتَنشَرحُ الصدورُ بزَوْرَة مُحَيَّاه، وكثيرًا ما رأينا في الأسفار أن الناظرين في الحَفَلات والمواعِظ والمُناظَرَات كما كانوا يتحيَّرُون من تَلاطُم علومِه وسَعة مَعلُوماتِه، كذلك يَنْدَهِشُون من حُسنه البارِع، وجَماله المُعجِب، بل الكَفَرةُ والمُشرِكونَ كانوا يَتَأَثَّرون من نَظرةٍ إلى مُحَيَّاه، ولقد صدق القائل:

لـيس عـلى الله بمُسـتنكَر ... أن يَجمع العـالَمَ في واحـدِ

في آخر العُمُر الانهاكُ والاستغراقُ في بيان الحقائق والمَعارِف، حتى قد يَصدَعُ بحقائقَ عاليةٍ ومعارفَ مَضنُونةٍ تُحَيِّرُ البصائر وألبابَ الفحول.

□ ثم فوق جميع ذلك مصابرتُه على الشدائِد، ومُكابَدَتُه في المصائب، وقد جَرَّبنا ذلك في فتنة اختلافات «دار العلوم الديوبندية»، فتَحَيَّرنا لضبط نفسِه وشدَّة صَبْرِه واستقامتِه واستقلالِه، فاعتَقَدْنا كمالاتِه بعد المُسابَرةِ والتَّجارِب أزيدَ مما كنا نَعتقِدُها من قبل. وقد صدق القائل:

الصدرُ من يَلقَى الخطوبَ بصَدْرِه ... وبـصَبْرِه وبحَمْـده وبـشُكْرِه

انتَهَتْ كلمةُ الشيخ العلَّامة الحَبْر العثماني دامت بَركاتُه مُلخَّصةً، وقد

استَوْعَبَتْ فنَصَعَتْ، وجَمَعَتْ فأَوْعَبَتْ، وكَشَفَتْ الحُجُبَ فصَدَعَتْ، ولا تَلحَقُك غفلةٌ من أن هذه المقالةَ ليسَتْ من أحد تلامذة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا من مسترشديه وأصحابِه، بل هذه مقالةُ من بَلَغ الغايةَ القُصوى في كمالاتِه وفضائِله، ومن هو مُساهِمُه في شيخ، ومُعاصِرَه في عُمرٍ، شَجَرتان من روض واحد، سُقِيَتَا بماء واحد[1]، فلِلَّه دَرُّه ثم لله دَرُّه، كيف صَدَع بالحق وكَشَف بالصدق، جزاه الله عني أولًا ثم عن سائر المسلمين خيرَ ما يُجازي به عباده المحسنين».

□ وقال الشيخ البنوري في «نفحة العنبر»[2] أيضًا:

الشيخ ودأبه في المُطالَعة:

لم يكن دأبُه في المطالعة كأكثرِ علماء هذا العصر من أن يُطالِعوا الكتبَ عند الافتقار إليها في الفتوى أو التأليف أو التدريس، فيُراجِعُون فيما يَحتاجُون إليها من ذلك الموضوع خاصةً، أو يَتَفَقَّدُون ما أرادوه من مَظانِّه، بل كان دأبه في المطالعة أنه كلما تَيَسَّر له كتابٌ، مخطوطًا كان أو مطبوعًا، سقيمًا كان أو سليمًا، في موضوع علمي، أيِّ موضوعٍ كان، من أيِّ مُصنِّف كان، فيأخُذُه ويُطالِعه من أوله إلى الآخر بتمامِه، من غير أن يُبقي شيئًا أو يَذَر، نعم، كان جُلُّ جُهْدِه ومسعاه في أن يطالع كُتُبَ المتقدِّمين، ثم كتبَ أكابرِ المحققين من القرون الوسطى. رحمه الله تعالى.

---

(١) إشارةٌ إلى تفاوت المَراتب مع كون منبعهما واحدًا، مشيًا على ما أراده الله سبحانه في تنزيله العزيز في قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾. البنوري.

(٢) (ص٣٦).

□ وقال أيضًا[١]: «ومن العجائب -والعجائب جَمَّةٌ- أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن من دأبه المطالعةُ بالليل لما يدرُسُه بالنهار، كما هو دأب عامة المدرسين، فلم يكن يُطالِعُ لشيء مما كان يُلقيه في الدروس، حتى سمعتُ منه: «أني ما طالعتُ الكتابَ الذي يُقرأ عليَّ في عمري قط» فقوَّة الحافظة كانت أغنته عن ذلك، فكفاه ما طالع في بَدْء عمره، وأغناه الصباح عن المصباح، لا أنه كان يلحقه الوَنَى أو الكَسَلُ أو المَلَالُ في المُطالعة، بل جميعُ أوقاته كانت عامرةً بمطالعة الأسفار، وزُبُر المحققين.

نعم قد كان يُزوِّر في نفسه هُنَيهةً لئلا ينتشر الكلامُ ولئلا يَتَّسع مَجَالُ البحث كثيرًا، وليكون ما يُلقيه منضبطًا محدودًا حتى يستطيع المُستمِعون والمُستَفِيدون أن ينهَضُوا بأعبائِها، ولولا ذلك لأعجز القومَ عن التلقِّي، فإنه كيف يُسَدُّ البحر الزخَّار، وكيف يُوكَأُ على العيون الثرثارة».

الشيخ أنور والفقه، ونبذة من خصائصه فيه[٢]:

طالَعَ من الفقه وما يتعلق به تصانيفَ الإمام محمد بن الحسن الشيباني من كتب ظواهر الرواية، و«الموطأ»، وكتاب «الآثار»، وكتاب «الحجة» له، بضبطٍ وإتقان وغايةِ فكرٍ وإمعان، ثم شَرْحَ الإمام شمس الأئمة السَّرْخَسِي: «المبسوط»، وهو شرحٌ لكتب ظاهر الرواية التي جَمَعَها الحاكمُ الصدر الشهيد في كتابه «الكافي».

وطالع «شرحَ السير الكبير» له -للسَّرْخسي-، ثم ما تيسر له من تصانيف الإمام الطحاوي من «شرح معاني الآثار» و«مشكل الآثار»

---

(١) (ص١٠٤).

(٢) هذا البحث بتمامه من «نفحة العنبر».

و«المختصر» له في الفقه، وقد قال فيما أحفظ والله أعلم: إني طالعتُ «مختصرَ الطحاوي» نحوَ عشرين مرةً، ومع ذلك لم يشتف صدري في مواضع كثيرة، فهكذا طالع من كتب الفقه هذه الكتب المطبوعة بمصر والهند المتداولة بين أيدينا اليوم، ثم من الكتب الخطية ما تيسر له، حتى سمعتُ عنه نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أفتيتُ بكشمير للمفتين والعلماء في الفتاوى المشكلة وفي التي تكون آراؤُهم فيها مختلفةً ثلاث سنين كاملة، ولم أفتقر لمراجعة كتب في تلك البرهة.

ثم لم يكتف في الفقه بمطالعة الفقه الحنفي بل طالع من كبار كتب الفقه المالكي والشافعي والحنبلي ما يَقضِي العجبَ ويُورِثُ الحيرةَ، وكانت أكثرُها غيرَ مطبوعة عند ذلك، فهذا كتابُ «بدائع الصنائع» لأبي بكر الكاساني و«البحرِ الرائق» لابن نجيم و«النهرِ الفائق» لأخيه و«ردِّ المحتار»، وكتاب «الأمم» للشافعي، وغيرها من مبسوطات الفقه.

□ ولسعة مطالعة الشيخ أنور قال المؤرخ الأديب الشيخ سليمان الندوي: «كان الشيخ أنور رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحر المعلومات، سلطان الذاكرة، نادرة زمانه في سعة العلم، وكان بحق مكتبة حية، قلَّما يكون قد فاته قراءة كتاب مطبوع أو كمخطوط».

□ وقال عنه الشيخ أصغر حسين الديوبندي شيخ «سنن أبي داود» بدار العلوم: «إذا أشكلت عليَّ مسألةٌ في الفقه، فأتفقَّدُ الكتبَ لحلِّها في مكتبة دار العلوم العظيمة باستقراء بالغٍ، فإن فزتُ وإلَّا أراجع الشيخ أنور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن بينها وأحال على كتاب فذاك، وإن قال: لم أره في الكتب فأتيقَّن أنه لا يُوجد في كتاب، فلا أُتعِبُ النفسَ في تفقدها من الكتب،

«فإن الشيخ لم يُغادر كتابًا إلَّا وأحاط به علمًا»..

ووجـهُ البحـر يُعـرف مـن بعيـدٍ إذا يـسجو فكيـف إذا يمـوجُ [١]

٨- الشيخ الفقيه المفسِّر عبد الرحمن بن ناصر السعدي صاحب تفسير «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان» [٢]:

هو العلَّامة الورع الزاهد، الفقيهُ الأصولي الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي. من نواصر بني تميم الشهيرة. وأمه من آل عثيمين. وُلِدِ رَحِمَهُ اللَّهُ في عُنيزة بالقَصيم سنة ألف وثلاثِمئة وسبع من الهجرة النبوية.

□ وتُوفِّيت أمُّه سنة ١٣١٠هـ وله أربع سنوات، وكان والدُه إمامَ مسجد المؤلف في عنيزة، ولما مات والدُه عطفت عليه زوجةُ أبيه وكَفَلَته وأحبَّته أكثرَ من حبِّها لأولادها، وصار عندها موضعَ العناية والرعاية. فلَمَّا شبَّ نشأ في بيت أخيه الأكبر حمد بن ناصر فنشأ نشأةً صالحةً كريمة.

□ وكان الشيخُ عبد الرحمن منذ نشأته صالحًا مثالًا للإعجاب محافظًا على الصلوات الخمس مع الجماعة، واشتهر رَحِمَهُ اللَّهُ منذ حداثتِه بفطنتِه وذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله. فتوفَّرت له البيئةُ الصالحة، والرغبةُ الشديدة في طلب العلم، فاجتهد في طلب العلم، وجدَّ فيه وسهِر الليالي، ومضى على طريقه قُدُمًا لا يرغب في شيءٍ غير العلم ولا يريد شيئًا غير تحصيل العلم.

□ وكان الشيخ ابنُ سعدي قد استرعى أنظارَ الناس منذ حداثةِ سِنِّه

---

(١) للمتنبِّي.

(٢) انظر «إتحاف النبلاء بسير العلماء»(٤٣- ٧٥).

بذكائه القوي، ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله، فأوقف لذلك حياتَه، فكان لا يشغله عنه شاغل، ولا يصرفه عنه صارف، فكان همُّه في حياته الاستفادةَ العلمية وحفظ الأوقات في ذلك.

فتراه إذ ذاك في وادٍ، وأغلبُ ناشئة عصره من زملائه وأترابه في وادٍ آخر. ولازم العلماءَ ملازمةَ الظل، فتغذَّى أطيبَ غذاء من مَعين علمهم، ورَوِيَ أكرم ريٍّ وحفظ كتاب الله وأتقنه وهو في الحادية عشرة من عمره. وقرأ التفسيرَ والحديثَ وأصولهما على الشيخ إبراهيم بن حمد بن محمد بن جاسر، وأخذ الفقه وأصوله وعلوم اللغة العربية على الشيخ محمد بن عبدالكريم بن صالح الشِّبل، وأخذ على يد الشيخ عبد الله بن عائض العويضي الحربي الفقهَ وأصول وعلوم اللغة.

ولازم الشيخ صالح بن عثمان بن حمد القاضي ملازمةً تامةً حتى وفاة الشيخ صالح، وأخذ عنه التوحيدَ والتفسير والفقه وأصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثرُ من قرأ عليه الشيخُ ابن سعدي. وأخذ الحديث والكتب الأمهات الستَّ وغيرها على الشيخ علي بن ناصر أبو وادي.

□ قال الشيخ عثمان القاضي رَحِمَهُ اللهُ في «روضة الناظرين»: «ولما رأى زملاؤه في الدراسة تفوُّقَه عليهم ونبوغه تتلمذوا عليه، وصاروا يأخذون عنه العلم وهو في سنِّ البلوغ، فصار في هذا الشباب المبكِّر متعلِّمًا ومعلِّمًا، وما إن تقدَّمت به الدراسة شوطًا حتى تفتحت أمامه آفاقُ العلم، فخرج عن مألوف بلده -من الاهتمام بالفقه الحنبلي فقط- إلى الاطلاع على كتب التفسير والحديث والتوحيد وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، التي فتَّقت ذهنه ووسَّعت مداركه، فخرج عن طور التقليد إلى طور

الاجتهاد المقيَّد، فصار يرجِّحُ من الأقوال ما رجَّحه الدليل وصدَّقه التعليل».

جلوسه للتدريس وطريقته فيه:

لقد بذل الشيخ ابن سعدي كلَّ وقته في طلب العلم وتحصيله، حتى أناله اللهُ من العلم حظًّا وفيرًا، وقدرًا كبيرًا، فعلا قدرُه، وعظُم شأنه، وظهر تفوُّقه، وذاع صيتُه.

فأقبل عليه طلَّاب العلم من عُنيزة وما جاورها من المدن، ورغبوا في دروسه وحرَصوا على الاستفادة منه. وقد كان أولُ جلوسه للتعليم في الثالثة والعشرين من عمره، وفي عام ١٣٥٠هـ صار مرجعَ التدريس والإفتاء في بلده وما حولها من القرى، وأصبح المعوَّل لدى جميع الطُّلَّاب في أخذ العلوم.

أمَّا عن تنظيمه لأوقاته في التعليم؛ فقد كان يجلسُ أربعَ جلسات في اليوم الواحد، فكان إذا صلَّى الفجر بالناس، جلس لأداء الدرس حتى تطلع الشمس، ثم يذهبُ إلى بيته حتى الضحْوة الكبرى، فيعود إلى المسجد يعلِّم أبناءَه الطلاب الفقه والتفسير والحديث والعقيدة والنحو والصرف في دروس منتظمة، ويستمرُّ معهم حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس، ويعودُ إلى بيته ليستريحَ فيه إلى صلاة العصر، ثم يذهبُ إلى المسجد فيصلِّي بالناس العصر، ويعطيهم عقبَ الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهية في دقائق لا تؤخِّرُهم عن الانصراف سعيًا وراء أرزاقهم، وعندما تغرب الشمس يصلي بالناس صلاة المغربِ ويجلس للدرس حتى يصلي للعشاء، ويتكرَّر ذلك يوميًا.

□ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يحرصُ على طلَّابه حِرْصًا تامًّا، ويتفقَّدهم عند غيابهم تفقُّدًا دقيقًا؛ مما كان يجعلُ تلاميذه يراعُون المواظبةَ لملاحظته، وعدم غفلته. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يخصِّص المكافآتِ لمن يحفظ المتون من طلابه تشجيعًا لهم، وتحفيزًا لزملائهم.

□ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يُقيمُ المناظراتِ بين طلَّابه المحصِّلين لشحذ أفكارهم، وصقل أذهانهم وتعويدهم الحجة والبرهان.

□ وعند ذكره للمسائل الخلافية، فإنه يقرِّر الراجحَ بأدلَّته، ثم يذكُر القولَ الآخر بأدلَّته، ثم يوسِّط نفسه حكمًا في المسألة، وقد يستطرد بذكر نظائر المسألة.

□ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يجمع الطلَّاب كلَّهم على كتابيْن واحدٍ بعد آخر، وبعد انتهاء الجلسة يطلب من ثلاثةٍ منهم إعادةَ ما يستحضره من التقرير، ويدور عليهم ليختبرَ قوةَ حفظهم وفهمهم. ويناقشُهم بعد يوم فيما مضى شرحه، مما كان يدفعُ الطلابَ على الحرص، وعلى الاستذكار وتثبيت المعلومات.

مكانته العلميَّة:

□ كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا معرفةٍ تامةٍ بالفقه -أصولِه وفروعه-، وكان في أول أمره متمسِّكًا بالمذهب الحنبلي تبعًا لمشايخه، وبسبب استنارته بكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم، صار لا يتقيَّد بالمذهب الحنبلي، بل يرجِّح عنده بالدليل الشرعي.

وصنف تفسيره الجليل «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان».

□ قال عنه الإمام الزاهد ابن باز: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرَ الفقه والعناية

بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيمَ العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلَّامة ابن القيم، وكان يرجِّح ما قام عليه الدليل.. ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمَه وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمةً واسعة.

▢ وقال الشيخ عبد الرزاق عفيفي عن الشيخ ابن سعدي: «أما بعد: فإن العلماء في هذا العصر كثير، ولكن قلَّ منهم مَن يستقي الحُكم من منبعه، ويُسنده إلى أصله، ويُتبع القولَ العمل، ويتحرَّى الصوابَ في كل ما يأتي ويذر، وإنَّ من ذلك القليلَ -فيما أعتقد- الشيخَ الجليل عبد الرحمن ابن ناصر بن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنَّ من قرأ مصنفاته وتتبَّع مؤلفاته وخالطه وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمةِ العلم اطِّلاعًا وتعليمًا، ووقف منه على حُسن السيرة، وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلَّابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجُرُّ إلى شرٍّ، أو يُفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله رحمة واسعة»[١].

▢ وذكر فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد العَجلان أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي ذكر له يومًا أنه كان يحضر دروس الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، عندما كان يقوم بالتدريس في عُنيزة، وأنه أُعجب بعلمه، وكان يُثني عليه ثناءً عطرًا في علمه وورعه، وأسلوب حياته وتنظيم وقته، ويقول: إنه كان سابقًا لعصره، بحرًا في علمه، سديدًا في توجيهاته»[٢].

---

(١) «الشيخ العلامة عبد الرزّاق عفيفي» لمحمد بن أحمد سيد أحمد (١/ ٢٥٧) - المكتب الإسلامي.

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٥٧)، نقلاً عن جريدة «الرياض»- الثلاثاء غرّة ربيع الآخرة ١٤١٥هـ.

□ وقال عنه الشيخ محمد بن صالح العثيمين تلميذه الأول: «إن الرجل قلَّ أن يوجد مثلُه في عصره في عبادته وعلمِه وأخلاقه».

□ وقال عنه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام: «لقد كان للشيخ عبد الرحمن السعدي أثرٌ كبير، ودورٌ بارز، في تخريج أفواج كثيرة من طلبة العلم، حيث جلس للتدريس وإفادة الطلَّاب أكثر من نصف قرن من الزمان.

وكان في زمانه هو مرجعَ أهل البلاد في التدريس والوعظ والتوجيه والخطابة والإمامة والفتاوى والمشاورات، وكذلك محرر الوثائق والمبايعات والتوثيقات والوصايا وغير ذلك»[(١)].

تلاميذه:

ومن علوِّ همة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي أنه تتلمذ عليه خَلْقٌ كثير يصعُبُ حصرهم منهم:

□ الشيخ محمد بن صالح العثيمين: ولو لم يكن للشيخ عبد الرحمن إلَّا هذه الحسنةُ لكفته شرفًا، ولقد خَلَفَ الشيخُ ابنُ عثيمين شيخَه السعدي في إمامة الجامع بعُنيزة، وفي التدريس والوعظ والخطابة.

□ والشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان، سلك طريقة شيخه في التأليف.

□ والشيخ عبد الله بن محمد الزامل، وهو من أبرز علماء نجد بالنحو.

□ والشيخ حمد بن محمد البسَّام، وكان هو القارئ على الشيخ في

(١) «اتحاف النبلاء بسير العلماء» (ص٧٢- ٧٣).

الدرس.

□ والشيخ عبد العزيز بن محمد البسَّام. كان ينوبُ عن الشيخ في إمامة الجامع، وفي الخطابة إذا سافر.

□ والشيخ علي بن محمد الصالحي، وكَّل إليه الشيخُ تدريسَ الصغار سنة ١٣٦٠هـ.

□ والشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن زامل. وهو من تلاميذ الشيخ الأقدمين، ويُقاربُه في السن.

□ ومن حسنات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ومن علوِّ همته في نشر العلم أنه قام في عام (١٣٦٠هـ) بتأسيس المكتبة الشهيرة بالوطنية على نفقة الوزير ابن حمدان، وجلب لها آلافَ الكتب في شتى الفنون، وصارت هذه المكتبة رِيَّ الطلبة الذين يقرؤون عليه فيها، وكانت المراجعُ متوفِّرةً فيها.

مصنفات السَّعدي:

كان الشيخُ السعدي له العنايةُ البالغة بالتصنيف، وله مؤلفاتٌ كثيرةٌ منها:

١ - «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

٢- «إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب»!!.

٣- «انتصار الحق».

٤- «بهجة قلوب الأبرار، وقرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار».

٥- «توضيح الكافية الشافية».

٦- «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان».

٧- «حكم شرب الدخان».

٨- «الخطب المنبرية على المناسبات».

٩- «الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام».

١٠- «رسالة في القواعد الفقهيَّة».

١١- «رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمَّة».

١٢- «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول».

١٣- «فوائد مستنبطة من قصة يوسف».

١٤- «القواعد الحسان لتفسير القرآن».

١٥- «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسم البديعة النافعة».

١٦- «منظومة في السير إلى الله وإلى الدار الآخرة».

١٧- «القول السعيد في مقاصد التوحيد».

١٨- «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».

وهذه الأعمال نقطة من بحر علم الشيخ السعدي الزاخر، لسان حاله يترجم.

تركنا البحار الزاخرات وراءَنا ... فمِنْ أين يدري الناسُ أَنَّى توجَّهْنَا

٩- العالم السلفي الشيخ محمد نصيف وعلو همته في جمع المخطوطات ونشر العلم والعناية بالكتاب السلفي (١٣٠٢هـ- ١٣٩١هـ):

هو أبو الحسين محمدُ بن حسين بن عمر بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد نصيف، وُلِد في ١٨ رمضان سنة ١٣٠٢هـ.

□ يقول حفيده الدكتور عبد الله عمر نصيف: «لكل عالم شيوخٌ وتلامذة، فلو قلنا: أبرز الشيوخ الذين أخذ عنهم الشيخ محمد نصيف، أو تأثَّر بهم في حياته، أعتقد أنهم خمسةٌ أو ستةٌ على الأقل، أذكرُ منهم الشيخَ عبدالقادر التلمساني، الذي تتلمذ عليه الشيخ، ودرس عليه العقيدة والتوحيد وبعض التفسير، وتأثَّر به أكثرَ من الجميع؛ لأنه بدأ معه أيضًا في سنٍّ مبكرة واستفاد منه كثيرًا بالنسبة للعقيدة السلفية والاهتمام بها. ولذلك كان تركيزُه على شراء كتب العقيدة والاهتمام بها. ومن شيوخه أيضًا الشيخ أحمد بن عيسى الشرقي، وكان من خيار العلماء وله تآليفُ نافعة، ومنهم كذلك الشيخ محمد حامد من جُدَّة، والشيخ أحمد الزهرة، والشيخ محمد حسن إبراهيم، والشيخ أبو بكر خوقير، والشيخ يحيى الدمياطي، والشيخ أحمد النجَّار وهو من علماء الطائف، وهو أول أستاذ تعلَّم جدي على يديه».

مجالسه العلمية:

□ كان الشيخ محمد نصيف -رحمه الله- من عشاق العلم ورواد المعرفة، وكان صاحبَ جاه وثراء، مكَّنه من أن يفتح بيته لطلاب العلم ومحبِّي الثقافة، وكانت مجالسُه مجالسَ علمٍ وخير، عامرةً بالعلماء والأعيان والمفكِّرين والأدباء والوافدين من أركانِ الدنيا، حتى كانت دارُه «بيت

الأمة»، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يُلاطف جلساءه، ويُؤنسُهم ويكرمهم بألوانٍ شتَّى من الإكرام -في غير إسراف ولا مخيلة-، وهو مع ذلك مرِحٌ بشوشٌ لطيفُ المحضر والمعشر والمَظهر والمَخبر، لا يُذكر في مجلسه العام أو الخاص أحدٌ بما يكره، ولا يَقبلُ غَيبةَ أحد، كما كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا علم وفضل لا يَحسُد ولا يَحقِد، حليمًا كريمًا وقورًا. يطرحُ القضايا العلمية على بساط البحث والمناقشة، فلا يستأثر برأي، أو يجنحُ إلى هوًى. بل كان ينشدُ الحق في مناقشاته «والحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها أخذها».

□ فضلًا عن ذلك، فقد كان يرحمه الله واسعَ الصدر لا يُسفِّه رأيًا ولا يُقلِّلُ شأن صاحبه، بل يستمعُ إليه ويرحب به، حتى ولو كان هذا الرأي مخالفًا لرأيه. ومن لطائف ما يذكر عن هذه المجالس، أن فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حضر مجلسًا من مجالس الشيخ محمد نصيف العلمية، فوجد عنده ثلاثةً من الدكاترة، فسأل الشيخُ العثيمين الشيخَ نصيف: مَنْ هؤلاء؟ فقال الشيخ: هؤلاء دكاترة، فالتفت الشيخ العثيمين إليهم، وسأل كلًّا منهم سؤالًا في تخصصه، فما أجابه أحدٌ منهم، فنظر إلى الشيخ نصيف متعجبًا قائلًا: دكاترة في أي شيءٍ!!! فضحك الشيخ نصيف حتى كاد أن يسقط من على مقعده.

□ وذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «أنه حضر مجلسًا للشيخ محمد نصيف مع شيخه عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وعندما دعاهم الشيخ محمد نصيف إلى مائدته، وجدوا عليها سمكًا ولبنًا. فقال الشيخ عبدالرحمن السعدي: يا شيخ، النحويون يقولون: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن»، أي لا تجمع بينهما. ونحن نجمع بينهما، فتبسَّم الشيخ نصيف وقال: إن للعادات أحوالًا قد تُغير الواقع».

وَلَعُه بالقراءة وحب المعرفة:

حَرَص الشيخ -منذ بداية طلبه للعلم- على الاستفادة من أوقات فراغه بما يعود عليه بالنفع، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ دائمَ القراءة والاطلاع على كل ما يقع عليه بصره أو كان تحت يده من مخطوطات وكتبٍ ودوريات، ولا نبالغ إن قلنا: إنه كان مولعًا بالقراءة مؤثرًا لها على غيرها.

وكانت صلتُه بعلماء عصره مدعاةً لتنمية حبِّه للقراءة وشغفه بكل ما هو جديدٌ من الإصدارات والكتب، ولو كانت بلغاتٍ أجنبيةٍ؛ فضلًا عن ذلك فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ آيةً في حضور الذاكرة، وعُمق الحافظة، فما يمرُّ عليه شيءٌ أو يطالع خبرًا أو حديثًا أو قصةً أو حادثةً إلَّا وبقيت مختزَنةً في دماغه وإن مرَّ عليها عشرات السنين كما كان الشيخ -يرحمه الله- مرجعًا أمينًا لطلاب العلم وعشَّاق الفكر فيما يحتاجون إليه من فنون العلم وصنوف المعرفة.

تنظيمه لوقته ومذاكرته لنفسه:

قضى الشيخ محمد نصيف رَحِمَهُ اللَّهُ حياتَه في خدمة العلم والدين، والمتأمل لسيرته يجدُ أنه قد أتعب نفسَه، وأسهر ليله وهو يعايش قضايا أمته، وقد بذل في ذلك وُسعَه، ومَنح جهده وقدراته العلمية والمعرفية لتنوير عقول أبناء أمته.

□ فكان عالمًا بحرًا ومرجعًا عظيمًا لكل مَن قَصَد إليه في البحث عن مسألةٍ علميةٍ أو حقيقةٍ تاريخية، أو وثيقة محفوظة. فكان الوفيَّ الأمين والمرشد الصادق في هذا وفي غيره، والمدقِّق في سيرته المتأمل في شخصيته يدرك أن الرجل العالم على الرغم من كثرة شواغله وتعددِ صوارفه، كان

حريصًا على وقته مستثمرًا له، يبدأ يومه ويستفتحه بقراءة القرآن، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ ديِّنًا ورعًا أمينًا صائمًا مصليًا، يخشى الله ويراقبه، ثم يُتبع ذلك بالجلوس لأصحاب الحاجات، فيستمع إليهم، ويُفيض المال عليهم، ثم يتفرغ بعد ذلك لضيوفه وجلسائه، فيقوم على خدمتهم بنفسه، رغم توفر الخدم عنده، ثم يُفرِّغ بعض وقته لطلابه من محبِّي العلم، الحريصين عليه.

□ يقول أحد المعاصرين: «لقد كنا نراجعه في بعض المشكلات العلمية -والشيخ في سنٍّ متقدمة-، فيقول لي: قم إلى هذه الخزينة، وخذ الكتاب الفلاني، فالمسألة فيه. ثم نأتي بالكتاب، ويُخرج لنا المسألة، ثم يعلِّق عليها بما يعرفه نتيجة دراسته الدائمة وحفظه الدؤوب».

فضلًا عن ذلك فقد كان يخص نفسه ببعض الوقت للنظر في بعض المسائل العلمية التي تحتاج إلى تأمل وبحث في مظانها التي توجد فيها.

ولم يكن هذا العالم يبخلُ على نفسه بمثل هذا الوقت الذي يسمح له بالخلوة بنفسه يتأمل عجائب الكون، ويرصدُ الأحداث، ويتابع الزمن، ويرقبُ تطور الحياة في أناةِ العالم وحصافةِ المفكر وهدوءِ الشيخ، كما اعتاد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يجلس بجانب نافذته العتيدة في قصره التاريخي في حارةِ اليمن بجُدَّة، ممسكًا بسِفْرٍ من أسفاره الضخمة يتصفَّحُه، وكأنما يتصفَّحُ وجوه الأجيال الغابرة، ويُحصي نفائسها، ويتفقد مدخراتها العلمية والأدبية.

مكتَبة نَصيفْ:

تعتبر هذه المكتبة بحقٍّ من أجلِّ المآثر لعالم جُدَّة ووجيهها الشيخ محمد ابن حسين نصيف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي مفخرةٌ من مفاخر جامعة الملك عبد العزيز في العصر الحديث، إذ هي من كبرى المكتبات ذات القيمة التراثية

العالية، لكونها تضمُّ بين جنَباتها عددًا من الكتب والمخطوطات النادرة في شتىَ الفنون والعلوم، كما أنها حافلةٌ بالقديم والحديث من التأليف، مع احتفاظها بمجموعة قيِّمة من الوثائق التاريخية، والرسائل العلمية، إضافةً إلى المجاميع الصحفية والمجلات الأدبية وغيرها.

لقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ شغوفًا بجمع الكتب، حريصًا على اقتنائها لينتفعَ وينفع بها. وكان أولُ عهده بالكتب عام ١٣١٩هـ، ولذلك قصةٌ غاية في الطرافة، خلاصتها: أن جدَّه عمر أفندي نصيف -وكان من أوجه وجهاء أهل جدة وأعيانها في زمانه-، أرسل حفيده محمدًا إلى السوق ليشتري جارية تخدُمُه -أي تخدم محمد نصيف-، ولما وصل إلى سوق العبيد، ومعه حاجبُ القصر، ومع الحاجب ستة دنانير من الذهب، نظر محمدٌ نظرةً عابرة على الإماء اللاتي وُجدْن في هذا السوق، فإذا نفسه تشمئز من سوء معاملة الدلالات لهن وامتهانهن لكرامةِ هؤلاء الإماء، ثم قال في نفسه: إنني لا أريد أن أشتري جارية، ربما قد تكونُ في يوم من الأيام أُمًّا لأولادي وهي تباعُ والحالة هذه، كما يباع الحُمُر والنَّعم، ثم عاد راجعًا من السوق وأمر الحاجبَ بالذهاب إلى القصر بعد أن أخذ منه الدنانير الست، وفي أثناء عودته مرَّ بمكتبةٍ لأحد العلماء يعرضها ورثته للبيع، فأقدم عليها، واشتراها بكاملها ثم عاد إلى جَدِّه، وأخبره بما حدث، ففرح بذلك جده عمر غاية الفرح واستبشر خيرًا؛ لأنه تفرَّس فيه رغبةً جامحةً في طلب العلم وتحصيله، ومن ثم أوكل أَمْر تعلُّمه إلى بعض المعلمين البارزين، ومن هؤلاء الشيخ محمد باصبرين، ثم أخذ يتابع أحوال حفيده العلمية، بحرصٍ واهتمامٍ لا نظير لهما.

وتحتوي هذه المكتبةُ العامرةُ الزاخرة على ما يزيد على ستة آلاف مجلد،

وهي في جزئياتها مرتبةٌ حسب العلوم والفنون.

لقد زخرت هذه المكتبةُ القيمة بكَمٍّ هائلٍ من كتب العقيدة، والفِرَق، وكتب التفسير وأصوله، وعلوم القرآن، وكتب الحديث بجميع أنواعها وفنونها، وكتب الفقه وأصوله، وكتب العربية والثقافة الإسلامية، وكتب التاريخ والمعارف العامة وغيرها.

وخلاصة القول: إنه يغلب على ظنِّ مَن يراجع مكتبته أن يعتقدَ أنه ما من كتاب صُنِّف في علم من العلوم أو فنٍّ من الفنون «في عصر الشيخ» إلَّا وهو موجودٌ بهذه المكتبة، إما مطبوعًا أو مخطوطًا.

ومما تجدر الإشارةُ إليه، أن مكتبة الشيخ محمد نصيف قد حوت عددًا لا بأس به من المخطوطات النفيسة، ومن أهم وأشهر وأقدم هذه المخطوطات، كتاب «تيسير الوصول» في الحديث لابن الديبع الشافعي.

قالوا عن مكتبة نصيف:

□ يقول أمين الريحاني في «ملوك العرب»: «هذا الشيخ محمد نصيف أديبُ جُدَّة الأكبر، وأميرُ الكتب فيها، فإن عنده مكتبةً حافلة بأنواع الكتب، يجيءُ الأدباء إلى داره، وكأنها دار الكتب العمومية. فيُعيرهم ما يشاؤون منها، ويشتري ما يَعرِضون من مخطوط أو مطبوع.

□ وقال الدكتور محسن جمال الدين في «مجلة العرب» الجزء الثالث: «كان الشيخ محمد نصيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا غنيًّا وصاحبَ جاه، وقد قام بعدة سفرات ورحلات، فلم تكن نفائسُ الكتب والمخطوطات تضنُّ بنفسها عليه أو يضنُّ بماله عليها. مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد خلَّف وراءه ثروةً حسنة من نفائس الكتب المطبوعة والمخطوطة.

□ وقال الشيخ علي الطنطاوي في مَعرِض حديثه عن الشيخ محمد نصيف: «وعنده مكتبةٌ من أنفس ما عَرفتُ من المكتبات، ولقد عرفت مكتبات أساتذتنا، محمد كرد علي في دمشق، وإسعاف النشاشيبي في القدس، وأحمد تيمور باشا في مصر، ومكتبة ندوة العلماء في «لكنو» في الهند، ومكتبة الحاج حمدي الأعظمي في بغداد، ومكتبات لا أحصيها، فوجدت مكتبة الشيخ نصيف من أكبرها، وكانت مكتبته مثل مائدته، مُفتَّحة الأبواب لكل قادم».

□ وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين: «رأيت في بيته -بيت نصيف- مكتبةً حافلةً بالكتب، وأستطيع أن أقول: إن كل مكان دخلت عليه يمثل مكتبة؛ لأن الكتب في كل مكان، والدواليب ملأى بها، فهي مكتبةٌ عظيمةٌ وكبيرة».

□ ويصفُ الشيخ علي الهندي مكتبةَ نصيف فيقول: «وعنده مكتبةٌ حافلةٌ بالمخطوطات التي قد لا توجد في الدنيا لغرابتها وندرتها، ومن أشهر ما وقفتُ عليه في هذه المكتبة العامرة: تاريخ الأشراف «أشراف مكة» و«تاريخ آل سعود»، و«سيرة محمد بن إسحاق»، والتي لم تكن توجد عند غيره، و«الأطراف» للمِزِّي، و«الإصابة» لابن حجر، و«الاستيعاب» لابن عبد البر، و«أُسد الغابة» لابن الأثير، و«الأنساب» للسمعاني، و«الإكمال» لابن ماكولا، و«الإشراف على مذاهب الأشراف»، و«تاريخ ابن كثير»، وكلها مخطوطة».

جهوده في مجال العلم:

أ- عِنايتهُ الفائِقة بالمخطوطات:

تمتع الشيخ محمد بن حسين نصيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بثقافةٍ عالية، جعلته في منزلة رفيعة بين أقرانه من العلماء، وقد أجمع أهلُ العلم والفضل في عصره على قوةِ فكره وسعةِ علمه وغزارةِ مادته، وأنه بعيدُ المدى، عميقُ الفكرة، وقد اعتنى رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمصنفات والمطبوعات عنايةً كبيرة، كما وجَّه عنايتَه الخاصة إلى المخطوطات، فقد سعى إلى اقتنائها وهو في صدر الشباب، باذلًا في ذلك كل غال ورخيص.

□ ويذكرُ أحد المعاصرين أن الشيخ أخبره أنه اشترى من هولندا كتاب «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» بمبلغ أربعةِ الآف ريال. وهذا إن دلَّ، فإنما يدل على حبه وغرامه بالمخطوطات. فما من مخطوطٍ يسمع به إلَّا ويسارع إلى اقتنائه مهما كلفه ذلك.

□ وذكر الأستاذ محمد علي مغربي في «أعلام الحجاز» أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَلِمَ بوجود نسخة من أحد الكتب الأندلسية القديمة في مكتبتي، فلم يتردد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكتابة إليَّ بطلبها، ولم أتردد في تقديمها له.

ومما يجدُرُ الإشارةُ إليه أن جَدَّ المترجَم له -وهو الجد الثاني «عبد الله نصيف»- كانت له مكتبةٌ حافلة بالمخطوطات، ضاع أكثرها، وما بقي منها -وهو ما يربو على ألف مجلد مخطوط- تَلِف بسبب الأَرَضة.

ويذكرُ الشيخ نصيف أن أقدم مخطوط حوته مكتبتُه العامرة هو «سير أعلام النبلاء» للإمام الحافظ الذهبي المتوفَّى سنة (٧٤٨هـ)، ويقع في تسع مجلدات كبار، وذكر الدكتور محسن جمال الدين -الأستاذ بكلية الآداب جامعة بغداد- أن أقدم مخطوطات الشيخ هو كتاب «تيسير الوصول» في الحديث لابن الديبع الشافعي وعمره (٣١٠) سنوات.

□ وعن أشهر ما احتوته مكتبة الشيخ من مخطوطات يتحدث الشيخ علي بن محمد الهندي -المستشار بوزارة المعارف سابقًا، والمدرس بالمسجد الحرام-، فيقول: «كانت مكتبةُ الشيخ نصيف مكتبةً عامرةً بالمخطوطات، ومن أشهرها -فيما اطلعنا عليه- «تاريخ الأشراف» و«تاريخ آل سعود» و«سيرة محمد بن إسحاق» و«الأطراف» للحافظ المِزِّي و«الاستيعاب» لابن عبد البر و«الإكمال» لابن ماكولا و«تاريخ ابن كثير»، إضافةً إلى كتبٍ كثيرة مخطوطةٍ لا تُحصى كثرة.

□ وجديرٌ بالذكر أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قد سعى سعيًا حثيثًا في نشر كثير من المخطوطات وإخراجها إلى حيز الوجود، ونذكر من ذلك على سبيل المثال -لا الحصر- «الدين الخالص»، و«تيسير الوصول» في الحديث، و«شرح السُّنة» للإمام البغوي، و«تحفة الأشراف» للمِزِّي، و«منهاج السنة» لابن تيمية، وغيرها كثير.

ب- احتِفاؤهُ واعتِناؤه بالعُلماء:

كان الشيخ محمد نصيف رَحِمَهُ اللَّهُ حسن الأخلاق، كريمًا، بشوشًا، بل كان مضربَ مثلٍ في الأخلاق التي جبله الله عليها.

كما كانت معرفتُه بالعلماء مضربَ الأمثال، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ حدبًا عليهم، متبسطًا معهم، رحيمًا، رفيقًا بهم، حُلوَ الكلام، هادئ الطبع، لقد أحرز الشيخُ كريم الخصال في معاملةِ أهل العلم وروّاد الفكر، وسبق في مساعدتهم سَبْقَ الجواد، وحاز قَصَبات السبق، وكان صحيحَ العزم في معالي الأمور، هدفه خدمة العلم وأهله وطلابه.

□ قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «عرفت عن الشيخ -

يرحمه الله- العناية بأهل العلم والفرح بزيارتهم له وإكرامهم.

□ وذكر الشيخ أبو تراب الظاهري أن عالمًا من الهند نزل ضيفًا على الشيخ في منزله العامر «بحارة اليمن»، وظلَّ شهرًا يطالع الكتب ويأكل ويشرب وينام.

□ قال فضيلةُ الشيخ محمد بن صالح العثيمين في معرض حديثه عن الشيخ نصيف: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ مأوًى لأهل العلم في جُدَّة».

□ وقال الشيخ علي الطنطاوي: «كانت دارُ هذا العالم محطةً لكبار الحجَّاج من أهل العلم وأهل الصدارة في كل بلد. ولم يكن في جُدَّة فندق، فكانت داره هي الفندق الكبير لكل العلماء والأعيان والوافدين.

لقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ حدبًا على العلماء، يتعاملُ معهم تعاملَ الأخ مع إخوانه، يتجاذبُ معهم أطراف الحديث وألوان المرح، بالرغم من علو منزلته، ورِفعة قدره، وإقرار الجميع له بفضله.

□ وصفوةُ القول: «إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الخصوص كان لا يُشق له غبار بل كان له القِدْحُ المعلَّى في ذلك، وقد شهد الأصدقاءُ والأعداء بحسن خُلُقه وكرم ضيافته وسمو أخلاقه -والفضل ما شهدت به الأعداء-؛ وسوف تطالع -أخي القارئ- رسائلَ عِدَّةً في فصل الرسائل والمسائل هي شاهدُ صدق على كرم ضيافته وحُسْن حفاوته بالعلماء العاملين والدعاة المصلحين، ولعلك تدرك ما لهذا العالم من خصالٍ كريمة ومآثرَ حميدة في الدين والدنيا».

□ يقول الدكتور عبد الله عمر نصيف عن جده: «كان اهتمامه بفتح المنزل في النقاش العلمي لكل الناس -دون حجر على أحد-، وكان

يستضيف مَن يعرف ومَن لا يعرف، وكنا نذهبُ للميناء، وكانت الطائراتُ قليلةً للغاية، ونسأل عن الذي لا يكون له أحد، أو لا يستطيع أن يجد من يستضيفه، فكنا نستضيفُه مباشرةً دون أن نعرفه، وبعضُ الناس كان يأتي إلينا للسماع، فكنت أجدُ أحيانًا أربعين ضيفًا دفعةً واحدةً يمثِّلون أصقاع الأرض كلها.. ثم يقول الشاهد: إن الاستضافة ما كان لها حدود؛ لأن الجد كان يَعتبر أن هذا العمل قربةٌ إلى الله سبحانه.

ج- مُساعَدتهُ طلبةَ العِلمِ وحمَلَة الشريعةَ:

كان الشيخُ العالم رَحِمَهُ اللهُ محبًّا لطلاب العلم، حدِبًا عليهم، مؤثرًا لهم على غيرهم، يجلس إليهم، ويستمع إلى حديثهم، ويجيب على ما استشكل عليهم، في أدبٍ جمٍّ وصبرٍ جميل، يساعدُهم من ماله وبعلمه، ويُمدُّهم بالكتب التي يرى أنهم في حاجةٍ إلى الاستفادة منها.

❑ يقول أحد معاصريه: «لقد كان رَحِمَهُ اللهُ هدفًا ومقصدًا لطلاب العلم والعلماء في جميع أنحاء المملكة، وفي أنحاء العالَم العربي والإسلامي، لا يوجد عالم أو طالب علم باحثٌ محقق، إلَّا ويعرف الشيخ محمد نصيف، ويعرف داره ومكتبته زائرًا أو ضيفًا، نزيلًا أو باحثًا.

❑ وذكر الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن المعلِّمي موقفًا نبيلًا من مواقف الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مع طلبة العلم فيقول: «أذكر مرةً أن طلبةَ كلية الشريعة بمكة المكرمة، كُلِّفوا بأبحاث يقدمونها. وكان الدكتور «علي أبا حسين» عراقي الجنسية، هو المكلِّف لهم بهذه البحوث، ومن مراجعهم «الارتسامات اللطاف» لشكيب أرسلان، فلما سُئلت عنه وأجبتهم بالنفي، أخبرتهم أن الكتابَ لا يوجد إلَّا في مكتبة الشيخ محمد نصيف،

وعلى الفور نزل منهم ثلاثةٌ يطلبون من الشيخ تمكينَهم من الاطلاع عليه والاستفادة منه في منزله، فما كان من الشيخ إلَّا أن أجابهم إلى طلبهم، ولكنه سألهم: هل يوجد هذا الكتابُ في مكتبة الحرم؟ فقالوا: لا يوجد. فقام الرجل العالمُ إلى أحدِ رفوف مكتبته وتناوله وقال لهم: راجعوا مكتبة الحرم الشريف غدًا، أو بعده تجدونه فيها. وعلى الفور أرسله للمكتبة وكتب على النسخة إهداءً لها».

□ وكتب إليه مدير مكتبة الحرم المكي في ٢٣/ ٧/ ١٣٨٥هـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة الشيخ الجليل محمد أفندي نصيف الموقر.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،،

أرجو دوام الصحة والسعادة، فقد تسلمت خطابكم الكريم المؤرخ في رجب ١٣٨٥هـ ، وما تضمنه من أن طلبة الدار قد وصلوا إليكم لمراجعة كتابي «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» للأمير شكيب أرسلان، و«وما رأيت وسمعت» لخير الدين الزركلي؛ وذلك لعدم وجود هذين الكتابين في مكتبة الحرم، وقد نزلوا إليكم لمتابعة بحثهم؛ ولعلمهم بأن مكتبتكم الشهيرة لا تخلو من هذه الكتب، هذا وقد تفضَّلتم فبعثتم إلينا كتاب «ما رأيت وسمعت» مع أحد طلبة كلية الشريعة، وقد قُيد في سجل المكتبة والفهرس باسمكم، وأصبح الطلبة يراجعون فيه الآن، وقد وفَّرتم عليهم عناء النزول إلى جُدَّة، ونرجو عندما تتحصلوا على كتاب «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» للأمير شكيب أرسلان أن تبعثوه إلينا، لتتحقق الفائدة المطلوبة؛

وليجد طلابُ كلية الشريعة مناهم فيه، والحقيقةُ أن هذه ليست أول مكرُمةٍ منكم، فالمكتبة لا تَنسى أياديَكم البيضاء وأفضالَكم عليها، ففي المكتبة الشيءُ الكثير من هداياكم القيمة من الكتب العلمية المفيدة التي تطبع على نفقتكم الخاصة، وما تشترونه بالثمن، وما يوزَّعُ على يديكم، بارك الله فيكم، وكتب لكم الأجرَ والمثوبة، وأخيرًا -وليس بآخر- أشكركم جزيلَ الشكر على هذا الاهتمام المتزايد، وأرجو لكم مزيدًا من العون والتوفيق، وتقبلوا فائق الاحترام».

□ ولا يُنسى للشيخ محمد نصيف جهده العظيم والمبارك في المشاركة العظيمة في تأسيس «دار الحديث» بمكة المكرمة.

عنايته بكتب العقيدة والعمل على نشرها:

لقد بنى الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ثقافته بصفةٍ عامة على أساسٍ متين من العلم الواسع بكتاب الله وسنةِ رسوله ﷺ مع ما أُوتيَه من أصالةٍ وعبقرية وعقل متفتحٍ وخاطرٍ فياض، ولقد كان لهذا كلِّه أبلغُ الأثر في الذب عن مذهب السلفِ وإحيائه بعدما كان طامسًا ودارسًا، ولقد بذل في ذلك غايةَ وسعِه واستفرغ جهده، فما من كتاب نافعٍ يُعنَى بأمر العقيدة ويحثُّ على الفضيلة إلَّا ويبادر بشراء كميةٍ منه ويقومُ بتوزيعه، وإهدائه على من يظنُّ أنه يَنتفع به، فأفاد بذلك المؤلفين وأعانهم، ونفع القارئين وأفادهم.

كما كانت له رَحِمَهُ اللَّهُ همةٌ عالية في طبع الكتب ونشرها، ومن هذه الكتب التي طبعها على نفقته -محتسبًا أجرها وثوابها عند الله-.

١ - «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ طبعة الهند.

٢ - «العلو للعلي الغفار» لمؤلفه محمد بن أحمد الذهبي.

٣- «الجواب الباهر في زوار المقابر» لمصنفه ابن تيمية.

٤- «الرد الوافر فيمن زعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كافر» لمصنفه ابن ناصر الدين.

٥- القصيدة النونية المسماة «بالكافية الشافية» لابن القيم.

٦- «شرح القصيدة النونية» للشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ.

٧- «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» للشيخ أحمد بن عيسى.

٨- «مفتاح الخطابة والوعظ» لمؤلفه محمد أحمد العدوي.

٩- «مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد». للشيخ محمد بن عبدالوهاب.

١٠- «غاية الأماني في الرد على يوسف النبهاني» للسهسواني.

١١- «إيقاظ الوسنان من وسوسة الشيخ دحلان».

□ ومن الكتب التي سعى في نشرها وبمعاونة المحسنين:

١- «الخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة» لمؤلفه محب الدين الخطيب.

٢- «منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية» لابن تيمية.

٣- «شرح السنة» للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي.

٤- «العقيدة الواسطية» لمؤلفها شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

٥- «ملخص الفتوى الحموية» لمؤلفها الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

٦- «الدين الخالص» لمؤلفه صديق حسن خان.

٧- «الطرق الحكمية» لمؤلفه ابن قيم الجوزية.

٨- «الرد على الجهمية» للدارمي.

٩- «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لمؤلفه ابن قيم الجوزية.

١٠- «الرد على شبهات المستعينين بغير الله» للشيخ أحمد بن عيسى.

١١- «كتاب التمهيد» للحافظ ابن عبد البر النمري.

١٢- «البهائية وتاريخها» للكاتب عبد الرحمن القاهري.

وغير ذلك كثير.

□ ومن دفاعه عن السنة وحماسه منقطع النظير في الرد على أعدائها أنه ساعد في نشر وطبع كتاب «ظلمات أبي رية» للشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، وكتاب «التنكيل في الرد على ما جاء في كلام الكوثري من الأباطيل» لمؤلفه الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي رَحِمَهُ اللَّهُ وغير ذلك كثير.

هذا فضلًا عن عدد من المقالات لا تحصى كثرةً خطَّها الشيخُ بيده ردًّا على هؤلاء المبتدعة وأعداء السنة، فكان خيرَ خلف لخير سلف.

□ ونشرت جريدة «الندوة السعودية» في عددها رقم (٣٤٤٣) بتاريخ ٢ ربيع الثاني لعام ١٣٩٠هـ الموافق ٧ حزيران ١٩٧٠م بأن «الشيخ محمد نصيف قام بإهداء مكتبته الكبيرة الخاصة التي تزيد قيمتها عن مليون ريال لمدينة جدة نواة لمكتبتها العامة.. وهو إهداء عزيز تفخر به هذه المدينة وأهلها الطيبون. إن هذه الهدية السخية من الشيخ الفاضل محمد نصيف هي تعبيرٌ جميل ومشاركةٌ علمية ومادية قضى في جمعها ٧٣ سنة من عمره.

□ كتب إليه أحدهم:

وصلتْ هديتُك المباركة التي
أَهدت إلينا فرحةً وسرورا

أسفارُ علم يا لها من روضةٍ
غنَّاءَ تُولى قارئيها نسورا
يُهدى به من ظلمة الجهل التي
أهوتْ بهم في المهلكات بحورا
يا أيها العلَّامة العَلَم الذي
للسنَّة الغرَّاء صار نصيرا
ما زال يقفو إثرَ سادات قفَوا
آثار أرباب الحديث دهورا

لله من علَّامة نظَّارة ... بحاثةٍ قد أحرَزَ التصديرا
سكن المدينةَ عمره يُحيي بها ... سُننَ الذي للعالمين نذيرا
وجزاك يا ابن حسين يا عزَّ الهدَى ... خيرًا ودمتَ ممتَّعًا مسرورًا
وعليك منَّا في الختام تحيةً ... وبَقِيتَ بدرًا للعلوم منيرا

□وحين سُئِل عنه الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ كتب قائلًا: «من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة الأخ المكرم معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وفقه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فجوابًا لكتاب معاليكم الكريم رقم ١/ ٢١١/ م في ٢٠/ ١/ ١٤١٢هـ المتضمن رغبتكم مني تزويدكم بما أعلم عن حياة فضيلة الشيخ محمد بن حسين نصيف.

أُفيدكم بأني أعرف منه رَحِمَهُ اللَّهُ العنايةَ بأهل العلم، والفرحَ بزيارتهم له،

وإكرامَهم، مع حسن العقيدة وبذل المستطاع في إعانة طلبة العلم.. ضاعف اللهُ مثوبته، ورفع درجته في المهديين، وأصلح عقبه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

الحمد لله رب العالمين. وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الذي أعرفُه عن هذا الرجل -الشيخ محمد حسين نصيف رَحِمَهُ اللهُ- أنه من خِيرة الرجال، كرمًا وخلقًا، وأنه كان مأوًى لأهل العلم في جُدَّة، عرفتُ ذلك من خلال شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ، لأنه كان يثني عليه كثيرًا، وقد صحبته -أي صحبت شيخنا- مرةً أو مرتين في الحضور إلى منزل الشيخ محمد حسين نصيف رَحِمَهُ اللهُ، ورأيتُ في بيته -أي في بيت الشيخ نصيف- طلبةَ العلم والمشايخ، ورأيتُ مكتبةً حافلة بالكتب، وأستطيع أن أقول: إن كل مكانٍ دخلتُ عليه يمثل مكتبة؛ لأن الكتب في كل مكان، والدواليب ملأى بها، حتى أنه يصعد إلى أعلى الكتب بالسُّلَّم، فهي مكتبةٌ عظيمة وكبيرة. كما لمست خُلُقَه الحسن رَحِمَهُ اللهُ، وكان من جملة ما أحفظ أنه قال لشيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ: يا شيخ، النحويون يقولون: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» -أي لا تجمع بينهما-، ونحن نجمع بينهما يا شيخ، أظن أن شيخنا تبسم وقال: إن للعادات أحوالًا قد تغير الواقع.

وأما ما لمسته من حرص الشيخ محمد نصيف رَحِمَهُ اللهُ على بذل العلم، فقد علمتُ ذلك بحرصه رَحِمَهُ اللهُ على طبع الكتب المفيدة، ولا سيما فيما

يتعلق بالعقيدة، وتوزيعها على طلبة العلم، كما أذكرُ أنه رَحِمَهُ اللهُ طَبع لي أول ما كتبته من المؤلفات، وهو «تلخيص الحموية» المسمى بـ«فتح رب البرية»، وكذلك كان يرسل إليَّ مما يكون تحت يده من المطبوعات، وقد طلب مني ذات يوم التعليقَ على عقيدة السفاريني، وقد كتبت ذلك وأرسلته إليه.

والحقيقة أن الشيخ محمد حسين نصيف رَحِمَهُ اللهُ كان مضربَ مثل في الأخلاق التي جبله الله عليها. فلقد كان رَحِمَهُ اللهُ حسن الأخلاق، كريمًا بشوشًا. وإن الكتابة عن أهل الخير والفضل فيها خيرٌ، لأن الناس يقتدون بهم ويدعون لهم.

نسأل الله له المغفرة والرضوان، وأن يجمعنا وإياه وإخواننا المسلمين في دار كرامته.

كتبه

محمد بن صالح العثيمين

وكتب الشيخ علي بن محمد الهندي:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين، ورضي الله عن أصحابه الطيبين، وأزواجه المطهرين. وبعد،

فإن صلتي بالمترجَم له الشيخ محمد بن حسين نصيف رَحِمَهُ اللهُ وصدقاتي له، صلةُ أخوَّةٍ وحُبٍّ متبادَل، وكنت أُكثر زيارته أنا والشيخ صالح بن عبد العزيز العثيمين علّامة زمانه، فكنا نجدُ من الشيخ محمد نصيف المحبةَ الصادقة والودَّ الصافي، وهذا ليس لنا خاصةً، بل لجميع من يزوره، فهو رَحِمَهُ اللهُ كما قال الشاعر:

لا تنقُلوا الأقدام إلَّا إلى ... من عنده لكموا فائدةْ

إمـــا لعلـــمٍ تـــستفيدونه أو لكـــريمٍ عنـــده مائـــدةْ

وفضيلة الشيخ محمد حسين نصيف جمع بين الاثنتين: كرم العلم، وكرم الطعام، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يزوره الملوك، ومنهم حسين الشريف أيام كان حاكمًا لمكة في الحجاز، ويأبى الشريف إلَّا أن يدخل المكتبة، وكان الشيخُ نصيف لا يرغب دخول مثله في المكتبة؛ لأنه ربما أخذ كتابًا لا يستطيع أن يمنعه، والمكتبةُ حافلةٌ بالمخطوطات التي قد لا توجد في الدنيا لغرابتها وندرتها، ثم لما دخل الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحجاز صار يزوره بين الآونة والأخرى، ويدخل المكتبة أيضًا، فيأخذ كتابًا، ويأمر الشيخ نصيف بقراءته عليه، وهذا ما حدثنا به قارئ الملك عبد العزيز -ابن غصن-.

كان بيتُ الشيخ محمد نصيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مأوًى عامًّا للملوك والعلماء وطلبة العلم ولعامة الناس، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحب النكت، فقد زرتُه أنا والشيخ صالح العثيمين ضحًى، فوجدنا عند ثلاثةً من الدكاترة، فسأل الشيخ العثيمين الشيخ نصيف، من هؤلاء؟ فقال الشيخ: هؤلاء دكاترة، فالتفت الشيخ العثيمين إلى أحدهم وقال: دكتور في أي شيء؟. قال: دكتور في النحو، ثم سأل الثاني: دكتور في أي شيء؟ قال: في التاريخ والمغازي، ثم سأل الثالث: دكتور في أي شيء؟ فقال: دكتور في الحديث وأصوله. فسأل العثيمينُ الأول قائلًا: أعرب البيت الآتي:

بثينـــةَ شـــأنها ســـلبتِ فـــؤادي بـــلا ذنـــبٍ أتيـــتُ بهـــا ســـلامًا

قال له ما الذي نصب بثينة؟. فأجابه بعد تفكير قائلًا: لا أدري!.

ثم سأل الثاني: ما الفرق بين الغزوة والسَّرِيَّة؟ فأجاب بعد تفكير

قائلًا: لا أدري!.

ثم سأل الثالث: ما الفرق بين المرسَل الخفي والمرسل المطلَق في الحديث؟ فأجاب: لا أدري!.

فاتجه الشيخ العثيمين إلى الشيخ نصيف وقال له: يا شيخ نصيف «دكتور»! فضحك الشيخ نصيف حتى استلقى على كرسيه، ثم قال الشيخ العثيمين: لا أقول هذا تنقُّصًا من الدكاترة، فكثير منهم أعلم منا وأفقه وأدين.

وزرته يومًا أنا والشيخ العثيمين وطلبنا منه كتابًا موجودًا عنده فقال الشيخ نصيف: لا، فدعونا له وأكثرنا الدعاء لعله يلين، فرفض ذلك؛ لأن الكتاب غريبٌ جدًّا؛ وذلك خشية أن يشيع اسمُ الكتاب فيطلبه من لا يستطيع رفضه.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ رحيمًا رقيقًا، وكان إذا زرناه يُتحِفُني بالسؤال عن جميع العائلة. كما كان رَحِمَهُ اللَّهُ لذيذَ الحديث، حلوَ الكلام، هادئًا في الإجابة عما يوجَّهُ إليه من أسئلة، حتى ولو كانت مُحرِجة، ذلك لأننا كنا والشيخ العثيمين نوجِّهُ أحيانًا أسئلةً تكون محرجةً، لكنه يجيبنا بهدوءٍ وصفاءِ قلب، ويأتينا بما نريد باختصار.

وكان الذي يجالسُه لا يملُّ حديثه، ولا الجلوسَ معه، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ سليم التوحيد، صافي العقيدة، وكان يحرصُ على أن يكون الناسُ جميعهم كذلك، فقد حضرنا والشيخَ صالح العثيمين مجلسًا له، يوجد فيه ناسٌ ظهر له أنهم شكَّكوا في العقيدة والتوحيد، فكان يوضِّحُ لهم المسائل أحسن توضيح، فسألناه عن شيخه في ذلك، فقال: شيخي أحمد بن

عيسى. وذكر أن الشيخ ابن عيسى يزوره كل أسبوعين مرةً، ويجتمع بهم الشيخ التلمساني الذي عقيدته كعقيدة الشيخ محمد نصيف، ومكتبته العامرة -يرحمه الله- والتي سبق أن أشرنا إليها، وكان من بينها مما عرفت تاريخ الأشراف (أشراف مكة)، وتاريخ آل سعود، وسيرة محمد بن إسحاق، والتي لم تكن توجد عند غيره، والتي اختصرها ابن هشام. هذا ما يتعلق بالتاريخ. أما الحديث، فعنده الأطراف للمزي، وفي أسماء الصحابة «الإصابة» لابن حجر، و«الاستيعاب» لابن عبد البر و«أسد الغابة» لابن الأثير، وكلها مخطوطة، أما الأنساب، فعنده: «الأنساب» للسمعاني مخطوط، وكذا «الإكمال» لابن ماكولا مخطوط. وكتاب «الإشراف على مذاهب الأشراف» في الأنساب. بدأ فيه من آدم عليه السلام، وكذا تاريخ ابن كثير مخطوط، إضافةً إلى كتب كثيرة مخطوطةٍ لا تحصى كثرة. أما المطبوعات فقليلة جدًّا.

هذا وأسألُ الله التوفيق والسداد والحمد لله رب العالمين.

وقال عنه الشيخ علي الطنطاوي:

«توجَّهْنا حين وصلنا جُدَّة إلى دار الأفندي: الشيخ محمد نصيف رحمة الله على روحه، وكانت دارُه محطةً لكبار الحجاج من أهل العلم وأهل الصدارة في كل بلد، فكأنها دارُ خرقاء التي قال فيها ذو الرِّمة:

تمـــام الحـــج أن تقـــفَ المطايـــا ... عـــلى خرقـــاء واضـــعةَ اللثـــام

وكنت أعرف عنه الكثير من خالي محب الدين الخطيب الذي كان في تحرير «القبلة» الجريدة الرسمية على عهد الشريف حسين التي حلَّت محلها «أم القرى»، ومن الشيخ محمد بهجة البيطار الذي كان مع الشيخ حامل

القصاب الذي وضع أساسَ التعليم الرسمي في المملكة أوائلَ عهد الملك عبد العزيز رحمه الله رحمةً واسعة، ورحم كل من ذكرتُ.

فلما التقينا وجدتُ الشيخ أنبلَ وأفضل مما سمعت عنه، وما كنت أحسبه مبالغةً في المدح، أصفُه في كلماتٍ قبل أن يتشعب بي الحديث فأضيع وأُضيِّع القرَّاء بين شعابه:

كان نبيلًا أصيلًا لا متكلفًا، كان طبعًا فيه لا تطبعًا فلو أراد العدول عنه لما استطاع، فكأن حاله تشير إلى قول أبي تمام:

تعوَّد بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبضٍ لم تُجِبْه أناملُه

وكان عالمًا بالحجاز وأهله وحُكَّامه، فكأنه تاريخ يمشي على قدمين، يعرف الدول والناس، كما يعرف الكتب، وعنده مكتبةٌ من أنفس ما عرفت من المكتبات، ولقد عرفتُ مكتبة أستاذنا: محمد كرد علي في دمشق، وإسعاف النشاشيبي في القدس وأحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا في مصر، ومكتبة ندوة العلماء في (لكنو) في الهند، ومكتبة الحاج حمدي الأعظمي في بغداد، ومكتبات لا أحصيها الآن فوجدت مكتبة الشيخ محمد نصيف من أكبرها، وكانت مكتبتُه مثلَ مائدته مفتحةَ الأبواب لكل قادم.

كانت المائدةُ منصوبةً كل يوم، لا يسألُ الداخلَ إليها عن اسمه، وكانت في داره غرفةٌ معدةٌ للمنام، من زاره وشاء أن ينام فيها نام.

ولما أقمت في مكة (من سنة ١٣٨٣هـ إلى الآن) كنت أنزل إلى جُدَّة كل أسبوع لأحدِّث في الإذاعة، ولم يكن قد أنشئ الرائي (التليفزيون) فكان أولُ مكان أقصده إن دخلتها هو دار الشيخ، وآخرُ مكان أتركه إن

خرجت منها دار الشيخ، ولم أكن من طبعي أن أنطلق على سجيتي عند الناس فآكلَ وأشرب إلَّا عند الشيخ وقلَّةٍ من أصدقائي ومن هم بمثابة مشايخي، فكنت أشعر عنده كأني في بيتي، وكنت حينًا أجدُ عنده كلما جئت إلى جُدة رجلًا، ينام في الدار، ويأكل على مائدةِ صاحبها، ويأخذ حريته كاملة، فسألته عنه فقال: ما أعرفه ولكني لقيته مرة في بيروت!.

وإذا كان موعدُ الحج وتجهَّز له، حجَّ معه كلُّ من كان حاضرًا ومنهم من لا يعرف أسماءهم، يذهبون معه ويرجعون ويأكلون ويشربون، ينفق هو عليهم، ويعلمُهم مناسكَ الحج، ويُرشدهم، ويوليهم من كرم نفسه وكرم يده أكثرَ مما يبلغه أملُ الآملين.

وكان متبعًا للسنة، محاربًا للبدع، وكان سلفيًّا من قبل أن يدخل آل سعود الحجاز حاكمين، وكان كلما اطلع على كتاب نافع اشترى منه ووزع نسخة هدية على من ظن أن ينتفع بها، فأفاد بذلك المؤلفين وأعانهم، ونفع القارئين وأفادهم.

لم يكن في جُدَّة فندق، فكانت دارُه هي الفندق الكبير، ولكنه كان فندقًا بالمجَّان، لا يُكلِّف النزيلُ فيه مالًا، ولم تكن فيها دارُ ضيافةٍ رسمية، فكانت دارُه دارَ الضيافة ينزل بها كل من أمَّ جُدَّة من عظماء الرجال، فيها كان ينزل الوالي على عهد العثمانيين، وخبرني أن آخر سلاطينهم نزل فيها بعد أن قضى مصطفى كمال -الذي دعوه أتاتورك- (أي أبا الأتراك) على الخلافة، وسلب قومه أشرفَ ما كانوا يعتزون به، وحكم على أكثرهم بالأميَّة لما ترك الحرف العربي الذي شرفه الله فكُتب به القرآن، وألزمهم بالحروف اللاتينية التي لا تُغني عنها، ولا تسد مسدَّها، ولكنه لم يستطع

إبعادَهم عن الدين، ولا يزال الشعب التركي متمسكًا بالإسلام، وسيأتي يومٌ قريب تسقط فيها هذه البدعة الجديدة، ويعودون إلى دينهم كما عاد الآذان بالعربية.

وقد خبَّرني من شهد عودته أنهم لما سمعوا (الله أكبر - أشهد أن لا إله إلَّا الله) باللفظ العربي المبين كما جهر به بلالٌ يوم الفتح على ظهر الكعبة، لا ترجمته بالتركية التي لا روح فيها ولا جلال، لما سمعوه كان يوم عيد لهم تبادلوا فيه التهنئات.

وفي دار الشيخ نصيف نزل الشريف حسين (الملك حسين) وابنه الملك علي في أواخر عهدهما، كما نزل فيه الملك عبد العزيز في أوائل عهده رَحِمَهُ اللَّهُ ورحم الجميع.

وبعد، فهل تَرَونني أحسنتُ الكتابة عن الشيخ؟ هل أستطيعُ أن أنقل إليكم صورةً -ولو باهتة- عما في نفسي عنه من الإكبار، وما له فيها من الحب؟.

هل عرضتُ عليكم طرفًا من ذكرياتي عنه؟ هيهات! وهل تدخل ستون سنةً من أحلى العمر في ستين سطرًا في كتاب؟.

هل نختصر البحرَ في قطرة، والروضَ في زهرة، وأيامي مع الشيخ في مجالسه مع الصفوة المختارة من الناس، وفي انفرادي به في أيام زياراتي لجدة، وفي ليالي رمضان، وما سمعتُ منه، وما استنفدته من معرفته ومن ذكرياته ومما مر به من الأحداث؟ لو دونت ذلك لكان منه كتاب من أنفس مما قرأ الناس من كتب.

ولكن لماذا أشارككم ذكرياتي وهي مِلكي وحدي، أتعللُ بها

وأسترجعها ولا ترجع لي أيامي معه فما مضى لا يعود، ولكن أعودُ أنا إليها بالذكرى.

فلماذا أفرط فيها، وقد جمعتها ساعةً فساعة كما يجمع البخيلُ ماله قرشًا إلى قرشٍ، فأجعلها تسليةً للقراء؟.

وبعدُ، مرة ثانية، فرحم الله الشيخ الذي لا أحسبُ أنه سيخلفه الزمان، قد نجد في الكرم: كرم النفس، وكرم اليد مثله، وقد نلقَى من له مثلُ مكتبته ومثل ولعه بالكتب ومن له مثل معرفته بالرجال، ولكن أين من جمع من هذه الدنيا كلها ومن خصال الخير مثل ما كان للشيخ؟.

وكتب عنه الشيخ أبو تراب الظاهري:

«الشيخ محمد نصيف أفندي عين أعيان الحجاز!!.

كانوا يدعونه رَحِمَهُ اللهُ «أفندي نصيف» وهو الشيخ الجليل الوقور الماجد المفضال محمد حسين نصيف، أحد أعلام الحجاز، وصدرُ صدور جُدَّة، من أعيان القرن الرابع عشر، ميلاده في أوله، وكان مرجعَ الباحثين من العلماء والأدباء، وكان بيته منتجعَ السلفيين، ومرتادَ المؤرخين، ومقيلًا لنُشَّاد المعرفة، ومَضِيف للواردين، وأن بعضهم لَيمكثُ فيه أيامًا وليالي، ويأوي إليه شهرًا أو أكثر، فيجد غِذاءَ الفكر بالعلم، وغذاءَ الجسم من أطايب الأطعمة اللذيذة التي كانت تربو بها مائدةُ الشيخ القرم اليومية التي كانت تمتدُّ على طول غرفةِ الطعام والضيافة.

ولقد سكنتُ عنده ذات مرة شهرًا، ورأيتُ هذا بعيني، ثم ترددتُ عليه مرارًا «لا تحصى»، فكان هذا دأبه في الضيافة، ولم أر مضيافًا أكثرَ منه احتفاءً بالضيف، ولا سيما إذا كان من أهل العلم، على طيب النفس فيه

وسخاوتها وحب الضيافة، جِبِلَّةً جُبل عليها، وقوَّى أصلها العمل بالحديث النبوي الشريف في إطعام الطعام.

وأصاب كبد الحقيقة السيد محمد رشيد رضا، إذ كتب في مجلة «المنار» مقالة عنونها «محمد نصيف نعم المضيف». وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتميز بخلقٍ حسن وفي طبعه فكاهةٌ ودعابة، وله سجيةٌ ظريفة عند الحديث في غاية الكمال، ودعابته لا تَثلُمُ له هيبةً ووقارًا، بل تُحبِّبُ وتَجذب النفسَ إليه. وكان ذا ذاكرةٍ قوية يستحضر نوادر المحاورات.

وصَدَق أمين الريحاني حين قال عنه في كتاب «ملوك العرب»: «هو دائرة معارف ناطقة، يجيب على السؤالات التي توجه إليه، ويَهدي إلى مصادر العلوم الأدبية والتاريخية والفقهية».

قال أبو تراب: «وقد جمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكتبةً نادرة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات، ونشر كتبًا كثيرة، وأنفق على نشر الكتب السلفية شيئًا كثيرًا من المال، وكان يكتب أحيانًا في الجرائد والمجلات كلماتٍ تعقيبية، يرد فيها على من أخطأ في شيءٍ من المعلومات».

وصدق خيرُ الدين الزركلي حين قال عنه في «الأعلام»: «كان بيتُه ملتقى الفضلاء القادمين من مختلف البلاد، وكان حلوَ الحديث، قويَّ الذاكرة لا يكاد يصدرُ كتاب مما يروقه إلَّا اشترى منه نسخًا وأهداها إلى المكتبات العامة وإلى معارفه».

قال أبو تراب: «وفي مكتبتي ومكتبةِ والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبٌ كثيرة عليها خطه، وكنا إذا جئنا جُدة ننزل عنده في منزله العامر، ولا نقصدُ غيره، وقد رُبِطت بينه وبين والدي آصرةُ الصداقة منذ القدم، وكان والدي يُشيد

بكرمه وشهامته، ونهوضه بالأعباء الجسام، ويعتزُّ ويفتخر بصلته، ورحم اللهُ الشيخ محمد بن مانع حيث قال: «لم نعلم في الحجاز رجلًا يساويه في الكرم، وحسن الخُلُق».

قال أبو تراب: «لقد أحرز الشيخ محمد نصيف كريم الخصال في معاملة أهل الحديث، وسبق في مساعدتهم سبق الجواد، وحاز قَصْبات التقدم، فلم يُلحق بعَجَاج ركضه في نشر العلم الديني، وفعل ما هو أجمل في الأحدوثة، وأزين في السمعة، وأحسن في الذكر، وأطيب في النشر، وأليق بذوي النباهة، وأشبه بأهل الفضل».

وكان محمد نصيف -واللهُ يشهد والناسُ- صحيحَ العزم في معالي الأمور، أطبق عليها همته، وصرف إليها نهمته، وقوَّى فيها نيَّته، وهدفه خدمةُ طلبة العلم، وكان متنبهًا لا يغفل، متيقظًا لا يُهمل، ولم يكن فيه تجلُّل وتعظُّم ذوي الصلف والغرور، ولا تكبر وتشمُّخ أصحاب التيه والزهو.

وهو في أبهته لم يكن بذاخًا، وفي نخوته لم يكن ذا صَعْر، وكان ضليعًا متينًا ناهدًا بجلائل الأعمال، يتجشمُ العقبة الكؤود فيذلِّلها تذليلًا، ويتحمل العبء الثقيل فيأطِرُه أطرًا، وكان أجرى في ميدانه، وأعلم بشأنه، شديدَ الصرامة، بيِّن الحزامة، تام الشكيمة، له كفايةٌ ونفاذ، وفيه وفاءٌ ومهارة، قلَّ من يسدُّ مسدَّه في وقته، وندُر من يطأ موطئه في زمنه.

أضف إلى ذلك أنه كان كالصمصام والإسليت في الحق، لا تهوله قعقعةُ الجوارس وغمغمةُ الفوادس، وتُهاب غرَّة جبهته، ويُوقَّرُ بياض لحيته، تُحترم بزَّته الأنيقة، ويُجل عقالُه الأبيض المربع.

وكنت أجالسُه أصيلا النهار فأسمع كلامه، كأني أرى مَشفَى، وعسلًا مصفى، رقيق الحواشي، عذب المذاق، يدب في الأفهام دبيب الصحة في دنف الأسقام، ومنطقه ناضر مورق، وخطابه ناصع مشوق، لذيذ مغدق، وكان إذا تكلم دبَّر القول وهذبه، ونقَّى اللفظ ونقَّحه، وكان حاضر الذهن يعرف الخطاب والجواب، إذا وقع عليه البصر، فكأنها الشمس أشرقت من مطلعها.

قال أبو تراب: «ونزل الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيت الأفندي الشيخ محمد نصيف، واستحصفت وثائق عرى الدين بجهود الملك الراحل، وظهرت كلمةُ التوحيد، وتشيَّدت وطائد الإسلام، ورُسخت أعراق دوحات الهدى، وكان محمد نصيف من أعوانه، وهو وكيدُ القوى، ثابت القدم، مأمونُ الوصمة، وثيقُ العصمة، متمكنُ الأركان، مشزور الأشكان، وحينئذ أصدر مجلة «الإصلاح» وكان ساعده بدر الدين النعساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

قال أبو تراب: «وأتيت في عام ١٣٦٧هـ بخمسة وثلاثين صندوقًا كبيرًا من الخشب مملوءة بالكتب الدينية بالباخرة من كراتشي. ومنعت من الدخول إلى ميناء جدة إلَّا بعد دفع الرسوم، وأبرقت من الباخرة للوالد وهو بمكة المكرمة المحمية، فوصل إلى جدة وذهب إلى الأفندي نصيف، وكان الوالدُ قلقًا على الكتب وأخبره بالحال، وكأنه أنس من الشيخ التباطؤ في الأمر، وكانت الحقيقة خلاف ذلك، فدبَّر المبلغ المطلوب من الدراهم وركب اللانش ليأتينا، حتى إذا كان قريبًا من الباخرة تعطَّل مركبه ونحن نراه واقفًا فيه، فإذا برسول الأفندي «محمد هزازي» يطلع

ويصعد الباخرة، ويصيح في وجه «الكابتن»[1] ويقول: هذه تابعة للحكومة، وينزلني والكتب قهرًا، ويرانا الوالد ونحن نازلون بالصناديق، ففرح، وسلَّم الله الدراهم من أن تسلَّم للإنكليز كُمْركًا.

هذا مثالٌ واحد من أمثلةٍ عديدة لشهامة الشيخ محمد نصيف ومساعدته البالغة لأهل العلم، ولقد حدثني ذات مرةٍ أن رجلًا من علماء الهند وأطبائه كان صالحًا أواهًا، قد نزل ببيته شهرًا يطالع الكتب ويأكل ويشرب وينام، رخيَّ البال، فلما وصلت الباخرة التي تقله إلى بلده رحل، وجاء منه كتاب بعد سنة، إلى الأفندي عنوانه: «جدة -الحجاز- إلى الشيخ الطيب المضياف الذي على باب بيته نخلتان» نسي الرجل الصالح اسم الأفندي، فما كان منه إلَّا أن يكتب هكذا. ووصل الكتاب إلى الشيخ محمد نصيف؛ لأنه هو الذي كان على باب بيته نخلتان متقابلتان، قُطعتا فيما بعد، والبريد يعرف الشيخ طيبًا مضيافًا، ويعرف النخلتين على بابه فأوصل الكتاب، وليس عجيبًا وصوله، وإنما العجيب نسيانُ الرجل اسم شخص استضافه شهرًا».

رحم الله الشيخ محمد نصيف.

١١- الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ علاَّمة الديار السعودية ومفتيها:

«هو سليل العلماء الأكابر، ومن بيت العلم المعروف، العلَّامة الحجة، والفقيه المحقِّق الحنبلي الضَّليع، الأصولي المتمكِّن، المحدِّث المفسِّر، المُطَّلِع النَّسَّابة البحاثة، مفيد الطالبين، ومَرْجِعُ القضاة والمفتين، وشيخ كبار

---

(١) وهو القبطان، كلمة أجنبية تعني رئيس الباخرة، ويقال له في الترجمة أحيانًا الكابتان.

العلماء في الديار السعودية غيرَ منازَع، الشيخ محمد بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حسن بن إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى»[1].

وُلِد في مدينة الرياض سنة ١٣١١هـ ونشأ في بيت عريقٍ بالعلم والفضل، تحت كنف والده العلَّامة الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف علَّامة المعقول والمنقول.

أتمَّ حفظ القرآن وهو في التاسعة من عمره، وشرع في قراءة العلم على والده، فقرأ عليه مختصرات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومبادئ النحو، وعلم الفرائض، وكان والده يُتقِن هذا العِلم إتقانًا تامًّا لمزاولته منصب القضاء في الرياض.

وأصيب بفقد بصره من رمد نزل به وهو في السادسة عشرة من عمره. وقرأ على عمِّه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف والشيخ سعد بن عتيق، وكان هذان الشيخان من كبار شيوخه، وقد تأثر بهما في العلم والفضل والورع والتقوى والخدمة العامة للمسلمين والدعوة إلى الله تعالى.

قرأ على عمه الشيخ الجليل عبد الله بن عبد اللطيف «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم كتاب «العقيدة الواسطية» و«الحموية» للشيخ ابن تيمية، كما قرأ عليه الفقه، والحديث وعلومه، والتفسير وأصولَ التفسير، وغيرها من العلوم.

ووجد الشيخ محمد بن إبراهيم طلبته عند شيخه الثاني العَالِم الثَّبْت،

---

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر وآثارهم الفقهية» لعبد الفتاح أبو غدة (ص٢٥٥، ٢٥٦)- مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.

والمحقق الفقيه الأصولي، المفسِّر المحدِّث، المتفنِّن النحوي الشيخ سعد بن عتيق عالي الهمة فلازمه الشيخ محمد أتم الملازمة، وله منه إجازة في الحديث الشريف وما تلقاه عنه من العلوم. ومن بعد وفاة شيخيْه غدا شيخ الديار السعودية على الإطلاق.

□ وكان الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف قُبيل وفاته أوصى الملك عبدالعزيز بابن أخيه الشيخ محمد بن إبراهيم خيرًا، وأعلمه بكفاءته العلمية والشخصية، وأنه خير من يصلح أن يكون خليفة عنه بعد مماته، في كل ما كان يقوم به من نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى والإفتاء، وحلِّ المشكلات العامة.

□ وكان الشيخ محمد بن إبراهيم يوم وفاة عمه يبلغ من العمر ٢٨ عامًا، فصار من هذه اللحظة مرجع الناس في الإفتاء، وإمامًا للناس في الفروض الخمسة في مسجد الشيخ، وشيخ العلم والتعليم فيه أيضًا، فكان يجلس لطلبة العلم من بعد صلاة الفجر حتى بعد صلاة العشاء، تَقرأ عليه الأفواجُ في جملة من العلوم الشرعية والعربية، وهو بين ظَهْرانيهم مَعِين لا يَنْضُب، ونَشاطٌ لا ينقطع، وعِلْم لا ينحسر، ودَأَبٌ عجيب دائم، لا يُغني هذا الكلامُ عن تصوره حقيقةً، ولذا سأدَعُ الحديثَ هنا لفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، إذ يقول في ترجمته في كتابه «مشاهير علماء نجد»[١] وهو يتحدث عن طريقة تدريس الشيخ وأوقات جلوسه للتعليم والمستفيدين:

«كان الشيخ رحمه الله تعالى إذا صَلَّى الفجرَ، جَلَس في المسجد يَقرأ

---

(١) «مشاهير علماء نجد» للشيخ عبد الله بن عبد اللطيف (ص١٧٠).

عليه صغارُ الطلبة في كتاب «الآجرومية» في النحو، وبعدَهم يَقرأ عليه متوسطو الطلبة في كتاب «القَطْر» لابن هشام في النحو، وبعدَهم يَقرأ عليه كبارُ الطلبة في «ألفية ابن مالك» وشرحِ ابن عقيل عليها في النحو أيضًا.

فإذا انتهوا من قراءة النحو في «الألفية» وشرحِها، قرؤوا عليه في الفقه من متن «زاد المستقنِع» غَيْبًا، فإذا قرأ آخرُهم وسكتَ، أخذ الشيخُ في إعادة ما قرأوه من المتن من حِفظِه، وشَرَع يَتكلَّم على العبارات، ويُوضِّحُ معاني الكلمات، فإذا انتهى شَرَع أحدُ الطلاب في قراءة شرح «الزاد» المسمى: «الروض المُرْبع شرح زاد المستقنِع»، قراءةَ ترتيل، يقف عند كل فِقرة وجملة، والشيخ يُعلِّق على عبارات الشارح وجُمَلِه، بكلام يُوضِح المعنى ويُزيل الإشكالَ، ويُصَوِّر المسائلَ تصويرًا ملموسًا، يُقَرِّب المعاني الفقهية إلى أذهان الطلبة، ويُقرِّرُ قواعدَها في نفوسهم.

فإذا انتهى من تقريره على الفقه، شَرَعوا في القراءة عليه في «بلوغ المرام»، فإذا أشارَتْ الساعةُ إلى الواحدة نهارًا- بالتوقيت الغروبي وذلك وقت الضحى انصرف إلى داره وجلَسَ فيها.

فإذا حانت الساعة الثالثة، جاءه كبارُ الطلبة وخواصُّهم، وقرأوا عليه إلى الساعة الخامسة قبيل الظهر، ثم انصرفوا، فإذا أُذِّن بالظهر خَرَج وصلى بالناس في المسجد، وجَاءَه أهلُ المطوَّلات وقرؤوا عليه في مختلِف الكتب، كـ «جامع الترمذي»، و«صحيح البخاري»، و«زاد المعاد»، فإذا انتَهوا قرأ عليه بعضُ الطلبة في المتون العلمية غيبًا، مثلُ «كتاب التوحيد»، و«العقيدة الواسطية».

فإذا أُذِّن بالعصر خَرَج إلى داره وجدَّد الوضوء، ثم رَجَع وصَلَّى

بالناس العصرَ، وجَلَس في المسجد يَقرأ عليه أحدُ أعيان الطلبة في بعض الرُّدُود، فإذا انتهى قَرَأ عليه جملةٌ من الطلبة في مصطلح الحديث، فإذا انتَهَوا قرؤوا عليه في «العقيدة الحَمَوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فإذا بَقِي إلى أذان المغرب مقدارَ نصف ساعة خَرَج إلى داره.

فإذا أُذِّن بالمغرب جاء وصَلَّى بالناس، ثم جَلَس في المسجد للطلبة، يقرؤون عليه علمَ الفرائض والمواريث، فإذا حان أذانُ العشاء، قام من حلقة درس الفرائض إلى الصفِّ الأول في المسجد، وتنفَّل بركعات، ثم أمر القارئَ فشَرَع يقرأ عليه في «تفسير ابن كثير» إلى الساعة الثانية والنصف، فيأمُرُ بإقامة صلاة العشاء، فإذا أُقيمت وصلّى بالناس تنفّل وأوتَر، وخَرَج إلى داره وهي قريبة من مسجده.

وكان يرحمه الله تعالى لا يَدَعُ طالبَ العلم المبتدئ يَقرأ عليه في الفقه والمطوّلات، حتى يَقرأ عليه في مختصرات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإذا قرأها عليه عن ظهر قلبه، سَمَح له في القراءةِ عليه في مختصر «المُقْنِع» وغيره من كتب الفقه، وفي القراءة في «بلوغ المرام» وغيرِه من كتب أحاديث الأحكام وشروحِها، و«الروض المُربِع»، فكان يُربِّي الطلبة بصِغار العلوم قبل كبارها.

وقد استَمَرَّ على هذا الترتيب في الدروس بهذه الصفة، إحدى وأربعين سنة، من عام ١٣٣٩ إلى عام ١٣٨٠، حيث تَرَك جميعَ الدروس ما عدا درس الفقه و«بلوغ المرام»[١]، فإنه لم يترك الجلوسَ لهما بعد صلاة الفجر،

---

(١) لكثرةِ أشغالِه ومسؤوليَّاتِه، حيث أسنِدتْ إليه كبارُ الأعمال، ومَهامُّ الوظائفِ، وقد ذَكَر ترتيبَ أوقاتِه في السنواتِ الأخيرة تلميذُه الشيخُ عبد الله بنُ سليمان =

إلى أن حَبَسه المرضُ. فاقتَصَر على درس التفسير قبيل القيام إلى صلاة العشاء يُقرَأُ عليه في تفسير ابن جرير الطبري». انتهى كلام الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف.

□ قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة: «وهذه حِقْبَةٌ كبيرة من الزمن في عمر الرجل العالِمِ ٤١ عامًا: تعليمًا وتدريسًا وتفقيهًا وتحديثًا، فلقد كان الشيخُ (أُمَّةً) في جسد رجلٍ، وكان مسجدُه (جامعة) في قلب نجد، ملأتْ بلادَ نجد وغيرَها علمًا، وأنارتها بعلوم الشريعة، قبلَ أن تُبنَى مدارسُ التعليم والمعاهد والكليات والجامعات، التي هي أثر من آثار نهضة الشيخ العلمية رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم والدين والإسلام خيرًا.

وكانت علومُ الشيخ عيونًا صافيةً مُتدفِّقة، أروَتْ الظماء، وأنشأَتْ العلماء، وأسَّسَ الشيخُ بجهودِه المخلصةِ لنهضةٍ علميةٍ كُبْرى، فقد تخرج به أعدادٌ كبيرةٌ لا تُحصَى من العلماء والمُحصِّلين، وحسبك أن تعلم أن جُلَّ أكابرِ علماء المملكة اليومَ هم من تلاميذه. وهم الذين يَشْغَلُون أعلى المناصب العلمية والدينية، ويَملؤون مناصبَ القضاء والإفتاء والتدريس والوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله تعالى.

يَبني الرجالَ وغيرُه يبني القُرَى ... شتَّانَ بين قُرًى وبين رجالِ

المنيع في مقالِه الجامع عن حياة الشيخ محمد بن إبراهيم، المطبوع في «مجلَّة البحوث الإسلامية» في العدد (١٨) (ص٢٢٣- ٢٢٥)، وقال في نهاية كلامِه: «وبهذا يتَّضحُ أنَّ سماحتَه رَحِمَهُ اللَّهُ كان يَقضِي ما لا يَقِلُّ عن سبعَ عشرةَ ساعةً كلُّها في خدمة المسلمين، وبصفةٍ دائمةٍ ومُستَمِرَّةٍ لا تقطَعُها إجازةٌ ولا يَحُول دون القيام بها أيُّ تعلُّل من تعلُّلات الآخرين، فرحمه الله رحمةً واسعةً، وأجزلَ له من الثوابِ والجزاءِ ما يُوهِّلُه لأعلىٰ عِلِّيِّين».

آثارُه الباقية في إقامة مَناهِل العلم والدين:

لم يكن يُقنِعُ الشيخَ رحمه الله تعالى ما رآه من كثرة الطلبة والعلماء حوله، فقد رَغِب أن يَعُمَّ هذا الازدهارُ العلمي الأطرافَ البعيدةَ والقريبة في المملكة، على وجه نِظامي مُوسَّع، ليدخل العلمُ إلى كل قرية وبلد، فرأى في عام ١٣٦٩ قبل نحو خمسين سنة: أن يُنشأ في مدينة الرياض (العاصمة) معهدٌ علمي نظامي، يكون تحت نظره وإشرافه، حتى يُحتذَى به إنشاءُ أمثاله في بقية البلاد السعودية، وأبدى هذه الفكرةَ للملك عبدالعزيز، فرحَّب بها جدًا، وأمَرَ بإنشاء المعهد، وجَعَلَ لطلابه مكافئاتٍ سخيةً تشجيعًا للإقبال عليه.

وتَمَّ افتتاح المعهدِ العلمي بالرياض في سنة ١٣٧١، تحت نظر الشيخ وإشرافه، وأسند الشيخُ إدارته إلى شقيقه فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم رحمه الله تعالى، واختار للتدريس فيه أساتذةً من أفاضل علماء هذه الديار ومن الأقطار العربية الأخرى، واختار من طلبته في المسجد آنذاك عددًا وفيرًا، ألحقهم بالسنة الثالثة من المعهد، نظرًا لقراءتهم وتحصيلهم السابق عليه.

وقبل أن يَتِم تخرُّج الفوج الأول من طلاب هذا المعهد العتيد، توجه نظرُ الشيخ إلى إنشاء كلية للشريعة في الرياض، ليستكمل فيها الطلبةُ تحصيلَهم العالي، فأُنشئت كليةُ الشريعة في عام ١٣٧٣ تحت إشرافه أيضًا، واستَقْبَلتْ خريجي المعهد العلمي، وكانوا طلائعَ الخير للأفواج المتلاحِقة المتزايدة بعدهم.

ولما ظَهَرتْ النتائجُ الحسنةُ التي أَثْمَرها افتتاحُ معهدِ الرياض، رأى

الشيخ أن تَعُمَّ هذه الثمرةُ العظيمة أنحاء المملكة، فتحصَّل في عام ١٣٧٤ على أمر ملكي، يُخَوِّلُه افتتاحَ فروع لهذا المعهد في سائر جَنَبات المملكة كما يُريد، فأمَرَ سماحتُه بافتتاح ستة معاهد في كل من بُرَيْدَة، وشقراء، والأحساء، والمَجْمَعة، ومكة المكرمة، وسامِطة من أعمال جازان.

ثم بَدَأت فروعُ هذا المعهد العلمي تزدادُ عامًا بعد عام، انتشارًا واتساعًا وكثرةً في الطلاب الواردين إليها، وبالتالي المُتخرِّجين بها، فرأى سماحتُه أن يكون للغة العربية لغة القرآن الكريم كليةٌ مستقلةٌ، تَستَقبِلُ أفواجًا من الطلاب أيضًا إلى جانب كلية الشريعة، فأُنشئت كليةُ اللغة العربية بالرياض في عام ١٣٧٤، وكانت تحت إشرافه أيضًا.

ثم تتابع افتتاحُ المعاهد العلمية في أنحاء المملكة، فكان معهد علمي في كل من المدينة المنورة، وحائل، وأَبْها، والزُّلْفي، وحوطة بني تميم، وبالجُرْشي، وجُدَّة، والدّمّام، وتبوك، والدُّلَم، والأفلاج، والطائف، والرَّسّ، وجازان، وعَرْعَر، والحَفْر، ووادي الدواسِر، ونجران، والجوف، وبِيْشَة، والبُكيرية، والباحة، وحوطة سدير، والقويعيّة، والبدائع، وحريملاء، و..

ورأى رحمه الله تعالى أن مما ينبغي أن يُواكِب تأسيس هذه المعاهد والكليات بالرياض، إنشاءُ مكتبةٍ عامة، تَتَوافر فيها الكتبُ الكبيرةُ والنادرةُ للطلبة والعلماء، مما لا يَقدِرُ على شرائه واحتوائه الأفرادُ، فأُنشِئت المكتبةُ السعودية في حي دُخنة في سنة ١٣٧٠، من أول يوم رُفِعَ فيه صرحُ المعهد العلمي، وكانت في تأسيسها وتكوينها وإدارتها تحت إشرافه ونظره.

وقد جَلَب إليها الشيخُ نوادرَ الكتب والمصادر العلمية، من شتى البلدان العربية وغيرِ العربية، وحَرَص على تزويدها بأمهاتِ كتبِ التفسيرِ والحديثِ والرجال والمصطلح والفقه والأصول والتاريخ والأدب والشعر واللغة وغيرها من العلوم الإسلامية، واقتنى لها المطبوعاتِ، وصوَّر لها كثيرًا من المخطوطاتِ المُهمةِ مما قدَّر أن الحاجةَ إليه سريعة، فَغَدَتْ من أغنى المكتبات العامة في الرياض إن لم تكن هي أولَها إنشاءً وتأسيسًا، وفيها طائفةٌ من المخطوطات النادرة.

ثم اتجه نَظَرُ الشيخ رحمة الله عليه، إلى أن هذا الخير في نشر العلم لا ينبغي أن يكون قاصرًا على أبناء المملكة، بل ينبغي أن يشمل أبناءَ المسلمين في آفاق الإسلام كلها، فأُنشِئتْ الجامعةُ الإسلاميةُ بالمدينة المنورة عام ١٣٨١ تحت إشرافه وبرئاسته، واستَقبَلَتْ طلاب العلوم الشرعية من شتى بقاع الإسلام، يُلَقَّنون العلم مجانًا، ويُكْرَمُون بالمكافأة السخية والرِّعاية الوَارِفة، ويُسكَنُون في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام مَهوَى قلوبِ المسلمين.

ولما اتسع نِطاقُ القضاء في المملكة، وأخذت الحاجةُ إلى قضاء الشرع الحنيف تزدَادُ يومًا بعد يوم، نظرًا لاتساع العمران في البلاد السعودية، رأى سماحتُه أن ينشأ معهدٌ عالٍ لتخريج القضاة فيه، فأُنشئ المعهدُ العالي للقضاء بالرياض في عام ١٣٨٥، وتم افتتاحه عام ١٣٨٧، تحت إشرافه وبرئاسته أيضًا، واختار للتدريس فيه كبارَ أهل العلم من علماء المملكة ومن غيرِها.. وكنتُ أحد أساتذة هذا المعهد العالي في سنة ١٣٨٧.

آثاره في مستوى المسؤوليات الإدارية والشرعية:

هذا الذي تَقَدَّم عنه هو بعضُ جهود الشيخ وجهادِه في إقامة مناهل العلم والدين، وأما جهودُه على مستوى المسؤوليات الإدارية والشرعية فهي لا تَقِلُّ شأنًا وعَظمةً وجهادًا، عن هذه الجهود الطيبة المثمرة.

ففي سنة ١٣٧٣ أُنشِئَتْ دارُ الإفتاء والإشراف على الشؤون الدينية تحت رئاسته. وكان الشيخُ يُستَفْتَى في كبار المسائل وصعابها من داخل المملكة وخارجها، فيُجيب السائلين ويُفيد المستفيدين، حتى تكوَّن من فتاواه مجلدات كثيرة.

وفي سنة ١٣٧٦ أُنشئت رئاسة القضاة في نجد وملحقاتها والمنطقة الشرقية والشمالية، وأُسنِدت رئاستُها إليه، ولما تُوفي سماحةُ الشيخ عبد الله ابن حسن آل الشيخ رئيس القضاة في الحجاز سنة ١٣٧٨ عن ٩١ سنة رحمه الله تعالى، ضُمّت رئاسةُ القضاة في الحجاز إلى سماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم، وتَوحَّدتْ رئاسةُ القضاة فيه. وأنشأ في عهد رئاستِهِ كثيرًا من المحاكم الشرعية في بلدان المملكة، وأقام فيها قضاةً أفاضل من خيار تلامذتِه وطُلّابِه.

وكان له مسؤولياتٌ أخرى غيرُ هذه التي سَلَفَ الحديث عنها، وهذا بيان تقريبي بأهمِّ ما كان يقوم به ذاك الرجلُ الفَذُّ من المسؤوليات في مجال التعليم والإفتاء والقضاء وغيرها:

في مجال التعليم:

١- رئاسة الكليات والمعاهد العلمية.

٢- رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٣- رئاسة المعهد العالي للقضاء.

٤- رئاسة معهد إمام الدعوة.

٥- الإشراف على رئاسة تعليم البنات.

٦- رئاسة المكتبة السعودية.

٧- رئاسة المعهد الإسلامي في نجيريا.

في المجالات الإدارية والشرعية:

٨- دار الإفتاء.

٩- رئاسة القضاة.

١٠- رئاسة المجلس العالي للقضاء.

١١- رئاسة المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي.

١٢- رئاسة دور الأيتام.

١٣- رئاسة مؤسسة الدعوة الصحفية.

١٤- الإشراف على نشر الدعوة في إفريقيا.

وكان إلى جانب هذه المهام التي تنوء بها العُصبةُ أولو القوة: خطيبَ الجامع الكبير، وإمامَ الفروض الخمسة في مسجده، والمُشرِفَ على ترشيح الأئمة والموظفين الدينيين، وعلى تعيين الوعاظ والمرشدين.

وكان قد بدأ في إنشاء (مجلس هيئة كبار العلماء)، واعتُمدت له ميزانية مالية لعام ١٣٨٩، غيرَ أن الأجلَ وافاه قبل أن يباشر المجلسُ أعمالَه.

□ هذا مُوجَزٌ تقريبي للأعمال التي كان يَنهَضُ بها ذاك العَلَمُ الفرد، ويَمْلؤها بعلمه وحِلمه وحِكمته وحَصَافته وصَبره وجَلَده، وما أصدق قولَ الشاعر البحتري فيه:

قلبٌ يُطِلُّ على أفكاره ويَدٌ ... تُمْضِي الأمورَ ونَفْسٌ لَهْوُها التَّعَبُ

□ وإن الدارسَ لحياته ليُدهَشُ من هذا الدَّأَب العجيب، والجَلَد المتواصل، والتوازُن العظيم الذي يَتَحلّى به هذا الإمامُ الجليل، والتوازنُ في الرجال عند إدارة الأعمال، من أغلى الصفات وأندرها، فكان يُصرِّف أمورَ التعليم والقضاءِ والإفتاء والإدارة في كل تلك المرافق الهامّة الواسعة، بصمتٍ كامل، وحكمةٍ وروية، دون دعايةٍ ولا ضوضاءَ ولا إعلانٍ، ويقوم مع هذا كلِّه بالتعليم بنفسه، وبالتأليف، وبإجابة المستفتين والقضاة عما يَعْسُرُ عليهم حَلُّه، دون أن يَطغى منه جانبٌ على جانبٍ، فلله درُّه ما كان أقواه عزمًا وحزمًا وجلَدًا ودأبًا في ميادين الخدمة للإسلام والمسلمين..

وإذا كانَتِ النفوسُ كبارًا   تَعِبَتْ في مرادها الأجسامُ[1]

طريقته في التدريس:

«كان رَحِمَهُ اللهُ يعطي مجالس العلم حقها من الاحترام والتقدير ويحرص على إيصال الفائدة إلى قرارة قلوب الطلاب معنيًّا بتثبيتها حتى إنه ليكاد يغني بشرحه عن مطالعة. وكان رَحِمَهُ اللهُ إذا همَّ بالجلوس للتدريس توضأ إن لم يكن على وضوء بعد صلاة، واستقبل القبلة إذا كانت الجلسة في المجسد، ويبدأ شرحه باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ويمكن تلخيص السمات الظاهرة لطريقته في التدريس في النقاط التالية:

١ - يطلب من بعض الطلّاب أن يبدأ بالبسملة والصلاة والسلام على رسول الله والترحُّم على المؤلف، ثم يتلو حفظًا موضوع الدرس إذا كان

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي» (ص٢٦٨- ٢٧٣).

الكتاب متنًا. ويحرص جدًّا على أن يحفظ جميع الطلَّاب المنتظمين المتون، ولا يرضى بنصف حفظ، ولا ينتقل الطالب من متن إلى متن أطول منه إلَّا بعد حفظ الأول وفهمه، ولذا كان الطالب المجد منهم يتخرَّج في سبع سنوات.

٢- قبل أن يبدأ بالشرح يقرأ هو ما قرأ الطلَّاب.

٣- يشرع في شرح عبارات المتن بدقة ووضوح.

٤- يعرض بعض المسائل ويتكلم عليها.

٥- إذا عرض لمسألة خلاف ذكر رأى المؤلف أوَّلًا وأدلته، ثم ذكر رأي المخالفين كُلًّا على حدة، مع دليله. وكان في ذلك كله يحترم كل ذي رأي من العلماء ولا يذكره بما يسوء، وكان يرجح ما يراه، معتمدًا في ذلك على الدليل وأقوال المحقِّقين، ولم يكن يعرض من الخلاف إلَّا ما كان ذا جدوى. وقد يصحح أحد القوليْن بدون سرد الأدلة لقصر الوقت أونظرًا لحال الطالب.

٦- كان يلتزم بالموضوع ولا يستطرد إلى مسائل خارجة عنه.

٧- كان إذا فرغ من الدرس تلقَّى أسئلة الطُلَّاب وأجاب. وقد يثير هو بعض الإشكالات ليقدح أذهان الطلَّاب.

٨- يختبر الطلَّاب فيما شرح لهم في بعض الأحيان بإلقاء الأسئلة عليهم، ويعربون متن الألفية وشواهدها.

٩- فيما يتعلق بالعقائد لم يكن يحرص على ذكر آراء أهل البدع والإشراك، فإذا وجد ضرورة لذلك أو كان المؤلف ذكرها فإنه يتكلم عليها بتوسُّع ويشتد في الرَّد عليهم دون إفراط.

١٠- وبالنسبة لقراءة المطوَّلات لم يكن يشرحها عبارة عبارة، وإنما كان يقف عند المهم منها، أو ما يسأل عنه أحد الحاضرين.

١١- يلزم اللغة العربية في جميع مجالسة العامَّة.

١٢- يلتزم الهدوء أثناء شرحه للمتون أو تعليقه على المطوَّلات فلا تراه يلتفت، أو يشير بيد، أو يعبث بشيء.

١٣- لم يكن يسمح بإثارة الأسئلة التافهة، أو الدخول في مناقشات عقيمة»[1].

□ وكانت للشيخ حافظة نادرة كانت أقوى سبب في تحصيل ثروة علمية واسعة بُنيت على محفوظاته التي علقت بذاكرته أثناء تعلُّمه ومطالعاته أثناء تدريسه، وكان يحفظ المتن للقراءة الثالثة وربما الثانية، وكانت المعاملة الطويلة التي تبلغ ثلاثمئة صفحة تُقرَأ عليه، ثم يُملي ما يرى مستحضرًا كل ما مرَّ فيها من الجزئيات،ولم يكن غريبًا منه أن يدل القارئين على مواضع الأبحاث في كتبها ذاكرًا رقم الصفحة أحيانًا، ومثل ذلك لا يكون إلَّا لمن أتاه الله ذاكرة واعية.

□ وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أكثر الناس استحضارًا لعظمة الله، كثيرًا ما تسمعه يلهج بذكر الله والاستغفار وتغرورق عيناه بالدموع حينما يكون في موقف مناجاة لله، أو يسمع بعض ما يُحرِّك القلوب، ولقد كان ذلك يتجلَّى كثيرًا فيما يُحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره، وقد لا يعرف هذا كثير من الناس الذين لم يتَّصلوا به، وقد صحبته زمنًا طويلًا

---

(١) «فتاوىٰ ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ» جمع محمد بن عبدالرحمن بن قاسم (١/ ١٣- ١٤).

وهو يقوم ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل لا يترك ذلك»[(١)].

تآليفه وآثاره المدوَّنة:

كان الشيخ رحمه الله تعالى من أشدِّ العلماء غرامًا بالعلم وتحقيقه ونشره والتأليف فيه، وكان يقع العلم منه تحصيلًا وعطاءً موقع الغذاء من البدن، ولكن هذه المسؤوليات الجسام العديدة، وهذه المهام الكبيرة المنُوطة به: كافيةٌ أن تجعله لا يفرغُ لتدوين رسالةٍ إلى أحد أولاده إذا سافر وبَعُدَ عنه، فضلًا عن تأليف رسالةِ علم، أو تصنيف كتاب، غير أن عَزَمات الشيخ المَضَّاءة، وقُوَّةَ توازنه العظيم، وشدةَ مُحافظتِهِ على الوقت: مَكَّنته من التأليف والتحقيق والنشر، وأعطَتْ منه مثلًا لما يُقرأ في تراجم العلماء قصيري الأعمار، كثيري المؤلفات والآثار، كيف تم لهم ذلك؟ وعَجَز غيرُهم عن القيام بمثله مع العمر الطويل؟! والجوابُ: هو ذاك العَزْم الصُّلْب، والتوازُنُ الكامل، والدَّأَبُ الدائم، والحِفظ التامُّ للوقت، يأتي بالعجائب من الإنتاج والإبداع.

فقد أَلَّف الشيخ رسائلَ وكتبًا كثيرةً، وأعلَمُ من اطلاعي على ما اطلعتُ عليه منها: أنها تتميز بالعمق والدقة والشمول والاستدلال والجزالةِ التامة، وجُلُّها في المشكلات العلمية العويصة، وبعضُها في الردود على من شَطَّ عن الجادَّة.

□ وللشيخ رحمه الله تعالى كتابٌ جَمَعَ فيه (ألفَ حديث شريف)، واختار تلك الأحاديثَ من دواوين كتب السنَّة المعتمدة: الكتب الستة وغيرها، وراعى في الاختيار أن يكون الحديثُ أصلًا في موضوعه ومعناه،

---

(١) المصدر السابق (ص١٥، ١٨، ١٩).

أو يتضمن أصلًا. وهذا الكتابُ قيدُ الإخراج أيضًا، يقومُ بنشره فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد نجل المؤلف حفظه الله تعالى.

وله فتاوى جامعةٌ، في العبادات والمعاملات والعقائد وقد جَمَعها وجُلَّ رسائلِ الشيخ ومكاتيبه، وطائفةً كبيرةً من ملفوظاتِه، تلميذُهُ الشيخ محمد ابن عبد الرحمن بن القاسم، وطُبعتْ في ١٣ جزءً، بعنوان «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ»، سنة ١٣٩٩ في مطبعة الحكومة بمكة المكرّمة، بأمرِ الملك فيصل رحمه الله تعالى.

وفي هذه الفتاوى والرسائل نماذجُ كثيرةٌ حَيَّةٌ ناطقة بعُمقِ نظره في الفقهِ الإسلامي، ودقةِ نظره في القضاء، وشدةِ اجتنابِه من المُداهَنة في دين الله تعالى، مع الانتباه التامِّ لدَخَائِل ودسائسِ أهل الأهواء والقلوبِ المريضةِ في شؤون الدين»[1].

وافاه الأجل في رابع العشر الأواخر من رمضان سنة ١٣٨٩هـ في مدينة الرياض، فبكته العيون وشيّعته القلوب.

وكانت الفجيعةُ به فادحةً جدًّا، والأسفُ عليه عظيمًا، والمُصابُ به جَلَلًا عامًا، والثناء عليه وعلى جهودِهِ وجهادِه طيبًا عَطِرًا، أثنَتْ عليه الألسنةُ البعيدةُ والقريبةُ خيرًا، وتَرَكَ فراغًا كبيرةً لم يُملأ بعده، فقد كان صَرْحًا رفيعًا للعلم وأهله، وسِيَاجًا منيعًا للدين وذويه، ونصيرًا للإسلام والمسلمين في بلده وخارج بلده، ولما مات انثلَمَ السِّيَاج، وانقَضَّ الصَّرْح، وانطوى رَجُلُ الجهادِ والعلم والحزم والدين، واسْتَنَّتْ الفِصَالُ حتى القَرْعَى! وتكلَّمتْ الرُّوَيْبِضَة! وكَثُرَ الغُثَاءُ والهُرَاء! وصار كلُّ جاهلٍ

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي» (ص٢٧٣ - ٢٧٥).

متعالمًا متمجهدًا! ولا رادَّ له ولا مُلْجِم! وانكشف عِظَمُ المصابِ بفقد هذا الجبل الأشمّ والسدّ المنيع:...

وكلُّ كَسْرٍ فإنَّ الدِّينَ يَجبُرُه ... وما لِكسرِ قَناةِ الدِّينِ جُبْرانُ

□ نعم لقد مات هذا الإمامُ الهُمامُ والعالمُ المَهيبُ، الذي كانت هيبتُه في نفوس أهل الشطط ورُعاةِ التفرنج والشرودِ عن الجادة أشَدَّ رهبةً من عصا السلطان القامعة الزاجرة المؤدِّبة، تَحْجُمُهم عن بوائقهم ومفاسدهم. فكان فقدُه كما قال القائل:

وما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنه بُنيانُ قومٍ تَهَدَّما![1]

□ يقول عنه تلميذه الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد أكرمني الله به، وتفضَّل عليَّ -وله الحمد والمنَّة- بأن كنت من أخصِّ تلامذة شيخنا المذكور، لازمته نحو عشر سنين، من عام ١٣٤٧هـ إلى عام ١٣٥٧هـ، ثم تعيَّنت في القضاء بعد ذلك، لكني لم أنقطع عن الاتصال به، وسؤاله عن كل ما يشكل، والاستفادة من علومه وتوجيهاته، الإسلامية، إلى أن تُوفي رَحِمَهُ اللَّهُ وقد حضرت له مواقف مشرِّفة، وشاهدت منه أعمالًا موفَّقة في نفع المسلمين، والغيرة على الإسلام، والردِّ على خصومه، أجزل الله له المثوبة، وكان يُوصي الطلبة كثيرًا بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وكان واسع العلم كثير الخوف من الله سبحانه وتعالى، ومناقبه وفضائله كثيرة جدًّا»[2].

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٥).

(٢) «اتحاف النبلاء بسير العلماء» لراشد الزهراني (١/ ١٠١، ١٠٢).

□ وقال أيضًا: «كان من أعلم الناس في زمانه، ومن أحسنهم تعليمًا وتفقيهًا وعناية بالطالب، وإيقاع الأسئلة، وحرصًا على تقبُّل ما عند الطالب وبيان الجواب والتنبيه على الخطأ».

□ وقال أيضًا: «والله ما رأت عيناي قبل ذهاب البصر ولا أوقع في قلبي من هو أحسن منه تعلمًا وأكثر فقهًا رحمة الله عليه».

□ ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرفنا فيه وفور العلم ورجاحة العقل، وتمام الحكمة والصبر المنقطع النظير، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما أعتقد وأجزم به -وإن كنت لا أزكي على الله أحد- فهو من نوادر الرجال الذين عرفناهم علمًا وعقلًا وحكمة، وأن يجزيه كل خير ويُعلي درجته في الآخرة كما أعلاها في الدنيا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا»[١].

□ يقول الشيخ العلَّامة سعدي ياسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا سماحة مفتينا الفقيه -تغمَّده الله برحمته-، فقد سلك مسلك أئمتنا الأعلام من علماء السلف، فكنتُ وأنا أسمع فتواه تلك، كأني استمع إلى سفيان بن عيينة أو ابن عُليَّة أو ابن أبي ذئب، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متين الحفظ مستحضر الآيات لا يكادُ يتشبه عليه شيءٌ من ذلك، ولقد رأيته عن كثب بعبادته وأذكاره في ليله ونهاره وحرصه على حضور الجمعة والجماعة وإخباته قبل الفجر وبعده مما حبَّبه إليَّ وأكبره في نظري»[٢].

(١) المصدر السابق (١/ ١٠٣).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٣).

تلامذته:

تُعرف علو همة الشيخ محمد بن إبراهيم في تعليم العلم ونشره فيما تركه من طلَّاب وتلامذة تربُّوا على يده.

□ يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة: «أمضى الشيخ رحمه الله تعالى كلَّ عمره الشريف في التعليم ونشر العلم والدعوة إلى الله تعالى..، وقد عاش نحو ثمانين عامًا، عاش منها فوق خمسين عامًا ينشر تلك الفضائل، ويبث ذلك الخير في أبناء الأمة، فما تكاد تجدُ عالمًا كبيرًا في هذه الديار إلَّا وهو من تلامذته، أو من الطبقة التي أخذت عن تلامذته، وهم جميعًا مُستقون من مَعِينه، مُتعَلِّمون بين يديه، متتلمذون عليه، فَحَصْرُ تلاميذه عَدَدًا وتسميةً أمرٌ عسيرٌ، لا يمكن انضباطه.

فشيوخُ العلم الكبار والجامعات الإسلامية والكليات والمعاهد العليا، وشيوخُ القضاء والإفتاء، وشيوخُ المعاهد المتقدمين في العلم هم من طلابه، وهذا أمرٌ معروفٌ، ونَسبٌ شريف يَتفاخَرُ به المنتسبون إلى حلقة الشيخ في هذه الديار النجدية، ويَعتَزُّون به. وما كان بي من حاجة إلى تسميةِ أحد منهم، لولا أن البعيدَ عن هذه الديار، إذا سَمِعوا أسماءَ بعض تلامذة الشيخ الذين هم من كبارِ أهل العلم اليوم، زادَتْ معرفتُهم بمقام الشيخ العلمي وزعامتِه الدينية الوارفة، فمن أجلِ هؤلاء أسوق بعضَ الأسماء، معتذرًا عن عدم الاستيفاء»[(١)].

١- سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حُمَيد، الرئيس الأعلى لمجلس

---

(١) الأسماءُ المذكورة جلُّها منقول من ترجمة الشيخ في كتاب «مشاهير علماء نجد» للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، وهناك أسماءٌ كثيرة أخرىٰ.

القضاء.

□ تقول منى بنت عبد الرحمن آل الشيخ: «ولو لم يكن من حسنات الشيخ إلَّا هذا الإمام لكفَى»[١].

٢- سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، الرئيس العام لإدارة الإفتاء والبحوث والدعوة.

٣- معالي الشيخ عبد الملك بن إبراهيم، شقيق الشيخ، والرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف بالمنطقة الغربية.

٤- معالي الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم، نجل الشيخ، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود قبل تقاعده.

٥- معالي الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، نجل الشيخ، ووزير العدل قبل تقاعده.

٦- الشيخ سليمان بن عبيد آل سلمى، رئيس المحكمة الكبرى بمكة المكرمة.

٧- معالي الشيخ عبد الله بن سليمان المِسعَري، رئيس ديوان المظالم في المملكة سابقًا.

٨- العَلَّامة الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد، رئيس هيئة التمييز بالمنطقة الوسطى والشرقية.

٩- معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، رئيس هيئة الأمر بالمعروف في المملكة ووزير المعارف سابقًا.

(١) «جهود وفتاوىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في الدعوة والاحتساب» لمنىٰ بنت عبد الرحمن آل الشيخ (ص٣٧)- طبع دار الهدي النبوي- مصر.

١٠- العَلَّامة الشيخ عبد الله بن يوسف الوابل، نزيل مدينة أبها ومفتي عسير ورئيس قضاتها.

١١- الشيخ عبد الرحمن بن فارس، أحد قضاة مدينة الرياض أيضًا.

١٢- الشيخ عبد الرحمن بن سعد، القاضي، من بلدة مَلْهَم.

١٣- الشيخ إبراهيم بن سليمان من آل مبارك، قاضي بلدة الخَرْج والأفلاج.

١٤- الشيخ سعد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن رُوَيشِد.

١٥- الشيخ إبراهيم بن عبد الله آل الشيخ، ابن أخي الشيخ.

١٦- الشيخ محمد بن عبد العزيز بن الشيخ حمد بن عتيق.

١٧- الشيخ عبد العزيز بن عجلان، من بلدة نَعَام المعروفة.

١٨- الشيخ محمد بن مسلم آل عثيمين، قاضي مدينة تبوك والبِدَع.

١٩- الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن فَرَيّان.

٢٠- الشيخ راشد بن صالح بن خُنَيْن، وكيل ثم المستشار في الديوان الملكي.

٢١- الشيخ سعود بن رُشُود، رئيس محكمة الرياض.

٢٢- الشيخ سعد بن محمد بن فيصل آل مبارك، قاضي مدينة شقراء.

٢٣- الشيخ محمد بن مُهَيزع، أحد القضاة في مدينة الرياض.

٢٤- الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، جامع «مجموع فتاوي ابن تيمية».

٢٥- الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي، نجل المذكور قبله ومعينه في جمع «الفتاوي».

٢٦- الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي، أمين مكتبة كلية الشريعة بالرياض.

٢٧- الشيخ محمد بن الأمير، أحد قضاة المحكمة الكبرى في الرياض.

٢٨- الشيخ صالح بن محمد بن لحيدان، رئيس الهيئة القضائية العليا.

٢٩- الشيخ محمد بن جبير رئيس ديوان المظالم في المملكة رئيس مجلس الشورى.

٣٠- الشيخ زيد بن فياض الوهبي التميمي مؤلف الروضة الندية وغيرها.

٣١- الشيخ عبد الرحمن بن عتيق، القاضي.

٣٢- الشيخ عبد الله بن عبد العزيز الخضيري، القاضي.

٣٣- الشيخ عبد الله بن عبد العزيز الراجحي، أحد المدرسين.

٣٤- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الراشد، أحد المدرسين.

٣٥- الشيخ محمد بن فُوزان بن مُشرف، أحد المدرسين.

٣٦- الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، العلامة المحدث الفقيه الباحث في دار الإفتاء.

٣٧- الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن جابر، القاضي.

٣٨- الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن قاسم العاصمي، أحد المدرسين.

٣٩- الشيخ عبدالله بن سليمان المنيع، القاضي سابقًا، من هيئة كبار العلماء.

٤٠- الشيخ صالح بن علي الغصوب، العلامة عضو مجلس القضاء الأعلى.

٤١- الشيخ حسن بن عبد اللطيف المانع، العلامة المدرس.

٤٢- الشيخ علي بن عبد الله بن مسلم.

٤٣- الشيخ عبد العزيز بن محمد بن شلهوب، مدير معهد إمام الدعوة العلمي سابقًا.

٤٤- الشيخ عبد الله بن سليمان المعيوف.

٤٥- الشيخ عبد الرحمن بن محمد الهويمل، قاضي الرياض.

٤٦- الشيخ عبد العزيز بن خلف بن عبد الله الخلف، القاضي وصاحبُ كتاب: نظرات في كتاب حجاب المرأة المسلمة للألباني.

٤٧- الشيخ محمد بن خلف بن عبد الله الخلف، القاضي.

٤٨- الشيخ عبد العزيز بن محمد العريفي، القاضي.

٤٩- الشيخ مُقْبِل بن عبد الله العصيمي، القاضي.

٥٠- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، المدرِّس.

هذه شَذْرَة من أسماء تلامذة الشيخ، لا تُعبِّر عن عددهم إطلاقًا، فهم لا يُحصَون كثرةً كما أسلفتُ، وإنما تُعبِّرُ عن نموذج للمستوى العلمي الرفيع الذي نهض به الشيخُ، وخَلَّفَه في أبنائه أكابِرَ العلماء في هذه الديار السعودية.

وهذه شَذْرَةٌ من تاريخ حياته الحافلة بالمآثر والعطاء والمحامد الشمَّاء، فلله دَرُّه وبِرُّهُ، واللهُ المرجوُّ أن يتغمده بواسع رحمته، ويُسبغَ عليه شآبيب رضوانه العظم.

وما كـلُّ مـا فيـه مـن الخـير قلتُـهُ ... وما كلُّ ما فيه يقولُ الذي بعـدي»[1]

١٢- شيخ جامع الزيتونة وعلاَّمة تونس الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب تفسير «التحرير والتنوير» علاَّمة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه (١٢٩٦هـ- ١٣٩٤هـ):

هو شيخ الإسلام في تونس، وقاضي قضاة المالكية بها وشيخ مسجد الزيتونة الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن العالم عبد القادر بن العالم الزاهد الصالح الشيخ محمد (بفتح الميم) ابن عاشور، وهو من أشراف الأندلس، وحده لأمه هو العالم الوزير محمد العزيز بُوعَتُّور. ولد الشيخ محمد الطاهر في ضاحية «المَرْسى» قرب العاصمة التونسية على بعد عشرين كيلو مترًا منها، وقرأ القرآن في سن السادسة على شيخه المقرئ محمد الخياري، والتحق بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠هـ= ١٨٩٣م، فنهل من العلوم والمعارف المقدَّمة في الجامع ما استطاع، فقرأ علوم القرآن، والقراءات، والحديث، والفقه المالكي وأصوله، والفرائض، والسيرة، والتاريخ، والنحو، واللغة، والأدب، والبلاغة، والمنطق.

ولقد تحمَّل الشيخ محمد الطاهر العلم عن أعيان علماء بلدة تونس وشيوخ الزيتونة.

ولقد تخرَّج في تجويد القرآن، وعلم القراءات، وبخاصة في رواية قالون، على الشيخ عبد القادر التميمي وقرأ «تفسير البيضاوي» على

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي» (ص٢٨٥- ٢٩٠).

الشيخ عمر ابن الشيخ، وحضر دروس «تفسير الكشاف للزمخشري» للشيخ محمد صالح الشريف.

• وفي الحديث الشريف قرأ «الجامع الصحيح» للبخاري بشرح القسطلاني قراءة تحقيق، و«الموطأ» بشرح الزرقاني قراءة تحقيق، على الشيخ سالم بو حاجب.

وأجازه جدُّه لأمه برواية «الصحيحين»: البخاري ومسلم. وقرأ «البيقونية» على الشيخ محمد بن عثمان النجار، كما قرأ «شرح غرامي صحيح».

وفي الفقه: قرأ «الدردير» على الشيخ أحمد جمال الدين، والشيخ عمران ابن عاشور، والشيخ محمد صالح الشاهد، وقرأ «التاودي على التحفة» على الشيخ محمد صالح الشريف، و«كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» على الشيخ محمد العربي الدرعي، والشيخ محمد البخلي.

وفي «الفرائض»: قرأ «الدرة في الفرائض» على الشيخ عمر بن عاشور.

وفي أصول الفقه: قرأ «شرح المحلي على جمع الجوامع» على الشيخ محمد طاهر جعفر، والشيخ محمد البخلي الذي قرأ عليه أيضًا «الحطَّاب على الورقات»، و«التنقيح للقوافي».

وفي السيرة النبوية: قرأ «شرح الخفاجي على الشفا للقاضي عياض» على الشيخ محمد طاهر جعفر وشيوخه كثيرون في علم الكلام، وعلم المنطق، والنحو والصرف، والبلاغة، واللغة، ودرس اللغة الفرنسية على أستاذه الخاصِّ أحمد بن ونَّاس المحمودي.

وتحمَّل العلم عن ابن عاشور جمٌّ غفير من الشعب التونسي والجزائري.

وقام الشيخ ابن عاشور بتدريس كتب عالية في جامع الزيتونة، فدرَّس «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» للجرجاني، و«الشرح المطوَّل» للتفتازاني، و«شرح جلال الدين المحلي لجمع الجوامع في الأصول» و«مقدمة ابن خلدون» و«موطأ الإمام مالك بن أنس»، وهو أول من درَّس ديوان الحماسة في جامع الزيتونة.

□ تسلَّم منصب شيخ الإسلام المالكي في ٢٣ محرم ١٣٥١هـ/ ٢٧ مايو ١٩٣٢م، وعُيِّن شيخًا للجامع الأعظم بالزيتونة في ١٣٥١هـ، وانتُخِب عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية بدمشق.

أَوَّليَّات الشيخ محمد الطاهر عاشور:

١- هو أوَّل من فسَّر القرآن كاملًا في إفريقية، وذلك في كتابه القيم «التحرير والتنوير»؛ وإفريقية اسم يشمل البلاد التونسية وما حوْلها، وتحديدًا ما بين برقة وطنجة.

وقد ادَّخر الله هذا الفضل له ليتوِّجه به.

٢- وهو أوَّل من جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي، وشيخ الزيتونة.

٣- وأول من لُقِّب من المالكية بشيخ الإسلام في تونس.

٤- وهو أول من تقلَّد جائزة الدولة التقديرية للدولة التونسية، ونال وسام الاستحقاق الثقافي سنة ١٩٦٨م، وهو أعلى وسام ثقافي قرَّرت الدولة التونسية إسناده إلى كلِّ مفكِّر امتاز بإنتاجه الوافر ومؤلفاته العميقة الأبحاث، ودعواته الإصلاحية ذات الأثر البعيد المدي في مختلف الأوساط الفكرية.

٥- وهو أوَّل من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحالي بعد العز بن عبد السلام والشاطبي.

□ وتوبر مؤلفات الشيخ محمد الطاهر على الأربعين مجلدًا أهمها على الإطلاق تفسيره «التحرير والتنوير في التفسير» أو «تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد»، وكانت مدَّة تأليفه لتفسيره حوالي أربعين سنة، بدأ به في سنة (١٣٤١هـ= ١٩٢٣م) وهي سنة تعيينه مفتيًا، وعَمره خمس وأربعون سنة، وانتهى منه عصر الجمعة، الثاني من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمئة وألف؛ فكانت مدَّة تأليفه تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر[(١)].

«وتفسير التحرير والتنوير يُعتبر في الجملة تفسيرًا بلاغيًّا بيانيًّا لغويًّا عقلانيًا لا يغفل المأثور ويهتم بالقراءات»[(٢)] وهو في العقيدة يسلك مسلك الأشاعرة.

«والكتاب في الجملة كتاب جيد من حيث الإضافات العلمية التي أضافها، وقد كان تحرر صاحبه سلاحًا ذا حدَّيْن، فكما أفادنا في مواضع كثيرة؛ زلَّت قدمه في مواضع أكثر، والمعصوم من عصمه الله»[(٣)].

□ يقول عنه صاحبه وخليله وقرينه في الطلب الشيخ محمد الخضر

---

(١) «مقدمة التحرير والتنوير» (١/ ٨)، و«محمد الطاهر بن عاشور» لإياد خالد الطباع (ص٩٧)- دار القلم- دمشق.

(٢) «التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا» للدكتور محمد بن رزق بن طرهوني (٢/ ٧٣٨)- طبع دار ابن الجوزي.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٧٦٦).

حسين شيخ الأزهر، التونسي الأصل:

أحببْتُـه مِـلءَ الفـؤادِ وإنَّـما ... أَحْبَبْتُ مَنْ تـلأ الـوِدادُ فـؤادَهُ

فظفَرْتُ مِنْه بصاحب إنْ يَدْرِ مَا ... أشكوهُ جافَى ما شَكَوْتُ رُقادَه

ودريْتُ منه كما درى مِنِّي فتى ... عَـرَفَ الوفـاءُ نجـادَه ووِهـادَه

□ ويقول فيه: «ولما كان بيني وبينه من الصداقة النادرة المثال، كنا نحضر دروس بعض الأساتذة جنبًا لجنب، مثل درس الأستاذ الشيخ سالم بو حاجب لشرح القسطلاني على البخاري، ودرس الأستاذ الشيخ عمر ابن الشيخ لتفسير البيضاوي، ودرس الأستاذ الشيخ محمد النجار لكتاب المواقف، وكنت أرى شدَّة حرصه على العلم، ودقَّة نظره؛ متجلِّيتين في لحظاته وبحوثه».

□ ويقول فيه: «انعقدت بيني وبينه سنة (١٣١٧هـ) صداقة بلغت في صفائها ومتانتها الغاية التي ليس بعدها غاية، وصداقة بهذه المنزلة تقتضي أن نلتقي كثيرًا، وأن يكون كلٌّ منَّا يعرف من سريرة صاحبه ما يعرفه من سريرته، فكنتُ أرى لسانًا لهجته الصدق، وسريرة نقيَّة من كل خاطر سيء، وهمَّة طمّاحة إلى المعالي، وجدًّا في العمل لا يمسُّه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابة بأقلّ من إعجابي بعبقريته في العلم»[1].

□ ويقول فيه: «شبَّ الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعيَّة وقَّادة فلم يلبث

---

(١) «محمد الطاهر بن عاشور» (ص٧١- ٧٢)، «نقلاً عن تونس وجامع الزيتونة (ص١٢٥- ١٢٦).

أن ظهر نبوغه بين أهل العلم»[(١)].

□ ويقول فيه: «وللأستاذ فصاحةُ منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم وقوَّة النظر صفاءَ الذوق وسعةَ الاطِّلاع في آداب اللغة».

□ ووصفة الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة فقال: «كان فريدًا مع تقدُّم السنِّ في حضور واستحضار ما يُسأل عنه من مسائل، أذكر أنني طلبتُ منه ذات يوم من شهر أغسطس ١٩٦٣م بعد أن جلستُ إليه في زيارتي له بعد العصر عن وجه إعرابِ خَفِيَ عليَّ، فإذا الإمام رحمة الله عليه يفيض في بيان ذلك ويشرح الوجوه المختلفة فيستشهد بما أورده ابن هشام في «المغني» وفي «التصريح»، وكأنه يقرأ في كتاب، وكذلك كان شأنه في كل ما يُسأل عنه من قضايا العلم اللغوي أو الشرعي، كان خزانة علم تنتقل يجد لديه كلُّ طالب بغيته، أعانه على حصول ذلك وبلوغ المرتبة العالية العجيبة فيه اشتغاله المتواصل بالمراجعة والتدريس والتحقيق والتأليف مع صحَّةِ ذهن، وجودة طبع، وقوة عارضة، وطلاقة لسان»[(٢)].

□ ويقول أيضًا: «هو نمط فريد من الأشياخ لم نعرف مثله بين معاصريه أو طُلَّابه أو من كان في درجتهم من أهل العلم، إذْ كان انكبابه به على الدَّرسِ متميِّزًا، واشتغاله بالمطالعة غير منقطع، مع عناية دائمة مستمرة بالتدوين والكتابة، وتقديم ما يحتاجُ إليه الناس من معارف وعلوم، وأذواق وآداب، وملاحظات وتأملات؛ فلا بِدْعَ إذا اطَّرَدَت

---

(١) «تونس وجامعة الزيتونة» لمحمد الخضر حسين (ص١٢٥- ١٢٦).
(٢) «شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره» لبلقاسم الغالي (ص٦٣).

جهودُه واستمرَّ عطاؤه في مختلف مجالات الدرس والثقافة، في حقول المعرفة الشرعية والدينية، وفي الدراسات اللغوية وفي معالجة أوضاع التعليم بالزيتونة، والعمل على إصلاحها، مع ذبِّه عن الإسلام وأصوله وآدابه، وتطلعه كل يوم إلى مزيد من المعرفة بكل ما يمكن أن يقع تحت يده من كتب فريدة، ومخطوطات ومصنَّفات في شتى العلوم والفنون. وقد وهبه الله متانة علم، وسعة ثقافة، وعمق نظر، وقدرة لا تفتر على التدوين والنشر، ومَلَكات نقديَّة يتضح أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتعريفات، وما يلحق بها من ابتداعات وتصرفات. وهكذا صدرت مقالاته وتحقيقاته وبحوثه وتآليفه متدفِّقة متوالية من غير انقطاع أو ضعف، فنُشِر ما نُشر، وبقي الكثير منها محفوظًا بخزانة آل عاشور ينتظر من يتولَّى نشره وطبعه وتحقيقه»(١).

١٣- الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم(٢) وجمعه لفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية:

الشيخ العالم العلَّامة عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي وُلِد رَحِمَهُ اللَّهُ في بلدة البير شمال الرياض.. ابتدأ في صغره بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه، وانتقل إلى الرياض فواصل دراسته وجدَّ واجتهد في التعلُّم بعد أن ذاق حلاوة العلم وأدرك من نفسه إقبالًا كُلِّيًّا على القراءة والحفظ

(١) «مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر بن عاشور» لمحمد الخبيب بلخوجة (ص١٩١).

(٢) انظر الترجمة في كتاب «اتحاف النبلاء بسير العلماء» لراشد الزهراني (ص١٠٩- ١١٤)- دار الصميعي والترجمة كتبها العلامة الشيخ عبد الله بن جبرين.

والاستفادة حتى فاق أقرانه.

ومن مشايخه: الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وحمد بن فارس، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ عبد الله العنقري، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

□ قال الشيخ ابن جبرين: «ولم يزلْ مُكِبًّا على الدراسة والحفظ والاستفادة حتى حصل على جانب كبير في أكثر العلوم، وتضلّع في علم التوحيد والفقه والحديث ونحوها من العلوم الدينية. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ حسن الخط سريع الكتابة فنسخ بيده شيئًا كثيرًا، ورزقه الله الصبر والقوة بحيث لا يعتريه ملل ولا سآمة، فأكبَّ على المطالعة والبحث والاستفادة والتنقيب على أفراد المسائل وأماكن الأدلة حتى نال ما تمناه، ثم حرص على العمل والتطبيق فانطبعت في أخلاقه آثار تلك الفوائد فلا يخلو حديثه من فائدة دينية أو مسألة فقهية أو استشهاد بآية وحديث».

□ وللشيخ كتب كثيرة في فنون متنوعة منها:

«الإحكام شرح أصول الأحكام» في أربعة أجزاء، وحاشية «كتاب التوحيد» وهي أنفس ما كُتب على هذا الكتاب.

وله «الدرر السنيَّة في الأجوبة النجدية» ترتيب رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام من زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى زمن المؤلف، وقد بذل جهدًا في استقصائها وتتبُّعها في مختلف البلاد، وصبر على ما لقي من صعوباتٍ ونفقات وأخطار، وسهر وتعب في البحث والنسخ والمقابلة والتصحيح ثم قسَّمها فنونًا ورتبها على الكتب والأبواب فجاءت مجموعة ضخمة بلغت أحد عشر جزءً مختلفة الأحجام.

وله «تراجم أصحاب تلك الرسائل والأجوبة» ذيّل به «الدرر السنية» في جزء مستقل هو الجزء الثاني عشر، وقد أحسن في الثناء على أولئك المشايخ بما هم أهله.

وله «ترتيب مجموعة رسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» عثر على بعضها أثناء جمعه لرسائل علماء نجد فواصل البحث في المكاتب القريبة والبعيدة بمساعدة ابنه الشيخ محمد وقد تكبَّد في جمعها من الشدة والمشقة ما يُرجى له به جزيل البر والأجر عند الله، وقد رتَّبها وقسَّمها فنونًا وأبوابًا، وأضاف إليها المطبوع من الرسائل الصغيرة والفتاوى فبلغت خمسة وثلاثين مجلدًا احتوت على علم جمٍّ لا يُقدَر قدره، ثم عمل ابنه الشيخ محمد وفّقه الله فهرسًا مفصَّلًا كان كالتقريب لها ويقع في مجلدين ضخميْن، ولو لم يكن من حسنات الشيخ إلَّا هذا الجمع المبارك لكفى».

□ وقد تنقَّل رحمه الله مدةً تزيد على اثنين وثلاثين عامًا في التدريس في المساجد وإدارة المكاتب والإشراف على طبع الكتب ونحو ذلك، وقد أدَّى جهدًا كبيرًا وأنتج ثمرة يانعة لا يزال أثرها باقيًا بين المسلمين.

وخلَّف الشيخ علمًا جمًّا يَنتفع به مَن بعده».

١٤- فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حُمَيد (١٣٢٩هـ-١٤٠٢هـ) مفتي الديار السعودية السابق:

هو فضيلة العلَّامة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عبدالرحمن بن حسين بن حُميد، وُلِد في مدينة الرياض، وتلقَّى العلم بعد حفظه للقرآن مبكرًا على أيدي مشايخ أجلاء منهم الشيخ حمد بن فارس،

ومحمد بن عبد اللطيف وسعد بن عتيق.

□ يقول ولده الشيخ العلَّامة صالح بن عبد الله بن حُميد «استطاع أن يعزز انطلاقته الدينية، وذلك عندما لازم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الديار السعودية ودرس عليه مختلف العلوم في الفقه والحديث واللغة وغير ذلك من العلوم الإسلامية، وقد انتفع والدي من ملازمته والقراءة عليه انتفاعًا عظيمًا حتى صار من كبار المدرسين منذ صِغره، وعندما تزايد عدد الطلاب الذين يدرِّسهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم اختاره ليكون مساعِدًا له ويقوم بتدريس الفقه والتوحيدِ واللغة وغير ذلك من العلوم في المساجد».

□ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يبدأ بعد أداء صلاة الفجر في تدريسِ مجموعةِ أفرادٍ في حلقة دينية بالقَصِيم يدرسهم علوم الدين والتوحيد والنحو يستمر في ذلك حتى طلوع الشمس، وبعد الظهر يبدأ سماحتُه حلقةً دينية في الفقه، ثم هناك قراءة خاصة لبعض الطلاب في الكتب المطوَّلة والتاريخ والتفسير، وبعد صلاة العصر تبدأ حلقة خاصته في بلوغ المرام بالإضافة إلى ذلك فإنه يقدم موعظة قصيرة بعد صلاة العصر للمصلين، ثم بعد صلاة المغرب يبدأ في حلقة الفرائض التي تستمر حتى صلاة العشاء، وبين الأذان والإقامة تفسير ابن كثير، وبعد صلاة العشاء يقوم بتحضير قراءته الخاصة، وعندما أُحيل للتقاعد عام ١٣٧٧هـ أفرد رَحِمَهُ اللَّهُ جلسة خاصته في الفقه والتفسير والدروس المطوَّلة حتى أذان الظهر في مدينة بريدة.

□ وفي عام ١٣٨٤هـ تولى رئاسة الرئاسة العامة للإشراف الديني على المسجد الحرام، وأصبح يقابل العلماء الوافدين إلى المملكة من مختلف

أنحاء العالم ويتباحث معهم في شؤون الإسلام والمسلمين.. وبعد ذلك يُلقي درسًا دينيًّا بعد صلاة المغرب في ساحة الحرم المكي، ويجيب على استفسارات الناس وأسئلتهم.

□ وفي عام ١٣٩٥هـ اختاره الملك خالد ليكون رئيسًا للمجلس الأعلى للقضاء في المملكة إلى جانب عمله رئيسًا للإشراف الديني في المسجد، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ رئيسًا للمجمع الفقهي بمكة المكرمة، ورئيسًا للجنة جائزة الدولة التقديرية.

وله من الكتب القيمة:

١- الرسائل الحسان.

٢- إيضاح ما توهَّمه صاحب الميسرة في يسره مِن تجويزه لذبح دم المتمتع قبل وقت نحره.

٣- غاية المقصود في التنبيه على أوهام بن محمود.

٤- تبيان الأدلة على إثبات الأهلة.

٥- حكم اللحوم المستوردة وذبائح أهل الكتاب.

٦- لا اشتراكية في الإسلام.

٧- فتاوى مخطوطة من درر السلف.

٨- هداية الناسك إلى أحكام المناسك.

□ ويقول الشيخ الفاضل صالح بن عبد الله بن حميد والشيخ أحمد ولدا الشيخ عبد الله بجمع فتاوى والدهما تمهيدًا لطبعها.

□ ويقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام عن الشيخ ابن حميد: «هو كبير في أشياء كثيرة، كبير في شخصيته وعلمه الغزير».

□ ويقول أيضًا: «استفدت منه علمه الجم..».

□ وكان الملك عبد العزيز شديد الإعجاب به ويقول عنه: «لو أردت أن أولِّي بلدًا فيها أمير وقاضي في شخصية رجل واحد لكان الشيخ عبدالله ابن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ»[١].

١٥- الشيخ العلاَّمة حَمُّود بن عبد الله التويجري ومؤلفاته العلمية القيِّمة:

هو الشيخ العلَّامة أبو عبد الله حَمُّود بن عبد الله بن حمود بن عبدالرحمن التويجري من قبيلة بكر بن وائل بطن من ربيعة. وُلِد بمدينة المجمعة سنة ١٣٣٤هـ. تُوفِّي والده يوم أن كان عمره ثمان سنوات.

وحفظ القرآن وسنه لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره.

ثم ابتدأ القراءة على الفقيه الأكبر الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري قاضي المجمعة وتوابعها وفقيهها وعمره إذ ذاك ثلاثة عشر عامًا، ولازمه ما يزيد على ربع قرن من الزمن، قرأ عليه في شتى العلوم والفنون؛ قرأ عليه في التفسير والحديث والتوحيد والفقه واللغة والتاريخ والأدب وغيرها.

وقد أجازه الشيخ إجازة مطولة في رواية الصحاح والسنن والمسانيد، وفي رواية كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلَّامة ابن القيم، وفي رواية مذهب الحنابلة، كما قرأ على العلامة عبد الله بن حميد في اللغة والفرائض.

---

(١) انظر: «إتحاف النبلاء بسير العلماء» (ص١٦١ـ ١٦٩) لراشد الزهراني.

واعتذر عن العمل بكلية الشريعة، ثم بالجامعة الإسلامية ليتفرَّغ للعلم والبحث والتأليف.

▫ ولقد لاقت مؤلفاته قبولًا واستحسانًا من العلماء الأفذاذ أمثال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبدالرزاق عفيفي، وقد طرق الشيخ فيها مواضيع شتى مدافعًا عن العقيدة السلفية، يرد أعظم ردٍّ وأفحمه على كل من حاد عن سبيل الله من الكُتَّاب المعاصرين.. ومن مؤلفاته التي عمَّ بها الخير:

١ - إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة.

٢ - الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر.

٣ - الردُّ القويم على المجرم الأثيم، وهو ردٌّ على من تعرَّض لصحيح البخاري.

٤ - الصارم البتار للإجهاز على من خالف الكتاب والسنة والإجماع والآثار. وهو رد على من أباح الربا في البنوك.

٥ - إيضاح المحجة في الردِّ على صاحب طنجة، وهو ردٌّ على أحمد الغُمَّاري.

٦ - عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن.

٧ - القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ - إثبات علو الله على خلقه.

٩ - تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعادة والحب والبغض والهجران وكان رَحِمَهُ اللَّهُ كثير الصلاة بالليل.. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ في صلاة الليل كل يوم أربعة أجزاء ونصف تقريبًا.. ولما مات أَمَّ

المصلين عليه سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

رحمة الله على الشيخ التويجري بما صنف فأجاد.

قليلٌ منك يكفيني ولكنْ قليلُك لا يُقال له قليل

١٦- الشيخ العلامة عبد الرزَّاق عفيفي [1] فخر الديار المصرية رَحِمَهُ اللَّهُ:

هو العالم الجليل، والسلفي النبيل عبد الرزَّاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر النوبي.

ولد سنة ١٣٢٣هـ= ١٩٠٥م في قرية شنشور مركز أشمون بالمنوفية.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يُعَدُّ من أرباب الفصاحة وأساطين اللغة في علم النحو خاصة وعلوم العربية كافة، وكان آيةً في التحدث بلغة الضاد محادثة وكتابه.

حفظ الشيخ كتاب الله في سنٍّ مبكرة، وكان نابغًا في ذلك، وكان له منذ صغره ألمعية نادرة، ونجابة ظاهرة، وذكاء مفرط، ونبوغ مبكِّر، حتى بزَّ أقرانه وفاق أترابه، وعلى الرغم من حداثة سِنِّه، فقد كان صاحب هِمَّة عالية، ونفس أبيَّة جعلته موضع تقدير ومحل تبجيل من كُلِّ من عرف الشيخ وخالطه وزامله.

حصل على عالمية الأزهر سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م، ومنح شهادة التخصص في الفقه وأصوله (الدكتوراة) في ١٣٥٥هـ= ١٩٣٦م.

□ وكان الشيخ مع غزارة علمه وسعة إدراكه ووفرة مادَّته لا يرى

(١) الترجمة مستقاه من كتاب «الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي» لمحمد أحمد سيد أحمد ـ المكتب الإسلامي.

التأليف ولا يرغب فيه، وكان يُعلِّل ذلك بأن الناس عامة، وطلبة العلم خاصة بحاجة ماسة إلى القراءة والاطلاع أكثر من حاجتهم للتأليف والتصنيف، وتفرَّغ رَحِمَهُ اللَّهُ لتربية الأجيال وبناء النفوس، وإعداد العلماء وتهيئتهم بالعلم والعمل وحمل أمانة تبليغ العلم.

ومن تلاميذه:

الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام، والشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ صالح بن فوزان، والشيخ محمد بن عبد الله السبيل، والشيخ مناع بن خليل القطان، والشيخ محمد بن لطفي الصباغ، وعشرات غيرهم.

مذهبه وفقهه:

كان الشيخ عبد الرزَّاق إمامًا في الفقه والحديث متَّفَقًا على إمامته وجمعه على جهه التمكن بين هذيْن العِلْمين الشريفيْن.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مالكي المذهب، ولكنه لم يكن يتعصب للمذهب المالكي ولا لغيره، بل كان لا ينتصر لغير الدليل، لذا فإنه لم يقف في دراسته الفقهية عند حدود مذهب بعينه بل خرج عن هذا الإطار المحدَّد إلى الدراسة الواسعة الشاملة كما هو واضح في ثنايا فتاواه وكتاباته اختيارات من مختلف المذاهب الإسلامية، وأحيانًا يخرج عنها إلى اجتهاده ويدعمه بالدليل والبرهان.

□ يقول عنه الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعرف عن فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ التواضع والعلم الجَمَّ، والسيرة الحميدة، والعقيدة الطيِّبة، والحرص العظيم على أداء عمله على خير وجه. وأنه مِن

خِيرة العلماء عقيدة وعلمًا ودعوة وتعليمًا مضى عليه في ذلك ما يُقارب من خمسين عامًا».

□ ويقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين عنه: «كان الشيخ عبدالرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا عقل راجح وبعد نظر وكثرة صَمْت إلَّا إذا كان الكلام خيرًا، مع ما حباه الله به من العلم الراسخ وحسن التعليم وقلَّة الحشو في كلامه، وكان رأيه محل التوفيق والسداد».

□ وقال عنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أفاضل العلماء، ومن القلائل الذين نرى منهم سمة أهل العلم وأدبهم ولطفهم وأناتهم وفقههم. التقيته غير مرة في مواسم الحج، وكنت أستمع إلى إجاباته العلمية على استفتاءات الحُجَّاج، فكانت إجابات مُحكمَة تدلُّ على فقه واتباع ظاهر لمنهج السلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[1].

□ ويقول عنه تلميذه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي: «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدرسة متكاملة، يصعب عليَّ في مقدمة موجزة أن أتطرَّق لجوانب شخصيته وأعماله، ولكن أبناءه وتلامذته، ومعظم كبار طُلَّاب العلم في المملكة العربية السعودية اليوم، يعرفون ذلك ويدركونه ويقدِّرونه حق قدره وعندهم الشيء الكثير من ذلك.

ومن الوفاء للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التعريف به وبجهوده، لِما يُرْجَى ويُؤَمَّل من حفز همم طلاب العلم على التأسي به في جدِّه ومثابرته وصبره، وحُسْن بلائه في نُصرة التوحيد والعناية به، والتمسك بالسُّنَّة ونشرها، ولزوم

---

(١) نقلاً عن مجلة الأصالة- العددان الثالث عشر والرابع عشر وتاريخ ١٥/ ٧/ ١٤١٥هـ

الحكمة والأناة وحسن النظر في الأمور وعواقبها، فقد كان إمامًا في ذلك».

□ ويقول عنه تلميذه فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام رئيس محكمة التمييز بمكة المكرمة وعضو هيئة كبار العلماء بالسعودية:

«.. أما علمه: فقد درَّسنا في «دار التوحيد» ومعه نحو عشرين عالمًا من كبار العلماء، فإنهم اختيروا من كبار علماء الأزهر وقت قوته ونهضته.

كنا -نحن الطلّاب- نبحث مع المدرس منهم، نسأله بعض الأسئلة فيجيب، ولكن في حدود مادته ولا يرضى أن يخرج به عن محيطه.

أما الشيخ عبد الرزاق فصدره منفتح لكل سائل، ويجيب عن كل مسألة وبحث وبشكل مُوَسَّع وكأننا نغرف مِن بحر.

وإذا شرع في تفسير آية أو شرح حديث أراك العجب فيما يستنبط من الأحكام والآداب، فهو موسوعة في كل العلوم الشرعية والنقلية، والعلوم العقلية والعلوم العربية. وهو صاحب عقيدة سلفية اختارَها عن علم وفهم. وهو صاحب حُجَّة وذا كرة قوية تُسْعِفه عند الجدال بالحق، فلا ينهزم لأنه لا يقول إلَّا فيما يعتقد، وهو لا يعتقد إلَّا ما وافق الحق. وهو صاحب دين قويم، سلوكه القيام بالحق ومناصرته، وهو ذو فراسة وفطنة فلا تخدعه المظاهر الكاذبة.

وهو صاحب عفَّة وزهد، فلا تحرفه المغريات، ولا تحيله المطامع.

وبهذا كله مَلك القلوب وأمال إليه النفوس فتبوَّأ منزلة من أهل العلم مكينة فلا تراهم يدعونه إلَّا بشيخهم ووالدهم.

إن سيرة مثل هذا العالم الكبيرة وأخباره لهي قدوة للأجيال المقبلة

الصاعدة التي تنشد الأسوة الحسنة والقُدْوَة الطيِّبة.. ونِعْمَ الشيخ عبد الرَّزاق أسوة وقدوة في علمه وجهاده وسلوكه وصبره على البلاء مبتغيًا رضى الله تعالى، فهذا الرجل قدوة حسنة ومثالٌ يُحتذى به في فعل الخير».

□ وقال الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية: «جبل من جبال العلم والصلاح والتقوى والأمانة في العقيدة وسلامة الاعتقاد، شيخنا الجليل الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ فلقد كان صرحًا شامخًا في العلم والاجتهاد وبعد النظر، غايةً في التأمل والاستنباط والحرص البالغ على نشر العلم وطرق تعلُّمِه والتعايش مع طلبة العلم على مختلف مستوياتهم ومداركهم ومراحل تعلمهم.

وفي «المعهد العالي للقضاء» رأينا شيخنا -الشيخ عبد الرزّاق عفيفي- عالمًا متميِّزًا في علمه في الأصول والتفسير والحديث، لا يجاريه من زملائه أحد، لا سيَّما في القدرة العجيبة على جذب أنظار طُلَّابه إليه بما يستنبطه من المسائل العلمية في الفقه والاعتقاد، وبما يعطيه من تحليلات علمية في مسائل الخلاف والنظر والاعتبار، وكنَّا معشر طُلَّابه نتابع التساؤل والاستغراب من قدرة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ على التحول طبقًا لمستويات طلابه الفكرية، ومستويات قدرتهم على التحمل والاستيعاب، وهذه موهبة ومكرمة من الله تعالى لشيخنا عبد الرزاق رَحِمَهُ اللَّهُ .. فلقد تعلَّمنا منه الحرية في الرأي في الحدود المعتبرة شرعًا، واحترام آراء الآخرين، والبعد عن التعصُّبات المذهبية، فمتى كانت المسألة متفقة مع النصوص الشرعية في الكتاب والسنَّة، أو كانت تحت مناط هذه الأصول، وهي الأسعد بالدليل من حيث النقل والعقل والأثر فلا عبرة بمخالفة من خالفها، وهكذا كان سلفنا الصالح في اجتهاداتهم وتصوراتهم، فجزى الله شيخنا أعظم الأجر

وأجزله، فلقد تعلَّمنا منه العلم وطرق استنباطه والأصول في تحصيله والاجتهاد وعدم التعصب للرأي واتهامه بالخطأ، والنظر في تحقيق ذلك».

ثم قال عنه: إنه «علم من أعلام العلماء البارزين.. وبحر خضمٌ في أصول الفقه وقواعد الاجتهاد والنظر والاعتبار».

□ ويقول عنه الشيخ صالح عبد الله بن حُمَيد: «لقد كان الشيخ منارًا من منارات العِلْم الشامخة في عُلُوِّها ومصباحًا من مصابيح الهدى الراسخة في ثباتها وسراجًا منيرًا يضيء الدُّروب للسالكين، هكذا نحسبه، والله حسيبه وحسيب كلِّ نفْسٍ بما عَمِلت ولفظت.

إن المنتسبين إلى العلم في هذا العصر كثير، ولكن قلَّ منهم من يستقي العلم من منبعه ويسنده إلى أصله ويتبع القول العمل، ويتحرَّى الصواب في كل ما يأتي وما يذر.

وإن من هؤلاء القلة القليلة -فيما أحسب ولا أزكي على الله أحدًا- شيخنا المترجَم، فلقد كان حسن الطريقة مرضي السِّيرة، معتدلًا في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلن في مدخله ومخرجه وأحواله.. يطلب فرائد العلم وفوائده ثم ينشره عقيدةً، وتوحيدًا وفقهًا وأصولًا وفروعًا ولُغَة ومناظرة».

ثم يقول عنه: إنه كان «عالمًا عَلَمًا فحْلًا يتجلَّى فيه العلم الغزير والدين الثابت والمعتقد الراسخ والكلام الدقيق والعقل الراجح والترجيح العميق».

ويقول: «من شخصيه المترجَم الفقهيَّةِ الأصولية يدرك الناظر في بحوث الشيخ ومباحثاته العمق والأصالة والشمول ودقة الاستيعاب

والإحاطة، وأعظم ما يبرز في علمه وتمكُّنه وميله إلى التأصيل العلمي والتقعيد الفقهي وعقد المقارنة بين مذاهب المجتهدين في عبارة أصولية دقيقة مع وضوح العرض ودقة المآخذ».

□ ويقول عنه الشيخ زهير الشاويش: «العلامة النحرير شيخنا المربِّ الجليل، رجل الوعي والألمعيَّة الشيخ عبد الرزّاق عفيفي عطية.. مع أنه كان يُراعي جانب ستر الحال والابتعاد عن المظاهر التي يألفها بعض الناس، واكتفى بتقديم العلم والنصح والنفع بأيسر طريق وأسهل سبيل، وكأنه يطبِّق الحديث النبوي الشريف عن المنفق في سبيل الله «**الذي لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»، ومنذ مدَّة قريبة جرى بحث عن أصول الفقه في مجمع علمي، وذُكر بعض من اشتهر في عصرنا بإتقان هذا الفن العجيب النادر، فذكر الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ عبد الوهاب خلَّاف والشيخ عبد المجيد سليم، ثم كان ما يشبه الإجماع على أن الشيخ عبد الرزّاق عفيفي المتمكِّن في هذا الفنِّ والأكثر عِلْمًا به ممن ذكروا مع أن بعضهم من مشايخه، ولكن غمره التواضع وإيثار البقاء وراء الظل تغمّد الله الجميع برحمته».

أما عن فتواه:

فهو رَحِمَهُ اللَّهُ من الأئمة الأعلام الذين حفظوا على الأُمَّة معاقد الدين ومعاقِلَه، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهِلَه، وضبطوا قواعد الحلال والحرام وخُصّوا باستنباط قواعد الحلال والحرام، وقد كتب كمًّا هائلًا من الفتاوى والبحوث، وقد بلغ عدد الفتاوى التي قرأها ووقَّع عليها وشارك في صياغتها قرابة خمسة عشر ألف فتوى، وذلك من خلال

عمله في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

لقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالًا يُحتذى في الفتاوى؛ دِقَّةً في النقل، والتزامًا في السلوك، وكان يختار من الألفاظ المعبِّرَة ما يتَّضح به. ولم يكن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالمًا متخصِّصًا يُغلِق فكره على فرع معين من فروع المعرفة، وإنما كان رَجُلًا متعدِّد المواهب، مُجيدًا في كل ما اقتحمه من ميادين العلم والمعرفة، فهو فقيه، محدِّث، أصولي، اقتصادي، عالم بالتحليل النفسي، خبير بالمجتمع وتحرُّكاته الظاهرة والخفيَّة مطلِع على مذاهب الفقهاء، ناقد بصير لا سيَّما ما يكتب في أمور العقيدة والتوحيد والفرق والمذاهب المعاصرة.

□ من أول يوم تكونت الرئاسة العامة للإفتاء بالأمر الملكي رقم ١١٣٧ وتاريخ ٨/ ٧/ ١٣٩١ والشيخ عبد الرزاق كان نائبًا لرئيسها حتى موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

□ قال الشيخ ابن عقيل الظاهري: «كان سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز أكثر الناس تعلقًا بالشيخ عبد الرزاق لما جرَّبه من غزير علمه ورجاحة عقله، وعفَّته وتورعه، ولم يأذن له بالاستراحة، وقد شارف التسعين من عمره، واحتنكته أمراض عديدة، فالتزم الشيخ جانب الحسبة ما دامت قواه العقلية لم تضعف فكان يذهب إلى علمه يدف على العجل». ومن قبل ذلك كان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ يعرف للشيخ عبد الرزاق قدره ويستشيره، ويعتمد رأيه في كثير من الأمور، تقديرًا لعلمه الواسع، ورأيِهِ الصائب، وإخلاصه الجم، ولما بلغ الشيخ عبد الرزاق من التقاعد كتب الشيخ محمد بن إبراهيم إلى الجهات المسؤولة بتاريخ ٢٦/ ١١/ ١٣٨٦هـ مؤملًا استثناء الشيخ عبد الرزاق من قانون التقاعد

وراغبًا في تمديد مدة خدمة فضيلة الشيخ عبد الرزاق لمسيس الحاجة إليه، ووافق مجلس الوزراء السعودي على ذلك.

لقد كان الشيخ مُرَبِّيًا ومعلمًا ومرشدًا، تخرج به أجيال من العلماء والمربين وطلبة العلم، وقد تسنَّم كثير من هؤلاء مناصب علمية ودعوية مهمة.

□ يقول عنه الشيخ محمد بن لطفي الصبَّاغ: «العلماء نوعان: علماء ينعزلون عن الناس، ويتفرَّغون لكتابه الكتب والمصنَّفات، وعلماء يعنون ببناء النفوس، وتوجيه العامة وإرشادهم، وبالإجابة على أسئلتهم وحل مشكلاتهم، وقد كان فقيدنا العظيم من النوع الثاني، وقد انتفع بعلمه وتوجيهه خلق كثير».

□ ويقول الشيخ الدكتور عبد الله بن محمد العجلان: «لقد عرفت فضيلة الشيخ عبد الرزّاق أستاذًا ماهِرًا، وبحرًا زاخرًا بمختلف علوم التفسير والعقيدة والفقه والأصول وغيرها من جوانب العلم الشرعية واللغة العربية، وعرفته محدثًا واعظًا ومرشدًا جم المعرفة غزير العلم».

□ ويقول فضيلة الدكتور محمد بن لطفي الصبَّاغ: «كان شيخنا يمتاز بسعة علمه، وكان إذا تكلَّم في فن من فنون العلم ظنَّ السامع أنه لا يُحسن غيره، وأنه متخصص فيه وحده، لقد كان موسوعي المعرفة، فضلًا عن أنه كان مفسِّرًا يغوص في المعاني الدقيقة في الآية، ويذكر ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ويصل بين تلك المعاني وبين حياة الناس».

□ وقال عنه أيضًا: «كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذا بيان مشرق متدفق، لا يتلعثم، ولا يتوقّف ولا يلحق، وكان مناظرًا قوي الحجة، مستحضر

الدليل، يحيط بأطراف الموضوع الذي يناقشه، وكان ينظر إلى العبارة العويصة فيحلُّها، ويشير إلى مراميها، ومقاصد كاتبها على نحو لا تجده عند غيره».

□ وقال فضيلة الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي: «لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ واسع العلم بمسائل العقيدة، شديد التمسك بمذهب السلف الصالح، مع المعرفة التامة بالملل والنِّحل المختلفة وأصولها التي تصدر عنها عالمًا بعوارها ومواطن دحضها، لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيميَّة، كثير الرجوع إلى مؤلفاته».

□ وقال الدكتور محمد لطفي الصبَّاغ: «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كبار علماء التوحيد على مذهب السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ واقفًا على كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم، وقد استطاع أن يردَّ ما جاء في «شرح الطحاوية» -وهو مقتبس من كلام ابن تيمية وتلميذه- إلى مواضعه من كتبهما».

□ وقال عنه الشيخ صالح بن فوزان: «كان متخصِّصًا في كثير من العلوم خصوصًا في علم التفسير والحديث والتوحيد. تخرَّج عليه أجيال من الطلَّاب استفادوا من علمه واقتبسوا من سيرته عرفت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معرفة خاصة حيث درست عليه في المعهد العلمي ببريدة في كلية الشريعة في الرياض، وفي المعهد العالي للقضاء، وأخذت عنه في هذه المراحلِ التفسيرَ والحديث والعقيدة، كما تشرَّفت بإشرافه على رسالتي في الماجستير والدكتوراه، فكان لي نعم الموجِّه الناصح والمعلِّم المخلص الخبير، استفدت كما استفاد الكثيرون غيري من علمه الغزير وطريقته الفذَّة في التدريس وإلقاء الدروس والمحاضرات.

كان ذكيًّا بعيد النظر ذا أناة ورويَّة في الأمور، وكذلك فقد اتخذه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية رَحِمَهُ اللَّهُ مستشارًا يعتمد عليه حين تأسيس الكُلِّيات وفي اختيار القضاة والمدرسين والدعاة. وكان لآرائه السديدة أثرًا بالغًا وقبولًا طيِّبًا لدى سماحة الشيخ وغيره من المشايخ. كان الشيخ عبد الرزاق ذا سمة ووقار وعِفَّة وقناعة واستقامة وورع مع تبحُّرٍ في العلم، وإجادة في أداء العمل، مما يجعله في مصاف الرجال العظماء وكبار العلماء».

□ وقال عنه الشيخ عمر عبد الله نصيف: «فضيلة الشيخ عبد الرزّاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ أحد أعلام هذه الأمة وعلمائها في هذا العقد من الزمان، أحسبه كذلك ولا أُزكِّي على الله أحدًا، فقد كان يعمل بصمت وهدوء وسكينة لخدمة الدين ونشر علومه وإبلاغ دعوة الله عَزَّوَجَلَّ، والعناية بطلبة العلم وتوجيههم إلى أصول العقيدة الإسلامية الصافية، ويزوِّدهم بالنصائح الثمينة التي تمكِّنهم من تلقِّي العلوم الشرعية النافعة من مصادرها الثرَّة وفق طريقة السلف الصالح في تلقِّي العلم ونقله للآخرين، وقد ملأ رَحِمَهُ اللَّهُ فراغًا كبيرًا في هذا المجال، وعمل رَحِمَهُ اللَّهُ باقتدار في جميع المسؤوليات والمهام التي أُنيطت به طوال نصف قرن من الزمان، من خلال عضويَّته في هيئة كبار العلماء، وفي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء باعتباره نائبًا لرئيسها، وفي هذه الميادين العلمية الدعوية كان الشيخ عبد الرزاق يتمتع بمزايا فريدة لا تكاد تتوافر إلَّا في القليل من الرجال الذين وهبهم الله ذكاءً وفطنة وجلدًا وإخلاصًا.. لقد أُوتي الشيخ عبد الرزاق رَحِمَهُ اللَّهُ عقلية جبَّارة مكَّنته من التكييف الفقهي للمسائل والنوازل، واستخراج الأحكام من النصوص وتطبيقها على مستجدَّات

الواقع، وكانت له إسهامات مشكورة في المجامع الفقهية والمؤسسات الدعوية».

□ وتحت عنوان «إنما كان إمامًا»[١]: كتب أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري عن الشيخ عبد الرزّاق عفيفي: «جاء إلى السعودية على علمه وسجيَّته لم يجتذبه طمع في مال أو جاه أو منصب، وعلم الله نيَّته فانقادت له كل أسباب العزِّ الدنيوي وهو لم يطلبها، فكان في هذه المملكة أستاذ جيل بحق تتلمذ عليه أبناء ما بين السَّبعين إلى الثلاثين، ولا يزال تلامذته مربِّين للأجيال أهل منابر وحلقات وتدريس وتأليف.

والبرهان على أنه ما التمس سبيلًا لازدياد كسب مادي غير رُويتبه تلقاء عمله الوظيفي الذي كرَّس له كل وقته. وما أكثر سُبل الكسب المادي لو أرادها. وبَعُد عن الإعلام والأعلاميِّين بُعدًا لا هوادة فيه، وما عُرفت من الشيخ عبد الرزاق حياة قط غير حياته بين طلابه في الصف، أو بين مريديه في بيته يقرؤون عليه ويسألونه، أو في صميم علمه الوظيفي لدى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم يذاكره في العلم ويستفتيه في واقع الطلبة الذين يرشحون للقضاء والمناصب القيادية وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمدة في ترشيح الخريجين وتزكيتهم.. ولما أُحيل للتقاعد مرَّت سنين لم يراجع لاستلام استحقاقه.. وحمل نفسه على الأشد..، ومع أنه اكتفى برُويتبه وبقي في قليلة بحارة شعبية لا تليق بأصغر تلاميذه، فإنه لم يدَّخِر من هذا الرويتب شيئًا، فقد كان يوزِّعه على أسر فقيرة في مصر».

---

(١) جريدة الجزيرة –السبت ١٢ ربيع الآخر ١٤١٥هـ- الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٩٤م.

□ وقال عنه أيضًا: «إن الشيخ عبد الرزاق كان لا يترك مجالًا لفضولي لأنه يأسرني فكرًا ووجدانًا ولغة إذا تحدَّث، فأُصغي للدرس وأستفيد على الرغم مني.

ومن سخافاتي أنني أُحضِّر للآية التي سيفسِّرها من أكثر من تفسير لأستدرك عليه شيئًا فاته، فإذا شرع بدرسه تبخَّر كل شيءٍ في جعبتي؛ لأنه يتناول الموضوع تناول خاصة من العلماء جمعوا بين الحفظ والذكر، فكانت مادته دسمة، وكان قديرًا على التوصيل؛ لأنه كان جذَّابًا ومغريًا..

والشيخ له باع في المنطق والعقليات وعلم الكلام، وعلى علم وخبرة بمواطن الضعف في كتب العقيدة التي تُدرَّس خارج المملكة على أسلوب المتكلِّمين كالسنوسية، بل كان الشيخ ذا عناية بالسلفية قبل أن يصل إلى السعودية إلَّا أن سماحته لا يتظاهر بعلمه، ولكنه إذا سُئل، أو ناقش، أو طُلِب منه الدليل والتأصيل كانت فتواه عن عِلْم مؤصل لا يملكه إلَّا خاصة من الأسلاف جمعوا بين المعقول والمنقول حديثًا وتفسيرًا وأصولًا ولغة ومنطقًا».

□ وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عضوًا في اللجنة التي وضعت مناهج الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وكم سهر الليالي المتتابعة لإنجاز هذا العمل.

ولقد أشرف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشارك في مناقشة عدد كثير من رسائل الماجستير والدكتوراة، وتخرَّج على يديه أجيال من طلبة العلم الذين يُكنُّون له التقدير والاحترام، ويعترفون بماله من تفوُّق في الحياة العلمية.

□ وقال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عن الشيخ عبد الرزّاق: «أمَّا عِلْمُه فهو بحر لا ساحل له في أغلب العلوم التي يتناولها

بالبحث والشرح، فلقد عرفته لأول مرة عام ١٣٧٤هـ، وكان يزور بعض المشايخ، كالشيخ عبد العزيز بن محمد الشثري ونقرأ عليه في المجلس حديثًا من أول صحيح البخاري فيشرحه شرحًا مُوَسَّعًا بحيث يستغرق شرح الحديث الواحد أكثر الجلسة، وعرفته في أحد الأعوام يُفَسِّر سورة سبأ في مسجد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ، فكان يبقى في تفسير الآيتين نحو ساعة أو أكثر، ويستنبط من الآيات فوائد وأحكامًا وأقوالًا وترجيحات يُظهِرُ منها عظمة القرآن وما فيه من الاحتمالات والفوائد، مما يدلُّ على توسُّع الشيخ وسعة اطلاعه وكثرة معلوماته.. وقد تتلمذ عليه أكابر العلماء في هذه المملكة، واعترفوا بفضل علمه، وافتخروا بالانتماء إلى تعليمه في أغلب المراحل كما انتفع الكثير بالفوائد التي تلقَّوها عنه في دروسه في المسجد وغيره.. وهو من حملة العلوم المتعدِّدة، وأيُّ فنٍّ يتطرَّق إليه يوسعه بحثًا».

□يقول الدكتور محمد بن سعد الشويعر عن الشيخ عبد الرزاق: «قال لي رَحِمَهُ اللَّهُ: لقد كنتُ أخفي ما أحصل عليه من كتب ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كيس من الورق، وأشدُّ عليه كيسًا آخر في القماش وأتأبَّطه مخافة أن يعلم أحدٌ أن هذا من كتب ابن تيمية، فأنال عقاب العامة قبل الخاصة»، وذلك إبان دراسته في الأزهر يوم أن كان طالبًا فيه».

□ويقول عنه الدكتور عبد الرحمن السُّدَيْس: «عُيِّن الشيخ نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وأيضًا عُضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها، وعُرِف رَحِمَهُ اللَّهُ بجدِّه واجتهاده وقيامه بالعمل خير قيام، فقد ضرب مثالًا في الجدِّ والحرص والاحتساب، فلم يكن يعمل موظفًا عاديًّا يتقاضى أجرًا

فقط، وإنما كان رَحِمَهُ اللهُ إلى أن اعتلَّت صحته، وهو يُقادُ بالعربة إلى مكتبه في إدارة البحوث العلمية والإفتاء حتى توفَّاه الله، وكان يذهب إلى العمل أحيانًا بعد صلاة الفجر، يصلي الفجر ثم ينتظر حتى تشرق الشمس ثم يذهب إلى العمل، ويجلس في العمل في الإفتاء وفي الدعوة وفي تحرير الفتاوى والكتابة فيها، وفي استقبال المستفتين، وفي الأعمال الإدارية والعلمية الكثيرة حتى الساعة الثانية والنصف أو الثالثة، ثم يأتي إلى البيت.. وهكذا بابه مفتوح؛ علم وفضل ودعوة وإصلاح وحسبة وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وفتح باب للمستفيدين والراغبين من طلاب العلم ومن غيرهم، أشرف على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه حتى إنه أشرف على مئات الرسائل العلمية، وكان أن شَرُفْتُ بإشرافه في أول رسالة الماجستير في علم أصول الفقه، ويعلم الله أن السنوات التي قضيتها -وهي بمثابة ثلاث أو أربع إلى خمس سنوات-، من أعزِّ أيام وليالي العمر، ولا أعرف أني رأيت مثله رَحِمَهُ اللهُ ومثل شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ فيما جبلهم الله عليه من صفات متعددة في العلم والتعليم وبذل النفس والتحصيل مع العقل والحصافة وبُعد النظر وإنزال الناس منازلهم والتوجيه بالتي هي أحسن».

صبرٌ لموت أعزّ الناس عنده، لا يمنعه ذلك من إعطاء درس العلم!!!

□ يقول الشيخ السديس عن الشيخ عبد الرزاق: «ابتُلي بفقد ثلاثة من أولاده وهم أحمد أكبر الأولاد وعبد الله وعبد الرحمن رحمهم الله جميعًا، ولكن انظر إلى موقف الوالد، انظر إلى موقف الصابر المحتسب، تأتيه رسالة وهو يُدرِّس في المعهد العالي للقضاء فلا يزيد إلَّا أن يقول: لا حول

ولا قوة إلّا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، ويُغلق الرسالة ويذهب لإلقاء درسه على الطلّاب بعد أن علم بوفاة ولده رَحِمَهُ اللَّهُ من خلال هذه الرسالة، وتُوفيِّ أكبر أولاد الشيخ توفى وهو في المعهد العالي للقضاء جاءه خبر وفاته وذهب الشيخ كعادته يدرِّس في المعهد العالي للقضاء في يوم خبر وفاة ابنه، ودخل إلى القاعة ودرَّس للطلاب في مادة أصول الفقه أو مادة التفسير، ودرَّسهم كعادته، وكأن الشيخ ليس به شيءٌ ألبتة ولم يُرَ عليه تلعثم ولا تلكؤ، بل أعطاهم المادة العلمية على خير وجه، فما إن خرج الشيخ من القاعة حتى توافد عليه إدارة المعهد والمدرِّسون يعزونه في وفاة ابنه، الذي جاء خبر وفاته هذا اليوم، فيقول الطلّاب: ليست دهشتنا من موت ابن الشيخ، وليست دهشتنا أن الشيخ جاء يدرِّس، لكن دهشتنا الحقيقية من صبر الشيخ وتجلُّده وكأن شيئًا لم يكن».

عن هذه الواقعة يقول الدكتور صالح بن سعود آل علي عضو مجلس الشورى: «ومما يُلفت النظر في جَلَد هذا الشيخ وصبره أنه لما جاءه خبر وفاة ابنه أحمد وهو مدير ومحاضر في المعهد العالي للقضاء لم يتوقف عن برنامجه اليومي، فقد جاء إلى طُلَّابه في مرحلة الماجستير -وكنت واحدًا منهم- وألقى المحاضرة كالعهد به دون أثر أو تلعثم، وكانت بعد العصر إلى المغرب، وكان الطلّاب كعادتهم بعد أن ينتهي من المحاضرة يوجِّهون الأسئلة واحدًا تلو الآخر، وإذْ به يجيب عنها دون أن يظهر عليه ما يُلْفت النظر، وبعد انتهاء المحاضرة خرج من القاعة ونحن وراءه، وإذْ بنا نحن الطلّاب نُفاجَأ بطابور من الأساتذة وطلّاب آخرين يقابلونه ويقبِّلونه معزِّين بوفاة ابنه، ولا تسأل عن ذهولنا نحن، ليس من الوفاة ولكن لأن الشيخ لم يترك المحاضرة، لا بل لأنه لم يُخبرنا ولم يظهر عليه أي أثر

للصدمة!!!».

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على استغراق كامل ونهم عظيم لتعليم العلم ونشره!!!

□ يقول الشيخ السديس: «ومن أهم ما يتميّز به الشيخ أيضًا أنه رجل موسوعي عميق العلم وبخاصة في مسائل الاعتقاد، فإذا تحدَّث تشعر وكأنه نسخة من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وأقول ذلك بلا مبالغة، حتى إنه رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أنا ما رأيت من العلماء مثل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ما قرأت لعالم من علماء السلف إلّا وأرى أن لغيره سلفًا أو أن له سلفًا، ولكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كان يأتي بمنهج سليم مؤصّل على ضوء الكتاب والسنَّة، وصحيح المنقول وصريح المعقول».

□ كان الشيخ يؤصِّل تأصيلًا علمِيًّا، يعتمد الدليل يؤصِّل المسائل، كان الشيخ يعتني بتحرير الخلاف وتحرير محل النزاع، وتحقيق المناط في المسائل، ويرى أن ذلك يُغني عن كلام كثير في هذه المسائل حتى لربما أتاه الطلّاب، فكان يقول انظر المسألة في كتاب كذا وكذا.

□ وقال الشيخ إبراهيم بن محمد بن عثمان: «كان الشيخ عبد الرزّاق مفسِّرًا من الطراز الأوَّل حتى لأنك تشعر أن الشيخ يستلهم التفسير استلهامًا».

والدهر لا يُنْشِئ الرجال كواملًا ... إلّا إذا نضجوا على جمراتِهِ

□ وقال عنه تلميذه الدكتور محمد بن لطفي الصبَّاغ أنه: «العالِم الذي قلّ نظيره من العلماء، صحبته ما يزيد على اثنين وثلاثين عامًا، ما تركتُ مجلسه في أسبوع إلّا أن يكون أحدنا مسافرًا.. وإني منذ طفولتي إلى هذه

اللحظة وأنا أعاشر العلماء، أتتلمذ على أيديهم وأتلقَّى منهم وأباحثهم، ولا والله لم ألق عالمًا مثله في سعة اطلاعه، ودقة استحضاره وحفظه وسلامة منهجه واستقامة حياته وجولان ذهنه، وقدرته على إعطاء الحكم الدقيق في المسألة المطروحة، ومعاصرته لأحداث زمانه، لقد كان يعيش عصره، ويدرك بعمقٍ شراسة الغزو الفكري الاستعماري للمسلمين، ويعرف التيَّارات الفكرية والسياسية التي تسود العالم وتغزو بلاد المسلمين يعرفها تمام المعرفة، وهذه صفة لم تكن موجودة في كثير من علماء عصره».

وكان إذا تكلَّم في فن من فنون العلم ظنَّ السامع أنه لا يُحسِن غيره وأنه متخصِّص فيه وحده، كان موسوعي المعرفة؛ كان محدِّثًا كبيرًا قلَّ أن يخفى عليه حديث، وكان له قدرة متميِّزة في تخريج الحديث والحكم عليه، وقد يرى في بعض الأحاديث من الرأي الصحيح ما لا تجده عند غيره سواءً في تحديد درجة الحديث أم في فهمه والوقوف على دلالته. وله عناية خاصة بكتب الرجال، وقد بلغ من عنايته أنه فقد جزءً من كتاب الرجال فكتبه بخطِّ يده وجلَّده، ولما رآه بعض الولوعين بحفظ آثار عظماء العلماء استهداه هذا الجزء فأهداه إيَّاه بحضوري. وكان مفسِّرًا عظيمًا، وإنْ أَنْسَ لا أَنْسَ دروسه الرائعة في تفسير القرآن التي كان يُلقيها في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم في «دخنة» في الرياض، وكنتُ مُلازمًا لها وذلك من فضل الله عليَّ. لقد كان يغوصُ في المعاني الدقيقة في الآية ويذكر ارتباطها بما قبلها وبما بعدها ويَصِل بين تلك المعاني وبين حياة الناس ويشير إلى أسرار البلاغة ونواحي الإعجاز فيها، وكان لا يرضى تأويل المتأخِّرين ولا المعاصرين المفتونين بحضارة الغرب الذين تزعزعت عندهم الغيبيات

فراحوا يؤولون النصوص تأويلًا مُتكَلَّفًا بعيدًا.

وكان فقيهًا مجتهدًا، وما كان يرضى التعصب لمذهب من المذاهب مع إحاطته بها، بل كان يمشي مع الدليل، وقد تكوَّنت لدية مَلكة فقهيَّة عظيمة.

وكان أُصُوليًّا متبحِّرًا في هذا العِلْم العظيم: عِلْم أصول الفقه، واقفًا على دقائقه مُطَّلِعًا على كتبه مستحضِرًا لما فيها، فإذا سألته عن كتب من كتب الأصول ذكر لك خصائصه ومزاياه وطريقته والمآخذ التي تُؤخذ عليه. وقد كان معجبًا بكتاب «المستصفى» للغزالي وكتاب «الموافقات» للشاطبي.

وكان من كبار علماء التوحيد على مذهب السلف رحمهم الله، يعرض القضايا الدقيقة فيه بأسلوب مميَّز واضح، وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ واقفًا على كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم في هذا العلم.

وكان يتَّصف بسعة الصدر وحُسْن المناقشة والحلم وإلانة القول لمن يسأله ويناقشه، فقد ذكر لي الشيخ ناصر الدين الألباني أنه في أول قدمة جاء فيها إلى المملكة من بضع وأربعين سنة قابل عددًا من المشايخ وذاكرهم في مسألة قررَّها شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي مشكلة في نظره، وقد أنكرها، فاشتدوا عليه إلَّا واحدًا وكان هو الشيخ عبد الرزّاق عفيفي الذي تلطّف به وناقشه في الموضوع، وكان الشيخ الألباني يذكر هذه القصة مشيدًا بالصفات الكريمة التي تميَّز بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

□ وكان في علوم العربيَّة متمكِّنًا، فقد كان في النحو مرجعًا تراه يورد في حديثه القاعدة النحويَّة إذا اقتضاه التوضيح أن يوردها وكأنَّه من

المتخصِّصين في النحو، وكان ذوَّاقة للنصوص الجميلة، وهذا يدلُّ على موهبة بيانيَّة أكرمه الله بها وعلى تمكُّنه من علوم البلاغة.

وكان في الكتابة ذا أسلوب متين جزل بليغ لا يقلّ عن أساليب كبار الكُتَّاب والأدباء؛ تتصف عباراته بالإيجاز والإحكام والبيان والوضوح والجزالة. وكان مناظِرًا قويَّ الحجة مستحضر الدليل يُحيط بأطراف الموضوع الذي يناقشه رَحِمَهُ اللَّهُ».

□ قال الشيخ محمد صفوت نور الدين: «قام على أكتافه هو والشيخ محمد علي عبد الرحيم مهمة تأسيس المعاهد العلمية بالمملكة، ثم شارك في تأسيس كلية الشريعة واللغة العربية بالرياض، ثم رأس المعهد العالي للقضاء، فلمَّا تأسَّست هيئة كبار العلماء كان واحدًا من علمائها، هذا وقد لمع اسم الشيخ -يرحمه الله- مِن قَبْلُ ضمن أوَّل هيئة لكبار العلماء بجماعة أنصار السُّنَّة مع جمع من العلماء المبرَّزين، والشيوخ الكبار مثل: الشيخ أحمد شاكر والشيخ عبد الحليم الرمالي، والشيخ محمد حامد الفقي، وغيرهم من الكبار، وكان الشيخ عبد الرزّاق لا يزال بعد شابًّا في الثلاثين من عمره.

وقد كان الشيخ بالغ المعرفة بالفرق الضالة وأقوالها وبدعها، وقد استفاد منه تلامذته في ذلك فوائد جمَّة.

وقد كان الشيخ -يرحمه الله- مِثالًا يحتذَى في الفتاوى دقةً والتزامًا، فلقد جالسته سائلًا مستفتيًا كثيرًا في مواسم الحج لأعوام متعددة، فكان يختار من الألفاظ المعبِّرة، ولقد كان بالغ العناية باحترام أقوال إخوانه العلماء، فإذا صدرت الفتوى في مسألة له وله رأي مخالف وسأله أحد عن

هذه الفتوى أفتى بقول جماعة العلماء، ولم يكن هو رأيه، بل وجدته يحبس رأيه عن المستفتين إذا وجد أنَّ هذا الرأي قد يُحدث بينهم شقاقًا، ولا يُبْرِزه إلَّا لطلبة العلم الذين يعرفون الأدب عند الاختلاف وتوقير العلماء، وذلك هو شأن السلف الصالح، كقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله».

ولقد نفع الله بجهده فصار تلامذته من كبار العلماء والمعايشين له من الفقهاء، فلقد كان الشيخ محمد علي عبد الرحيم -يرحمه الله- وهو أسنَّ منه يراه شيخًا له، وأستاذًا مُعَلِّمًا... وقد أصيب الشيخ -يرحمه الله- بمرض لازمه أكثر من ربع قرن، واشتد به المرض في السنوات الأخيرة، ولم يمنعه ذلك من ممارسه عمله وانتقاله إلى مقر عمله ومكتبه، والجلوس للإفتاء والبحث، بل والصلاة في الجماعة في المساجد..».

فهذه سطور عن إمام جليل، ودوحة فارعة، فلق الله نواتها في مصر، وتعهَّدها ووالاها، حتى استغلظت وأخرجتْ شطوءها وامتدتْ، وأظلَّت بلادًا وعبادًا، وراح رائحتها دانون وقاصون.. رحم الله ذلكم العملاق الذي كان يتجنَّب الأضواء، ويتوارى عن عيون الراسمات والكاميرات، ويؤثر دائمًا الظل.

□ يقول الأستاذ بخاري أحمد وكيل أنصار السنة المحمدية عنه: إنه كان «متمثِّلًا الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَعِس عبدُ الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، إنْ أُعطِي منها رضِي، وإن لم يُعطَ سَخِط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث**

رأسه، مغبرَّة قدماه. إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في السَّاقة..» الحديث. ولقد راعني إيثاره للظِّلِّ وتجنُّبه كل الحفلات والمناسبات التي يتصدَّر فيها أمثاله ويتبارون، فقال حين سألته: «أخشى أن يكون لنفسي من عملي نصيب».

□ ثم يقول الأستاذ بخاري: «إن حَجَر الزاوية في منهجه العلمي التعليمي إنشاء علاقة حب متبادل بينه وبين كل الواردين وِرْدَه من طلبة نظاميِّين، ومن قاصدين يتَّبعون خُطاه ويتحرَّون دروسه، ومِن باحثين يُحَضِّرون الدراسات العليا، ومن علماء أجلَّاء كانوا يستهدونه ويلتمسون رأيه في مشكلة علمية، أوْ في قضيَّة تعدَّدت فيها الرؤى أو تحيَّرت فيها الألباب.

وكان لا يحب أن يكون تلميذه فاقد الوزْن، ريشة في مهبِّ الرياح، لذلك كان همُّه الأول أن يُولد في نفس الطالب ثقةً تُقيم صلبه، ويجلو مداركه، وتذلِّل له وعثاء الطريق.

كان يحاور الطلَّاب وعلى شفتيه ابتسامة توحي للطالب أنه حاز الإعجاب، ووافق الصواب، وكان يستقبل الإجابات باهتمام بالغ، فإذا ظفر بجزئيَّة صحيحة هلَّل لها وأثنى عليها، ووقف عندها ليشرح صدر الطالب، ويرفع من رُوحه، ويُخفِّف من أثر ما قد يكون من نقد.

وكان يرى أن ارتباط الطالب بعالم الكتب هو المستحج الذي يجلو ويلفظ الزَّبَد، فكان يحدو الطالب في رفقٍ ولطف ويوجِّهه إلى القراءة.

كان في كلِّ جلسة يتحدَّث عن كتاب أو أكثر حديثًا كأنه عارض، وهو في الحقيقة مرقَّب مقصود، وكان إذا وجد بين إجابة طالب وكتابٍ مَا أدْنى

ملابسة، بادر الطالبَ بقوله: «جميلٌ أنك قرأت كتاب كذا. إن أرواحَه تهبُّ من إجابتك». فإذا ابتدأ -بعد كلِّ هذا- يُغذِّي ويرفد، حرص على أن يحوم حول العقيدة، وإن كان الدَّرْس درْس نحو أو أدب، أو بلاغة، أو تعبير، حام حول العقيدة يقيمها أو يجلوها ويصقلها، أو ينقِّيها مما غشيها.

ذلك لأنه كان يرى أن العقيدة الملتاثة طريق الهاوية ونذير الخيْبة والندامة هكذا. حتى إذا هَيَّأ الطالب وأمَّنه، وبرح به الهُوينى يُربِّيه ويُعَلِّيه ويُزكِّيه، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يؤمن أن للمواقف بصماتها في تكوين الشخصية، وأن اقتحامها يورث الشجاعة، ويصنع الأبطال، فكان كثيرًا ما ينتخب نُخْبة من تلاميذه، ويكلفهم بموضوع في المنهج يعدونه مستعينين بالمتن والحاشية، ثم يصطفي واحدًا أو أكثر ليحاضر ويناقش، أو ليخطب الناس في محفل، ولستُ أنسى أنه فاجأ تلميذًا من تلاميذه ليخطب العيد في حضرة عدَدٍ من فحول العلماء.

ولقد صنع رَحِمَهُ اللَّهُ بمثل هذه المؤثِّرات جيلًا من الدعاة لا يزالون يعكسون مما تلقَّوا، ويصنعون -بدورهم- دعاة آخرين.

ولقد سعدت بالتتلمذ عليه رَحِمَهُ اللَّهُ في معاهد العلم. ومعاهد العلم تحكمها مقرَّرات ومناهج، ولكن فضيلته لم يكن نمطِيًّا في تعامله مع المقرَّرات والمناهج، بل كان ينتهج طريقةً ثرَّة العطاء، مترامية الأبعاد، جمَّة الشآبيب محورة المدار، فيها يتَّخذ الموضوع المقرَّر محورًا يفتح على فنون من العلم ندلف منها إلى الموضوع أو ندلف إليها من الموضوع.

والعقيدة باعتبارها قاعدة الإطلاق مركز الانطلاق، والسُّنَّة باعتبارها الوحي الثاني، والواجهة التي تتعرَّض للأهباء والأقذاء والأنواء، كانتا

مناط اهتمام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يركِّز عليهما، أو يلمح إليهما، أو يذكر بهما، ويمسهما مساسًا رفيقًا في شتى أحاديثه، ويتعرَّض لهما لأدْنى ملابسة بينها وبين الموضوع الذي يعالجه.

وكان في جُلِّ مناظراته ومساجلاته ينفض عنهما من عراهما من غبرة، وينفي عنهما تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وإبطال المبطلين.

□ وإن مما حفظناه عنه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ناظرت فليكن همَّك تحرير عقيدة خصمك وزلزلة أركان باطنه بقذائف الحق، ثم انزح ردوم الباطل ووال فؤاده حتى يتطهَّر، فإذا تطهَّر غَذِّه بحلاوة الحق».

□ ولله در الشيخ ناصر بن مسفر الزهراني وهو يقول في قصيدته: «التِّرياق في رثاء الشيخ عبد الرزاق»:

تسابقت المحاجرُ بالوكوف ... وأمسى كلُّ قلب في وجيفِ
وأجهشت الرياضُ بوبل دمعٍ ... لفقد العالم الحبرِ العفيفي
وأمسى منبرُ التوحيد يبكي: ... مُنيتُ بثُلمةٍ في حدِّ سيفي
وصرحُ العلم يندِبُ في ذهول ... يقول: مضى من الدنيا أليفي
عظيمٌ عالمٌ دمِثٌ كريم ... ستقصُر عن مزاياه حروفي
وفقدُكَ يا عفيفَ الجيب نارٌ ... يشِبُّ لهيبُها في كلِّ جوف
إذا ما مِثلُكم عنا تولَّى ... فيا همِّي ويا حزني وخوفي
إمامٌ علَّم الأجيال علْمًا ... وزهدًا صادقًا في غير زَيفِ
ولم يكُ همُّه شكلٌ وأكلٌ ... وبهرجةٌ وهزٌّ للكتوف
بعيدٌ عن مظاهر كلِّ كِبر ... ويرضى بالحصير وبالرغيف

قريبٌ من محبِّ العلم سمحٌ ... ولم يكُ مُشْمَخِرًّا في الكهوف
يجودُ بحُسنِ موعظةٍ وبُعدٍ ... عن التجريح والقولِ العنيف
وعفٌّ عن الحُطام فكان حقًّا ... كما سمَّوه بالشيخ العفيفي
وعاش مجاهدًا شهمًا أبيًّا ... ولم يركنْ إلى الظل الوريف
فتلك مآثرٌ في مصر تشدو ... بفضلٍ بين حاضرةٍ وريفِ
وفي أرض الجزيرة فيضُ علمٍ ... ومجدٌ بات كالطوْد المنيف
قضى في العلم والتعليم عمرًا ... مع الإخلاص في العمل الوظيفي
مع الكتب العظيمةِ كان يَحيَى ... ويُحييها بتعليم الألوف
وكان يَعيشها فكرًا وقلبًا ... ولم تك زينةً فوق الرفوف
يبُثُّ عبيرُها في كل قلب ... ويَجني للورى أحلى القطوف
يُقيِّد بالدليل نِفارَ صيد ... من الأفكار بالأثر الشريف
ويقفو هدْي خير الناس دومًا ... صدودًا عن بني زيفٍ وحيف
إذا التبست مسائلُ مشكلاتٌ ... وظلَّ القلبُ منها في رجيف
جلاها بالبصيرة فاستنارت ... عيونُ القول بالفهم اللطيف
كأن الشيخَ ينظر في هدوءٍ ... إلى الإلهام من خلفِ السُّجوف
وكم سهِر الليالي ماتعاتٍ ... سميرَ النجم بالفكر الحصيف
يُكحِّل أعيُنَ التاريخ نورًا ... ويملأ سمعَه بهدًى طريف
مطاياه العزائمُ مسرعاتٍ ... وهمةُ ماجدٍ للحق يوفي
وفي جُنْحِ الظلام يَبيتُ يدعو ... بدمع العين والقلبِ الأسيف

قليلٌ لفظه والقول نزرٌ كوزن الدرِّ في كف الصريف

ولو أن الحديثَ له ضياءٌ لأشرق في دُجى الليل الكثيف

بيانٌ للأحبة مثلُ شهدٍ وللأعداء كالسيف الرهيف

١٧- الشيخ مُحَدِّث المدينة حمَّاد الأنصاري [(١)] ومكتبته العظيمة التي تحوي آلاف المخطوطات:

هو الشيخ الجليل بقية السلف حماد بن محمد بن محمد بن حنة بن المختار من ذريَّة سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري. ولد سنة ١٣٤٤هـ في بلدة «تادمكة» في أفريقيا الغربية، من بلاد «ملي» -«مالي» كما تُسَمَّى اليوم-.

نشأ في بيت علم وقضاء وفتوى، وتلقَّى العلم في بلده عن أجلَّة المشايخ، وقد شرع في السنة العاشرة من عمره في حفظ القرآن غيبًا وتجويدًا على خاله المقرئ محمد أحمد بن تقي الأنصاري الملقَّب بـ «أستاذ الأطفال» فأكمله حفظًا وتجويدًا وهو ابن خمس عشرةَ سنة.

ثم قرأ على الشيخ المذكور في علم التوحيد «رسالة ابن أبي زيد القتيرواني»، وكذلك تلقَّى عنه في علم النحو والصرف «الآجرومية»، ثم «ملحة الإعراب» للحريري، ثم «ألفية بن مالك»، ثم «زوائد الكافية على الألفية»، ثم «لامية الأفعال في تصريف الأفعال»، ثم «الزوائد على لامية الأفعال»، وقد أجاد هذيْن العِلمَيْن حتى برز على أقرانه فيهما.

---

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب «المجموع في ترجمة العلاَّمة المحدث الشيخ حمَّاد ابن محمد الأنصاري» لعبد الأول بن حمَّاد الأنصاري.

□ وأخذ علم الأصول عن «بحر العلوم» عمه محمد أحمد الملقَّب بالبحر لتبحُّره في العلوم، درس عليه «الورقات» للجويني، ثم «جمع الجوامع» للتاج السبكي مع البناني والمحلي والعطار، ثم نظمه «الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع» للسيوطي حفظه بعد أن درس أصله «جمع الجوامع»، ثم طالع «نشر البنود على مراقي السعود».

□ وأخذ عن عمِّه أيضًا في التفسير «الجلالَيْن» مع «حاشية الجمل»، ثم البغوي، ثم الخازن وفي الحديث سمع «الموطأ» و«الصحيحيْن» و«سنن أبي داود»، ولم يكن يُوجَد في بلده في ذلك الوقت غير هذه الكتب مما يتعلّق بالحديث. وتلقى عنه دواوين اللغة الست، وهي «ديوان امرئ القيس»، و«ديوان النابغة الذبياني»، و«ديوان زهير بن أبي سلمي»، و«ديوان علقمة الفحل»، و«ديوان طرفة» و«ديوان عنترة».

وأخذ الفرائض عن أستاذه الجليل الشريف الإدريسي الحسني حمود ابن محمود، ودرس عليه أيضًا علم الأصول الفقهية، وفي علم المصطلح «النخبة» لابن حجر مع شرح «النزهة» و«ألفية السيوطي»، وفي علم الأصول التفسيرية أبوابًا من «الإتقان» للسيوطي مع مقدمته. هذا، وقد أخذ تلك العلوم عن أولئك الأعلام بالأسانيد المتصلة إلى المؤلِّفين. وأخذ الحديث والعقيدة السلفيَّة عن الشيخ محمد عبد الله بن المحمود المدني الذي كان إمام الحرم المدني، ثم هاجر إلى أفريقيا للدعوة.

□ وكان للشيخ حماد لوح كبير، يكتب فيه أعلى من قامته لذا كان له جارية وغلام يحملان له هذا اللوح الخشبي الكبير بالتناوب.

□ يقول الشيخ محمد المجذوب: «يطلُّ بنا فضيلته على ظروف هذه

المرحلة، فإذا هي على غاية من القسوة بالقياس إلى ما يتمتع به طلابنا اليوم من الميسَّرات، إذْ كان يسهر الليالي يقرأ ويكتب على ضوء القمر أو وهج النار التي تُوقد لهذا الغرض عند انتشار الظلام، وكان على طالب العلم مثله أن يدوِّن ما يقرأ ويحفظ بأقلام ينحتها بيده من العيدان، وبمداد يصنعه من هباب القدور ممزوجًا بصمغ الشجر، فلا عجب أن يكون للعلم قداسته في تلك البيئة بإزاء الجهود الفادحة التي تبذل لتحصيله».

□ وأمام قسوة الاستعمار الفرنسي خرج الشيخ حماد مع رفقة له ليله ليلًا ممتطيًا كل واحد منهم جمله فخرجوا، ومكثوا في رحلتهم هذه سنتين حتى وصلوا إلى ميناء جدَّة. مرُّوا فيها بكثير من البلاد مثل «النيجر» و«نيجيريا» و«السودان» وغيرها. وفي نيجيريا التقى بالشيخ المجدِّد العالم السلفي عبد الله بن المحمود الشريف الحسني الذي نشر الدعوة السلفيَّة في صحراء «مالي» وقال له: «يا بنيَّ إذا وصلت إلى بلاد الحرميْن فعليْك بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وعليك بنشر عقيدة السلف ونشر كتبهم، وعليك بتعليم الناس العقيدة والعلم».

□ يقول الشيخ حمَّاد: «لقد تأثَّرت بنصيحته هذه جدًّا وأخذت بها، وبلَغَتْ من قلبي مبلغًا عظيمًا، وعزمت على العمل بها».

□ كما التقى بالشيخ طاهر السواكني في دولة السودان، وأخذ عنه علم الحديث، وعرف على يديه كتب الحديث، فقد كان الشيخ عالمًا من علماء السودان في الحديث وغيره، وكان له الاهتمام الكبير بعلم الحديث. قال الشيخ حمَّاد: «لقد تأثَّرت بالشيخ طاهر السواكني في علم الحديث، فقد نصحني بتعلُّمه واقتناء كتبه، والشيخ على منهج أهله»، فكان لهاتيْن

النصحيتيْن تأثير بالغ في حياة الشيخ حمَّاد العلمية إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى. وعندما وصل الشيخ حماد إلى جدَّه سارع إلى مكة، وكان عمره ثلاثةً وعشرين عامًا يومئذٍ.

□ وفي مكة التقى بالشيخ حامد الفقي وتأثَّر به جدًّا، والتقى بالشيخ محمد عبد الرزّاق حمزة وأخذ عنه العلم، واستمع إلى درسة في «تفسير ابن كثير»، ولازم الشيخ يحيى المعلِّمي المحدث عالم عصره ولازم الشيخ تقي الدين الهلالي.

وسافر إلى الرياض سنة ١٣٧٣ هـ والتقى بالشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مفتي المملكة فلازمه وأحبَّه وقربه الشيخ محمد منه، وأمره أن يدرِّس للصغار كتب العقيدة والحديث، وكان الشيخ محمد بن إبراهيم يأمر بعض أبنائه أن يدرس على الشيخ حماد علوم الآلة في اللغة، وكذلك الحديث. وكان الشيخ حماد يقضي الإجازة بمكة، فكان الشيخ محمد بن إبراهيم يُرسِل أحد أبنائه مع الوالد يتلقّى العلم عليه. ومكث الشيخ حمَّاد في الرياض إحدى عشرة سنة متعلِّمًا وعالمًا يدرس بمعهد الدعوة بالرياض، وتخرَّج على يديه ناس كثير جدًّا من العلماء.

□ وفي المدينة المنوَّرة سمع من الشيخ محمد بن تركي النجدي، ودرس عليه «الموطأ»، والشيخ محمد خيال، درس عليه «صحيح البخاري»، و«فتح المجيد»، والشيخ عمار المغربي درس عليه في «البخاري»، والشيخ حبيب الرحمن الهندي، درس عليه في الترمذي وأبي داود. وأجازه غير واحد منهم الشيخان المحدِّثان الهنديَّان عبد الشكور الهندي وعبد الحق العمري، وهما في باكستان، ومحمد بن عيسى الفاداني الجاوي، والشيخ

عبد الحفيظ الفلسطيني أجازه سنةَ سبع وستين في الكُتب الستة، والسيد قاسم بن عبد الجبار الفرغاني الأندجاني أجازه في الستة.

وانتقل للتدريس في الجامعة الإسلامية سنة ١٣٨٥هـ في كلية الشريعة، ثم مدرسًا في جميع كليات الجامعة، ثم باشر التدريس في الدراسات العليا في قسميْ العقيدة والسنة، ثم عُيِّن رئيسًا لقسم العقيدة، ثم رئيسًا لقسم السنة، وأحبُّ مؤلفات الشيخ حمَّاد إلى قلبه كتابه «بُلْغة القاضي والداني في تراجم شيوخ الطبراني»، وقد صرف في تأليفه وقتًا طويلًا وجهدًا جليلًا. وأشرف على الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجلس في مكتبته العامرة الذاخرة لاستقبال طلبة العلم والمشايخ من بعد صلاة العصر إلى العشاء يوميًّا بدون انقطاع حتى مرضه قبل موته في ١٤١٨هـ في ٢١ من جمادى الآخرة الموافق ٢٢/١٠/١٩٩٧م.

وقام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتدريس «سنن الترمذي» في المسجد النبوي حتى ختمها كاملة.

مكتبة الشيخ حماد الأنصاري لا تعدلها مكتبة في المملكة أو غيرها:

هذه ميزة تفرَّد بها الشيخ دون بقية العلماء، وهي حرصه الشديد على جمع مخطوطات التراث الإسلامي، وخاصة كتب الحديث.. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «لا أسمع بكتاب في العقيدة السلفية والحديث إلَّا وأحرص على اقتنائه». ويقول: «عندي في مكتبتي جميع أنواع علم الحديث التي ذكرها العلماء في كتب المصطلح» يعني: عنده المؤلفات فيها. وعرف له أهل العلم هذه الأسبقية فقد قامت جامعة الإمام بالرياض بتصوير

المخطوطات التي في مكتبته جميعها، وكذلك الجامعة الإسلامية، ومركز خدمة السنة بالمدينة النبوية.

□ يقول عنه الشيخ الألباني: «مع اعترافي بعلمه وفضله وإفادته للطلبة خاصة في الجامعة الإسلامية جزاه الله خيرًا»[١].

□ ويقول الشيخ عمر محمد فلَّاته: «أتمنى أن يرزقني الله مثل علم الشيخ حمَّاد الأنصاري».

□ وقال عنه الشيخ مرزوق الزهراني: «هو أبو العلم والعلماء».

□ ويقول عنه ابن عمه الشيخ إسماعيل الأنصاري: «هو الذي تخرَّج من تحت يده العلماء في الجامعة الإسلامية».

□ يقول عنه الشيخ محمد المجذوب: «في رحلة جامعية صحبناه فيها إلى ينبع، وفي إحدى الندوات العلمية بالمخيَّم استمعنا إلى فضيلته يحدثنا عن فاتحة الكتاب، وأشهد لقد تدفَّق كالسيل الهادر يقذف أفانين الدرر، فما تلكَّأ ولا ارتج عليه، فكأنما يقرأ في كتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من كنوز هذه السورة، فهو يُتحف، سامعيه من هذه الكنور بما لا تتَّسع له المناسبة.

ربما أورد خلال حديثه ما يتَّسع لأكثر من تفسير، فاكتفى بوجهة منه لا يقرُّه عليها بعض الحضور، ولكنه لم يدع قلبًا هناك إلَّا ملأه رضى وانفعالًا وإعجابًا، وبعد عام أو أكثر حدَّثني فضيلة الأخ الأستاذ محمد الصبَّاغ -المدرِّس في جامعة الرياض- عن مثل إعجابنا به، وذلك أنه سمعه يحاضر في مخيم الجامعة عن معاني الفاتحة فسَحَر وبَهَر.

---

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني (٣/ ٣١٩).

وقد لاحظت من خلال حديث الأستاذ الصبَّاغ ما خيَّل إليَّ أنني أقع على ميزة أخرى للشيخ حمَّاد هي قوة الحافظة التي تسعفه باستحضار كل ما يعلمه عن الموضوع الواحد في المناسبات المتباعدة، وهي ميزة يكاد ينفر بها بعض المتفوِّقين من علماء الإسلام في إفريقية الغربية..

لقد وهب فضيلته نفسه للعلم، فهو يقضي جُلَّ يومه بين كتبه وطلابه إلى وقت متأخِّر من الليل يحقِّق ويُناقش ويوجِّه، وقد أضاف إلى ذلك انشغاله بطلبة الدراسات العليا الوافدين إليه من مختلف أنحاء المملكة، والمترددين عليه من طلابه في الجامعة الإسلامية.

وهو إلى ذلك شديد الحرص على لقاء العلماء من زوَّار المدينة، فإذا بلغه قدوم أحدهم هرع إلى الاجتماع به والمذاكرة في كل ما يتصل باختصاصه، ومن هنا كان بُعده عن حياة الناس خارج هذه النِّطاق، فلا يكاد يعرف شيئًا من مشاغلهم الدنيوية، بل لا يكاد يعرف الأصول التي تعارفوها في شراء الحاجات اليومية، فلا يساوم بائعًا، بل يؤدي إليه ما يطلبه دون جدال، ولعلِّي لا أسوء الشيخ إذا قلت للقارئ: إن قارورة من الطيب اشتريتها أنا بأربعة ريالات قد اشترى هو أختها بمئة ريال، على أن الشيء الوحيد الذي يمتاز بإتقانه في هذا الجانب هو شراء المطبوعات والمخطوطات التي يوشك أن يؤثرها بمعظم موارده حتى تجمَّع لديه منها مكتبة عامرة لا تقل عن خمسة آلاف كتاب وكلها في التوحيد والحديث».

□ يقول عنه زين العابدين بن غرم الله الغامدي الذي لازمه عشر سنوات: «ما هي أبرز خصائصه التي حباه الله تعالى إياها حتى تميَّز بها عمَّن سواه ونبغ بها عن غيره؟

وللإجابة عن ذلك فإنه يمكن إيجاز تلك الخصائص في التالي:

أوَّلاً: الهمة العالية:

كان العلَّامة الأنصاري -يرحمه الله- ذا همَّة عالية، تفوق همم كثير ممن كان لهم عناية بطلب العلم وبتتبع آثاره للدراسة.

همة عالية تتطلع إلى الميزة في كل علم وفن وفي كل زمان ومكان، لقد كانت هذه الخصِّيصة من أبرز الخصائص التي يتمتع بها المحدِّث الأنصاري، مما جعله قمَّة من القمم المنيفة في حيازة العلم وفي سعة الأفق وفي تفتح المدارك.

فلم يكن يهدأ للشيخ بالٌ ولا يقرُّ له قرار دون بلوغ منيته في القراءة والاطلاع، والتأليف، والجمع، وفي البحث والتنقيب عن نفائس العلم ومخطوطاته في شتى بقاع الأرض، ولم يكن يسأم من الساعات الطويلة التي يقضيها في ردهات المكتبات في أنحاء البلاد الإسلامية التي رحل إليها في تقصِّي البحث عن الكتب النادرة النفيسة، مع البحث الدءوب والعمل المتواصل ليل نهار تبعثه همَّته القوية العلِيَّة وعزيمته الصلبة على تخطِّي العقبات وتذليل الصعوبات مهما كانت التضحيات كبيرة وغالية، إذ كان يبذل وقته وجهده وماله من أجل تطلُّب العلم والكتب والمخطوطات بلا ضجر أو سآمة، ولو كان ذلك على حساب صحَّته البدنية حتى مع كِبر السِّن وتقدُّم العمر.

وإذا كانت النفوس كبارًا   تَعبت في مرادها الأجسامُ

وكانت تعترضه في البحث أحيانًا مسائل عويصة ومشكلات معضلة، ولكن بالهمَّة العالية التي لا يخالطها قنوطٌ ولا يأس أو تردّد كانت تهون

وتتيسر تلك المسائل والمشكلات حتى يبلغ منها مناه -يرحمه الله- وكان كثيرًا ما يحثُّني على بذل الجهد في التحصيل والهمَّة فيه، ويتمثَّلُ قول النَّاظم:

والعلمُ ليس بقرقرٍ[1]، بل في ذُرَى — نيقٍ[2] يفوت مدى البزاة الصُيَّدِ

لم يصمه[3] سهمٌ، ولم يبتزّه بازٍ — ولم يصرع برمية مِلْقد[4]

لكن بأشراك الحُلوم وهِمَّةٍ — نفَّاذةِ الأغراضِ فليُتَصَيَّدِ

الصبر والجلَد والمثابرة:

كان العلَّامة الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ ذا جَلَد كبير، وصبر عظيم، ومثابرة على التحصيل العلمي في شتَّى الفنون بلا كَلَلَ أو ملل أو تضجُّر، فلا يبلغ مداه في ذلك أحد.

وكان يحمل نفسه على عظائم الأمور وسائر المشاق في سبيل بلوغ غايةٍ علمية أو شاردة حديثيَّة أو فقهية أو تراثٍ قديم.

ومن جَلَده على القراءة: أنه كان يمضي الساعات الطويلة ناظرًا في المطبوعات أو مُفَتِّشًا في المخطوطات، وإذا جاءه مخطوط نادر أو كتاب جديد فإنه لا ينام حتى يتمَّ قراءته كاملًا حتى يطلع عليه الفجر ولم يكمله، وقد يجيء الضحى وهو مستغرق في القراءة والإطلاع، وكان إدمانه على القراءة -سيَّما المخطوطات- أحد أسباب مرض عينيه -يرحمه الله-، وقد

(١) المكان المستوي والأرض السهلة.

(٢) الجبل الشاهق.

(٣) يصبه.

(٤) العصا.

ذكر لي أنه قرأ «فتح الباري» عشرين مرَّة، وما ذلك إلَّا لصبر طويل ودأب على التحصيل.

خدمته للتراث والمخطوطات:

تتجلَّى عند محدِّث المدينة الشيخ حماد برحلاته عبر أقطار العالم لجمع كنوز المخطوطات الحديثية وفحصها واقتنائها والعناية بها، وتزويد الجامعات الإسلامية والمكتبات العامة بنفائس المخطوطات المفقودة والبعيدة الموجودة، حتى أن أغلب ما في الجامعة الإسلامية بالمدينة من المخطوطات إنما هي من انتقاء الشيخ الأنصاري.

ثم خدمته للباحثين عن التراث وهم على قسمين:

طلاب الدراسات العليا بالجامعات، حيث كان الباحثون يفدون إلى الشيخ زُرافاتٍ ووحدانا لاستشارته في موضوعات رسائلهم للماجستير وأطروحاتهم للدكتوراه وأخذ رأيه السديد في قيمة ما يُسجِّلونه من مخطوطات ومدى الإفادة منها، والتعرف على أماكن المخطوطات وما طُبع منها وما لم يُطبَع وعدد نسخها وصفتها من حيث الجودة ونوع الخط ووضوحه، والإشراف على الرسائل والأطروحات العلمية ومناقشتها.

والمكتبة الأنصارية أجمع المكتبات الخاصة في المملكة التي عنيت بالحديث وعلومه. وانظر إلى علو همته في المحافظة على تراث الأمة وجمعه للمخطوطات، فقد اشترى كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر بسبعة آلاف ريال، وكلَّفه كتاب «الكامل» لابن عديَّ حين اشتراه من رجل تركي عام ١٣٨٤ بمبلغ ألف ريال في حين كان راتبه آنذاك ألف ريال.

وكان الشيخ على صلة قوية بما جدَّ في عالم المطبوعات والنشر، وكأنه

قاموس وديوان عظيم.

▢ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت أيام الشباب أنسخ الكتب المخطوطة إلى الفجر».

▢ وقال: «إن مكتبة الحرم المكي أعرفها تمامًا، أخذت فيها سبع سنوات أنقل ما فيها من المخطوطات وغيرها، وفي ذلك الوقت لا يُوجَد تصوير».

▢ ويقول: «درست كتاب «ميزان الاعتدال» للحافظ الذهبي دراسة ولفية، ولعلّي قرأته أكثر من مئة مرة، وذلك لعدم وجود غيره عندي في أول طلب علم الحديث».

▢ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «قرأت من المخطوطات ونسخت ما يُعجز عن قراءته ونسخه، وما أضعف بصري إلَّا هي، وشرطي في امتلاك المخطوط ألا يكون مطبوعًا».

▢ وقال: «مكثت شهرًا لا أبصر بعيني، وأظن أن السبب قراءة المخطوط».

▢ كان رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا ما يُكرِّر هذا البيت:

لكــلٍّ إلى شــأن العــلا وَثَبَــاتٌ ... ولِكــنْ قليــلٌ في الرِّجــال ثبــاتُ

▢ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «عندما قمتُ برحلات إلى بلاد مختلفة للبحث عن هذه الكتب لم أجد أيَّ مكتبة شبيهة بمكتبتي سواءً كان في الشام أو مصر أو المغرب وتونس والجزائر وليبيا، وقد كلَّفتني هذه المكتبة كثيرًا».

▢ وقال: «إنني استفدت من رحلتي للهند التي اطلعت على مكتبات تراثية بها هامة، هي المكتبة السعيدية والأوصفية ومكتبة المعارف والمكتبة العثمانية، وصوَّرت من هذه المكتبات باسم الجامعة نحو (٥٠٠) من المخطوطات موجودة في مكتبة الجامعة».

▢ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد أن يبحث عن المخطوطات فعليه بتركيا

وألمانيا». ولقد طوَّف الشيخ في أسبانيا بحثًا عن المخطوطات. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «الكتب عندي أفضل من قصور الملوك».

وبمكتبة الشيخ أكثر من (٥٠٠٠ مخطوط).

الجزاء من جنس العمل:

□ يقول الشيخ عبد الوهاب بن عبد العزيز الزيد[1]: «إن الشيخ حماد رَحِمَهُ اللَّهُ حدثنا أنه أثناء إقامته بمكة وبعد طلبه العلم وتحصيله واقتناء الكتب النفيسة فيه كتب إليه عمه من بلده في إفريقيا الغربية -وهو شيخه وعمه ومن له حقٌّ عليه- بأنه يرغب من الشيخ حماد أن يبعث إليه بمكتبة تحوي الكتب المهمة، وذلك لإغفاء أهل تلك البلاد الفقيرة التي لا تُوجَد فيها من الكتب المهمة إلَّا القليل. وجودًا من الشيخ حماد رَحِمَهُ اللَّهُ وإيثاره طلبة العلم على نفسه ولتقديره ما يعانيه أهل بلده استخار الله، وعزم على تلبية الطلب، وسعى في إرسال كامل مكتبته القيِّمة التي بذل في جمعها كل ما يملك، فتمَّ شحن المكتبة بكاملها في إحدى البواخر حتى تم تسليمها لعمِّ الشيخ هناك. وضرب الشيخ حماد بهذا أروع الأمثلة في الإخلاص في طلب العلم، وأن المقصود في طلب العلم هو عموم نفعه لعامة المسلمين، ولذلك بارك الله في الشيخ حماد وأخلفه وكتبُه تحدِّث بنفائسها القاصي والداني».

□ قال الشيخ محمد ثاني النيجيري في رثاء الشيخ حمَّاد:

في كل يوم نرى للعِلْم تخمادًا ... واليوم تنعي عميدَ العِلْم حَمَّادَا

---

(١) نُشِر في «مجلة الدعوة»- العدد (١٦١٨) بتاريخ ٢٠ رجب ١٤١٨هـ - ٢٠ نوفمبر ١٩٩٧م.

رحلت شرقًا وغربًا ناشِدًا كُتُبًا … ضَمَّت عوالي إسنادٍ وأجْوادا

حتى غدوْتَ بفضل الله ناقدها … وصرْتَ تُذكَرُ في (كانو)[1] وبغدادا

قَد شِدْت مكتبةً تزهو خزائنها … بِكُلِّ مخطوطةٍ يا نِعْمَ نَضْيَادا

ما كان يبخلُ ممَّا عندَهُ أَبدًا … بل يُتحِفُ الكُلَّ طُلَّابًا ورُوَّادا

وكم كتابٍ يرى دومًا مُحَقِّقُهُ … يُولي الثناءَ له شُكْرًا وتَحْمَادَا

زهتْ مجالسُ طُلَّاب العلومِ به … وقد غدا سَوْحها النَّهْرَ الذي جادَا

في مكة أمه الجمع الغفير بها … لما أَشَعَّ بنور العِلْم إرشادا

وكم أفادتْ جموعٌ بالرِّياض به … تحلَّقُوا عندهُ شِيبًا وأولادا

وصَرْح طيبة[2] لن ينسى محاسنه … فكم أقامَ به درسًا وإسنادا

ما زال رَجْع صداهُ فيه مُرْتَفِعًا … يروي فيلحق بالأجدادِ أحفادا

وهكذا عاش يغذو روح أُمَّتِه … بالعلم يُصقِل إصْدَارًا وإيرادا

وخَلَّفت بيننا أقلامُه كُتُبًا … يُعنى بها مَنْ سَمَا في العِلْم إنجادا

قد باركَ الله عُمْرَ الشَّيخ أزمنةً … حتى أقامَ لِصَرْح العلم أطوادا

يا رب بَلِّغه فردوسًا تُنَعِّمُه … في مقعد الصدق إسعادًا وإقعادا

---

(١) مدينة عريقة في شمال نيجيريا، وقائل القصيدة مِن سكَّانها.

(٢) يعني الجامعة الإسلامية بالمدينة.

١٨- الشيخ الدكتور محمد جميل غازي يفسِّر القرآن على منبر مسجد العزيز:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد جميل غازي من أعلام العلماء في مصر في عصرنا الحالي، ولد في بلدته كفر الجرايدة بكفر الشيخ في يناير ١٩٣٦م، وأتمَّ حفظ القرآن الكريم في صِغره في كُتَّاب القرية. وحصل على عالمية الأزهر من كلية اللغة العربية عام ١٩٦٣م، وحصل على دكتواراه في النقد الأدبى عام ١٩٧٢ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى. أسَّس المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسُّنَّة بمسجد العزيز بالله بالزيتون بالقاهرة، وكان نائبًا للرئيس العام لجماعة أنصار السنة بمصر. وأسَّس معهد دار علوم القرآن والحديث عام ١٩٨٣م بالمركز العام وتولَّى عمادته حتى وفاته.

والدكتور جميل هو أوَّل خطيب جمعة على مستوى العالم الإسلامي يُقدِّم تفسيرًا للقرآن الكريم تناول فيه قضايا العصر وهو يقع في حوالي خمسمئة خطبة صوتية تصل إلى ٧٠٠ ساعة تقريبًا، تحتوي على تفسير للقرآن الكريم من سورة الفاتحة حتى سورة القارعة. أجاد فيها وأفاد وبرز فيها قدره كعالم من العلماء الأفذاذ.

وله أشرطة صوتية لشرح صحيح البخاري تقارب المئة شريط من دروس يوم الثلاثاء. وله محاضرات وندوات ومناقشات في مصر وسائر بلاد العالم الإسلامي، وله الباع الكبير في الردِّ على الصوفية ودحض شطحاتهم وخرافاتهم.. رحمه الله وبارك في ذرِّيته.

١٩- الإمام الزاهد محمد بن صالح العثيمين [١] ملأ الأرض عِلْمًا وهو أشهر في الدنيا من الدنيا:

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن صالح بن عبد الرحمن بن عثمان التميمي وجده الرابع عثمان أُطلِق عليه: عثيمين فاشتهر به.

وُلِد الشيخ ابن عثيمين في مدينة عُنَيزة -إحدى مدن القصيم- عام ١٣٤٧هـ في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك.

وفي عصر يوم الأربعاء الخامس عشر من الشهر العاشر من عام ١٤٢١هـ كان موعدًا لرحيله من هذه الدنيا عن عمر يُناهز الرابعة والسبعين قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين حتى آخر أيام حياته؛ حيث استمرَّ في إلقاء دروسه المعتادة في شهر رمضان رغم حالته الصحيَّة الصعبة، فكان يُلْقي دروسه والأوكسجين على أنْفه!!!، وكأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قد أحسَّ بقرب أجله حينما ودَّع طُلَّابه في اليوم التاسع والعشرين من رمضان حيث ختم درسه بقوله: «لَعَلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ودفن رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة في مقبرة العدل بمكة المكرمة يوم الخميس عصرًا بجوار قبر شيخه الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب «الجامع لحياة العلاَّمة محمد بن صالح العثيمين»، وكتاب «ابن عثيمين الإمام الزاهد» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ـ دار ابن الجوزي وكتاب «جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن» للدكتور أحمد بن محمد بن إبراهيم البريدي ـ مكتبة الرشد.

شيوخه[١]:

لم يُكثِر الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن المشايخِ والتتلمذِ عليهم، واكتفى بمشايخِ بلدِهِ ولم يَرحل لطلبِ العلمِ إلَّا مرَّةً واحدةً وكانت إلى الرياضِ، وذلك للدراسةِ النظاميَّةِ في المعهدِ العلميِّ وكانَ ذلك عام (١٣٧٢هـ)[٢]، وبدأ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ في طلبِ العلمِ عامَ (١٣٦٠هـ) وعُمُرُهُ آنذاكَ (١٤) سنةً[٣]، وأبرزُ مشايخِهِ هم:

١- الإمام العلَّامة المفسِّر عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد لازمهُ قُرابةَ الستَّ عشرةَ سنة.

٢- الشيخُ المحدِّث عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، مُفتِي عامِّ المملكة.

درسَ عليه الحديثَ عندما كانَ الشيخُ مُواصلًا لدراستهِ النظاميَّةِ في الرياضِ؛ فقرأَ عليهِ صحيحَ البخاري وبعضَ كُتُبِ الفقهِ.

٣- الشيخ المفسِّر محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، المتوفَّى عام (١٣٩٣هـ).

وهو مُفسِّرٌ لغويٌّ، صاحب التفسير المشهور: أضواء البيان في إيضاحِ القرآنِ بالقرآن، وقد درسَ عليهِ الشيخُ في المعهد العلميِّ بالرياضِ.

٤- الشيخ علي بن محمد الصالحي رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) انظر: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص٤٨) وما بعدها، «ابن عثيمين الإمام الزاهد» (ص٣) وما بعدها.

(٢) انظر: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص٦٥) وما بعدها.

(٣) المرجع السابق (ص١٠).

شيخهُ وقرينهُ في الطلبِ على يد الشيخِ السعديِّ؛ فكلاهما من طُلَّابِ الشيخِ عبد الرحمن السعدي.

٥- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوَّع رَحِمَهُ اللَّهُ، قاضي عنيزة.

وقد قرأَ عليهِ مختصر العقيدةِ الواسطيةِ للشيخ السعديِّ، ومنهاج السَّالِكين- في الفقهِ- والآجرُّومية والألْفِيَّة- في النحو والصرْف-.

٦- الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد درسَ عليهِ بعضَ كُتُبِ الفقهِ والفرائض.

٧- الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد حفظَ عليهِ القرآنَ كاملًا، وهو جَدٌّ للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن جهةِ أُمِّه.

٨- الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

٩- الشيخ عبد الرحمن الأفريقي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهُمَا مِن مشايخِهِ في المعهدِ العلميِّ [(١)].

هؤلاء هم أبرزُ المشايخ الذينَ تتلمذ عليهم الشيخُ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في عَصْرِهِ، والمطَّلِعُ على كُتُبِ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أنَّه أَكْثَرَ مِن التتلمذِ على كُتُبَ شيخِ الإسلامِ ابن تيمية وتلميذِهِ ابن القيمِ رحمهما الله، فهو كثيرًا ما يَنْقُلُ عنهما ويذكرُ اختياراتهما كما سيأتي بيان ذلكَ عند الحديثِ عن مَصادرِهِ في التفسير.

تلاميذه:

أول جَلسةٍ عَقدها الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ للتدريسِ كانت عام (١٣٧١هـ) قبلَ

---

(١) انظر: «السيرة الذاتية» للشيخ المنشورة على الشبكة العالمية (الإنترنت).

وفاة شيخِهِ السعدي بما يَقربُ مِن خمس سنواتٍ [١]، ثم بدأ البداية الفعليَّةَ بعد وفاةِ شيخِهِ السعدي عام (١٣٧٦هـ) حتى وفاتِهِ عام (١٤٢١هـ) فكانت المدَّة التي قضاها الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ في التدريسِ تَزيدُ على نِصْفِ قَرْنٍ [٢]، وكانَ التتلمذُ على الشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَنقسِمُ إلى مرحلتينِ بحسبِ الكثْرةِ والقلَّةِ:

المرحلة الأولى: قِلَّةُ التلاميذِ في درسِهِ، وهي مِن بدايةِ تَصدِّيهِ للتدريسِ حتى عام ١٤٠٦هـ، وكانَ تلاميذهُ رُبَّما لا يزيدونَ في مجموعهم على عشرة، ورُبَّما حضرَ الدرسَ واحدٌ أو اثنان.

المرحلة الثانية: كَثْرةُ التلاميذِ، وكان ذلك عام ١٤٠٦هـ حتى وفاتِهِ؛ حتى وَصَلَ العدد في المجلسِ الواحد في مَسجدِهِ إلى أكثرَ مِن ستمئةِ طالبٍ [٣] وسببُ ذلكَ والله أعلم:

- صبرُ الشيخِ ومُثابرته تلك المَدَّةَ الماضية حتى كَتَبَ الله له القبولَ.
- الصحوةُ الإسلامية التي عَمَّتْ أنحاءَ العالمِ الإسلامي.
- جُلوس الشيخِ للتعليمِ وتفريغ نَفْسِهِ له.

وكانَ طُلابه مِن مستوياتٍ مُختلفةٍ؛ فمنهم أساتذةُ الجامعاتِ، وطلابها، ومنهم الموظفونَ، وتلاميذ المدارسِ، ومنهم المتفرّغونَ لطلبِ العلمِ، كما أن جِنسياتهم مختلفةٌ مِن داخلِ المملكةِ وخارجها، إلَّا أن أكثرهم مِن

(١) «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص١١).
(٢) انظر: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص٥٠، ١٥٤)، السيرة الذاتية للشيخ المنشورة على الشبكة العالمية (الإنترنت).
(٣) «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص١١).

منطقةِ القصيم؛ ولذا فحَصْرُ طَلَبَةِ الشيخِ على وَجْهِ الدَّقَةِ مُتعَذِّرٌ لأُمُور:

-طُول مُدّةِ جلوس الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ للتدريس.

- جلوسهُ للتدريسِ في أكثر مِن مكان، فَله دروسٌ في مَسجدهِ في عنيزةَ، ودروسٌ في المسجدِ الحرام في رمضانَ والحج، ودروسٌ في المسجد النبوي.

- هناكَ الكثير مِن الطلبةِ الذينَ تتلمذوا على أشرطةِ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ والتي نَفَعَ الله بها نفعًا عظيمًا، وقد التقيتُ في الرياض بِرَجُلٍ من أوربا يُقال له: سليمان، أسلمَ وحَسُنَ إسلامهُ وتعلمَ العربيةَ ثم بدأَ بتتلمذُ على دروسِ الشيخِ الصوتية فجعلَ له برنامجًا يوميًّا أشبهَ ما يكونُ بالمدرسةِ النظاميةِ؛ ففي كُلِّ يومٍ يقضي أربعَ ساعاتٍ كُلُّ ساعةٍ في فَنٍّ مِن فنونِ العلم التي قامَ الشيخُ بشرْحِهَا، وهذا على سبيلِ المثال لا الحصْر.

- هُناكَ الكثير مِمَّنْ تتلمذَ على الشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ ممنْ لا يعرفهم أحد؛ إما لِكوْنِهِ -التِّلْمِيذُ- أتى للدراسةِ في الجامعةِ فحضرَ عند الشيخِ بعض دروسهِ، أو كانَ مِمّنْ يحضرُ في الإجازات الصيفيةِ لحضورِ الدوراتِ العلميةِ التي يَعقدها الشيخُ في مَسجدهِ، أو كانَ يحضرُ مجالسَ الشيخِ التي يَعقدها في مَواسِمِ الحج ورمضان.

- هُناكَ مِن الطلبة مِمّنْ لازَمَ الشيخَ رَحِمَهُ اللَّهُ فحضرَ جميعَ دروسهِ في فترةٍ مِن الزمنِ، ومِنهم مَن كانَ يختار بعض الدروسِ فيحضرها؛ خاصَّةً درسَ الشيخِ في شرح زاد المستقنع والذي كان يُلقِيهِ بعد مَغْرِبِ كُلِّ سَبْتٍ وإثنَيْن، فكانَ الطلابُ يتوافدونَ مِن أنحاء القصيم لحضورهِ؛ ولذا كانَ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يتأخّرُ في البدءِ به حتى قُبيلَ صلاةِ العِشَاء، وأذكرُ أنني

لازمتُ حُضورَ هذا الدرس في فترةٍ مِن الفتراتِ مع بعضِ الإخوةِ فكُنا نُصلِّي المغربَ في بريدةَ، ثم نَذهب إلى عنيزةَ ونُؤدِّي تحيَّةَ المسجدِ ونَحضر جُزءً مِن مُناقشةِ الدرسِ السابقِ قبلَ البَدْءِ بالدرسِ الجديد والذي رُبَّما لا يتجاوزُ أحيانًا ثُلُثَ ساعةٍ؛ حيثُ كانَ ينتهي الدرسُ مع أذانِ العِشَاء، فَنرجعُ ونُصلِّي العِشَاءَ في بريدةَ، وكانت المسافة بينهما (٣٠ كلم) تقريبًا.

وكُلُّ ما تقدَم يجعلُ مِن الصعبِ حصْرَ طلبةِ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن ذكَرَ الأخوليد الحسين -أحدُ طلابِ الشيخِ- عَدَدًا مِن الطلَبةِ المتميِّزينَ الذين أطالوا المكْثَ عند الشيخِ لسنواتٍ، فأوصلهم إلى خمسة وسبعين طالبًا[1]

ثالثا: أعْمَاله:

تولَّى الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ جُمْلَةً مِن الأعمالِ العظيمةِ في المجالِ العلميِّ أو الدعويِّ أو الخيريِّ ومِنها:

١ - التدريس، وهو على ثلاثة أقسام:

أ- التدريسُ في مَسجدِهِ، وأمضى فيه ما يزيدُ على نِصف قَرْنٍ؛ كما قدّمتُ آنفًا.

ب- التدريسُ النظاميُّ: حيثُ بدأَهُ بالتدريسِ في المعهدِ العلميِّ في عنيزةَ عام ١٣٧٤هـ حتى عام ١٣٩٨هـ، ومِن ثَمَّ انتقلَ إلى فرعِ جامعةِ الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم في كلية الشريعة وأصول الدين، مِن العامِ ١٣٩٨/ ١٣٩٩هـ حتى تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ج- التدريسُ في المسجدِ الحرام والمسجدِ النبويِّ في مَواسمِ الحجّ

---

(١) انظر: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص٥٤) وما بعدها.

وشهر رمضان والعُطَلِ الصيفيَّةِ.

٢- شاركَ في عضويةِ لجنةِ الخطط ومناهجِ المعاهد العلميّةِ التابعة لجامعةِ الإمام، وألَّفَ عددًا مِنها.

٣- جهوده في مَواسمِ الحج؛ حيثُ التزمَ برنامجًا دعويًّا مِن عامِ ١٣٩٢هـ حتى عام ١٤٢٠هـ[1].

٤- شاركَ في عضويةِ المجلسِ العلميِّ بجامعةِ الإمام محمد بن سعود الإسلامية للعامينِ الدراسيينِ ١٣٩٨/ ١٣٩٩هـ، ١٣٩٩/ ١٤٠٠هـ.

٥- شاركَ في عضويةِ مجلس كليَّة الشريعة وأصول الدين بفرعِ جامعةِ الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، ورَأَسَ قسمَ العقيدةِ فيها.

٦- كانَ عضوًا في هيئةِ كبارِ العلماءِ بالمملكةِ العربية السعودية، مِن عام ١٤٠٧هـ حتى وفاتِه رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧- رَأَسَ جمعيةَ تحفيظ القرآن الكريم بعنيزةَ، مُنْذُ تأسيسها عامَ ١٤٠٥ هـ حتى وفاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٨- أشرفَ على مكتبِ الدعوة وتوعية الجالياتِ في عنيزة.

٩- تولَّى الخطابةَ في الجامع الكبير في عنيزةَ مُنْذُ وفاةِ شيخهِ عبد الرحمن السعدي عام ١٣٧٦هـ حتى ٣٠/ ٧/ ١٤٢١هـ حيثُ كانت آخر خُطْبَةٍ له في الجامع الكبير.

١٠- المشاركة في العديد مِن البرامج الإذاعية كبرنامج: نور على الدرب، وبرنامج: سؤالٌ على الهاتف، وله برامجُ خاصةٌ بِهِ كبرنامج:

---

(١) المرجع السابق (ص١٤٢).

أحكامٌ مِن القرآن الكريم.

١١- إلقاءُ المحاضراتِ العلميةِ المتخصِّصةِ داخلَ المملكةِ، وخارجها عن طريقِ الهاتفِ.

١٢- المشاركةُ في المؤتمراتِ الإسلامية.

١٣- التأليفُ، وكانت بدايتهُ عام ١٣٨٢هـ حيثُ أَلَّفَ كتابهُ: فتح ربِّ البريةِ بتلخيصِ الحمويةِ.

هذهِ أبرزُ الأعمالِ التي قامَ بها الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

رابعًا: مَكَانَتُهُ العلميَّةُ:

للشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ مكانةٌ خاصّةٌ ليسَ في مُجتَمعهِ ومُحيطِهِ فحسبْ بل في عامةِ المجتمعاتِ المسلمةِ في مُختَلفِ دُوَلِ العالمِ، فكانَ مع شيخهِ الشيخُ عبدالعزيز بن باز لهما الصِّيتُ العالي في أوساط المسلمينَ، وبرزت هذه المكانةُ مِن خلال ما يلي:

١- كثرةُ مُؤلَّفاتِهِ وسعةُ انتشارها وحرْص الناس على اقتنائها فلقد طُبعَ للشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ كُتُبٌ كثيرةٌ مِنها الكبير والصغير بآلافِ النُّسَخِ ونفدتْ مِن الأسواقِ وكُرِّرتْ طباعتها مراتٍ كثيرة بل تتسابقُ دُور الطبعِ لطباعةِ كُتُبِهِ نظرًا لِسُوقِهَا الرائجِ، كما تُرجِم العديدُ مِنها إلى عدةِ لُغاتٍ[٢].

---

(١) للاستزادة انظر: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص١٣٩) وما بعدها. السيرة الذاتية للشيخ المنشورة على الشبكة (الإنترنت) في موقعهِ، ١٤ عامًا مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين (ص١١) وما بعدها، مجلة البيان ع ١٦٠ (ص٦١) وما بعدها.

(٢) انظر: موقعه على الإنترنت ـ فقيهِ أسماءُ الكتب المترجمةِ.

٢- كثرةُ المواد العلميةِ المسجّلةِ، فلقد تجاوزَ ما سُجِّلَ للشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ في دروسهِ قُرابةَ ستة آلاف ساعة صوتيةٍ، وسارعَ الناسُ باقتنائها.

٣- تقلّدهِ بعضَ المناصبِ المهمَّةِ؛ كعضويةِ هيئةِ كبار العلماءِ، ورئاستهِ لقسم العقيدة بكلية الشريعة وأصول الدين بفرعِ جامعةِ الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وكانَ مِن مَراجعِ الفتيا في هذه البلادِ.

٤- مشاركتهُ في البرامجِ الإذاعية المشهورةِ.

٥- اهتمامُ الناس بذكرِ آرائهِ واختياراتهِ، وتناقلها بينَ طلبةِ العلمِ؛ بل وعوامِّ الناسِ؛ حيثُ جَمَعَ الأخ/ محمد بن عبد الله الذياب بعضًا منها فبلغتْ (٩٥٠) اختيارًا للشيخِ، وضَمَّنَهَا كتابًا سَمَّاهُ: توجيهُ الراغبينَ إلى اختيارات الشيخ ابن عثيمين، يقعُ في (٤٠١) صفحة.

٦- حصلَ على جائزةِ الملك فيصل العالمية عام ١٤١٤هـ لفرع خدمةِ الإسلام، وذكَرَتْ لجنةُ الاختيارِ في حيثياتِ فوزِ الشيخِ بالجائزةِ ما يلي:

- تحلّيهِ بأخلاقِ العلماءِ الفاضلةِ التي مِن أبرزها: الورع، والزهد، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحةِ المسلمينَ، والنصح لخاصَّتِهم وعامتِهم.

- انتفاعُ الكثيرينِ بعلمهِ تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

- إلقاءه المحاضراتِ العامَّة النافعةِ في مُختلفِ مناطقِ المملكةِ.

- مشاركتهُ المفيدةُ في مؤتمراتٍ إسلاميةٍ كثيرة.

- اتِّباعُه أسلوبًا مُتميِّزًا في الدعوةِ إلى الله بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ

وتقديمهِ مثلًا حيًّا لمنهجِ السلفِ الصالحِ فِكْرًا وأسلوبًا[(١)].

٧- حرصُ الجالياتِ الإسلاميةِ في الغَرْبِ على الاستفادةِ مِنهُ، ونظرًا لعدمِ سَفَرِ الشيخَ رَحِمَهُ اللَّهُ خارجَ المملكةِ، فقد كانت اللقاءاتُ تُعْقَدُ معه عن طريق الهاتف.

٨- تأثر الناسِ بعد وفاتِهِ، فلقد تحدَّثتْ عن هذا الحدَثِ وسائلُ الإعلامِ المرئيةِ والمسموعةِ والمقروءةِ، وكَتَبَ في مناقبِهِ ومآثرِهِ الكثيرُ مِن أهل العلمِ والفضلِ، ورثاهُ الشعراء[(٢)].

خامسًا: مُصَنَّفاتُه:

لقد تفرغ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ للعلمِ والتعليمِ وطرحَ الله له القبولَ فانتشرتْ كُتُبُهُ ومُؤَلَّفاتُهُ وقبلَ أنْ أسردها لكَ أُحِبُّ أنْ أُنبِّهَ على أمور:

١- أولُ كتابٍ طُبعَ للشيخ هو كتابُ: فتح ربِّ البريّةِ بتلخيصِ الحمويةِ، وذلكَ عام ١٣٨٠هـ[(٣)].

٢- تَنقسمُ مُؤلَّفاتُ الشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى قِسمين:

القسم الأول: المؤلَّفاتُ التي ألَّفَهَا ابتداءً؛ أيْ كَتَبَها بيدِهِ، ككتابِ: فتح ربِّ البريَّةِ بتلخيصِ الحمويةِ، والأصولِ مِن علم الأصول، وأصولٌ في التفسير، وغيرها.

القسم الثاني: المؤلَّفاتُ التي أَصْلها دُروسٌ ألقاها في مَسجدِهِ على

---

(١) انظر: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين» (ص١٧١).

(٢) لمعرفة ما كُتِبَ عن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد وفاتِهِ انظر كتاب: «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين»، وكتاب: «ابن عثيمين الإمامُ الزاهد».

(٣) انظر: مقدمة الشيخ للكتابِ في: «مجموع الفتاوىٰ والرسائل» (٤/ ١٢).

طُلابِهِ فقاموا بتفريغها وتحريرها وراجعَ الشيخُ بَعْضَهَا قبلَ وفاتِهِ وبَعْضُهَا طُبِعَ قبلَ مُراجعةِ الشيخِ له؛ ولذا وقعتْ فيها بعضُ الأخطاءِ ينبغي التَّنبُّه لها، هذا القسمُ هو أغلبُ كُتُبِ الشيخِ المنتشرةِ اليوم.

وقد تَولَّتْ مؤسسةُ الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية القيامَ بالمراجعةِ والتدقيقِ بعد وفاتِهِ، وكَوَّنتْ لجَانًا مِن خواصِّ تلاميذِ الشيخِ للقيامِ بهذه المهمةِ نسألَ الله لهم الإعانةَ في إخراجِ هذا التراثِ الضخم.

والفرقُ بينَ القِسْمين بَيِّنٌ لِمَنْ اطَّلَعَ عليهما.

٣- هُناكَ أكثر مِن مجموعٍ عَمِدَ جامعهُ إلى جمعِ فتاوى، أو رسائل للشيخِ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ منها كتاب: الصيد الثمين في رسائلِ ابن عثيمين، وأشْمَلُ هذهِ المجاميعِ: مجموع فتاوى ورسائل الشيخِ محمد بن صالح العثيمين، جَمَعَهُ الشيخ فهد بن ناصر السليمان، وبلغ هذا المجموع حتى الآن عشرين مُجلَّدًا؛ العشرةُ الأولَى مِنها في العقيدةِ، والعشرة الثانية في الفقه، وَصَلَ إلى نهاية كتاب الصيام، والعَمَلُ على إتْمَامِهِ، والهدفُ مِنهُ جمعُ كُلِّ فتاوى ورسائلِ الشيخِ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شَتَّى الفنونِ مِمَّا هو في مُجَلَّدَيْنِ فأقل كما تم الاتفاقُ على ذلك مع الشيخِ أيام حياتِهِ.

٤- تعددت طبعاتُ كُتُبِ الشيخِ رَحِمَهُ اللهُ فهناكَ مِن الكتبِ ما طُبِعَ عشراتِ المرَّاتِ؛ ولذا أنصحُ القارئَ باختيار الطبعاتِ المراجَعَةِ والنهائيةِ فهي أَسْلَمُ.

٥- هناكَ كُتُبٌ طُبعت بدونِ إذن الشيخِ رَحِمَهُ اللهُ؛ فُرِّغَتْ مِن الأشرطةِ، وهذا وإنْ كانَ فيه نَشر للعلم لكنك أحيانًا تجد فيها أخطاء كثيرة، وذلك لأن طَابعِيهَا التزموا ذِكْرَ كُلِّ ما ذكرهُ الشيخُ، أو لَمْ يتحرَّوا الدِّقَةَ، ومَعلومٌ

أن المعلومةَ في الدرسِ العلميِّ تختلفُ عنها في الكتابِ مِن جهةِ الأسلوبِ والطريقةِ.

٦- سأقومُ بسَرْدِ مُؤلفاتِهِ رَحِمَهُ اللهُ، وآثارِهِ المسموعةِ والتي هي نواةٌ لهذه المؤلفاتِ، أو في الطريقِ لأنْ تكونَ كذلك.

المؤلَّفاتُ المطبوعةُ:

١- الإبداع في كمال الشرعِ وخطر الابتداع.

٢- أثر المعاصي على الفرد والمجتمع.

٣- أحكام الأضحية والذكاة.

٤- (٧٠) سؤالًا عن أحكام الجنائز.

٥- (٦٠) سؤالًا عن أحكام الحيض.

٦- أحكام الصيام وفتاوى الاعتكاف.

٧- أحكام قصر الصلاة للمسافر.

٨- الاختيارات والترجيحات -جمعها ورتّبها عبد الله بن يوسف الحافي-.

٩- اثنان وخمسون سؤالًا عن أحكام الحيض في الصلاة والصيام والحج والاعتكاف.

١٠- إرشاد العباد إلى معرفة الله وتوحيده.

١١- إزالة الستار عن الجواب المختار لهداية المحتار.

١٢- أسئلة مِن بعض بائعي السيارات.

١٣- أسئلة مهمة.

١٤- أسئلة وأجوبة عن ألفاظ ومفاهيم في ميزان الشريعة.

١٥- أسئلة وأجوبة في صلاة العيدين.

١٦- أسماء الله وصفاته.

١٧- الأصول مِن علم الأصول.

١٨- إعلام المسافرين ببعض آداب وأحكام السفر.

١٩- أقسام المداينة.

٢٠- بعض الأذكار والأدعية اليومية -مطوية-.

٢١- التحذير من فتنة التكفير.

٢٢- تسهيل الفرائض.

٢٣- تقريب التدمرية.

٢٤- التمسّك بالسنَّة النبويَّة وآثاره.

٢٥- تنبيه الأفهام بشرح عمدة الأحكام.

٢٦- التوبة.

٢٧- توجيهات للمؤمنات حول التبرج والسفور.

٢٨- توجيه الراغبين إلى اختيارات ابن عثيمين -جمع وإعداد محمد الذياب-.

٢٩- التوحيد ومعنى الشهادتين وحكم المتابعة.

٣٠- التعليق على القواعد والأصول للسعدي.

٣١- ثمانية وأربعون سؤالًا في الصيام.

٣٢- حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة.

٣٣- حقوق الراعي والرعية.

٣٤- حكم تارك الصلاة.

٣٥- الحكمة من إرسال الرسل.

٣٦- الخلاف بين العلماء، أسبابه وموقفنا منه.

٣٧- دور المرأة في إصلاح المجتمع.

٣٨- الرِّبَا، صُوَرُهُ، أقسام الناس فيه.

٣٩- رسالة إلى الدعاة.

٤٠- رسالة في أحكام الميت وغسله.

٤١- رسالة في أن الطلاق الثلاث واحدة ولو بكلمات.

٤٢- رسالة في الحجاب.

٤٣- رسالة في الدماء الطبيعية للنساء.

٤٤- رسالة في زكاة الحلي.

٤٥- رسالة في سجود السهو.

٤٦- رسالة في صفة الصلاة.

٤٧- رسالة في الصلاة والطهارة لأهل الأعذار.

٤٨- رسالة في قصر الصلاة للمبتعثين.

٤٩- رسالة في كفر تارك الصلاة.

٥٠- رسالة في المسح على الخفّين.

٥١- رسالة في مواقيت الصلاة.

٥٢- رسالة في الوضوء والغسْل والصلاة.

٥٣- رسالة في الوصول إلى القمر.

٥٤- رسائل وفتاوى في المسح على الخفين والتيمم.

٥٥- رسائل فقهيّة.

٥٦- زاد الداعية إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

٥٧- الزواج.

٥٨- سؤال وجواب.

٥٩- شرح أصول الإيمان -نبذة في العقيدة-.

٦٠- شرح ثلاثة الأصول.

٦١- شرح حديث جبريل عليه السلام.

٦٢- شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين (٧ مجلدات) وهناك طبعة في (٤ مجلدات).

٦٣- شرح العقيدة الواسطية (مجلدان).

٦٤- شرح الأصول الستة.

٦٥- شرح كشف الشبهات.

٦٦- شرح لمعة الاعتقاد.

٦٧- شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٦٨- شرح نظم الورقات.

٦٩- شرح الآجرومية.

٧٠- شرح الأربعين النووية.

٧١- شرح المنظومة البيقونية.

٧٢- الشرح الممتع على زاد المستقنع (٨ مجلدات من الطهارة إلى الرِّبَا والصرْف وهو أكبر مُؤَلَّفٍ للشيخِ، قد يصل بعد الانتهاء منه إلى ستة عشر مجلدًا).

٧٣- الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات.

٧٤- صفة الحج والعمرة.

٧٥- الضياء اللامع من الخطب الجوامع.

٧٦- الطاعة والمعصية وأثرها في المجتمع.

٧٧- عقيدة أهل السنة والجماعة.

٧٨- الفتاوى الاجتماعية.

٧٩- فتاوى أركان الإسلام –وهو آخر كتاب طُبِعَ للشيخِ في حياتِهِ (مجلد ٦١٦ صفحة) وتُوفي بعده بثلاثةِ أسابيعَ تقريبًا، ولم يَصْدُرْ له كتابٌ في حياتِهِ بعد هذا الكتاب.

٨٠- فتاوى التعزية.

٨١- فتاوى الحجّ والعمرة والزيارة.

٨٢- الفتاوى الذهبية في الرُّقَى الشرعية.

٨٣- فتاوى الصيد.

٨٤- فتاوى منار الإسلام (٣ مجلدات).

٨٥- الفتاوى المكيَّة.

٨٦- الفتاوى النسائية.

٨٧- فتاوى وتوجيهات في الإجازة والرحلات.

٨٨- فتاوى ورسائل في الأفراح.

٨٩- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام- كتاب الطهارة-.

٩٠- فتح ربِّ البريَّةِ بتلخيصِ الحمويةِ (وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية -الحموية-).

٩١- فصول في حكم الصيام والتراويح والزكاة.

٩٢- القضاء والقدر.

٩٣- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائهِ الحسنى.

٩٤- القول المفيد على كتاب التوحيد (٣ مجلدات).

٩٥- كتاب العلم.

٩٦- لقاء الباب المفتوح.

٩٧- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد.

٩٨- مجالس شهر رمضان.

٩٩- مجموعة أسئلة في بيع وشراء الذهب.

١٠٠- مجموعة دروس وفتاوى الحرم المكيِّ مِن عام (١٤٠٨ إلى ١٤١١هـ).

١٠١- مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين (جمعها وأعدَّها الشيخ فهد بن ناصر السليمان، صدر مِنها حتى الآن عشرون مجلدًا).

١٠٢- المجموع الثمين من فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين (جمع وترتيب الشيخ فهد بن ناصر السليمان ثم أُضيفت له

الرسائل فَطُبِعَ بالعنوان ١٠١).

١٠٣- محاذير الكوافيرات –مطوية-.

١٠٤- مختارات من إعلام الموقعين.

١٠٥- مختارات من اقتضاء الصراط المستقيم.

١٠٦- مختارات من زاد المعاد.

١٠٧- مختارات من الطرق الحكمية.

١٠٨- مختارات من فتاوى الصلاة.

١٠٩- مشكلات الشباب في ضوء الكتاب والسنة.

١١٠- مصطلح الحديث.

١١١- مكارم الأخلاق.

١١٢- مِن أحكام الأضحية.

١١٣- مناسك الحج والعمرة والمشروع في الزيارة.

١١٤- المنتقى من بدائع الفوائد.

١١٥- مَنظومة في الأصول والقواعد الفقهية –وعدد أبياتها بيتانِ ومئة نَظَمَها الشيخُ وشَرَحَها بنفسهِ-.

١١٦- مِن منكرات الأفراح.

١١٧- المنهج لمريد العمرة والحجّ.

١١٨- نبذة في الصيام.

١١٩- تخريج أحاديث الروض المرْبع –لم يُطبع-.

١٢٠- نيل الأرب مِن قواعد ابن رجب- لم يُطبع-.

آثاره في التفسير:

١٢١- تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة.

١٢٢- تفسير سورة آل عمران.

١٢٣- تفسير سورة النساء.

١٢٤- تفسير سورة المائدة.

١٢٥- تفسير سورة الأنعام حتى الآية ٥٢.

١٢٦- أصول في التفسير.

١٢٧- الإلمام ببعض آيات الأحكام وهو مقرّر على المعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود في مرحلتيْها المتوسطة والثانوية.

١٢٨- تفسير الحجرات حتى سورة الحديد.

١٢٩- تفسير جزء عم.

١٣٠- تفسير سورة الكهف.

١٣١- تفسير آية الكرسي.

١٣٢- تفسير آية الطهارة من سورة المائدة وهي رسالة صغيرة.

١٣٣- تفسير آيات الوصايا العشر من سورة الأنعام.

١٣٤- تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٢].

١٣٥- تفسير سورة يس.

١٣٦- التعليق على كتاب: «القواعد الحسان لتفسير القرآن للشيخ السعدي».

مُؤلفاتٌ تحتَ الطباعة:

والتي هي بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، والمدفوعة إلى دُورِ النَّشْرِ بتاريخ ١/ ٤/ ١٤٢٤هـ كما هو مَنشورٌ على الشبكة العالمية (الإنترنت) في مَوقع الشيخ:

١- فتح ربِّ البريةِ بتلخيصِ الحمويةِ، وتنشره دار ابن الجوزي.

٢- الشرح الممتع -المجلدان السادس والسابع-، وتنشره دار ابن الجوزي.

٣- شرح نظم الورقات لشرف الدين العمريطي، وتنشره دار ابن الجوزي.

٤- الضياء اللامع من الخطب الجوامع، وتنشره دار الثريا.

٥- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، المجلد الحادي والعشرون، وتنشره دار الثريا.

٦- تفسير القرآن الكريم -سورة الصافات-، وتنشره دار الثريا.

٧- أحكام الأضحية والذكاة، وتنشره دار الوطن.

٨- الصحوة الإسلامية، تنشره دار الوطن.

٩- شرح رياض الصالحين، الجزء (من الأول إلى الرابع)، وتنشره دار الوطن.

١٠- فتاوى منار الإسلام، وتنشره دار الوطن.

١١- أحكام من القرآن الكريم، وتنشره دار الوطن.

١٢- فقه العبادات، وتنشره دار الوطن.

١٣- شرح بلوغ المرام، الجزء الأول، وتنشره دار الوطن.

١٤- شرح السياسة الشرعية، وتنشره دار الوطن.

١٥- شرح المنظومة البرهانية في علم الفرائض، وتنشره دار الوطن.

١٦- التمسّك بالسنَّة النبويَّة -محاضرة-، وتنشره دار الوطن.

١٧- فتاوى مهمَّة عن صلاة الفجر -مطوية-، وتنشره دار الوطن.

١٨- مجموعة أسئلة عن النكاح، وتنشره دار الوطن.

١٩- رسالة إلى الدعاة، وتنشره دار الوطن.

٢٠- شرح منظومة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في أصول الفقه، وتنشره دار ابن الجوزي.

٢١- رسالة في مواقيت الصلاة، وتنشره دار الوطن.

٢٢- تفسير سورة الأحزاب، وتنشره دار الثريا.

وبعضُ هذه الرسائلِ والكُتُبِ سبقَ وأنْ طُبِعَتْ، والمرادُ هُنَا إعادةُ طَبْعِهَا بإشرافِ المؤسسةِ.

□ أما المؤلفات المسموعة فيمكن الرجوع إلى فهرس أشرطة الشيخ المطبوع لتسجيلات الاستقامة الإسلامية، ومن كتاب «الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين».

جوانب من أمور تميز بها الشيخ الزاهد ابن عثيمين [١] :

١- روعة التأصيل:

كان الشيخ مدرسة مميزة في قوة التحصيل، وروعة التأصيل، والاهتمام بالقواعد والتأكيد على الضوابط، فلم يكن يسوق الكلام على عواهنه، ويرسل العلم على علاته، بل لا تكاد تمر الجملة من حديثه إلَّا موثقة مؤصلة، مدللة مبرهنة، يؤصل المسائل، ويورد الدلائل، ويسند الأقوال لأصحابها ويشيد بالأفضال لأربابها، ويأتي بيوت المعرفة من أبوابها.

□ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أهم الآداب التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم التثبت، فالتثبت فيما ينقل من الأخبار، والتثبت فيما يصدر منك من الأحكام، فالأخبار إذا نقلت فلا بد أن تتثبت أولًا، هل صحت عمن نقلت إليه أو لا، ثم إذا صحت فلا تحكم، تثبت في الحكم ربما يكون الخبر الذي سمعته مبنيًا على أصل تجهله أنت، فتحكم أنه خطأ، والواقع أنه ليس بخطأ.

وهناك فرق بين الثبات والتثبت، فهما شيئان متشابهان لفظًا مختلفان معنى، فالثبات معناه الصبر والمثابرة، وألا يمل ولا يضجر، وألا يأخذ من كل كتاب نتفة، أو من كل فن قطعة ثم يترك؛ لأن هذا الذي يضر الطالب ويقطع عليه الأيام بلا فائدة، فمثلًا بعض الطلاب يقرأ في النحو: في الآجرومية، ومرة في متن قطر الندى، ومرة في الألفية، وكذلك الحال في المصطلح، مرة في النخبة، ومرة في ألفية العراقي، وكذلك في الفقه: مرة في زاد المستقنع، ومرة في عمدة الفقه، ومرة في المغني، ومرة في شرح المهذب،

(١) هذه مأخوذة من كتاب «ابن عثيمين الإمام الزاهد» من (ص٦١) وما بعدها.

وهكذا في كل كتاب.. وهلم جرًّا.

هذا في الغالب لا يحصل علمًا، ولو حصَّل علمًا فإنه يحصل مسائل لا أصول، وتحصيل المسائل كالذي يلتقط الجراد واحدة بعد الأخرى، لكن التأصيل والرسوخ والثبات، هذا هو المهم، اثْبُتْ بالنسبة للكتب التي تُقرأ أو تراجع، واثْبُتْ بالنسبة للشيوخ أيضًا الذين تتلقى عنهم، لا تكن ذواقًا كل أسبوع عند شيخ، كل شهر عند شيخ، قرر أولًا من ستتلقى العلم عنده، ثم إذا قررت ذلك فاثبت، ولا تجعل كل شهر أو كل أسبوع لك شيخًا، ولا فرق بين أن تجعل لك شيخًا في الفقه، وتستمر معه في الفقه، وشيخًا آخر في النحو تستمر معه في النحو، وشيخًا آخر في العقيدة والتوحيد وتستمر معه، المهم أن تستمر لا أن تتذوق، وتكون كالرجل المطلاق كلما تزوج امرأة وجلس عندها سبعة أيام طلقها وذهب يطلب أخرى.

أيضًا التثبت أمر مهم، لأن الناقلين تارة تكون لهم إيرادات سيئة، ينقلون ما يشوه سمعة المنقول عنه قصدًا وعمدًا، وتارة لا يكون عندهم إيرادات سيئة، ولكنهم يفهمون الشيء على خلاف معناه الذي أريد به، ولهذا يجب التثبت، فإذا ثبت بالسند ما نُقل أتى دور المناقشة مع صاحبه الذي نقل عنه قبل أن تحكم على القول بأنه خطأ أو غير خطأ، وذلك لأنه ربما يظهر لك بالمناقشة أن الصواب مع هذا الذي نُقل عنه الكلام»[1].

□ ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «من المعلوم أن الإنسان إذا أراد مكانًا فلا بد أن يعرف الطريق الموصل إليه، وإذا تعددت الطرق فإنه يبحث عن أقربها

---

(١) «كتاب العلم» (ص٥٠- ٥٢).

وأيسرها؛ لذلك كان من المهم لطالب العلم أن يبني طلبه للعلم على أصول ولا يتخبط خبط عشواء، فمن لم يتقن الأصول حرم الوصول.

□ قال الناظم:

وبعدُ فالعلمُ بحورٌ زاخرةْ ... لن يبلغ الكادحُ فيه آخِرهْ

لكنَّ في أصوله تسهيلَا ... لنيلِه فاحرصْ تجدْ سبيلَا

اغتنِمِ القواعدَ الأصولَا ... فمَن تَفُتْهُ يُحرَمِ الوصولَا

فالأصول هي العلم، والمسائل فروع، كأصل الشجرة وأغصانها إذا لم تكن الأغصان على أصل جيد فإنها تذبل وتتهالك، لكن ما هي الأصول؟ هل هي الأدلة الصحيحة؟ أو هي القواعد والضوابط؟ أو كلاهما؟

الأصول هي أدلة من الكتاب والسنة، والقواعد والضوابط المأخوذة بالتتبع والاستقراء من الكتاب والسنة، وهذه من أهم ما يكون لطالب العلم مثلًا: المشقة تجلب التيسير، هذا من الأصول، مأخوذة من الكتاب والسنة.

* من الكتاب من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

• ومن السنة: قوله ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جَنْبٍ**».

• وقوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم**».

هذا أصل، لو جاءتك ألف مسألة بصور متنوعة لأمكنك أن تحكم على هذه المسائل بناءً على هذا الأصل، لكن لو لم يكن عندك هذا الأصل

وتأتيك مسألتان أشكل عليك الأمر»[(١)].

□ يقول الشيخ أحمد الحمدان في مقاله المرفق: «كان من حرصه على تعليم الناس الخير أنه في دروسه يُقعِّد ويؤصِّل، ويشرح ويعيد شرحه، ويسأل من حوله وأمامه، ويحرص على فهم الناس لكلامه، وإدراكهم للمسائل العلمية التي يوردها، فنشر الله تعالى ذكره في كل مكان، وأقبل الناس على دروسه على اختلاف مشاربهم، وأصبح طلاب العلم يتعلمون من طريقته في التدريس كيف يدرسون.

ومن ذلك أن مجموعةً من الشباب ذهبوا إلى مصر في مهمة رسمية، واختلفوا فيما بينهم في بعض المسائل، فدلهم مرافقهم على فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك رَحِمَهُ اللَّهُ فلما عرف الشيخ أنهم من السعودية قال لهم: تسألوني وعندكم الشيخ محمد العثيمين؟ قالوا: يا شيخ وتعرفه؟ قال: أنا أستمتع بسماع تأصيله العلمي في دروسه».

٢- المنهج العلمي المحكم:

□ يقول الشيخ سليمان الضحيان عن الشيخ ابن عثيمين: «تميزت المنهجية المنضبطة في كل إنتاجه العلمي «كتبًا ومحاضرات ودروسًا» فمن حيث التعامل مع النصوص يصنع قاعدة عامة يقول فيها: «اتباع الظاهر في الأحكام كاتباع الظاهر في العقائد إلَّا ما دل الدليل على خلافه، لكن اتباع الظاهر في العقائد أوكد؛ لأنها أمور غيبية لا مجال للعقل فيها بخلاف الأحكام فإن العقل يدخل فيها أحيانًا، لكن الأصل أننا مكلفون بالظاهر».

□ وينهي عن الحديث والبحث فيما يورث تشويشًا في العقل من

(١) «كتاب العلم» (ص٦٧- ٦٨).

الأمور التي لم يتعرض لها الصحابة كمسألة القدر، حيث يقول عنها: «الجدير بالمرء ألا يبحث في نفسه ولا مع غيره في مثل هذه الأمور التي توجب التشويش وتوهم معارضة الشرع بالقدر، فإن ذلك ليس من دأب الصحابة رضي الله عنهم، وهم أحرص الناس على معرفة الحقائق وأقربهم من معين إرواء الغُلَّة وكشف الغمة».

□ ويعلن توقفه عن القطع فيما لم يصل فيه إلى رأي قاطع فقد سمعته في درس شرح زاد المستقنع يقول: «قضية الأوامر والنواهي لم أصل إلى ضوابط محددة في هذه المسألة، لأننا لو قلنا بوجوب كل أمر لكلفنا الناس، وإلى ساعتي هذه ما وجدت ضابطًا تنضبط به جميع الأوامر وجميع النواهي لأنه يخرج من الوجوب كثير من الأوامر بالاتفاق، وأما ما خالف الإجماع فالأمر فيه واضح».

وهذه المنهجية لديه كان لها أثر في طريقة عرضه للمسائل في شرحه وفي فتاويه، فهو يحض على السبر والتقسيم والتفصيل والتوضيح، فقد سئل عن أخذ الشعر فأجاب: «الشعور ينقسم أخذها إلى ثلاثة أقسام: الأول شعور أمر الشارع بإزالتها، والثاني شعور نهى الشارع عن إزالتها، والثالث شعور سكت الشارع عن إزالتها»، ثم فصل المسألة.

□ ويقسم حكم مشاهدة التلفيزيون إلى ثلاثة أقسام، ويقسم الحركة في الصلاة إلى خمسة أقسام، والنجاسة إلى ثلاثة أقسام، فهذا التقسيم والتفصيل يكاد لا يخلو منه فتوى أو مسألة من مسائل العلم في شروحه، وتشمل المنهجية لديه ترتيب الدروس، فلكل طالب

ملازم لديه مرتبة، فالدروس تبدأ بصغار الكتب كالأصول الثلاثة والآجرومية والأصول في علم الأصول، وتنتهي بكبارها كقواعد ابن رجب، والكافي، وشرح ألفية ابن مالك».

□ إن الشيخ بعقليته الفقهية الفذة ومنهجيته المنضبطة، ووسطيته المعتدلة يشكل مدرسة ومنهجًا متميزًا، خسرته الأمة فجبر الله مصيبتنا به، وإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيرًا منه».

□ ويقول معالي الدكتور عبد الله التركي: «لقد انتهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهاج علماء السلف في أعماله العلمية ونهجه الدعوي وطريق التربية والتعليم الأخلاقي، ومن عرفه عن كثب عرف في منهاجه ما كان عليه سلف الأمة، ولعل أبرز الملامح في منهاجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- حرصه الشديد على التقيد بما كان عليه السلف الصالح في الاعتقاد علمًا وعملًا ودعوة وسلوكًا، وذلك مقترن بالتنفير والتحذير مما يخالف ذلك.
- الحرص على صحة الدليل وصواب التعليل ووضوحه ومناسبته.
- الربط بين العمل الدعوي والتقعيد الفقهي ضمانًا لسلامة أعمال الدعوة وما يضعه الدعاة بين أيدي الناس من كتب ومذكرات وغيرها.
- العناية بمقاصد الشريعة الإسلامية وقواعد الدين؛ لأن ذلك مناط الحكم الإسلامي الذي أمر به الله سبحانه وتعالى.

- الاعتدال والتوسط في المنهاج والسلوك والفهم، والتقيد في ذلك بما كان عليه السلف الصالح.
- الاهتمام بالتطبيق والعناية بالأمثلة والتخريج.
- التيسير الذي يبعد الداعية عن التعقيد أو التنفير.
- البعد عن التعصب والتقليد الأعمى والحرص على التوفيق بين النص والمصلحة.

□ وهذا الشيخ عبد الرحمن السديس يوجز منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في مقاله المرفق، فيقول: «ولعل أبرز ملامح منهج الشيخ في ذلك ما يلي:

١- تركيزه على عقيدة السلف علمًا وعملًا ودعوة والتحذير مما يخالفها.

٢- عنايته بصحة الدليل، وسلامة التعليل.

٣- بناؤه منهجه على التأصيل العلمي والتقعيد الفقهي.

٤- عنايته بمقاصد الشريعة وقواعد الدين، واهتمامه بحِكَم الشريعة وأسرارها.

٥- اهتمامه بالتطبيق والعناية بالأمثلة والتخريج.

٦- توسطه واعتداله في الرؤى والمنهج.

٧- تميزه بالدقة والعمق والشخصية المستقلة.

٨- ميله إلى التيسير ورفع الحرج وسلوك مسلك الوضوح.

٩- بعده عن التعصب والتقليد وحرصه على المتابعة والتسديد.

١٠- تأثره بالمحققين من العلماء السابقين كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومن المعاصرين سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

١١- إنصافه مخالفيه، وفقهه لأدب الخلاف.

١٢- الشمول في المنهج ومراعاة الأولويات.

وغير ذلك مما يحتاج إلى نماذج كثيرة، وشرح مستفيض».

□ ويقول الشيخ سليمان الربعي موجزًا أهم سمات منهج الشيخ العلمي:

١- القراءة التقريبية لأمهات نصوص المعتقد: «الفتوى الحموية» و«الواسطية» و«لمعة الاعتقاد».. وغيرها، هادفًا من وراء ذلك إلى ربط الأمة بالنص بتيسيره وتقريب دلالته ومعانيه، وتأكيد التمايز العقدي عن الفرق البدعية التي جاءت تلك النصوص بنقد أصولها، كالجهمية والقدرية، والخوارج، والرافضة، إضافة إلى إشاعة فريضة النقد لما يحتاج من تلك النصوص إلى نقد، كما في شرحه للمعة الاعتقاد.

٢- التأصيل الموضوعي لقواعد مطردة في أخص المسائل الاعتقادية التي يقع فيها الخلاف في ضوء منهج أهل السنة، كمسألة الأسماء والصفات، وهو ما تجليه شروحه للنصوص السالفة، وأجوبته ورسائله العقدية التي جمعت في عشر مجلدات، ومن أبرز آثاره في ذلك كتابه: «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى».

٣- طرح منهج المراجعة النقدية لجملة من المفاهيم، والألفاظ، والمسائل التي استقر عند كثير عدم مخالفتها لصحيح الاعتقاد كما في العقيدة من مجموع الفتاوى، وفي أسئلة سلسلة الباب المفتوح، وسواهما من الآثار.

□ وفي الفقه كان رَحِمَهُ اللَّهُ مدرسة مستقلة بخصائصها التأصيلية، ومناهجها الاستنباطية والاستدلالية، أُلْـمِحُ إلى ثلاث من أهم معالمها:

١- نبذ التعصب، والتجرد للدليل، ولعل هذه العقلية الفقهية المستنيرة من أثر البيئة العلمية التي شكلت علم الشيخ بدءًا بأستاذه الأول ابن سعدي، ثم بالشيخين العَلَمين عبد العزيز بن باز، ومحمد الأمين الشنقيطي، ولا سيما الشيخ ابن باز الذي صرَّح الشيخُ بتأثره به في اهتمامه بالحديث، أي بالدليل، ومعرفة الحق به، وهذه لا جَرَم فضيلةٌ علمية لا سيما إذا استحضرنا ظروفها، حيث التعصب للمذهب، وطغيان التقليد، وغياب شروط الاجتهاد.

٢- ثبات المنهج واطراده، ومن أسباب هذه الميزة: التعويل على الدليل، والتجرد الموضوعي في البحث، وتمثل المقاصد المعتبرة للشريعة، واستحضار القواعد الأصولية العامة، ورسوخ الوسائل الإجرائية في الاستنباط، والبعد عن الهوى، وتطلب الحق وتحريه.

٣- التحرير الدقيق للمسائل، وقد ساعدت العقلية الفقهية المجربة للشيخ تأكيد هذه السمة وترسيخها في شروحه، ومؤلفاته، وفتاويه، بذرائعَ أصوليه معتبرة، فأثمرت صوابية غالبة في الفتوى، وتحديدًا متناهيًا للعلل، وانضباطًا مطردًا في الأقيسة، واستقامة مسددة في التفريع، ولقد برزت هذه الخصائص وسواها في الشرح الممتع على زاد المستقنع لصفته المنهجية، وفي مجموعه الثمين من الفتاوى، وفيما يرد إليه من إشكالات فقهية.

وقد كان من نتاج هذه العقلية -فضلًا عن التنبيه إلى عدد من المهمات المهملة في أبواب العبادات والمعاملات التي غابت عن حس كثير من الفقهاء- صفة القطع لفتوى الشيخ عند الاختلاف لدى أهل العلم،

والوثوقية والطمأنينة فيها عند العامة، وإعادة تشكيل مفهوم «التيسير» الفقهي بضبطه بالدليل، ومقاصد الشريعة العامة، ومقررات الأصول المعتبرة.

ومن وراء هذه الصفات والخصائص، ثمة سمات كبيرة تأسيسية اتصف بها الشيخ كما كان أسلافه الأعلام، منها العدل مع المخالف، والأدب في المناظرة، والتأسيس على قيمة الوسطية التي تمثلها مع بدايات تَشَكُّل فقهه في البيئة العلمية الأولى، فضبط بها مساره، وأترعها مسارات الوعي للأمة في صور تؤكد تكامل عقليته وعلميته في سداد مبارك» اهـ.

□ وإضافة إلى ما سبق من الحديث عن دقة الشيخ، وتأصيله للمسائل، ومنهاجه العلمي الغزير نضيف هنا كلامًا لأحد تلاميذه وهو الشيخ وليد ابن أحمد الحسين، حيث يقول:

«لقد أوضح الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقة التي انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد تأثرت كثيرًا بشيخي عبد الرحمن السعدي في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

ومنهج الشيخ السعدي هو أنه كثيرًا ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويرجحها على المذهب الحنبلي، فلم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين، بل كان متجردًا للحق، وقد انطبعت هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

ولم يكن تبني الشيخ لآراء شيخ الإسلام نابعًا عن هوى أو تقليد

أعمى، بل كان متجردًا للحق أيضًا، فحيثما وجد الحق فهو ضالته ومطلبه بل إنه خالف شيخ الإسلام في عشرات المسائل أكثر من مخالفة شيخه السعدي لشيخ الإسلام، ومخالفته لشيخ الإسلام في هذه المسائل لا يدل على استنقاصه لشيخ الإسلام، ولا تقليلًا من شأن شيخ الإسلام ومكانته العلمية، ولا يدل على أنه أعلم منه في هذه المسائل، بل ربما يكون الحق في جانب شيخ الإسلام فيما خالفه فيه، ولا زال العلماء قديمًا وحديثًا يخالف بعضهم بعضًا في عشرات، أو مئات، وربما ألوف المسائل، لكن العيب في المخالفة أن تكون نابعةً عن هوى أو سوء نية، أو عدم توفر الكفاءة العلمية، وعدم الدقة في فهم النصوص واحتواء الخلاف فيها بالنسبة للمخالف، وكل هذه الصفات يتنزه عنها شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو معروف بسعة علمه ودقة فهمه، وآثاره العلمية من مكتوب ومسموع، شاهدة على أهليته وكفاءته.

وكل مسألة يخالف فيها شيخنا أبو عبد الله العثيمين من هو أعلم منه له حظ في النظر فيها، وما كان كذلك فلا حرج في المخالفة.

□ قال الناظم:

وليس كل خلاف جاء معتبرا   إلَّا خلاف له حظ من النظر

بعض مسائل الخلاف مع ابن تيمية:

ولا بأس في أن نذكر أمثلة لبعض المسائل التي خالف فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، منها:

١- يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويرى شيخنا أنها واجبة.

٢- يرى شيخ الإسلام أن المتمتع في الحج يكفيه سعي العمرة عن سعي الحج، ويرى شيخنا أن سعي العمرة لا يكفي عن سعي الحج.

٣- يرى شيخ الإسلام جواز سفر المرأة بلا محرم مع الأمن، ويرى شيخنا عدم جواز سفر المرأة بلا محرم مطلقًا.

٤- يرى شيخ الإسلام جواز الجمع بين الأختين من الرضاع، ويرى شيخنا التحريم لعموم حديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

٥- يرى شيخ الإسلام جواز دفع الزكاة في قضاء دين الميت الذي لم يخلف وفاء، ويرى شيخنا عدم الجواز.

٦- يرى شيخ الإسلام جواز تعفير الوجه بالتراب تذللًا لله تعالى - ذكرها في الاختيارات- ويرى شيخنا ضعف هذا القول؛ لأن الأصل في العبادات المنع والحظر، حتى يقول دليل على المشروعية.

٧- يرى شيخ الإسلام أن للأم الثلث مع الإخوة المحجوبين بالأب، ويرى شيخنا أن للأم السدس؛ أي إن الإخوة، وإن كانوا محجوبين بالأب، لكن تأثيرهم على الأم يظل باقيًا، فيحجبونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، وهو قول الجمهور.

٨- يرى شيخ الإسلام جواز الزيادة بين الربويين من جنس واحد في مقابلة الصنعة، ويرى شيخنا عدم الجواز للعمومات الدالة على أن الذهب بالذهب لا بد فيه من التساوي وزنًا بوزن، سواء بسواء، يدًا بيد.

٩- يرى شيخ الإسلام أن المأموم تكفيه قراءة إمامه في الصلاة الجهرية، وهو المذهب، ويرى شيخنا وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في

الجهرية»[١].

٣- **النجاح الباهر**، والتفوق الظاهر لدى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في فن التعليم، وروعة التدريس، وجودة التلقين، لم يكن يهذ الكلام هذًّا، ويسرد العلم سردًا، بل كان يتأنق في العبارة، ويتمهل في الإملاء، ويتوقف للمناقشة، ويحرك العقول بالأسئلة، ويصبر على كثرة التكرار والإعادة، حتى رسخ العلم في نفوس كثيرة ومكن الفقه في عقول غفيرة.

وقد ساعدته أخلاقه العالية، وروحه السامية، ونفسه المرحة للتربع على عرش قلوب طلبته حتى أحبوه حبًّا عظيمًا، وإذا دانت القلوب بالحب للإنسان قبلت منه، وأقبلت عليه.

□ استمع إلى أحد طلبته يجلِّي شيئًا من طبيعة الدروس عند الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: «إن طبيعة الدروس التي التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجًا له منذ توليه التدريس في الجامع الكبير خلفًا لشيخه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة تكمن في نمط معين، يختلف عن الأساليب التي ينتهجها عامة العلماء في هذه البلاد، ومن خلال مجالستي لبعض علماء البلاد كالشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ الحافظ عبد الله الدويش رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرهما من الشيوخ تبين لي أن طريقة الشيخ أكثر نفعًا. هذا على وجه العموم؛ ذلك أن الشيخ يركز كثيرًا على حفظ المتون، ويطالب التلميذ ويتابعه على الحفظ في كل درس، بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ. وقد حفظنا على الشيخ كثيرًا من المتون المنثورة والمنظومة، والكتب التي حفظت وتحفظ في درس الشيخ منها:

---

(١) «مجلة الحكمة» العدد الثاني، (ص٣٠).

١ - القرآن الكريم، وقد وصل إلى سورة النساء في دروس التفسير.

٢ - زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤ - كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥ - منظومة محمد السفاريني في العقيدة.

٦ - العقيد الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧ - منظومة البرهانية في علم المواريث.

٨ - ألفية ابن مالك في علم النحو والصرف.

٩ - الآجرومية في علم النحو، النظم والنثر كلاهما فرغ من حفظهما.

١٠ - نزهة النظر، في علوم مصطلح الحديث للحافظ ابن حجر.

١١ - منظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث.

والمتون المطولة لا تجد طالبًا قد أمر بحفظها كلها، كـ «بلوغ المرام»، و«زاد المستقنع»؛ لأن الزمن الذي يتطلب إنهاء مثل هذا الكتاب قد يصل إلى عشرين سنة، مثل «بلوغ المرام»، فقد حسبنا الزمن الذي يستغرقه كتاب «بلوغ المرام»، فوجدناه لا يقل عن ثماني عشرة سنة، و«زاد المستقنع» أكثر من ذلك.

وتقوم طبيعة الدرس عند الشيخ بمراجعة الباب أو الفصل بعد الانتهاء منه، والمراجعة تشمل مراجعة الحفظ والمناقشة فيه، فلا ينتقل إلى الباب، أو الفصل الذي بعده حتى يكون الطالب قد أتقن الباب، أو الفصل الذي قبله.

ويحرص الشيخ على رفع الهمم، وزرع الحرص في نفوس طلابه،

وذلك بتكليفهم في تحرير بعض المسائل، أو ما يشكل عليهم في أثناء الدرس، سواء كان الإشكال من جهة اللغة، أو النحو، أو الفقه، أو الحديث، أو غير ذلك، فيقوم الطالب بتحرير تلك المسألة، وقراءتها أمام الشيخ وطلابه، ويناقَش الطالب سواء من قبل الشيخ، أو من قبل طلابه فيما يرد من الملاحظات إن وجدت في بحثه، حتى يخرج البحث في أحسن صورة وأبدعها [(١)].

□ ومن أسباب نجاح الشيخ الباهر في علمه وتعليمه: متابعته الدائمة لطلابه وحرصه عليهم، عن ذلك يقول تلميذه وليد بن أحمد الحسين: «لقد اهتم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطلابه، وحرص على تذليل الصعاب التي تواجههم في مسيرتهم العلمية، وذلك أنه خصص لهم سكنًا مجانيًّا متوفرة فيه جميع سبل الراحة، زيادة على ذلك أنه افتتح لهم مطعمًا داخل السكن، وفرّغ له عاملًا، يعد لهم الطعام في الوجبات الثلاث اليومية، كما هيأ لهم مكتبة حافلة بالمراجع والكتب النادرة، والمخطوطات الأصلية، التي تصل إلى أكثر من سبعين مخطوطة أصلية، ومعها مكتبة سمعية من أشرطة لدروس الشيخ، وصالة للقراءة، وكل ذلك في السكن نفسه.

□ كما يقوم الشيخ بمتابعة طلابه، لا سيما المغتربون، وبالأخص الذين يقطنون في السكن المعد لهم، الذي يفتقرون إلى مساعدات مالية لمواصلة مسيرتهم العلمية، فيخصص لهم مكافآت مالية، كما يحرص الشيخ على تزويدهم ببعض الكتب التي يستفيدون منها، ويحتاجون إليها في البحث ومن الكتب المجانية التي زودنا الشيخ بها من خلال ملازمتي له:

---

(١) «مجلة الحكمة» العدد الثاني، (ص٣٣)، المقال للشيخ وليد بن أحمد الحسين.

١ - صحيح البخاري.

٢ - صحيح مسلم.

٣ - مصنف أبي بكر بن شيبة، خمسة عشر مجلدًا.

٤ - الصراع بين الإسلام والوثنية، مجلدان، لعبد الله القصيمي.

٥ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد.

٦ - التنكيل لما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، لعبد الرحمن المعلمي، مجلدان.

٧ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، سبعة وثلاثون مجلدًا.

٨ - المغني، لابن قدامة المقدسي.

٩ - غريب الحديث للخطابي، ثلاثة مجلدات.

١٠ - المنتقى من أخبار المصطفى، لمجد الدين ابن تيمية، مجلدان.

وغيرها من المراجع التي يفتقر إليها طالب العلم.

وهناك من الكتيبات الصغيرة التي لا أستطيع إحصاءها لكثرتها، ولا سيما مؤلفات الشيخ نفسه، فإن كل من يقوم بطباعة كتاب من كتبه أرسل إلى الشيخ المئات من النسخ من الكتاب المطبوع له، فيقوم الشيخ بتوزيعها على طلابه. وإذا كانت الكتب المرسلة إلى الشيخ قليلة لا تكفي إلَّا القليل من الطلاب، فإن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يستعمل أسلوب الأقدمية في ملازمته، وذلك بتقديم الطالب الأقدم فالأقدم، فيقول من له خمس سنوات فإنه يعطي، ثم ينتقل إلى من له أربع سنوات.. وهكذا.

لقد لمست حرص الشيخ على طلابه منذ بداية ملازمتي له، وذلك

عندما قصدت هذه البلاد المباركة -المملكة العربية السعودية- قبل ثلاث عشرة سنة، وقد صحبت معي القليل من المال حتى نفد، ولم يبق عندي منه شيء فصبرت نفسي، وأيقنت أن الله سيفرج هذا الضيق:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

حتى إذا ما مضى أسابيع، وأنا أعيش هذا الضيق، فإذا بالشيخ يناديني بعد صلاة الفجر، وبيده مبلغ من المال ليس بالقليل، ويعلم الله أنني لم أشك له حالي، ولكنه الفرج من الله.

وبعد مدة من الزمن نفد ما عندي من المال، فخشيت أن أكون قد أحرجت الشيخ في مساعدته لي، أو يظن أنني لازمته من أجل المال، فقررت أن أرحل، وأترك الشيخ لأعمل، وأجمع مالًا أتقوى به على طلب العلم، فرحلت إلى الدمام، حيث معارفي، وتركت رسالة للشيخ بينت له فيها سبب ارتحالي، فساءه ذلك جدًّا، وحاول أن يتعرف عنواني، فتيسر له الحصول عليه وعلى رقم هاتفي، واتصل بي هاتفيًّا، وألزمني بالرجوع، وألح علي، فأجبته إلى طلبه، وأنا في حرج، واستأنفت ملازمتي له.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يبخل عليَّ وعلى زملائي من المغتربين بالإنفاق علينا، ومتابعة أحوالنا، وتذليل الصعاب التي تواجهنا.

ومن الجوانب المثالية التي تشير إلى اهتمام الشيخ، وحرصه على طلابه، هو تكليفهم بالبحوث، وتحرير المسائل المشكلة.

بل إنه يكلف حتى المبتدئين في علمهم؛ ليزرع الهمة والحرص في نفوسهم، ويحاول الشيخ أن لا يفرض رأيه، وينفرد به في الأمور التي

تحتاج إلى مشورة، بل يحاول جاهدًا أن يجعل الطلاب يشاركونه الرأي والمشورة وربما قدم رأي الطالب على رأيه؛ لقربه من الصواب، ولا شك أن مثل هذا فيه تعويد للطلاب على التجرد للحق.

وإن رجوع الشيخ عن رأيه واجتهاده إلى قول تلميذه لا يعد عيبًا، بل هي منقبة عظيمة يشكر عليها.

كما يستعمل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أسلوبًا مثاليًا في تدريس طلابه على إلقاء الكلمات الوعظية والدروس العلمية، فيكلف الطلاب بإعداد كلمة وإلقائها أمام الطلاب بحضور الشيخ، ثم توجه الملاحظات من قبل الشيخ، أو الطلاب للطالب، ليجيب الطالب عليها.

كما جعل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ دروسًا مسندة لدروسه من قبل بعض طلابه من ذوي الكفاءات العلمية، فيكلفهم في تنظيم دروس علمية للطلاب المبتدئين؛ فقد قام الأخ الفاضل الشيخ محمد بن عبد الرحمن الإسماعيل بتدريس الفرائض، علم المواريث، والأخ الشيخ عبد الرحمن بن صالح الدهش بتدريس النحو، والأخ الشيخ خالد بن عبد الله المصلح بتدريس كتاب التوحيد، والأخ الشيخ سامي بن محمد الصغير بتدريس الفقه، والأخ الشيخ خالد المطرفي بتدريس النحو»[1] .

□ وكما كان الشيخ متألقًا في سماء النجاح على مستوى طلابه ومريديه فقد نجح نجاحًا باهرًا على مستوى العالم الإسلامي، وانداحت دائرة ذلك النجاح لتشمل دنيا الإسلام وأرجاء الإيمان، وآفاق الشريعة، فإذا باسمه الناصع يلوح في كل أرض تشرق عليها شمس الإسلام، ويعبق

(١) «مجلة الحكمة» العدد الثاني، (ص٤٦- ٤٨).

فيها عطر الإيمان، وذلك النجاح العريض له أسباب كثيرة بعد توفيق الله تعالى، وجميل فضله، وبديع كرمه، ومن تلك الأسباب:

١- صدقه وإخلاصه في طلب العلم والتعليم، وبذل نفسه في ذلك.

٢- تصديه للدروس والمحاضرات والفتوى في الحرم المكي في شهر رمضان؛ لأن الناس -ولا سيما طلاب العلم- يزدحمون في الحرم المكي في شهر رمضان خاصة العشر الأواخر من رمضان، فيلتفون حول الشيخ.

٣- وضوحه في الأداء، سواء ما يرجع إلى اللفظ أو ما يرجع إلى المعنى، فكان غاية في الوضوح، مع قوة الأسلوب، وجزالة العبارة، التي يفهمها عامة الناس، فضلًا عن طلاب العلم.

٤- سلامة المنهج في العقيدة.

٥- نقاء سيرته من أي شائبة تشوبها، أو أمور تكدرها.

٦- عدم خوضه في مهاترات علمية، أو صراعات كلامية، أو تعرضه للأشخاص أو إطلاق لسانه بالتجريح.

٧- عدم تلطخه بشيءٍ من حطام الدنيا أو مباهاته بشيءٍ من بهارجها، فإن من نافس الناس في دنياهم قلَّت مكانته العلمية عندهم.

٨- عدم تعصبه وجموده لمذهب معين في جميع مسائل الأحكام. بل كان متجردًا للحق حيثما ثبت الدليل يمم وجهه إليه، حتى لو كان ظاهره مخالفًا لصريح المذهب الحنبلي الشائع في هذه البلاد، فلا يضره ذلك.

٩- تَقَلُّده بعض المناصب المهمة، مثل عضويته في هيئة كبار العلماء،

ورئاسته لقسم العقيدة في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، ورئاسته لجماعة تحفيظ القرآن الكريم في مدينة عنيزة ومشاركته في برنامج «نور على الدرب» الذي يذاع في المذياع، واتصالاته الواسعة بكبار المسؤولين من أجل المصلحة العامة، ومشاركاته في مناسبات كثيرة في أنحاء الدنيا.

١٠- استجابته لكثير من الدعوات الموجهة إليه لإلقاء المحاضرات في كثير من مدن المملكة، ولا سيما المدن الكبيرة التي يتردد إليها، كالرياض وجدة، والمدينة المنورة، والمنطقة الشرقية، وبعض مدن القصيمن ولا يقتصر على لامساجد، بل كان يُلقي محاضراته حتى في المجمَّعات العسكرية، وكان يُلقي كثيرًا من المحاضرات عن طريق الهاتف، فتُبَثُّ في أنحاء كبيرة من العالم -ولا سيما أوروبا وأمريكا-.

١١- كثرة الأشرطة العلمية التي سجلت له، والتي وصلت إلى دول أوروبا وأمريكا وغيرها من دول الغرب، فاستفاد منها كثير من المغتربين من الجالية العربية المسلمة، ومتابعتهم لأشرطته بانتظام، التي تمثل شروحاته لكثير من الكتب العلمية التي تخص طلاب العلم، والتي شرحها شرحًا كاملًا بهذه الأشرطة مثل كتاب «التدمرية» و«فتح رب البرية» و«العقيدة الواسطية»، كلها لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«العقيدة السفارينية»، وهي منظومة للشيخ محمد ابن أحمد السفاريني، المعروفة بـ «الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية»، وفي شرحه لكتب الأحكام مثل «بلوغ المرام» للحافظ ابن حجر، إلَّا أنه لم يكمل شرحه، و«زاد المستقنع» في فقه الإمام أحمد، وغيرها من الكتب الكثيرة التي سجلت بالأشرطة، وانتشرت في أقطار الدنيا يستفيد منها

طلاب العلم.

١٢- حسن توفيق الله له ببعض الطلبة النجباء، والتلاميذ النبهاء، والمريدين الأوفياء الذين نشروا علمه، وأذاعوا صيته، واعتنوا بكتبه.

١٣- كثرة مؤلفاته التي أكثرها صغيرة الحجم، غزيرة الفائدة، واضحة العبارة، ليس فيها غموض أو تعقيد، يفهمها العامة فضلًا عن طلبة العلم، وكان الإقبال عليها شديدًا، وترجم بعضها إلى عدة لغات، لا سيما الإنكليزية، وانتشرت في أكثر بقاع الأرض، وقد قمت بنفسي في السعي بترجمة كتابين من كتبه في العقيدة باللغة البنغالية ووزعت مجانًا على نفقة بعض المحسنين»[١].

ولقد قدر ولاة الأمر في المملكة العربية السعودية للشيخ نجاحه الباهر، وتقدمه الظاهر، وأنزلوه المنزلة اللائقة به، فلا يذهب ملك، أو أمير، أو وزير لمحافظة القصيم إلَّا ويكون من أول مهامه زيارة الشيخ في منزله، والسرور بضيافته، وقد منحت جائزة الملك فيصل العالمية للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١٤١٤هـ، تقديرًا لجهوده، وعرفانًا بفضله، وإكرامًا لنجاحه.

نص الجائزة:

قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية منح جائزة هذا العام ١٤١٤هـ لخدمة الإسلامية إلى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وذكرت لجنة الاختيار في حيثيات فوز الشيخ بالجائزة ما يلي:

---

(١) «مجلة الحكمة» العدد الثاني، (ص٢٣)، نقلاً عن تلميذه الشيخ وليد بن أحمد الحسين.

أولًا: تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيًا: انتفاع الكثيرين بعلمه تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

ثالثًا: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعًا: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة.

خامسًا: ابتاعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتقديمه مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح فكرًا وسلوكًا.

هذا ما ذكرته لجنة الاختيار في حيثياتها، ومما لا شك فيه أن الشيخ أهل لهذه الجائزة، ولا نزكي على الله أحد.

٤- الموسوعية:

وكنتَ بساحة التعليم شيخًا ... إلى أفيائه تَفِدُ الوفودُ

تُقيم أواصرَ الإحسان حتى ... تحققتِ العوائدُ والوعودُ

وعمَّ الخير أهلَ العلم حبًّا ... وإكرامًا وفائدةً تعودُ

فقرَّت مُقلةٌ، وانسر قلبٌ ... يضمهمُ إليه ويستزيدُ

ويَمضي السائرون على طريق ... وراءك والطريقُ هو السديدُ

طويتَ البِيدَ بالسارين تعلو ... ويشحذُ سعيَهم هذا الصعودُ

فما التبستْ على سفرٍ سبيلٌ ... ولا سُئمت من السارين بِيدُ

كذا التعليمُ إن يَرزق أمينًا ... يقُمْ لجلاله صرحٌ مشيدُ

وبالفتيا أنرت بكل دربٍ ... سراجًا، فهْو من حِكَمٍ وقِيْدُ

فكـم مـن حـائرٍ أرشـدت حتـى أرحــتَ وكــان جانبُــه الرقــودُ

وكـم مـن جاهـلٍ علَّمـت حتـى تعلَّــم مــا يَــضُرُّ ومــا يُفيــدُ

وكـم مـن سـائلٍ أبـصرت حتـى تبينـــتِ الـــضوابطُ والقيـــودُ

كــذلك كنـــتَ في الفتيــا بيانًــا دليلُــك -كلــما ســألوا- عتيــدُ

□ كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنموذجًا بديعًا لتلك المدرسة الموسوعية الرائدة التي تأخذ العلم جملة. وتهتم بحفظ المتون، ثم تؤكد على بعض الفنون إلَّا أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان إمامًا في فنون كثيرة، وعلوم وفيرة، فهو إمام في الفقه، إمام في العقيدة، إمام في التفسير، إمام في النحو، إمام في الأصول، وعالم في الحديث..

كنــتَ في النحــو عالمًــا لا يُبــارى أو يُجــارى أذكرتنــا بالكــسائي

ومعــانٍ مــن التفاســير مُــثلى تتحـــدى معـــانيَ الفـــراء

وعرفنـــاك واعظًـــا لوذعيًـــا بــات أزكــى نهجًــا مــن الأحيــاء

وحديثًا عـن سـيد الخلـق يُـروى كنــتَ فيــه كمــسلم والنَّــسائي

عطر وحي عن جابر وابن صـخر ومعـــاذ وعـــن أبي الـــدرداء

□ بل لقد قرَّب علومًا بعيدة، ويسر مسائل عسيرة، وذلل أمورًا صعبة في فنون شتى. عمد إلى الفقه فسبر غوره، وغاص في أعماقه، فجاء منه بنبأ يقين، وخبر جميل، دلل وأصّل، وشرح وفصّل، وحلل وعلل، نفض غبار الجمود، وفك أواصر التقليد، وحمل راية الحرب على التمذهب بلا دليل، والتعصب دون حجة. نفى الزَّبَد، وجلا الشك، ورفض التمحل، وأعرض عن التعنت، وأشاح عن التزمت.

أضاء ظلمات الآراء بوحي السماء، وهتك دياجير الأهواء بضياء السنة وأنوار الحنيفية، قرب حدائق الفقه الغناء بعد أن أزال أشواكها، وشذب أزهارها، وهذب أشجارها، ونقى أنحاءها، وصفى أجزاءها، وأزال غثاءها، وأظهر بهاءها، ثم أفاض عليها ماء الوحي ومما رزقه الله، فإذا بها تهتز من جديد، وتنبت من كل زوج بهيج، وإذا فيها من كل الثمرات متشابهًا وغير متشابه، وانظروا إن شئتم إلى ثمره حين أثمر وينعه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

لقد أقنع وأمتع، وأحسن، وأبدع، وأحكم غاية الإحكام فيما جاء به من عمدة الأحكام، وأقبل العثيمين بالصيد الثمين، وكذلك فعل الشيخ في علم الأصول، إذ أتى فيه بما يسر العقول، وألف الأصول من علم الأصول.

ثم عمد رَحِمَهُ اللَّهُ إلى كتب الحديث ومصطلحه، فوجد تعريفات عدة، وشروحًا شتى، وتقريرات عجيبة، ومسائل مهيبة، ورأى أن ذلك العلم مع روعته وجلاله إلَّا أن فيه على طالب العلم عناء، وعلى مريد الفهم لأواء، فقربه في أحسن عبارة، وأوجزه في أبدع إشارة، وقدمه في أبهى حلَّة.

سال رحيق قلمه فشفى الله به صدورًا عليلة، وأنار به أفهامًا كليلة، فجاءت كتاباته في الحديث ومصطلحه من أجمل الكتابات، ومن أبدع الإضافات، وأمتع الدراسات.

ثم أقبل على أصعب المسائل، وما أتعب الأواخر والأوائل، وتجاسر على خوض الشدائد، وسبر أغوار كتب العقائد، نظر إلى تركة حسنة

الأيام، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فتضلع من معينها، وتزود من فنونها، وتخرج في مدرستها، وبعد أن امتلأ بها قلبه، وأفعم برحيقها فؤاده، ورسخت روائعها في ذهنه، أضفى عليها من روحه، فقدم عقيدة السلف بما سعد به الخلف، ودرس كتب الفلاسفة، وعرف دقائق النحل، وأخبار الملل، وقرأ الشبه المثارة، والآراء المخالفة، والأباطيل المختلقة، ثم عاد من تلك الرحلة الشاقة، والمسيرة المضنية، عاد إلى أمة الإسلام بما يسر الأفهام، ويمتع الأنام، ويجلو الظلام، عاد بكتاب في العقيدة تدين له النفوس، وتشهد له العقول، أسلوب سهل، ومقال جزل، وبعبارة أنيقة، وكلمات رشقية، ألذ من الماء البارد على الظمأ، وأعذب من الشهد المذاب، من قرأها فهم خلاصة العقيدة، ونهج نهج العقول الرشيدة، وخرج بثمرة مفيدة أكيدة سماها (عقيدة أهل السنة والجماعة) فكانت نعم البضاعة، مما جعل شيخه الجليل الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يهتف مشيدًا بالكتاب فيقول: «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.. أما بعد

فقد اطلعت على العقيدة القيمة الموجزة، التي جمعها أخونا العلامة فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، سمعتها كلها، فألفيتها مشتملة على بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي أبواب الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وقد أجاد في جمعها وأفاد، وذكر فيها ما يحتاجه طالب العلم وكل مسلم في إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وقد ضمّ إلى ذلك فوائد جمة تتعلق بالعقيدة، قد لا توجد في كثير من الكتب المؤلفة في العقائد، فجزاه الله خيرًا، وزاده من العلم والهدى،

ونفع بكتابه هذا وبسائر مؤلفاته، وجعلنا وإيَّاه وسائر إخواننا من الهداة المهتدين الداعين إلى الله على بصيرة؛ إنه سميع قريب.

قاله مُمليه الفقير إلى الله تعالى عبد العزيز بن عبد الله بن باز سامحه الله، وصلى الله وعلى نبينا محمد وآله وصحبه وسلم».

□ ثم أسعد العباد بشرح لمعة الاعتقاد، ثم اتخذ فهمه مطية، فشرح الواسطية، وهكذا عاش رَحِمَهُ اللهُ يخوض بحور العلم بحرًا بحرًا، ثم يأتي إلى أمة بأبدع ما فيها، وأجمل معانيها، كذلك نهجه في النحو واللغة والتفسير والفرائض والخطابة وغيرها، روائع زاهية، وفضائل باقية، ومناهل صافية، وموارد كافية، وشروح شافية، وأنهُرٌ بالعلم جارية، كتبها تذكرة لتعيها قلوب داعية، وآذان صاغية، فنسأل الله أن يعظم له الأجر، وأن يثبت مقامه يوم ترى كل أمة جاثية..

قد كان يَرى الورى شيخًا يعلمهم ... ما قاله اللهُ بالآيات في الكتب
وما أتى عن رسول الله بيَّنه ... علمٌ من الفقه والتوحيد في دأب
قد كان بحرًا لأهل العلم تشرعُه ... إذا بغت حليةَ الياقوت والذهب
قد كان للناس نهرًا في عذوبته ... وظلَّ بحرًا لهم في العمق والرحَب
كم من علوم لأهل العلم أتقنها ... وصار فيها إمامَ الحق ذا الأرب
في كل فنٍّ تراه عالمًا حذقًا ... ينالُ منها بجدٍّ أرفعَ الرتب
يمشي على الأرض قرآنًا نشاهدُه ... فالآيُ فوق الثرى تمشي على خَبَب
فقد حوى صدره القرآن أجمعه ... ولم يزل في ربيع العمر لم يشب

٥- عالم العامة:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عالمًا لعامة المسلمين، فهو لم يكن حكرًا لفئة معينة أو طبقة محددة، أو عالمًا لا يعرف إلَّا محبرته وأوراقه وجدران منزله، أو مفتيًا يصدر فتواه من برج عاجي، بل امتزج بالناس واختلط بالأمة، ومازج العامة، يُعلِّم ويعظ، ويفتي ويدرس، ويوجه وينصح، ويعين ويساعد، ويدعم ويساند، يحل القضايا، ويزور المرضى، ويسعى بالإصلاح، ويشارك في الآلام والآمال، ويضرب بالقدوه أحسن الأمثال بأجمل الأقوال وأصدق الأفعال..

يجاهد حتى لا يملَّ نهارَه ... ويُمسي إذا أمسى يُناجي ويَضرعُ

ولم يألُ جهدًا في الهداية قائمًا ... يكابدُ فيها كلَّ همٍّ ويَنزِعُ

يُجيب على سؤل، فيُرشد حائرٌ ... ويسكنُ مكروب، ويُنفق موسِعُ

ويسأل عن حالِ الضعاف، ويبتغي ... مسرَّةَ مكلومٍ يتوجعُ

ويُدني اليتامى والأراملَ كلما ... تحاشاهمُ ذو شرهٍ ليس يشبعُ

ويترك للأجيال سيرةَ عالم ... يسيرُ على نهج الرسول ويَتبعُ

□ لقد انتفعت الأمة بجميع فئاتها، وشتى طبقاتها بعلم الشيخ الرقراق وفهمه البراق، وأصبح ابن عثيمين يسكن في وجدان كل مسلم، وضمير كل مؤمن، تذهب إلى المستشفيات فتجد المرضى يقرؤون كتبه، ويستنيرون بفقهه، ويعلق في غرفهم رسائل الشيخ عن كيفية طهارة المريض وصلاته، وتنظر إلى المسافرين جوًّا أو بحرًا أو برًّا فتراهم يحملون كتيبات الشيخ عن كيفية صلاة المسافر، وتدلف إلى الجمعيات الخيرية، والمنتديات الإسلامية فتراها تفخر بتزكيات الشيخ وتوصياته، وتأتي إلى

المدارس والمعاهد، وإذا بكتب العقيدة، وروائع الفقه تقدم لك تحمل اسم الشيخ وتوقيعه، وتزور كبار المسؤولين، فإذا بهم يتساءلون عن آرائه، ويستنيرون بفتاواه، وتسأل عن مدارس البنات، ومنتديات المسلمات، فإذا بالنصيب الأوفى، والحظ الأوفر من الاهتمام بالمرأة والنصح لها، وشرح الأحكام الفقهية المتعلقة بها قد قام بها ابن العثيمين.

وهكذا في كل المجالات وشتى القطاعات سرى عبير علم الشيخ وتدفق بحر عطائه، لترتوي منه القلوب، وتسعد به النفوس.

□ لله در ابن عثيمين:

عنصر كريم، ومعدن شرف عظيم، أصل راسخ، وفرع شامخ، ومجد باذخ، متمكن في علمه، متأن في كلامه، مدقق في عباراته، موثق لنصوصه، محترم لجمهوره، مهتم بطلابه، معتن بمريديه، مكرم لمجيئيه، مسعد لسامريه، مؤنس لمجالسيه. عالي الهمة، عظيم الغيرة، ساكن الهيبة رقيق الحاشية، خفيض الصوت، ذكي الفؤاد.

وهبه الله توقد القريحة، ونفاذ البصيرة، وقوة الفهم، ووضوح الحجة وبيان المحجة، وجمال الروية، وصفاء النية، وسلامة الطوية -كما نحسبه- وحسن التأني لما يحاول، مع كريم الخلق، وطيب التعامل، ونقاء السيرة، وحسن الإبانة، وعميق الديانة، وأداء الأمانة، وتألق اللغة، وتأنق العبارة، ودقة الإشارة، وعذوبة اللفظ، وغزارة الحفظ، وإحكام الإبرام والنقض، ومتانة الكلام، وإجادة الإفهام، وجزالة الأسلوب، وكسب القلوب، وحسن الشرح عما يعن من سوانح الفكر، وما وعاه صدره من أفانين العلم، وقطوف المعرفة. دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، واسع

الإطلاع على آراء المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، والأصوليين، والمتكلمين واللغويين، والبلاغيين.

ألقت إليه رئاسة العلم مقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فأظهر مكنون قديمها في ثوب جديدها، واختار بذكائه أفضل الآراء وسديدها.

طلعت شمس الفقه من أفق أفكاره، وتفجرت ينابيع العلم من خلال آثاره. وجرت في أنفس المحبين روائع أنهاره. جلَّى بكلامه الأبصار الكليلة، وشحذ بمواعظه الأذهان العليلة، وسلك في طريق العلم خير وسيلة، ولن يُهزم من كان الكتاب والسنة دليله.

إنه بدر العلوم اللائح، وقطرها الغادي الرائح، وعقال الأفكار عن كل جامح، وعنوان اللطف والعفو والتسامح، تستخرج الجواهر من بحوره، وتحلى الأوراق بقلائد سطوره. شيخ المعارف وإمامها، ومن في يديه زمامها يحوك الألفاظ على قدر المعاني، ويسوق الكلام حسب الأماني. إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلام الأمر، واستنبط روائع العلوم، وأبان عن بديع الفهوم.

لقد كان -رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نحسبه- من حزب الله المفلحين، وأوليائه الناصحين، ومن أئمة الإسلام المعدودين الذين حفظوا على الأمة روعة الدين، وصانوه عن التغيير، ونقَّوه من التكدير، وأرسلوا لكل جاهل صيحة نذير، ووَرَدوا بالناس على مناهل من العلم نقية، ومشارب زكية، ومراتع رضية. سقوهم من العلم ماءً نميرًا، عيونًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا، ونفع الله بهم نفعًا كبيرًا؛ لأنهم كانوا يوفون بالعهد ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا ويبذلون العلم لا يرجون من الناس

جزاءً ولا شكورًا.

□ ولله در الدكتور الزهراني وهو يقول في قصيدته «حادي الركب»:

مـات العثيمـينُ فالألبـاب ذاهلـةٌ ... والهـمُّ يَكـوي حنايانـا بنـيرانِ
يـا واهـبَ العلـم لم تُغْفِـل أمانتَـه ... يومًا وما كنـتَ عـن نفـعٍ بـه واني
هذي الفضائلُ مِن علمٍ ومن عمل ... هيهـاتَ يُـسلِمُها دهـرٌ لنـسيان
تظـلُّ تُـتلى عـلى الأيـام روعتُهـا ... يفـوز بـالأنس منهـا كـلُّ إنـسان
قد كنتَ عطرًا على أنسامه انبعثت ... أرواحُنا مـن شـذَى علـمٍ وتبيـان
بل كنتَ بحرًا بعيد الغَور أكـسبنا ... إبحارُنـا فيـه مـن درٍّ ومرجـان
بل كنتَ غيثًا زلالًا طـاب مـورده ... لكل قلـب لفيضِ العلـم ظمـآن
جاءت وفودُ الهدى والعلمِ طامعةً ... تـأوي إلى ظلِّـه في خـير أكنـان
مقدِّمٌ لدليل الوحي مـا شـطحت ... أقوالُـه لفـلانٍ أو لعـلان
مـا ضـلَّ نهـجٌ رسـولُ الله رائـدُه ... وصوتُه العـذب مـن آيـاتِ قـرآن
نهجٌ أصيلٌ متـينٌ محكـمٌ نُـسجت ... خيوطه من هُـدى البـاري بإتقـان
في همـةٍ تبلـغ الجـوزاءَ مـا وهنـت ... وما ارتـضى أن تُـرى في منـزلٍ دان
تلك العزيمةُ لو أمست على جبـل ... لأصبح الصخرُ منه مثـلَ كثبـان
العلـم شـعلة خـير نـافع هبطـت ... مـن الـسماء بـأنوار وبرهـان
ومزقت عن وجوه الجهـل أغـشية ... وعن ظـلام الليـالي بـؤس كفـران
العلـم نـور إلهـي وحاملـه ... يسير في الناس يهـدي كـل ولهـان
وأنـت فيـه إمـام عامـل علـم ... مبجـل ممـسك منـه بأرسـان

زيَّنتَه بالتقى والزهد مقتديًا ... بسنة المجتبى من آل عدنان

أعدت للفقه بين الناس رونقه ... فجاء عذبًا لأرواح وأذهان

مضيت في بحره الأنقى على أسس ... لعالم رائع الأنباء شيباني

أما العقيدة كم ألبستها حللًا ... وصنتها من لظى زور وبهتان

وكنت في الأرض كالطود الأشم ... تحمي حماها وتردي أيّ عدوان

ضربت صفحًا عن المتفلسفين إلى ... علامة ثاقب الآراء حرّاني

أفضت من نهرك الرقراق أودية ... نقية النبع تسقي كل عطشان

فازت بآلائك الحسناء وانتفعت ... وأخلصت لك في سر وإعلان

يبقى ضياؤك لأرجاء يسعدها ... ويزدهي بسجاياك الجديدان

وسوف تبقى حروف الشعر ... ترتل المدح من آن إلى آن

يا روعة العصر يا بحر العلوم ويا ... أنسًا يبث الرضى في كل ميدان

يا ابن العثيمين والأوزان واجمة ... ومجدكم يرتقي عن ألف ديوان

١٩- فضيلة الشيخ أبو عبدالله عبد العزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن ابن باز:

الممثَّل في شخصه الكريم مشيخةُ الإسلام في هذا العصر، إمام أهل السنة في هذا العصر، المحدِّث الأثري، الفقيه النابغة، مُفتي الديار السعودية، ومرجع المُستفتين من مختلف أنحاء العالم.

□ حفظ الشيخُ القرآنَ عن ظهر قلبٍ قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ.

وبحفظه لكتاب الله باشرَ انطلاقَه في طلب العلم، وجهادَه فيه، فما ينفكُّ عالمًا ومتعلِّمًا، وواعظًا ومذكِّرًا، لا يكاد يجدُ في غير سبيله هذه متعةً

ولا فائدةً. لم يحبس الشيخُ وقته على أستاذٍ واحد؛ بل اتصل بالعديد من المشايخ يتلقَّى عنهم العلمَ كلٌّ في حدود تخصُّصه.

ويعدِّد الشيخ من أساتذته الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن، والشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن، والشيخ محمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف. ويُشيد الشيخ بمشايخه هؤلاء وآثارِهم في تشجيعه على المثابرة في تحقيق الخير والعلم والتَّبحُّر في عقيدة السلف.

ومن مشايخه: الشيخ سعد بن حمد بن آل عتيق، والشيخ حمد بن فارس، والشيخ سعدو البخاري بمكة الذي أخذ عنه علم التجويد.

على أن أطول سِنِيهِ الدراسية تلك التي قضاها في التتلمُذ على سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والذي استمر ملازمًا له نحو عشر سنوات.

وقد فقد الشيخ ابنُ باز البصر في التاسعة عشر من سِنِيهِ[(١)].

□ واستمر الشيخ يطلبُ العلم بعد فقده لعينيه، ولكنَّ قلبَهُ يزدادُ نورًا، وعوَّضه الله بذكاءٍ في القلب. يقول أحد الشعراء:

رأيتُك أعمى العينِ صار ضياؤها ... بقلبِك حتى صرتَ فَجْرًا مُبَلَّجَا

فصار سوادُ العين في القلب فاقتدى ... يَنظِمُ من نورِ الشريعة مَنْهَجَا

□ عوَّضه الله بصبرٍ على العلم ومثابرةٍ وذكاءٍ مُفرِط «فالشيخ حافظ العصر في علم الحديث، فإذا سألته عن حديث من الكتب الستة، أو من عند غيرهم، ففي الغالب تجده مذياعًا فصيحًا يستحضر الحديث سندًا ومتنًا ومن تكلَّم فيه، ورجاله وشرحه، فأْتُوني بأهل العيون المُبصرة

(١) من ترجمة للشيخ من كتاب: «علماء ومفكرون عرفتهم». لمحمد المجذوب. طبع دار الاعتصام.

يكونوا كالشيخ في علمه وفقهه»[١].

□ يقول الشيخ عائض القرني في ترجمته للشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتستمر الحال بالشيخ؛ فلا يفترُ ليلًا ولا نهارًا، يبحث عن العلمِ ويطلبُه من مظانِّه، وفي حياته درسَ العلم على قلَّةِ ذات اليد ومع الفقر، ومع العَمَى ومع العوَز، إذا صدَق المسلمُ في طلب العلم، ونوى الفائدة.

* قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

إذا سألتَ اللهَ في كلِّ ما أمَّلْتَه جُزتَ البحارَ والفَلاحَ بهمَّةِ
تَخرجُ ماءُ الصفاءِ ما شابها قولَ حاسدٍ أو مقولةَ بَاهتِ

□ والذي يودُّ الحصول على العلم عليه أن يقرأ سيرة الشيخ، فإن من السلف الصالح منْ هو أعلم من الشيخ بكثير، لكن علينا أن ننظر إلى سيرة رجل حيٍّ بين أظهرنا يمثِّل العلمَ في قمته، وقد حصل له في حياته فقرٌ وعوَز، والكتبُ وقتها ليست متوفِّرةً، والطباعة كانت ضعيفة، ووسائل التَّنقُّل ما كانت بذاك، والرجلُ أعمى، ومع ذلك حصَّل وحصَّل، ووصل إلى ما وصل إليه، فأين الشباب؟! فالعلم متوفر، والطباعة سهلة، والمجلدات كثيرة، والجامعات مفتوحة والأساتذة كُثر، والعلماء متوفِّرون، وفي الثقافة غزارة، فأين من يطلب العلم؟!.

خرج الإمام القفَّال -وقيل: الإمام الشاشي- إلى أحدِ الأمصار لطلب العلم وعمرُه أربعون سنة.. لِمَ لا نطلبُ العلم في الأربعين وفي الخمسين

(١) «الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز» لعائض القرني (ص١٣، ١٤) دار الصميعي للنشر والتوزيع.

وفي الستين؟! فالإمام البخاري يقول في «الصحيح»، في «كتاب العلم»: «وقد تعلَّم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في الكِبَر». فلم لا نتعلَّم ولو كبارًا؟!.

□ ذهب القَفَّالُ وعمره أربعون فقال: «كيف أطلُب العلم، ومتى أحفظ، ومتى أفهم، ومتى أُعلِّم الناس؟! فرجع فمرَّ بصاحبِ ساقيةٍ يسوق على البقر، وكان الرِّشاء -هذا الحبل- يقطعُ الصخر من كثرة ما مرَّ، قال: أطلبُهُ واتضجَّرُ من طلبه!!..

اطلُبْ ولا تَضْجِرْ من مطلبِ   فآفةُ الطَّالِبِ أن يَضْجَرَا
أَمَا تَرَى الحَبْلَ بَطُولِ المَدَى   على صليبِ الصَّخْرِ قد أَثَّرا

واستمرَّ يطلبُ العلم، وأصبح إمامًا من كبار الأئمة الشافعية، ومِنْ جهابذة الدنيا.

إذ الطُّموحُ والهمَّةُ العالية واستعذابُ المنايا والمخاطرة بالنفس حتى تصل إلى المطلوب وإلى الهدف السامي»[1].

«والشيخ ابن باز نَحْوِيٌّ يُجيد اللغةَ العربية الفصحى ويشرحُها ويمليها على طلابه.

وله في الفرائض قَدَم، وأمَّا في الحديث فهو محدِّثٌ جِهْبِذ، يعرف الرجال، وتسأله في الرجال، وقد سألته قبل ما يُقاربُ أربع سنوات عن «الحجاج بن أرطاة»، قال: «ضعيف ومدلِّس». وغيره من الرجال، وهو يحفظ مئات، بل آلاف الرجال في ذهنه، إذا سألته عن الرجل أخبرك عنه وما قيل فيه، وهو مُغرَمٌ بعلم الرجال، يُطالع كثيرًا في «تهذيب التهذيب»

(١) «الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز». لعائض القرني (١٧- ٢٠).

لابن حجر، وهو كتابه المفضَّل فيما أعلم.. وقال لبعض محبِّيه: «رُبَّما حفظتُ ثمانين في المئة من هذا الكتاب».

و«فتح الباري»، قد قرأه مراتٍ عديدة من وقت طلبهِ للعلم إلى الآن، وهو الذي تولَّى الإشراف على إخراجه وتحقيقه للناس، بالاشتراك مع الفاضِلَيْنِ محبِّ الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي -رحمهما الله تعالى- والذي مكث فيه ابنُ حجر يؤلِّفه اثنتين وثلاثين سنة، وهو كتاب، لو كان في العصر معجزة، لكان هذا الكتاب».

وللشيخ مشوارٌ مع الفَجْر في تعليم طلبةِ العلم من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس؛ يدرِّس الشيخ في كتاب «فتح الباري»، و«فتاوى ابن تيمية»، و«بلوغ المرام»، و«الكتب الستة»، و«شرح العقيدة الطحاوية»[١]، و«تفسير ابن كثير»، و«البداية والنهاية» و«جامع العلوم والحكم» ومجلس العشاء، ما بين الأذان والإقامة من «رياض الصالحين»[٢].

□ يقول الشيخ محمد المجذوب في الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

روى عنك أهلُ الفضلِ كلَّ فضيلةٍ ... فقُلْنا حديثُ الحُبِّ ضَرْبٌ من الوهْم

فلـمَّا تلاقيْنـا وجـدْناك فـوق مـا ... سمعْنا به في العِلْـم والأدب الجـمِّ

فلـم نَـرَ شـيخًا قَبْـلَ بازِنـا ... يـصيدُ فلـم يُـؤذِ المَـصِيدَ بـدَم

□ يقول عائض في مدح الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

قاسمتُكَ الحُبَّ من ينبوعِهِ الصَّافي ... فقمـتُ أُنـشد أشـواقي وألطـافي

---

(١) «الممتاز» (ص٤٤، ص٦٦- ٦٧).

(٢) «ابن باز الداعية الإنسان». طبع مؤسسة عكاظ (ص٤٩- ٥١).

لا أبتغي الأجرَ إلَّا من كريم عطاءٍ ... فَهْــوَ الغَفــورُ لــزلَّاتي وإسرافي

عفوًا لك الله قد أحببتُ طَلْعَـتكم ... لأنَّهــا ذكَّرَتْنــي سَــيْرَ أســلافي

يا دمعُ حَسْبُك بُخلًا لا تجـودُ لَمَـنْ ... أجرى الدموع كمِثْلِ الوابِلِ السَّافي

يا شيخُ يكفيك أن الناسَ قد شُغِلوا ... بالمُغريـاتِ وأنــت الثَّابِــتُ الـوافي

أغــراهمُ المــالُ والــدنيا تُجـاذِبُهُمْ ... ما بـين مُنْتَعِـل منهم ومـن حـافي

مجالسُ اللغو مَنْـداهم وروحـتُهم ... أكْلُ اللحوم كأكْلِ الأقْطِ في العافي

وأنت جالستَ أهْلَ العلم فانتظمتْ ... لــكَ المعــالي ولم تُولَـعْ بإرجــاف

بـين الـصحيحيْنِ تغـدو في خمائِلِهـا ... كما غدا الطَّلُّ في إشراقها الـضافي

يكفــي مُحَيَّــاك أن القَلْــب يَعْمُــرهُ ... مِن حُبِّكم ولَدَيْ أضعافُ أضعافِ

أراك كالــضَّوء تجـري في محاجِرِنــا ... فلا تـراك عيـونُ الأجْلَـفِ الجـافي

كالشَّدْو في أشواقي حـتمًا وتأسِرُهـا ... بنَغْمةِ الوحْي مِنْ طـه ومِـن قـافِ

ما أنـصَفَتْك القـوافي وهْـي عـاجزةٌ ... وعُذْرُها أنَّها في عـصر إنـصافي [(١)]

سعة علم ابن باز [(٢)]:

أما هذه الصفة العظيمة وتمثلها فيه فلا تحتاج إلى برهان ودليل؛ بل هي فيه أوضح من الشمس في رابعة النهار، صِدقٌ في المقصد، وصفاء في المعتقد، ووضوح وجلاء في الطريق، ونشر للعلم، شهد له القاصي والداني، القريب والغريب، الكبير والصغير، بسعة العلم، كان رَحِمَهُ اللهُ من

(١) «الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز» لعائض القرني (ص٧٢- ٧٤).

(٢) هذا الجزء من الترجمة مأخوذ من كتاب «الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز ابن باز» لعبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن» الرحمة –دار ابن الجوزي.

أئمة الإسلام، وشيوخه العظام، وأعلامه الأعلام، وهذه بعض القصص التي تدل على سعة علمه، وكبير فهمه في دين الله، ووصوله لمرتبة الاجتهاد أسوقها لك أخي القارئ، لعل بها شحذًا للهمم، وتنويرًا للبصائر، وتذكيرًا بالمعالي من الأمور:

(أ) فمن القصص الدالة على سعة علمه ما ذكره الأخ المفضال فهد البكران -حفظه الله-: «قدم مندوب أحد المؤسسات الإلكترونية، وبرفقتهم جهاز حاسب آلي شخصي، وقد تم تخزين كتب الحديث داخل هذا الجهاز، وأرادوا من سماحته الاطلاع عليه، الاستئناس برأيه قبل نزول للأسواق، فقال سماحته: فلنختبر جهازكم، واختار سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ أحد الأحاديث كعينة عشوائية لاختبار قدرة هذا الجهاز العجيب، فقام المسؤول عن تشغيل الجهاز بإدخال مفردات هذا الحديث للبحث عنه وتخريجه، إلَّا أن الجهاز لم يستطع الوصول إلى المطلوب، وإن كان قد وصل لبعض الأحاديث التي تعطي نفس المعنى، فقال سماحته: «إذن ابحثوا عن راوي الحديث»، فتم إدخال البيانات المعطاة باسم الراوي للبحث عن الحديث، ولكن لا نتيجة.

فقال سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن ابن حجر لم يخطئ فعليكم البحث مرة أخرى، وبعد بحث ومحاولات استغرقت أكثر من ١٥ دقيقة بعدها توصل الإخوة مشغلو الجهاز إلى الحديث المطلوب وبالراوي نفسه، حيث تبين خطأ في إدخال بيانات الراوي وتصحيف تعرض له اسمه جعل من الصعوبة الوصول إلى المطلوب»[١].

---

(١) «الدعوة» (١٦٩٣).

(ب) ويقول الدكتور ناصر الزهراني في كتابه: «إمام العصر» (ص٤٦) عن سعة علمه: «أما عن سعة علمه، وقوة حافظته فحدِّث عن ذلك ولا حرج، فهو العجب العجاب، وهبة الوهَّاب، كنت أقرأ على سماحته في درس العصر أو العشاء، فأخطئ في كلمة أو أخرم لفظة من الحديث، فيوقفني الشيخ ويقول: أعد فإن أعدت الكلام تامًّا صحيحًا سكت، وإن أعدته مع الخطأ بين لي الصواب، ولقد جلست إليه مع عدد من أهل العلم والمعرفة بالفقه والحديث، فيورد أحدهم أسئلة شائكة ومسائل دقيقة، أو يسأل عن صحة حديث أو متنه أو سنده؛ فإذا الجواب حاضرًا كأنما يقرأه الشيخ من كتاب».

(جـ) ومن قصصه الرائعة في مجال سعة العلم، وميدان المعرفة التامة وقوة الذاكرة ما قاله الشيخ عطية بن محمد سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه: «وذات مرة حصلت قضية من الشيخ أدهشت كل الحاضرين لإحدى المحاضرات الاجتماعية في الجامعة والتي حضرها سماحته، وجاء المحاضرة ليلقي محاضرته ومعه سبورة، وكتب عليها اسم المحاضرة، والنقاط الخاصة بها والجزئيات المتعددة لهذه النقاط، ثم أخذ يشرحها مفصلة بجزئياتها في ساعة ونصف، وبعد المحاضرة طلب من سماحة الشيخ ابن باز أن يعلق عليها، فذكر سماحته نقاط المحاضرة الست وجزئياتها، وعلق على كل نقطة بالتفصيل، ولم يترك شيئًا منها وهي كما ذكرت لك محاضرة اجتماعية وليست فقهية؛ واندهش الجميع من ذاكرة سماحته القوية وذكائه في استيعاب المحاضرة، فلو كنا موجودين لما استطعنا أن نعلق على أي نقطة

دون النظر إلى السبورة وتذكر النقاط»[١].

(د) وثمة قصة مماثلة مشابهة ذكرها الدكتور عبد الله بن عمر بن نصيف نائب رئيس مجلس الشورى جاء فيها: «ولقد لفت نظري علمه وتواضعه وإجماع الناس على احترامه وتقديره؛ وقد تأثرت بحادثة وقعت عندما ألقى الشيخ محمد متولي الشعراوي محاضرة في المدينة عام ١٣٩٢هـ، أقيمت بمناسبة تأسيس الندوة العالمية للشباب المسلم، وكنت مرافقًا لضيوف الندوة عند زيارتهم للمدينة بعد انتهاء البرنامج الأساسي في الرياض، فقد تحدث الشيخ الشعراوي لمدة ساعة ونصف على الأقل عن مكانة المرأة في الإسلام، وبعد انتهائه من المحاضرة علق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز على إحدى عشرة مسألة وردت في المحاضرة؛ رتبها حسب موقع ورودها في المحاضرة، وناقشها بموضوعية علمية، وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما أثار إعجاب الحاضرين بكل الملكات التي مكنت الشيخ من القيام بذلك».

(هـ) وثمة قصة أخرى تدل على علو كعبه وسعة علمه، وتمكنه من العلم، وهذه القصة ذكرها الدكتور محمد لقمان السلفي ومما جاء فيه: «وقد ألقى في تلك الإيام شيخي المحدِّث العلامة محمد ناصر الدين الألباني محاضرة علمية على طريقة المحدثين، واستمع الحضور إليها استماع التلاميذ إلى درس شيخهم وهابوا لمكانته واعترفوا له بعلو الكعب في مجال علم الحديث روايةً ودراية؛ وكنت أظن ألا أحد يجرؤ على الحديث بعده، وإذا بشيخي ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ قام من مكانه وعلق على محاضرة العلامة

---

(١) «عكاظ» عدد (١١٩٥٠).

المحدث الألباني تعليقًا علميًا دقيقًا، وأبدى ملاحظات حديثية، كلها كان يتعلق بعلوم الحديث سندًا ومتنًا؛ ثم قام المحدث ناصر الدين الألباني وشكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ واعترف له بغزارة العلم؛ فكانت هذه الواقعة بمثابة دليل قاطع على علو كعب شيخي ابن باز وبروزه من بين معاصريه في علوم الكتاب والسنة، وهكذا ارتسخ في ذهني علو مكانته، وأنه الشيخ الذي يجب أن يُحتذى»(١).

(و) ومن القصص الدالة على سعة علمه ما ذكره الشيخ عبد الكريم التركي -حفظه الله-: «أن حفظه للمتون والأسانيد ودقته في ذلك أمر معروف لدى الكثير من العلماء وخاصة طلابه، ولديهم الشواهد الكثيرة في ذلك، فيذكر أحدهم أنه في أحد دروسه قبيل وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ قرأ عليه أحد تلامذته تحقيق مسألة من ورق مصور من «سنن الدرامي» و«سنن الدارقطني»، وقال القارئ: هذا من «سنن الدارقطني» -خطأ منه- فرد الشيخ عليه وقال هؤلاء ليسوا رجال الدارقطني -أي رجال السند- فتأكد القارئ وإذا به يقرأ من أوراق «سنن الدارمي» سهوًا منه»(٢).

(ز) ولعلي أختم بقصة تعتبر من أبدع القصص وأروعها في ميدان قوة الحافظة والذاكرة، ومجال سعة العلم، وهي قصة إجابته عن مسألة عجز عن الإجابة عنها كبار العلماء، وهذه القصة ذكرها الشيخ عبد القادر بن شيبة الحمد -حفظه الله- فقال: «عرفته منذ أكثر من أربعين عامًا، حيث زاملته في التدريس في كلية الشريعة، إبان افتتاحها في الرياض، ومن قبل

---

(١) «الدعوة» (١٧٠٦).

(٢) «الدعوة» (١٦٩٤).

في المعهد العلمي، فلم أعرف عنه إلَّا سعة العلم، وحب الخير، والتواضع، والكرم، والبذل في سبيل الله رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم أردف الشيخ عبد القادر قائلًا: «وكنت أقرأ في «بلوغ المرام» فمرت عليّ مسألة قال عنها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديث قصة ذكرها البخاري في «الصحيح»، فسألت عنها العلماء الكبار أمثال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ المحدِّث عبد الرحمن بن يوسف الأفريقي وغيرهم من كبار العلماء، فكلهم يقول: مرت عليَّ لكنني بعيد العهد بها، وسألت سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز عنها، فقال لي: مرت عليَّ وأنا لا أذكرها حاليًا، فقمت أستعرض «صحيح البخاري» أبحث عنها في مواطن ومظان وجودها، والحصول عليها، واجتهدت في ذلك ولم آلو، وتعبت من جراء ذلك جدًّا، ثم بعد ثلاث سنوات سألت سماحته عنها من جديد، فأطرق مليًّا ثم قال مرت عليَّ وقيدتها في تعليقاتي على بلوغ المرام، وأمر أحد مساعديه بإحضار تعليقه عليها في البلوغ، فإذا فيه أن القصة ذكرها البخاري في كتاب «بدء الخلق» فاستئذنت سماحته في نقل تعليقه عليها، فأذن لي بذلك مشكورًا مأجورًا».

□ قلت: «وهذه القصة تدل على قوة استحضار الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لمسائل العلم العويصة، وقوة الذاكرة الحية، وسعة العلم، وحبه للمسائل العلمية وشدة عنايته بها، فرحمه الله ما أكثر وأغزر علمه، وأقوى فهمه، وأبهى درره وفوائده، وأين مثله اليوم علمًا وفهمًا، وإتقانًا وتفانيًا، في سبيل حب العلم ونشره وبذله، وفي الله خلف وهو المستعان».

□ وعن المواقف المعبرة يقول تلميذه الشيخ الدكتور علي بن

عبدالعزيز الشبل: «فمن ذلك تجلّده وصبره في بذلك العلم والتعليم للخير في مجالسه العلمية، ولا سيما الدروس العلمية المرتبة في المسجد، وأوضح ذلك مثالًا درس فجر الخميس الأسبوعي سواء كان في الرياض أو الطائف، والذي يمتد زمن جلوس الشيخ فيه للدرس ثلاث ساعات متصلة تصل الكتب المقروءة قراءة درس وتقرير إلى أحد عشر كتابًا، جلها من كتب المطولات، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ لا يمل ولا يكل، ونحن الطلبة يصيبنا من ذلك أنواعٌ منه، إنه رَحِمَهُ اللَّهُ يزداد نشاطًا ملحوظًا عند القراءة في حديث رسول الله ﷺ، مما يلمس منه حبه وتعظيمه وولعه بسنة المصطفى ﷺ ويجدد نشاطه أنسابها».

تراه في دروسه جالسًا.. متأدّبًا.. منصِتا حال القراءة.. ثم متحدِّثًا بارعًا أثناء الشرح.. يسأل هذا.. ويطلب من ذلك بحث مسألة ما.. يتنقل من شرح متن إلى قراءة في سيرة.. درس في الفجر، ومن الغد درس بعد المغرب، وفي أيام أخرى دروس عديدة مفيدة متنوعة. هكذا هو الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في دروسه دون كلل أو ملل ينشر العلم ويفقه.

ويتعجب الأخ الشيخ عبد الله العتيبي من صبر الشيخ وجلده في إلقاء الدروس فيقول: صبر الشيخ على إلقاء الدروس عجيب، فمواظبته على الدروس وعدم تخلفه عنها مع كثرة الأشغال لديه؛ يدل على جلد عظيم ومحبة للعلم، ولي مع الشيخ أكثر من عقد من السنين لم يتخلف إلَّا مرة واحدة أيام إصابته في رجله اليمنى والحمد لله الذي شفاه، وقال مرة في درس فجر الخميس بعدما استغرق الدرس نحو ساعتين ونصف قال: لولا الأشغال الأخرى لجلسنا مع الإخوان حتى الظهر!! ويستكمل أحد الإخوة هذا المحور قائلًا: لقد أوتي الشيخ في هذا حظًّا عظيمًا وقسم له فيه

خير كثير، فرجل بلغ السابعة والثمانين يكون أول من يحضر أو من أول من يحضر لمكان الدرس، مع كثرة دروسه.

ثم هو لا يتململ في أثناء الدرس مع ظهور التعب والملل على عدد غير قليل من الحاضرين.

فأي جلد هذا رَحِمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعة.

أكثر من ثلاث ساعات:

وأحد الطلاب الذين انتظموا في الحلقات منذ عام ١٤٠٠هـ يندهش من جلد الشيخ وصبره على إلقاء الدروس وعدم تململه من طول الدرس ويضيف: قد تجد منا معشر الطلبة ونحن نجلس في راحة ونستمع دون أن نتحدث، من يفقد صبره على حضور الدرس فينصرف وربما يظهر عليه التعب، والنعاس، وسماحة الشيخ يواصل الدرس والشرح ساعتين أو أكثر متنقلًا من كتاب لآخر دون كلل أو ملل أو فتور.

دروسه العلمية:

كانت الدروس التي يقوم بإلقائها سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ دروسًا علمية، مفيدة قيمة في بابها، ماتعة في لبابها، عظيمة النفع، يانعة الثمار تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فقد قرئت عليه الكتب الستة [(١)]، و«مسند

---

(١) قال سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ : لم تقرأ الكتب الستة كاملة عليَّ، بل شرعنا في بعضها وانتهينا من أغلبها وقرئت عليَّ سنن النسائي رَحِمَهُ اللَّهُ كاملة في تسعة وعشرين يوما، قرأها عليَّ الشيخ صالح بن حسين لاعراقي رحمه الله، قلت: وقرأها كاملةً عليه مرة أخرىٰ تلميذه وخليفته شيخنا العلامة عبد العزيز بن عبد الله الراجحي.

الإمام أحمد»، و«موطأ الإمام مالك»، و«سنن الدارمي»، و«صحيح ابن حبان»، و«تفسير ابن كثير»، و«زاد المعاد»، و«كتاب التوحيد»، و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» و«الأصول الثلاثة»، و«الدرر السنية»، و«إغاثة اللهفان»، و«العقيدة الواسطية»، و«الفرائض»، و«منتهى الأخبار وأصول الأحكام»، و«النخبة» -نخبة الفكر- و«الاستقامة» و«جلاء الأفهام»، و«بلوغ المرام»، و«الحموية»، و«السنن الكبرى» للنسائي، و«العقيدة الطحاوية» و«منار السبيل مع إرواء الغليل»، و«الصارم المسلول على شاتم الرسول»، و«رياض الصالحين» و«الرحبية»(١).

□ وكانت تلك الدروس تغشاها الهيبة، وتتنزل عليها السكينة، من حيث وقار الشيخ، والإنصات من طلابه والمواظبة على المتابعة في أثناء الدرس، مع الإصغاء التام لكلام سماحته حتى يخيل أن مجلس سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كمجلس عبد الرحمن بن مهدي -شيخ الإمام أحمد وأحد أئمة السنة علمًا وعملًا- الذي وصفه أحمد بن سنان بقوله: «كان عبدالرحمن بن مهدي لا يُتحدث في مجلسه ولا يُبرى قلم ولا يقوم أحد فيه، كأنما على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة»(٢).

□ وفي تلك الدروس تبرز قيمة تعظيم النصوص الشرعية والوقوف عندها والأخذ بالدليل الصحيح، وعدم الالتفات إلى الآراء الشاذة، والأقوال المهجورة، ولله در سماحته فكم أحيا سُننًا، وأمات بدعًا، ونشر علمًا، وأزال جهلًا، رَحِمَهُ اللهُ.

---

(١) انظر: «نفح العبير من درس الجامع الكبير» (ص٥).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (ص٣٣١).

□ وترى في تلك الدروس من سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الحافظة العجيبة، والاستحضار السريع، وإذا أردت مصداق ذلك بلا ريب، فاستمع إلى سرده للآيات والأحاديث النبوية وأقوال السلف المرضية، التي يستشهد بها في محاضراته ودروسه اليومية، وإنني أجزم لو أدركه الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ لترجم له في (تذكرة الحفاظ).

وفي تلك الدروس العلمية النافعة، ترى الدمعة الصادقة، الصادرة من قلب مليء بالإيمان، مفعم بالصدق والإحسان، فسماحته رَحِمَهُ اللَّهُ سريع الدمعة تسبق عبرات دموعه عبارات كلامه في كثير من المواقف، مما يضفي على كلامه ومجلس درسه شعورًا إيمانيًّا روحانيًّا، وخاصة عند مواقف السيرة النبوية على صاحبها أتم الصلاة وأفضل التسليم.

وقد قرئ على سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الكتب العلمية النافعة، ورأيت من تمام الفائدة سردها وبيانها مستفيدًا وناقلًا مما ذكره الأخ الفاضل الشيخ خالد بن عبد الرحمن الشايع -سلَّمه الله- في مجلة «الدعوة» (عدد: ١٧٠٠).

١- «صحيح البخاري» وشروحه «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، و«عمدة القاري» للعلامة العيني، و«شرح الكرماني»، ويكون الرجوع إليها عند الحاجة والإشكال وخاصة «فتح الباري»، وقد تعاقب على قراءته شيخانا الكريمان عبد العزيز بن عبد الله الراجحي وعبد العزيز بن إبراهيم القاسم، هذا في درس الفجر حيث ختم مرات، أما في درس المغرب فقد قرأ الشيخ خالد المقرن، ثم الشيخ عبد العزيز السدحان وكلاهما بدأ ولم ينه القراءة.

٢- «صحيح مسلم»، وشرحه للإمام النووي، وتعاقب على قراءته

الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن باز في درس المغرب، والشيخ د. صالح بن عبد العزيز العقيل في درس الفجر، وممن قرأ فيه أيضًا الشيخ عبد الله بن عامر.

٣- «سنن أبي داود»، مع الرجوع لشيء من الشرح عند الإشكال، كـ«عون المعبود» و«بذل المجهود» و«شرح الخطابي» و«حاشية ابن القيم»، والرجوع إليها عند الحاجة، وتولى القراءة الشيخ د. عمر بن سعود العيد.

٤- «جامع الترمذي»، وشرحه «تحفة الأحوذي» للمباركفوري، وتولى القراءة الشيخ عبد المحسن بن عبد الله الزامل.

٥- «سنن النسائي»، مع حاشيته للسيوطي والسندي، وقد قرأه كاملًا شيخنا العلامة عبد العزيز الراجحي.

٦- «سنن ابن ماجه»، مع ذكر ما يحتاج إليه من تلخيص البوصيري في «مصباح الزجاجة»، وتولى القراءة الشيخ سلطان بن عبد المحسن الخميس.

٧- «مسند الإمام أحمد»، وما علق عليه كتعليقات الشيخ أحمد شاكر، أو الطبعة الأخيرة بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملائه، وفي الأولى قرأ الشيخ سلطان بن عبد المحسن الخميس، ويقرأ في «المسند» كذلك الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السند[1].

٨- «الفتح الرباني» للساعاتي رَحِمَهُ اللَّهُ، وتولى القراءة الشيخ سليمان الرشودي.

---

(١) قلت: وقد قرأ فيه الشيخ عائض بن عبد الله القرني -حفظه الله- .

٩- «موطأ الإمام مالك» ابتدأ قراءته الشيخ سعد بن عبد الله البريك.

١٠- «سنن الدارمي» والذي تولى القراءة فيه هو الشيخ سلطان بن عبد المحسن الخميس.

١١- «السنن الكبرى» للنسائي، قرأ بعضًا منها الشيخ د. عبد العزيز المشعل.

١٢- «كتاب التوحيد» لابن خزيمة ابتدأ قراءته شيخنا عبد العزيز الراجحي.

١٣- «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ممن قرأها الشيخ محمد إلياس عبد القادر، وهو إمام المسجد القريب من بيت سماحة الشيخ.

١٤- «الفتوى الحموية» لابن تيمية أتمها الشيخ ضيدان اليامي.

١٥- «الاستقامة» لابن تيمية، أتمه الشيخ فهد بن حمين الفهد.

١٦- «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، قرأ فيه د. عبد العزيز المشعل ما يزيد على الستة مجلدات الأولى.

١٧- «زاد المعاد في هدي خير العباد»، للعلامة ابن القيم، قرأ شيخنا عبد العزيز بن إبراهيم القاسم، وابتدأ مرض الشيخ الأخير قبل وفاته مع بداية كتاب الطب -تقريبًا- وذلك في المجلد الرابع.

١٨- «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام» لابن القيم، قرأه كاملًا أخونا الشيخ فهد المشرف.

١٩- «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» للعلامة ابن القيم، قرأه الشيخ فهد بن حميد الفهد.

٢٠- «مفتاح دار السعادة» للعلامة ابن القيم، قرأ فيه الشيخ فهد بن عبد الله الصقعبي.

٢١- «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب» للعلامة ابن القيم، أتمه الشيخ محمد إلياس عبد القادر.

٢٢- «الجواب الكافي» للعلامة ابن القيم، قرأه الشيخ محمد إلياس عبد القادر.

٢٣- «كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، قرئ مرات متواليات في دروس الشيخ. قرأه جملة من المشايخ منهم الشيخ عبداللطيف بن عبد المحسن البقماء.

٢٤- «الأصول الثلاثة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، قرئت مرات كثيرة، وممن قرأها الشيخ محمد المهوس -وكان وفقه الله وسدده- يحضر من الدمام كل صبح خميس للقراءة.

٢٥- «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، جمع الشيخ ابن قاسم، تولى القراءة فيها الشيخ أحمد بن الشيخ عبد العزيز بن باز.

٢٦- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن، قرأه أكثر من شيخ منهم ضيدان اليامي وسعد بن عبد الله البريك.

٢٧- «مسائل كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، قرأها الشيخ تركي بن عبد العزيز العقيل.

٢٨- «كشف الشبهات» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، قرأه الشيخ محمد إلياس عبد القادر.

٢٩- «شروط الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، قرأه الشيخ

محمد إلياس عبد القادر.

٣٠- «القواعد الأربع» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، قرأه الشيخ محمد إلياس عبد القادر.

٣١- «شرح السنة» للحافظ البغوي، ابتدأ قراءته الشيخ عبد الله بن صالح القصير.

٣٢- «إرواء الغليل بتخريج أحاديث منار السبيل» للعلامة الألباني، ابتدأ قراءته الشيخ د. عبد العزيز المشعل.

٣٣- «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير، قرأه في درس الفجر الشيخ د. عمر بن سعود العيد، وفي درس المغرب الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن باز، وكلاهما وصل إلى حدود المجلد الثاني من المجلدات الأربعة، وكان يُقرأ أيضًا في بيت سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد صلاة الجمعة. وقرأه الشيخ أحمد بن راشد العرفج من بدايات المجلد الأخير فيما أحسب، وقد طالعت نسخة سماحة الشيخ في مكتبته فرأيت له فيها عددًا من التعليقات النفيسة.

٣٤- «الروض المربع، مع حاشية ابن قاسم عند الإشكال»، ابتدأ قراءته الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي.

٣٥- «بلوغ المرام» للحافظ ابن حجر، أكمل قراءته الشيخ عبدالعزيز الراجحي، وهو أيضًا من دروس سماحته في المسجد القريب من بيته بين الأذان والإقامة لصلاة العشاء، ونسخة الشيخ الخاصة بمكتبته ثرية بالتعليقات والتحقيقات والترجيحات النفيسة [(١)].

(١) وقد طبعت الحاشية باعتناء شيخنا العلامة المفضال عبد العزيز بن إبراهيم بن =

٣٦- «رياض الصالحين» للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ بعد صلاة العصر في المسجد القريب من بيت سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاثة أيام في الأسبوع. قرأه الشيخ محمد إلياس عبد القادر.

٣٧- «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي.

٣٨- «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير، قرأه د. محمد بن سعد الشويعر مستشار سماحة الشيخ بالطائف وفي الرياض أيضًا.

٣٩- «منتقى الأخبار» لمجد الدين ابن تيمية، ابتدأ قراءته شيخنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي بعد أن أنهى قراءة البلوغ، ويُقرأ كتاب الصيام منه في رمضان في المسجد القريب من بيت الشيخ -المعروف بمسجد اليحيى-.

٤٠- «الإحكام شرح أصول الأحكام» للشيخ ابن قاسم، كان الذي يقرأه أحد مشايخ قبيلة معروفة، لا يحضرني اسمه الآن وكان كبيرًا في سِنّه جليلًا في قدره»[1].

٤١- «نزهة النظر شرح نخبة الفكر» (في مصطلح الحديث) للحافظ ابن حجر قرأه الشيخ فهد بن عبد الله الصقعبي.

٤٢- «الألفية في الحديث» للحافظ العراقي.

٤٣- «الفوائد الجلية في المباحث الفرضية»، تأليف سماحة شيخنا الإمام عبد العزيز بن باز، قرأه الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم القاسم.

٤٤- «وظائف رمضان الملخص من لطائف المعارف» للحافظ ابن

قاسم، نشر دار الامتياز بمدينة الرياض -عمرها الله بالعلم والإيمان-.

(١) هو الشيخ أبو محماس العتيبي.

رجب. لخصه وزاد عليه الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ قرأه الشيخ محمد إلياس عبد القادر.

٤٥- «صحيح ابن حبان»، قرأ فيه الشيخ عبد الوهاب الطريري.

ويضاف إلى ذلك الكتب المساندة مثل «تقريب التهذيب» حيث يتولى البحث فيه الشيخ عبد الله الشهراني، وكذلك «التهذيب»، و«الكاشف» للذهبي، و«القاموس» للفيروزآبادي، وغيرها.

وهكذا البحوث العلمية المتعلقة بالدروس والتي كان الشيخ يكلف أحد طلابه ببحثها ثم عرضها في درس لاحق.

وقد جمع أخونا الشيخ عبد الله العتيبي ما كلف به من مسائل وأصدرها في رسائل بعنوان: «نفخ العبير في دروس الجامع الكبير»[1].

ويضاف إلى ذلك أيضًا الكتب التي كان الشيخ يطالعها من المطولات وغيرها عند مراجعته بعض المسائل، وقد حضرت ذلك في مكتبته مرات عدة. اهـ.

ومما قرئ على الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٦- «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لشيخ الإسلام ابن تيمية، قرأه شيخنا المفضال عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم -رعاه الله-.

٤٧- «تفسير البغوي»، وقد قرأه معالي الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن باز -حفظه الله-، وذلك في منزل سماحة إمامنا وشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ بعد صلاة الجمعة.

(١) ورأيت في هذه الأيام بحوث علمية نادرة لأخينا الشيخ فهد الصقعبي جمعها ورتبها ونقحها وقرأ بعضها على شيخنا الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤٨- «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، قرأ بعضًا منها على الشيخ الدكتور عبد العزيز بن حمد المشعل.

□ قال الدكتور محمد لقمان السلفي الهندي سكرتير المفتي العام بالسعودية لشؤون الترجمة:

رؤيتي الأولى لسماحته:

لقد رأيت سماحته في المرة الأولى عند قدومي إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في شهر رمضان من سنة ١٣٨٢هـ وهو نائب رئيس الجامعة إذ ذاك وأنا طالب صغير؛ بل أصغر طلاب الهند سنًّا في الجامعة. وكان ديدن سماحته أنه كان يدعو كل طالب جديد في مكتبه يرحب به طالبًا في الجامعة ويشجعه ويسعى لإزالة أثر الغربة وفراق ذويه عن دماغه. فوجدته طويل القامة ظاهرًا بين مرافقيه، هادئًا متواضعًا بشوشًا يحظى بأدب جمّ واحترام ملؤه الحب والتقدير ممن حوله من العلماء والمدرسين والموظفين وغيرهم.

وأخذت أسمع من فطاحل العلماء الذين كانوا يدرسون آنذاك في الجامعة عن غزارة علم شيخي وبلوغه درجة الاجتهاد وعدم تقيده بمذهب فقهي معين وانتهاجه منهج المحدثين واستقائه من ينابيع القرآن والسنة كما استقى منه المحدثون الأوائل.

فأخذ من قلبي كل مأخذ واشتدت رغبتي في الاستماع إلى أحاديثه ومحاضراته ودروسه؛ لأني سلفي ابن سلفي ابن سلفي، وتربيت في صغري بين يدي علماء أهل الحديث، وجدي رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ قضى ثماني عشرة سنة من شبابه في صفوف المجاهدين لإقامة الدولة الإسلامية في شبه القارة

الهندية، ولم يرجع إلى بلده إلَّا عندما توقف الجهاد الإسلامي. وهكذا أخذ يزداد تعلقي به رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد ألقى في تلك الأيام شيخي العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني محاضرة علمية على طريقة المحدثين واستمع الحضور إليها استماع التلاميذ إلى درس شيخهم، وهابوا لمكانته واعترفوا له بعلو الكعب في مجال علم الحديث روايةً ودراية، وكنتُ أظن أن لا أحد يجرؤ على الحديث بعد حديثه، وإذا بشيخي رَحِمَهُ اللَّهُ قام من مكانه وعلق على محاضرة العلامة المحدث تعليقًا علميًّا دقيقًا، وأبدى ملاحظات حديثية، كلها كان يتعلق بعلوم الحديث سندًا ومتنًا. ثم قام المحدث ناصر الدين الألباني وشكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ واعترف له بغزارة العلم. فكانت هذه الواقعة بمثابة دليل قاطع على علو كعب شيخي وبروزه من بين معاصريه في علوم الكتاب والسنة. وهكذا ارتسخ في ذهني علو مكانته وأنه الشيخ الذي يجب أن يُحتذى.

مكانته بين علماء العصر وبعض مزاياه:

إن هذه العجالة لا تسع لذكر جميع صفاته الحميدة ومزاياه الكريمة، كما أنني أعترف بأن قلمي عاجز عن بيان تلك الصفات والمزايا التي كان الله قد وهب شيخي رَحِمَهُ اللَّهُ، وإني على يقين أنه ستكتب عنه صحائف وتؤلف كتب عن حياته ودعوته وجهاده في كثير من اللغات الحية في العالم.

ولكني أذكر هنا بعض ما قاله عنه الدعاة والعلماء الفضلاء في حياته وبعد وفاته، فقد قالوا:

١ – إنه شيخ الإسلام والمسلمين في هذا الزمان.

٢– وإنه إمام أهل السنة في هذا العصر.

٣– وإنه مجدد هذا الدين في هذا القرن.

٤ – وإنه لم يأت مثله منذ أربعة قرون ماضية.

٥ – وإنه إمام السلفيين في العالم.

٦– وإنه أمير الجهاد الإسلامي في العالم، حيث قاد كل حركة جهادية في العالم وهو في المملكة.

□ وحقًّا إنه كل ما قيل عنه في الجرائد والمجلات والكتب التي ألفت عنه، وإنه أكثر وأكثر مما قيل عنه، وقد تأسى بالنبي الكريم ﷺ في جميع أقواله وأفعاله ومعاملته مع ربه ومع الناس، حتى اجتمعت فيه جميع الصفات التي ذكرتها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عن النبي ﷺ وطمأنته، عندما خاف ﷺ أن يصيبه شر بعد عودته من غار حراء، وقالت بالحرف الواحد: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل (أي تنفق على الضيف واليتيم والعيال) وتكسب المعدوم (أي تكسب المال العظيم الذي يعجز عنه غيرك وتجود به في وجه الخير وأبواب المكارم) وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

* وقد أكرمه الله بموت النبيين والأولياء والصالحين، إذ فاضت روحه إلى خالقها ولسانه رطب بذكره. وهذه نعمة لا يعطيها الله إلَّا لعباده الأصفياء، وعندها يقول الملائكة مخاطبًا إياهم: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

□ ومما يدل على سعة أفقه موقفان ذكرهما الدكتور عبد الحليم عويس جاء فيهما: «زرته يومًا مع سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي -رحمه الله رحمة واسعة- فأكرمه كل الإكرام، وأثنى عليه ودعا له وللمسلمين في الهند وبسط القول في المفاهيم الإسلامية الصحيحة دون أن يتطرق الحديث في أية جزئيات، مع أنني كنت أعلم أن بعض إخواننا -هداهم الله- لا يسرهم بقاء الود كبيرًا وقائمًا بين ندوة العلماء في الهند وبين سماحة الشيخ ابن باز والمملكة العربية السعودية؟!! ولكن سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ كان عارفًا بأقدار الرجال وبموازين الحق.

وزرته يومًا مع فضيلة الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فاستقبله -أيضًا- أحسن استقبال وأكرمه غاية الكرم، وتكلم في بعض الأمور بطريقة عامة كريمة، جعلت الشيخ الغزالي يقول لسماحة الشيخ ابن باز -بود وحب-: اكتب إلي ما تشاء في ضوء النصوص الشرعية، وأنا مستعد للعدول عن أي رأي كنت قد رأيته أو اجتهدت فيه!! ولهذا كان الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ دائم القول في الشيخ عبد العزيز بن باز (وأنا شاهد على ذلك): إن الشيخ عبد العزيز بن باز مَلِكٌ من ملوك الآخرة»[1].

□ قال الشيخ العلَّامة اللغوي أبو تراب الظاهري رَحِمَهُ اللهُ: «أي رجل هذا الذي قضى نحبه ولاقى وجه ربه الكريم. إنه طود أشم قد هوى، وبدر تم قد أفل، وكأن بنيان قوم قد تهدم..

وما كان إلَّا كالسحابة أقلعت ... وقد تركت للناس مرعى ومَشْربا

---

(١) «الدعوة» عدد (١٦٩٤).

□ قال أبو تراب: «كان سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز عالمًا يعمل بعلمه، وكان فقيهًا ومحدثًا يُفتي على بصيرة، ويتمسك بحجة، وقد أوتي ذكاء باهرًا، وعقلًا ذا رجحان، وأحَلَّته حنكتُه مكانةً رفيعة، ومنزلة منيفة.

أخذ إجازة رواية الحديث عن والدي المحدث أبي محمد عبد الحق الهاشمي رَحِمَهُ اللَّهُ، ودرس الفقه على علماء نجد، وتفوق في استظهار دقيق المسائل، وأحاط بعللها وأدلتها. وكان نير الفكر، صحيح الاعتقاد، مطبقًا للسنة، قامعًا للبدعة، داعيًا إلى التوحيد، رافعًا رايته، رحب الجناب، بذولًا للمال والشفاعة، رفيقًا بالأصحاب والزوار، مع الخلق الأتم والأدب الجم..

وما كان قيسٌ هُلكُه هُلْكَ واحد ... ولكنه بنيانُ قومٍ تهدما

وافاه الأجل المحتوم، ولبى نداء ربه طائعًا مُسلمًا، أواهًا منيبًا، وكذلك المؤمن إذا أزمع الرحيل من هذه الفانية على دار الآخرة راجيًا رحمة ربه، طامعًا في عفوه وإحسانه..

وما المرء إلَّا كالشهاب وضوئه ... يَحورُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعجِّلُ لعباده الصالحين بعد أن يقوموا بوظائفهم الدينية، ويُلقِّيهم من النُّعمى أنضرها، ويُبوِّئُ لهم من المقاعد أصدقها..

والموت نقَّادٌ على كفه ... جواهرُ يَختار منها الجيادا

□ قال أبو تراب: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ كثير التردد على حلقات العلم التي كان يعقدها العلماء السلفيون، وكان إذ هو بمكة المكرمة يرتاد مكتبة الحرم المكي بباب دريبة، ومعه مقرئ له، وذلك أيام الأستاذ عبد الله فداء والسيد أحمد دحلان رحمهما الله، فإذا دخل المكتبة سأل عني، وكنت من

أحلاسها، فإذا وجدني فيها فضل أن أقرأ له أنا، وكان يرتاح لسماع قراءتي ومراجعاتي.

وربطت بيني وبينه آصرة ود وتقدير، وكلما اجتمع بي تذكر أبي وترحم عليه، ودعا له قائلًا: جمعنا الله به في دار القرار، وكان يُجل والدي أعظم إجلال، ويصرح بأنه أعلم علماء العصر، وقد قرَّظ رسالة والدي في العقيدة، وأثنى عليه، وكان إذا حضر درس أبي أعجب أشد الأعجاب بشرحه.

أذكر أنه حضر درس التفسير للوالد مرة، وسأل قائده بعد أن استمع إليه. في أي كتاب يقرأ الشيخ؟ قالوا: ليس معه إلَّا المصحف فقضى عجبًا من غزارة علم الوالد وحفظه.

□ ومن صور الاحترام المتبادل بينهما أنه أقيم حفل بدار المهاجرين بمكة المكرمة تحت رعاية سمو أمير مكة، وكان والدي وابن باز مدعوين لإلقاء كلماتهما، وتوقف الشيخان عن المشي، كل واحد منهما يقدم صاحبه أن يمشي قُدامه، وأجبر الوالد أخيرًا، وقال: لا بأس أنا أمشي أمامك فقد كان أنس بن مالك رضي الله عنه يمشي أمام رسول الله ﷺ وهو خادمه، فمشي والدي أمام ابن باز.

□ إن أفق ابن باز رحمه الله واسع في العلم، واجتهاده سلسال، وتقديمه للحديث الصحيح على أقوال المقلدين مشهود له، وتطبيقه للسنة في الأفعال ظاهر للعيان، ولعمري من كان هذا ديدنه فلا غرو أن يكون القدوة والعمدة والأسوة.

□ كان رحمه الله معوانًا على أمور الخير، ميالًا بطبعه إلى مساعدة أهل

الصلاح، وقف حياته لخدمة أهل العلم، لم يبخل قط بشفاعته، وداره مفتوحة للمراجعين، وضيافته مستمرة طوال العام، ومواعظه وخطبه مشحونة بالنصائح والتوجيهات الشرعية، والإفادات العلمية، وبالجملة، كان الإصلاح أول أهدافه ومراماته.

وبهذا الخير الكثير، والعطاء الجزيل بنى مجدًا مؤثلًا، فهو مخصب مُثير، مستكثر مستظهر، صيّر شير، وكان يبر المعتر، ويمول المؤمل، ويُسعف حتى يُسرف، ويُلطف حتى يُترف.

□ وكان ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ ذا خلق أرصن، وحجي أرزن، ووقار موفور، يحب العلماء العاملين، والمرشدين الموجهين، يسعى لتنويلهم مطالبهم، وإسعادهم بما حظي هو من الحظ الساجع الذي جاءت علاماته لامعة، وأمارته ساطعة، وآياته طالعة.

اختار ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ مذهب السلف الصالح عن قناعة وتفهم، وتقليب للمذاهب، وتجوال فكري في خلافياتها، فنعم الاختيار كان، وحبذا السلوك سلك.

هذا ولا يصفه إسهاب، ولا يبلغ نعته إطناب، وينقطع دون مديحه كل إفراطٌ فهو محضٌ خالص، صافٍ صريح، صرف صُراح، غير ممذوق، منقح غير ممزوج.

نالتنا بفقده رزية، وحلّت بساحتنا فجيعة، وقد ساد البرعاء، وتقدم العلماء، وسبق الفقهاء، وشأى الفهماء، وكان العلم سميره، والحلم وزيره والتقوى مشيره، والحكمة والحق حليفه، والصدق صديقه، والحياء حليته، والزماتة زينته، والوفاء شعاره، والسكينة دثاره والإخبات شيمته،

والتواضع سجيته والتوفيق قائده، والسداد رائده، والرشاد ذائده، والهدى حاديه، والقرآن هاديه، والإسلام سلمه والبر عادته، والإصلاح سلاحه والإنصاف أليفه، بلغ الغاية العليا، والممدى الأقصى، والمبغى الأعلى، والمرتقى الأنأى.

معالم في منهج الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ العلمي:

١- معالم الإبداع وجوانب التميز عند سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وصلته بأهل العلم وعلاقته معهم.

٣- سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وثناء العلماء عليه.

٤- سماحة الشيخ وبلوغه درجة الاجتهاد.

١- معالم الإبداع وجوانب التميز عند سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن الناظر بعين الإنصاف إلى سيرة سماحة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ العلمية يجد فيها جوانب مشرقة من الإبداع والتميز والرسوخ والتأهل والاجتهاد، ولعل أبرز تلك المعالم ما يلي:

أ- روح الاجتهاد والاستنباط المنبثقة من الفقه المتين والدراسة الواعية والفهم العميق والفكر المستنير مع الإحاطة التامة المبنية على مقاصد الشريعة وأصولها وقواعدها وضوابطها.

ب- البعد عن الشذوذ والفتاوى البعيدة عن مهيع الحق ومنهج الصواب، بل الاتباع الصادق والسير على أقوال العلماء المتقدمين واختيار أقواها دليلًا وأبينها حجة وأصحها مسلكًا ومذهبًا، ولهذا لا توجد له فتوى شاذة خارجة عن الأصول الشرعية، والقواعد المرعية، ومناهج أهل العلم المرضية.

ج- لزوم الإنصاف والبعد عن الجور والاعتساف، والحرص التام على هداية الخلق مقترنًا ذلك بالحكمة والرحمة، وحب الهدى لهم، مما كان له الأثر الحميد في نفوس الناس عمومًا ومخالفيه من أهل العلم خصوصًا، فله في ذلك قدم صدقٍ في التلطف والدعاء وبذل الخير، مما أثمر عودة كثير من الناكبين عن الجادة إلى سابلتها الأساسية وطريقها المستقيم؛ وهذه طريقته مع العلماء وغيرهم مما جعل له قبولًا واسعًا عند الناس.

هذه أبرز معالم تميزه عمومًا، وأما جوانب إبداعه خصوصًا فهي على النحو التالي:

د- اعتناؤه بالحديث ومعرفته لأحكامه وفقهه وتضلعه في علم المصطلح وتميزه التام في بناء الأحكام من ناحية التصحيح والتضعيف، وتمكنه العظيم من علم الجرح والتعديل، وإتقانه لعلم العلل ومعرفته الواسعة بها، مما جعله في مصاف المحدثين الكبار، وله آراء وأقوال واختيارات مبنية على إلمام واسع وعلم راسخ ومعرفة قوية بقواعد المحدثين وطرقهم في التصحيح والتحسين والتضعيف.

وعليه؛ فإن هذا الجانب قد أبدع فيه شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيما إبداع حتى بزَّ الأقران، وفاق العلماء، ووصل إلى درجة الحفاظ المتقنين فيه، من ناحية تتبع الطرق والشواهد والمتابعات، هذا كله مع ذاكرة وقَّادة، وحافظة قوية، ودقة استحضار للمتون، مع التزامه الدائم ببيان الأحكام والدرجات.

ومن أمثلة حكمه على بعض الأحاديث سندًا ومتنًا:

□ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث عند الترمذي: «.. أما الحديث الذي رواه

الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يأخذ من لحيته طولها وعرضها، فهو حديث باطل عند أهل العلم؛ لأن في إسناده رجلًا يدعى عمر بن هارون البلخي وهو متهم بالكذب، وقد انفرد بهذا الحديث دون غيره من رواة الأخبار مع مخالفته للأحاديث الصحيحة، فعلم بذلك أنه باطل لا يجوز التعويل عليه ولا الاحتجاج به في مخالفته للسنة الصحيحة»[1].

ومثل هذا كثير لمن سبر وتتبع فتاويه يجد فيها كمًّا هائلًا من الأحكام والتفصيلات العلمية المبنية على القوة العلمية الحديثية.

هـ- عنايته بالفقه، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ فقيه نفسٍ من الطراز الأول، وفقيه علم ودرس، ولئن كان الفقه هو الفهم والإدراك للمعنى القائم على دلالة النقل ومقصد الشريعة ومراعاة الحال وتغير الزمان والمكان، فإن سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ممن عني بالفقه التام بجميع صوره وأشكاله، ولم يكن في فقهه مجرد ناقل للأقوال، يتبع أراء الفقهاء وكلامهم دون تمييز، وينقل أقوالهم دون تمحيص؛ بل إن منهجه في الفقه جمع بين أمرين:

الأول: الاعتناء بالنصوص وحفظها ومعرفتها والعناية التامة بأقوال الصحابة التابعين عليها واستنباط الأحكام منها دون الميل إلى الشذوذ والانفراد ما أمكنه إلى ذلك سبيلًا، ولهذا لا تعلم له فتاوى شاذة في الفقه وغيره من العلوم الشرعية.

الثاني: الاستئناس بأقوال الفقهاء والرجوع إلى كتب الفقه المعتمدة للقراءة والاستفادة منها ومعرفة موارد الاستدلال وتقديم أقواها حجة

---

(١) «مجموع فتاواه» (٣/ ٣٧٢).

وبرهانًا وأقربها إلى مقتضى قواعد الشريعة، وهذه الطريقة جامعة مانعة لأنها جمعت بين الطريقتين المشهورتين في الفقه:

الأولى: دراسة الفقه المذهبي.

الثانية: دراسة الفقه على طريقة المحدثين المرتبطة في أصلها بكتب المذاهب الفقهية، ثم بعد ذلك النظر في الأدلة والمدلولات والأخذ بالراجح وتقديمه على غيره، وإن كان في ذلك مخالفة للمذهب وخروج عن جادته، وهذه الطريقة هي التي سلكها، وذلك لما وهبه الله من أدوات الاجتهاد والرسوخ والمعرفة التامة والإحاطة الشاملة بالسنة النبوية وآثار السلف الصالح -رحمهم الله-.

□ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما ما جرى من الاختلاف بين أهل العلم في المذاهب الأربعة وغيرها، فالواجب أن يؤخذ منه ما هو أقرب إلى الصواب وهو القول الذي هو أقرب إلى ما قاله الله ورسوله نصًّا أو بمقتضى الشريعة»[(١)].

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مذهبي في الفقه هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وليس على سبيل التقليد، ولكن على سبيل الاتباع في الأصول التي سار عليها، أما مسائل الخلاف فمنهجي فيها هو الترجيح ما يقتضي الدليل ترجيحه، والفتوى بذلك، سواء وافق مذهب الحنابلة أم خالفه؛ لأن الحق أحقُّ بالأتباع، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء].

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٣١٠).

ولشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ جوانب أخرى ميزته وأبدع فيها من معرفته بواقعه فقهًا وحالًا، وعنايته الكبيرة بأصول الشريعة وقواعدها، وإحاطته بمقاصد الشريعة ومصالح الأمة، وتقديم القواعد المستقرة على غيرها من الفروع المتفرعة عنها؛ -رحمه الله رحمةً واسعةً وحباه الفردوس منزلًا ومكانًا-.

٢- سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وصلته بأهل العلم وعلاقته معهم:

إن من المهم بيانه في هذه الصلة الحميمة، والعلاقة العظيمة، قيامها على عدة مبادئ:

الأول: الحب في الله عَزَّ وَجَلَّ وحب الخير لهم والدعاء بالسداد والتوفيق في ظهر الغيب والإشادة بهم، والتشجيع لأعمالهم العلمية والدعوية والكتابية، وغير ذلك من الجهود السديدة، والأعمال الرشيدة، فنرى في سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ الفرح والسرور حينما تبلغه أخبار سارة عن جهود وأعمال لإخوانة من العلماء؛ بل السؤال منه دومًا غالبًا حين زيارتهم له عن الجهود الدعوية، والدروس العلمية، والأعمال الخيرية، والمشاريع المستقبلية، والعقبات والمشاكل الحالية.

ومما يجدر ذكره في مثل هذا المقام أن سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ لما زاره مفتي لبنان ومعه مفتي جبل لبنان أوصاهم بكل صدق وشفافية بالعناية بالدروس العلمية وكتب التوحيد من الأصول الثلاثة وغيرها، وأن هذا من أعظم المطالب السنية، وأفضل الأعمال المرضية، وأن ذلك واجبٌ على العلماء الناصحين والمفتين الصادقين فيما يتعلق بتصحيح العقيدة وتقريرها، فبمثل هذه المواقف الصادقة تبرز من سماحته أهمية الحب في الله وإرادة

الخير والنصح والتعاون على البر والتقوى مع علماء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

الثاني: حبه العظيم لمشايخه السابقين وإجلاله لهم وكثرة الترحم عليهم وذكرهم بكل خير وفضل ومناقب حسنة وخصال جميلة؛ بل إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن ذلك من أسباب البر والصلة الحميدة بهم، فكم من دمعة صادقة تحدَّرت من مآقي عينيه، عندما يأتي على سِيرهم وخاصة عند سيرة شيخه العلامة الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا يدل على الحب العظيم المقترن بالاعتراف الصادق بجميل الأثر وعظيم الاستفادة منهم.

الثالث: كثرة ترحمه على العلماء: فكان سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يكاد يذكر أحدًا من علماء السلف أو يذكرهم أحد عنده إلَّا ترحم عليهم، ودعا لهم سواء العلماء السابقين كالصحابة والتابعين، أو من جاء بعدهم من أتباعهم كالليث بن سعد، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، والأئمة الأربعة وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وإمام الدعوة السلفية الإمام محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه وأتباعه الصادقين من أئمة الدعوة؛ بل وسائر علماء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

الرابع: حبه لقراءة سير العلماء الصادقين، وعظيم تأثره بذلك، لما تحتويه من العبر العظيمة والمواقف الخالدة؛ بل كان كثيرًا ما يبكي وتتحدر الدموع على وجنتيه إذا قرئ عليه شيء من سير العلماء، وما لاقَوه في سبيل العلم، وما قاموا به من الدعوة والجهاد.

أما علاقته بالعلماء فهي علاقة المحب لإخوانه الصادق في محبته

ونصحه وإرشاده، وهذه العلاقة علاقة احترام وثناء وتقدير وإكرام ومعرفة لمنازلهم، كما تميزت منه رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه العلاقة حفظ الأعراض وصيانة السمعة، والإنكار الصادق على من يريدهم بسوء من طعن أو قدح وغير ذلك، وإنه من العجيب حقًّا والغريب صدقًا، أن هذه العلاقة بالعلماء لم نر فيها على سنيها الطويلة، وأزمنتها المديدة؛ أي جانب من جوانب الظلم أو الهوى أو الانتصار للنفس أو الانتقام للذات من سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بل هي علاقة محبة وتشجيع وتأييد وتسديد وتقويم، فلله در شيخنا على هذه الخصلة الحميدة والمنقبة الرشيدة.

ولعلي في مثل هذا المقام أمثِّل بأمثلة تبين علاقة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بإخوانه من العلماء الصادقين الناصحين الذين تجمعهم بسماحته رَحِمَهُ اللَّهُ المحبة الصادقة، والأخوة الخالصة:

أ- علاقته بالعلامة المحدث محمد ناصر الدين بن نوح بن نجاتي الأرنؤوط الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ:

لقد كان سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ محبًّا ومجلًّا للعلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عالمًا بفضله، مقرًّا له بعلو كعبه في علم الحديث مستفيدًا من كتبه وبحوثه، كثير الرجوع إليها، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يكثر الثناء عليه وكان يقول عنه: هو من خواص إخواننا. وقد درَّس بعض كتبه مثل «إرواء الغليل» في دروسه، وأثنى عليه ثناء عطرًا كما في كتاب «حياة الألباني» للشيباني.

وفي المقابل نجد العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ محبًّا للشيخ محبة عظيمة في الله ولله، يذكره بشمائل الخير وأوصاف الهدى، مقرًّا له بعلمه وفضله وسعة خيره وعظيم جهاده وعلمه حتى قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو خير مني، نفعه متعدٍّ

شمل العالم والجاهل والصغير والكبير، ونفعي قاصر على المختصين من علوم الحديث»، أو عبارة نحوها.

ولما بلغه نبأ وفاة شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تنهَّد وزرفت عيناه الدمع واسترجع وقال: «أحمد الله على كل حال، نعزيكم بوفاة الشيخ ابن باز ولا أقول إلَّا: إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، وكل شيءٍ بأجلٍ مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فنسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعله في العليين مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا. ونضيف إلى ذلك: أننا نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يَخلُفَه مِن بعده مَن هو خير منه في خدمة الإسلام والمسلمين، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلَّا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها»[1].

ب- علاقته بالعلامة الفقيه الشيخ محمد بن صالح بن العثيمين الوهيبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلقد كانت علاقة متميزة وصلة وطيدة ومحبة عظيمة، كان سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ محبًّا ومجلًّا ومقدرًا لتلميذه الشيخ محمد بن عثيمين، يلقبه بسماحة الشيخ والعلامة وغيرها من ألقاب التكريم والتعظيم، وله وقفات صادقة معه تنبئ عن عظيم إجلال وكبير تقدير، وشرح كتابه «مجالس رمضان» وقدَّم وقرظ بعض كتبه مثل القواعد المثلى، وعقيدة أهل السنة والجماعة. وكان كثير الحفاوة به، وكان يكلفه ببعض البحوث ومراجعة بعض المسائل مثل مسألة «قضاء دين الميت من الزكاة»، وقال له مرة: أود أن تكون فتوانا واحدة وألا نختلف قدر الإمكان، وإذا اختلف معه في مسألة

(١) «كوكبة من أئمة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ» (ص١٦٤- ١٦٥).

قدَّر له سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رأيه واجتهاده؛ كما في مسألة قصر الصلاة للمسافر مدة طويلة»[1].

ورأيته يعطيه سماعة الهاتف في مجلسه لكي يشارك معه في الإجابة على الفتاوى، وهي منقبة خالصة لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، فلم تكن لغيره مع كثرة من يزور سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما الشيخ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد كان محبًّا لشيخه معترفًا بفضله، مقرًّا بتميزه وعظيم نفعه وكبير خيره عليه وعلى الأمة كافة، وكان يلقبه بسماحة الوالد، ويذكر ترجيحاته وفتاويه في الدروس والمحاضرات؛ بل وسمعته يذكره على المنبر في خطبة الجمعة، وإذا كاتَبه صدَّر كتابه بقوله: من الابن محمد الصالح العثيمين إلى شيخنا المكرم عبد العزيز بن عبد الله بن باز. وحزن حزنًا شديدًا وبكى بكاءً مرًّا لما بلغه نبأ وفاة شيخه الشيخ عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وذهب للصلاة عليه في مكة وحضر الدفن في المقبرة، مع أنه لا يرى رَحِمَهُ اللَّهُ السفر من أجل الجنازة، وعلَّل سفره بقوله: «حتى لا أُفقد في مثل ذلك المكان ويقال: لماذا لم يحضر ابن عثيمين، وتظل قالة السوء ووساوس الشيطان ومحبة الظن الفاسدة جاثمة في الصدور فأردت أن أقطعها وأحسمها».

□ قلت: «رحمك الله يا أبا عبد الله، ورحم الله مِن قَبلُ شيخَنا، هذا هو الفقه السديد، والرأي الرشيد، ومعرفة المصلحة العظمى ودرء المفسدة الكبرى».

---

(١) «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ» (ص٢٥٨).

ومن اللطائف التي يجدر بنا ذكرها في مثل هذا المقام أوجه التشابه بين الإمامين ابن باز وابن عثيمين رحمهما الله تلك الأوجه:

١- أن سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ لما أصيب بالمرض تحامل على نفسه أداءً وعملًا وحرصًا على إفادة الناس ما يحتاجون، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يعطي الدروس ويحدث الناس ويذكرهم في المناسبات وفي المسجد وفي مجلسه العامر حتى في ليلة وفاته، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لم يترك الشفاعة والرفع للمسؤولين من أجل نفع إخوانه من المسلمين حتى في ليلة وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكذلك الشيخ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ لما أصيب بالمرض تحامل على نفسه ورئيَ منه الصبر العجيب في ذلك، وكان المرض شديدًا عليه والأجهزة الطبية في سائر جسده، ومع ذلك كله أدى حديثه المعتاد في رمضان، وأجاب على أسئلة المستفتين في الحرم المكي الشريف -زاده الله شرفًا ومهابةً ومكانة- بعبارات جامعة مانعة.

٢- ومنها: أن سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ حرص حرصًا شديدًا على أن يذهب إلى مكة بلد الله الحرام -زادها الله شرفًا ومهابة ومكانة- لأداء العمرة وذلك قبل وفاته بأيام.

وكذلك سماحة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أصر على الاعتمار والمجيء إلى مكة وقضاء العشر الأواخر فيها، وختم له بعدها بخمسة عشر يومًا.

٣- ومنه أن كلاهما -رحمهما الله- أكرمهما مولاهما عَزَّ وَجَلَّ وأنعم عليهما بثبات حواسهما وسلامة ذاكرتهما، فلم يكن لديهما أي اختلاط أو ضعف أو فقدان للذاكرة. فشيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ ليلة وفاته أفتى ووجه وذكر ونصح وأرشد ودعا، وصلَّى من الليل وسبَّح الله وحمده سُبْحَانَهُ، ثم تُوفي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل وفاته، يقرأ القرآن ويحرص على الذكر والدعاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤- ومنها: حبهما الشديد لبلد الله الحرام مكة -زادها الله شرفًا- وكثرة المجيء إليها والحرص على العمرة في رمضان وقضاء أيام فيها من العام، ولذا كانت الصلاة عليهما في الحرم المكي ودُفنا متجاورين في مقبرة العدل بمكة، نسأل الله بمنِّه وكرمه أن يجعلنا وإياهما مع من ينعم عليهم بأن يكونوا في الفردوس إخوانًا على سرر متقابلين.

٥- ومنها: كلاهما -رحمهما الله- محب لطلاب العلم وباسط كفه وجناحه لهم، يمداهم بالمساعدات والشفاعات الحسنة، ولهما في ذلك المواقف الحميدة والقصص المشرقة.

هذه بعض أوجه التشابه بين الإمامين، وثَمَّةَ أوجُهٌ أخرى من الخصال الرشيدة، والسيرة الحسنة والزهد والورع، ناهيك بالعبادة والتقى وعمل الخير وحب المساكين.

علاقته بالعلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمهما الله-:

وهي علاقة مميزة، لأن الشيخ عبد الرزاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من العلماء الصادقين الراسخين المتمكنين في العلم الشرعي، وممن منَّ الله عليهم بالخير، والهدى والسداد والرشاد، وحب العقيدة السلفية، والذَّب عن حياضها ومناهلها الصافية، مع قوة علم، ودقة فهم، ومَضاءَ حجة، ونصاعة برهان، وسعة معرفة، وعظيم تبحر في كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلميذه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرهم، وقال عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاة الشيخ عبد الرزاق: صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي

رَحِمَهُ اللَّهُ أعرف عنه التواضع والعلم الجم والسيرة الحميدة والعقيدة الطيبة والحرص العظيم في أداء عمله على خير وجه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان مثالًا في الجد وفي أداء عمله على الوجه المطلوب، ومثالًا جيدًا أيضًا في حسن السيرة والمخاطبة للجمهور مع سعة الصدر لإجابات السائلين.

فنسأل الله له المغفرة والرحمة ورفع الدرجة وأن يصلح عقبه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وقد استضافه سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ معه في آخر سنة من حياته حينما قال له: إنني أريد أن أحج معكم هذا العام فقال الشيخ له: حياكم الله حياكم الله، وأمر سماحته بوضع خيمة خاصة بالشيخ عبد الرزاق وأمر بالعناية به، يقول الشيخ محمد الموسى:

وكانا معًا في يوم عرفة في خيمة واحدة، وإذا قدم فاكهة أو قهوة أو شاي أو أي شيء قال سماحة الشيخ عبد العزيز: «تفضل يا أبا أحمد، والشيخ عبد الرزاق يقول: جزاك الله خيرًا، ويدعو للشيخ عبد العزيز».

وقد لاحظت في ذلك اليوم أن الشيخ عبد الرزاق يُصَعِّد بصره ويُصوِّبه نحو سماحة الشيخ ولا يكاد يلتفت عنه يَمنة أو يَسرة طيلة ذلك اليوم[1].

وفي المقابل نجد الشيخ عبد الرزاق محبًّا ومجلًّا ومقدرًا لسماحة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، قال مثنيًا عليه: نبغ في كثير من علوم الشريعة وخاصة الحديث متنًا وسندًا، والتوحيد على طريق السلف الصالحين والفقه على مذهب

(١) «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» (ص٢٥٤- ٢٥٥).

الحنابلة، حتى صار فيها من العلماء المبرزين.

ويذكر الأخ الشيخ د. حمد بن إبراهيم الشتوي موقفًا عظيمًا يدل على محبة خالصة في الله للشيخ عبد الرزاق لسماحة شيخنا ابن باز -رحمهما الله-: «فقد كان لا يذكر الشيخ الإمام ابن باز -أي الشيخ عبد الرزاق- إلَّا تأثر من الثناء على خلقه وسلوكه وبكى بكاءً مرًّا، فكم رأيته ودموعه تنحدر على لحيته البيضاء العظيمة، وهو يقول: «الشيخ ابن باز عظيم الأمل والرجاء في صلاح الناس، واستقامة الأمور، ليس لليأس إليه سبيل، هو دائمًا متفائل وقلبه طيب» اهـ.

وأذكر أنني زرته -ما زال الكلام للشيخ حمد- في مخيمه بمنى أيام الحج عام ١٤٠٣هـ، وقلت لأصحابي المرافقين معي: سترون الشيخ عبد الرزاق وهو يبكي، وكانوا يتعجبون مما أقول، وكنت أريد لفت انتباههم إلى هذا الموقف العظيم وحَفْزَهم إلى التطلع إليه، فلما سلمنا عليه يوم النحر، قلت له: يا شيخ كيفكم وكيف الشيخ عبد العزيز؟ فقال: بخير ولله الحمد، والشيخ عبد العزيز لا يُسأل عنه، ما شاء الله، ثم أخذ في الثناء عليه، حتى تحدرت دموعه -رغم شدته وقوته-، وهو يقول: ابن باز طراز غير علماء هذا الزمان، ابن باز من بقايا العلماء الأولين القدامى، في علمه وأخلاقه ونشاطه.. ثم قطع كلامه بعبرة خنقته من الإتمام»[1].

٣- سماحة الشيخ وثناء العلماء عليه:

لقد حصل الشيخ ابن باز على الكثير من الثناء من علماء زمانه فشهدوا له بغزارة العلم، وتمكنه من الاجتهاد والفتيا وغير ذلك من المميزات التي

---

(١) «الإبريزية في التسعين البازية» (ص١٧٩ - ١٨٠).

يتميز بها العلماء الربانيون، ولعل هذا دليلًا على قبوله عند الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن جملة العلماء الذين أثنوا عليه:

١- فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ وهو أحد تلاميذه حيث قال:

«إن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لا يحتاج إلى تعريف؛ لأن أفعاله تنطق بها قدم، فهو أعلم الناس بالحديث والتوحيد والفقه»[(١)].

٢- قال تلميذه سماحة المفتي العام للمملكة العربية السعودية فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ:

«يُعدُّ ابن باز عالمًا من أعلام الأمة وشيخًا من مشايخ المسلمين، وإمام هدى وقدوة للخير، ومعظمًا لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ عاملًا بعلمه، وداعيًا إلى الخير، باذلًا جهده ووقته كله في الدعوة إلى الله بالقول والعمل»[(٢)].

٣- وقال الإمام العلامة المحقق السلفي الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «لقد نبغ الشيخ ابن باز في كثير من علوم الشريعة.. فكان مثالًا للعالم المحقق المخلص في عمله، ويغلب على مؤلفاته وضوح المعنى وسهولة العبارة وحسن الاختيار، مع قوة الحجة والاستدلال، فالشيخ قد وهب نفسه للعلم والمتعلمين، وبذل جهده في تحقيق المصالح لمن قَصَدَه أو عرف به مع رحابة صدر وسماحة خاطر [والشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللهُ يعتبر واحدًا من طبقة أساتذة الإمام ابن باز، ومع

(١) انظر: «سيرة وحياة الشيخ ابن باز» للحازمي (١/ ٤٥٦).
(٢) «سيرة وحياة الشيخ ابن باز» للحازمي (١/ ٤٥٧).

هذا فإن العلامة عبد الرزاق لا يذكر الشيخ ابن باز إلَّا تأثر من الثناء على خلقه وسلوكه وبكى بكاءًا مرًّا] الشيخ ابن باز عظيم الأمل والرجاء في صلاح الناس واستقامة الأمور، ليس لليأس إليه سبيل، وهو دائمًا متفائل وقلبه طيب وهو طراز غير علماء هذا الزمان، ابن باز في بقايا العلماء الأولين القدامى؛ في علمه وأخلاقه ونشاطه»[١].

٤- ويقول تلميذه العلامة الجليل فضيلة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان رئيس مجلس القضاء الأعلى:

«سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز قام بأمور عظيمة قلَّ أن يقوم كثير من العلماء ببعضها، فقد قضى حياته في عمله من تعليم ودعوة وإرشاد، وكان سخيًّا بنفسه وماله وعلمه، وكان يشعر رَحِمَهُ اللَّهُ وكأنه وكيل للناس كلهم وكل من لجأ إليه في مصلحة مشروعة وهو يستطيع أن ينفعه نفعه، ولا يخص بذلك أحدًا دون أحد.. هو من نوادر علماء هذا الزمان حيث كان شديد الحرص على السنة والأخذ بها والدعوة إليها والدفاع عنها»[٢].

٥- يقول عنه تلميذه العلامة السلفي الفقيه الجليل الشيخ عبد الله بن جبرين:

«بسط الشيخ نفسه للتعليم، فشغل بذلك وقته ليله ونهاره واشتغل بتعليم المسلمين، لم تشغله الأعمال ولا الوظائف عن أن يجلس للطلاب، وأن يقرأ الخاص والعام والصغير والكبير، فقد قام بصفات العالم الرباني، وصفات المؤمن العابد، وهكذا جبله أيضًا على السخاء والكرم، جمع خصال الشرف وخصال الفضل، كلامه كله درر وخير، وكذلك وجهه

---

(١) انظر: «الإبريزية في التسعين البازية». د. الشتوي، (ص١٧٨- ١٨٠).
(٢) «الإبريزية في التسعين البازية» (ص١٨٠- ١٨١).

متهلل لكل من يأتي إليه وكل من يسأله فلا يرد سائلًا، وبكل حال خصال الشيخ وفضائله يعجز الإنسان أن يحيط بها»[(١)].

٦- وقد أثنى عليه العلامة الفقيه الأديب المؤرخ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، هو المستحق للقب «شيخ الإسلام والمسلمين» لما بذله من مساع في خدمة الإسلام والمسلمين، فهو الداعية الكبير، وهو المفتي الأول في الداخل والخارج وهو الموجه إلى فعل كل خير، وهو المرجع في كل شأن من شؤون الإسلام، لما حباه الله تعالى من إخلاص لدينه وأُمته، ولما امتاز به من سعة علم وبعد نظر وقبول لدى المسلمين.. وقد جعل الله له إجلالًا في النفوس ومحبة في القلوب»[(٢)].

٧- وقال عنه تلميذه العلامة الفقيه قاضي محكمة التميز بمكة سابقًا وعضو هيئة كبار العلماء فضيلة الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع:

قال في تقريظه لكتابنا «الإنجاز في ترجمة ابن باز»: «لا شك أن شيخنا ووالدنا الشيخ عبد العزيز إمام مجدد في عصرنا الحاضر، فهو إمام في علم الحديث وفي رجاله بلا نزاع، وهو إمام في الفقه ودقة النظر، وإمام في الدعوة إلى الله بلسانه وقلمه ونفسه وماله، وهو إمام في كرم النفس وكرم اليد، وإمام في النصح في العمل والمثابرة عليه، وإمام في السماحة والتواضع والقناعة والتقوى والصلاح.. إننا لا نستطيع أن نجد في عصرنا الحاضر عالمًا كان له من الثقة والقبول العام والاطمئنان والمحبة

---

(١) انظر: «سيرة وحياة ابن باز»، للحازمي (١/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «الإبريزية في التسعين البازية»، د. الشتوي (ص١٨١).

والاعتبار ما كان لشيخنا، فهو إمام العصر وحبره وعالمه»(١).

٨- وقال عنه تلميذه العلامة السلفي الفقيه عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان:

«.. ابن باز هو العالم الفذ في علمه وفي عمله وفي أخلاقه، وفي حبه للخير وأهله، وفي سعيه الجاد لنشر العلم، يعرف ذلك القاصي والداني عنه، ومهما قلت فإنني أراني مقصرًا في وصف ما لهذا العالم الجليل من جهود عظيمة، وما تحلى به من فضائل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»(٢).

٩- وقال عنه رئيس مجلس الشورى وعضو هيئة كبار العلماء فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد:

«إن ابن باز هذا اسمٌ عالٍ في سماء العصر، وعنوان بارز في رجال الجيل يجمع بين الهمة العالية والخشوع والخضوع، سر الإعجاب أنه متواضع في بساطة مع كمٍّ من القيم والمثل العليا، رجل فذ يحمل المسؤولية بقوة ويرسم المنهج بكفاءة، معهد علم ينهل منه الوارد فقهًا في المعضلات، بضاعته في ذلك الآية والحديث، والسند والرواية والفقه والدراية، فهو صاحب حجة وقائم بدليل، ومستمسك بالوحيين، تمر به العواصف العاتية وهو ثابت كالطود الأشم، وتنزل النوازل فإذا الشيخ يتلقفها باليمين فرحم الله شيخنا رحمة واسعة»(٣).

---

(١) انظر كتابي: «الإنجاز في ترجمة ابن باز» (ص٥- ٦).
(٢) انظر: «الإبريزية في التسعين البازية» للشتوي (ص١٨٣).
(٣) جريدة «العالم الإسلامي» - ٤صفر ١٤٢٠هـ.

١٠- يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني الداعية المعروف، ورئيس جامعة الإيمان باليمن:

«ابن باز كان صمام أمان في المجتمع الإسلامي، جبل من جبال العلم كثير العمل وكثير العبادة، فهو سهل قريب مع البسطاء والمساكين، كان شديد التمسك بمنهج السلف»[١].

✍ ومما لا يختلف فيه اثنان أن الإمام ابن باز له القدم الراسخ في الاجتهاد شهد له بهذا القاصي والداني من أهل العلم.

وداعًا إمام السُّنَّة:

◻ قال الشيخ القرني عن إمام أهل السنة ابن باز:

يا موت ما لك يا غريب الشانِ	تلج البيوت بغير ما استئذانِ
خذ ما تشأ من هذه الجثث التي	أزرت بهذا العالم الفتان
خذ هذه الأعداد كالأصفار	في حلم البغال وفطنة الثيران
الكافرين بربهم ونبيهم	من عابد الأوثان والصلبان
وخذ البخيل جزيت خيرًا إنه	سقمٌ على الأرواح والأبدان
اقصم بسيفك كل نذلٍ جاهلٍ	متفيهق متنطع متوان
أأخذت منا الباز أفضل جيلنا	وتركت جمع البوم والغربان؟
أعني بهم أهل الضلالة والهوى	التابعي الأحبار والرهبان
أقصدت أفضل من رأته عيوننا	ممن عرفنا من بني الإنسان

(١) «سيرة وحياة الشيخ ابن باز» للحازمي (ص٤٢٨- ٤٢٩).

العالم اليقظ الفقيه بدينه ... النابه المفتي السديد الباني

ودعته ودموع عيني ثرة ... وتركته والقلب في خفقان

وأكذب الأخبار عند وفاته ... حتى دهانا صادق البرهان

عافت عيوني النوم فهي سقيمة ... فكأنها خلقت بلا أجفان

وكأن قلبي مرجل وهمومه ... موارة بالهم والغليان

واكفكف العبرات وهي سوابق ... وانهنه الزفرات وهي دواني

ليت القلوب هي القبور وقبره ... في كل قلب عامر الإيمان

لو أن هذا الموت يقبل فدية ... حسن الفدا بالشيب والشبان

لو أن ماء مغسليه دموعنا ... جدنا بها لمطيب الأردان

فُجِعت الدنيا فكل مدينة ... تبك على الإسلام والقرآن

يوم الجنائز أنت أكبر شاهد ... للمفتري والعالم الرباني

تروي جنازتكم جنازة أحمد ... أعني ابن حنبل أو فتى حرَّان

نمشي وراء إمامنا وكأنه ... نور يشق غلائل البهتان

صرنا يتامى بعده وبيوتنا ... مفجوعة برزية الفقدان

الله للأيتام بعد إمامنا ... الله للإخوان والجيران

الله للسفهاء يصلح شأنهم ... بعد البصير محارب الطغيان

وهو الخليفة في الأرامل إثره ... ولقاصد الإكرام والضيفان

إن قام سوق العلم فهو كمالك ... أو مد باع الزهد فالشيباني

أو غاص في التفسير قلت مجاهد ... والفقه والتعليم كالنعمان

وإذا زاحمت الوفود فحاتم وكأحنف في الحلم والغفران

ذكرتنا بابن المبارك يا أبي في جميع أوصاف وحسن معان

وأهنت هذا المال في سبل العلا هذا سخاء موحد الرحمان

لم تتخذ إلَّا منازل زاهد باع الحياة بأربح الأثمان

وشربت بالأخلاق أوسمة الهدى بالصدق في الإسرار والإعلان

جمع المكارم كلها فكأنه جبل عظيم ثابت الأركان

نأتيك والآمال تقطع دوننا فتعيدنا بالأمن والإيمان

نأتيك والأحزان تغمر جوننا فنعود بالبشرى بلا أحزان

فكأنك الشهد المصفى باردًا أو كالنسيم هفا على الأغصان

وأرق من دمع المحب معاتبًا حتى يتوب من الذنوب الجاني

لم تجرح الأعراض لم تؤذ الورى لم ترم بالألفاظ في هيجان

بل كنت أرأف من طبيب حاذق صافي المودة عادل الميزان

قاموسك الطهر البريء ومنطق مثل الزلال على فم الظمآن

وتظل في ذكر المهيمن سابحًا تاج السكينة فوق رأسك داني

لم تلهك الدنيا ولو أحببتها جاءتك في حلل وفي تيجان

لكن عزفت فكنت أكبر زاهد في عصرنا زهدًا مع الإمكان

وصبرت صبرًا نلت منه ولاية فحُمدت يا شيخي بكل لسان

وعففت عن شتم الرجال تكرمًا يا أبيض المضمون والعنوان

وإذا رددت على غبيٍّ جاهل لاطفته بعبارة حنان

حتى يعود إلى رحابك تائبًا ... جم الحيا والسمت كالخجلان

مترفقًا بالمعرضين ومشفقًا ... فكأن عدلك شوكة الميزان

تنسى إساءات الأنام تفضلًا ... متذكرًا ما كان من إحسان

فبهذه وبغيرها حق البكا ... لو أن جفني فيك جرح قاني

ولهذه ارتجت لك الدنيا فيا ... هول المصاب كهزة البركان

وبكاك كل موحد متسنن ... ورثاك كل مناضل شجعان

جرح الجزيرة من فراقك نازف ... والرزء من دكًّا إلى تطوان

واشتد في مصر العويل وطنجة ... وكتائب الأفغان والشيشان

والمسلمون مصابهم بك واحد ... في كل بيت ضاق بالحدثان

أبكيك ثم أقول يا نفس اصبري ... مات الرسول المصطفى العدناني

أرتاع في نومي لذكر فراقكم ... فأظل مثل الطير في الرجفان

وسماع صوتك بعد موتك زاد في ... هم الفراق وشب في وجداني

وإذا لقيت الناس عزوني بكم ... فإذا العزاء هم لمصاب ثاني

ولموتكم يا شيخ أعظم عندنا ... من قس في التذكير أو سحبان

أبكيتنا حيًّا بحسن حديثكم ... وزجرتنا ميتًا عن العصيان

صغرت في عيني كل كبيرة ... وزهدت بعدك في الحطام الفاني

وسألت نفسي الصبر بعدك فانثنت ... من غير ما صبر ولا سلوان

ناشدتها بالله أن تسترجعي ... أن البقاء لخالق الأكوان

فتحاملت، وتماسكت بجوفها ... لهب من الأحزان والأشجان

لله درك مـــن إمــــام بــــارع ... يـــا أمـــة في العلـــم والإتقـــان

فجزاك ربك خير ما جازى امـرءًا ... نـصر الـشريعة طيلـة الأزمـان

وحباك تـاج الفـوز في دار الرضـا ... ودخلـت في أنـس مـن الريـان

وشربت من كأس يفيض رحيقـه ... بالمـسك في روح وفي ريحـان

في مقعد الصدق الذي جاءت بـه ... آي الكتـاب ومحكـم الفرقـان

ورأيـت ربـك في جنـان نعيمـه ... وأجـل فـوز رؤيـة الـرحمن

يـا رب واهـد لنـا ولاة أمورنـا ... وأصـلح بطـانتهم مـع الأعـوان

انـصر بهـم ديـن النبـي محمـد ... والأمـن والإيـمان في الأوطـان

إني مـع الـسلف الكـرام ودينـهم ... دينـي ومـورد عـذبهم أرواني

أقفـو طـريقتهم ونهجـي نهجهـم ... وعـلى علـومهم قبـضت بنـاني

فاضـت مـن قـرني وهـي فريـدة ... منـسوجة الأردان مـن حـسان

وصـلاة ربي والـسلام مرتـل ... للمصطفى والـصحب والإخـوان

٢٠- حكيم الأمَّة العلاَّمة السيد محمد رشيد رضا [١] صاحب «تفسير المنار»، ومُنشئ مجلة «المنار» (١٢٨٢-١٣٥٤):

هو العلاَّمة الشيخ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين البغدادي الأصل الحسيني النسب.. وُلِد في قرية قلمون جنوب طرابلس الشام في يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢.

* هو صاحب مجلة المنار الإصلاحية وصاحب «تفسير المنار» الذي وصل فيه إلى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف].

ولو لم يكن له إلَّا تفسير المنار و«مجلة المنار» بمقالاتها القيمة، وآثارها في العالم الإسلامي لكفاه..

مؤلفاته:

أكثر السيد رشيد رضا من المؤلفات في شتى المجالات، وكانت كلها تتسم بالعمق والتحقيق، وقد رأيت أنه من المناسب أن أسرد ما تيسر جمعه منها مقسمًا إياها على الأبواب والمواضيع ليعلم مكانته في هذا الدين، وخدماته للإسلام، وأذكر فيها ما كان من إنشائه، أو ما كان بتحقيقه وإشرافه وما تركته أكثر مما سطرته، وهو جهد المقل لعل الله أن ينفع به.

وقد جمع السيد رشيد جملة من مؤلفاته وأودعها في ترجمته، ولكنني

---

(١) الترجمة كلها مأخوذة من كتاب «محمد رشيد رضا طود وإصلاح دعوة وداعية» لخالد بن فوزي آل حمزة –دار علماء السلف وكتاب «السيد رشيد رضا- أو إخاء أربعين سنة» لشكيب أرسلان –طبع أضواء السلف مع إضافات لي.

اقتصرت هنا على المطبوع والمنشور[(١)].

في التفسير وعلوم القرآن:

١ - المنار وقد تقدم الكلام عليه (مطبوع)[(٢)]

٢ - فضائل القرآن لابن كثير (تحقيق) (مطبوع)

٣- ترجمة القرآن (مطبوع)

في أصول الدين:

١ - الوحي المحمدي (مطبوع)[(٣)]

---

(١) راجع فصل الآثار العلمية من نظم ونثر وتصنيف في الترجمة التي ترجمها لنفسه من ١٨٠ من المنار والأزهر.

(٢) وقد شرع الشيخ رشيد في اختصاره ولم يتم المختصر الذي سماه التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد، وقد أكمل الاختصار الشيخ محمد أحمد كنعان وطبع بالمكتب الإسلامي سنة ١٩٨٤م.

(٣) وهو كتاب عظيم النفع، جليل القدر، وقد سئل رشيد رضا عن أحب كتبه إليه وآثرها عنده فسماه، وقد قسمه إلىٰ خمسة فصول. الأول في تحقيق معنىٰ الوحي والرسالة وحاجة البشر إليها.

والثاني: في إقامة الحجة علىٰ مثبتي الوحي المطلق في إثبات نبوة محمد ﷺ.

والثالث: في شبه منكري عالم الغيب علىٰ الوحي المحمدي.

والرابع: في إعجاز القرآن بأسلوب وبلاغة.

والخامس: في مقاصد القرآن في تربية نوع الإنسان وذكر فيها عشرة مقاصد وقد نشر في آخره عدة تقاريظ قال بعدها في في «حكمة نشر هذه التقاريظ» (ص٤١٨). التي كتبها علماء ورواد: «وهذا كتاب فيه من حكم الإسلام في أهم أصوله وفروعه أكثر مما في رسالة التوحيد (أي: المجموعة).

ومما كان يسمعه مني متشل أنس وأمثاله (وهو وكيل المالية الإنكليزي في مصر) وفيه شواهد الكلام ما لا يمكن أن يقال معها إنه من رأيي وقد اتفق علىٰ الشهادة اه العلماء والأدباء وكتاب الأقطار من جميع الطبقات وفي مقدمتهم =

٢- كليات الدين (مطبوع)

٣- الخلافة (مطبوع)

٤- السنة والشيعة (مطبوع)

٥- الهدية السنية والتحفة الوهابية لابن سحمان (تحقيق) (مطبوع)

٦- الرسائل والمسائل لابن تيمية (تعليق) (مطبوع)

٧- التوسل والوسيلة لابن تيمية (تعليق) (مطبوع)

٨- إنجيل برنابا (تعليق) (مطبوع)

٩- شبهات النصارى وحجج الإسلام (مطبوع)

١٠- المسلمون والقبط (مطبوع)

١١- يسر الإسلام في النهي عن السؤال (مطبوع)

١٢- الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية، وهو أول مؤلفاته دوَّنه أثناء طلبه للعلم في الشام.

في الفقه:

١- مناسك الحج (مطبوع)

شيخ الأزهر (أي: المراغي) بما هو صريح في تفضيله على جميع الكتب في موضوعه (إثبات الوحي والنبوة وإعجاز القرآن وأصول الإسلام الدينية والمدنية) وسيرون من فائدته في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وفي تثبيت المسلمين في دينهم ما هو فوق ذلك إن شاء الله تعالى ولله الفضل والمنة ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].

والجدير بالذكر أن الشيخ رشيد نشر كتابه هذا برمته في تفسيره لسورة يونس. انظر «التفسير» (١١/ ١٤٦- ٢٩٣).

٢- الربا تقديم محمد بهجة البيطار (مطبوع)

٣- مسائل أحمد لأبي داود (تحقيق) (مطبوع)

٤- المغني لابن قدامة (تحقيق) (مطبوع)

٥- الفروع لابن مفلح (تحقيق) (مطبوع)

في التاريخ:

١- المولد وخلاصة السيرة (مطبوع)

٢- شكيب أرسلان رحلة الحج (تحقيق) (مطبوع)

٣- تاريخ الشيخ محمد عبده المسمى (تاريخ الأستاذ الإمام) (مطبوع) ثلاث مجلدات.

٤- الوهابيون والحجاز (مطبوع)

في الإصلاح وموضوعات متفرقة:

١- الوحدة الإسلامية وقد أعاد طبعه المكتب الإسلامي بتعليقات زهير الشاويش.

٢- المنار والأزهر (مطبوع)

٣- محاورات المصلح والمقلد (مطبوع)

٤- نداء للجنس اللطيف (مطبوع)

٥- مساواة الرجل بالمرأة (مطبوع)

٦- محاضرات طبية إسلامية (تعليق) (مطبوع)

٧- البلاغة للجرجاني (تعليق) (مطبوع)

٨- مجلة المنار (مطبوع)

٩- فتاوى السيد رشيد رضا جمع صلاح الدين المنجد ٦ مجلدات وأكثر.

هذه المؤلفات قام هو نفسه بطبعها في مطبعة المنار.

ثناء العلماء والمفكرين عليه:

شهد لهذا الرجل ثلة من العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي من شتى الاتجاهات والعجب أن اجتمع للشهادة له المنتمون إلى الفرق المتباينة، والمذاهب المختلفة فقد أثنى عليه الكثيرون من سلفيين وشيعة وصوفية ووطنيين و.. و.. و.. وأسرد هنا قليلًا مما قيل فيه، أو أسطر عنه، مما قد لا يوجد في مراجع، أو يخفى كثيرًا على البعض، وأترك كثيرًا مما قيل فيه مما اشتهر عن المعاصرين له أو من جاء بعده، ولعل الأنسب أن نذكر رأي أستاذه الشيخ محمد عبده بادئ ذي بدء[1]، وأقتصر هنا على: إيثار محمد عبده لرشيد رضا على خلافته في الدعوة إلى الإصلاح، وكان سببًا في أن رشحه ذلك في مرضه الذي مات فيه بالإسكندرية حيث قال له: لقد جاش في نفسي الشعر في غيبتك، كأني لا أقول الشعر إلَّا في الحبس أو المرض (يشير إلي قصيدة نظمها في السجن عقب الحوادث العربية)، ثم أنشده هذه الأبيات:

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبل أم اكتظت عليه المآتم

(١) لما حاول الخليفة التفريق بين الشيخ رشيد ومحمد عبده، أوفد الشيخ محمد شاكر، فلما كلم محمد عبده في ذلك قال له، وكيف أترك صحبة السيد رشيد رضا وهو ترجمان أفكاري، انظر (ص٩٦) من المنار والأزهر (ص١٦٦)، من كتاب شكيب أرسلان (رشيد رضا).

ولكنـــه ديـــن أردت صـــلاحه أحــاذر أن تقــضي عليــه العمائـم
وللنــاس آمــال يرجــون نيلهــا إذا مت ماتت واضمحلت عـزائم
فيارب إن قدرت رجعي[1] قريبـة إلى عــالم الأرواح وانفـض خــاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا (رشيدًا) يضيء النهج والليل قاتم
يماثلنـــي نطقــا وعلــمًا وحكــمًا ويشبي مني السيف والسيف صارم[2]

□ وقد أثنى الشيخ مصطفى صبري[3] على السيد رشيد رضا،

(١) الرجعي مصدر (رجع) قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق]، وفي «لسان العرب» (٨/ ١١٤) رجع يرجع رجعًا ورجوعًا ورجعي ورجعانًا ومرجعة وانظر «تاج العروس شرح القاموس» (٥/ ٣٤٨).

(٢) انظر (ص١٠٢١) من تاريخ الأستاذ الإمام رشيد رضا، وقد ذكر هناك أنه لما توفي الأستاذ الإمام ونشرت الجرائد يوم دفنه الأبيات التي قالها قبيل وفاته، ساء بعض حاسديه ذلك (وسماه) لأن قوله: «وارزقه مرشدًا رشيدًا» صريح فيما فهمه كل الناس من أنه يعني بذلك رشيد رضا وتحدثوا بذلك في حفلة المأتم.

(٣) هو آخر شيوخ الدولة العثمانية، وقد خرج من تركيا سرًا بعد استيلاء الكماليين على الحكومة، وانتقل بين مصر، وأوروبا والحجاز، والشام، وضيق عليه حتى استقر به المقام في مصر وبها توفي سنة ١٩٥٤م وكان جريئًا شجاعًا في الحق، له مشاركة جيدة في العلوم، إلاَّ أنه كان في الاعتقاد أميل لمذهب الماتردية، منحرفًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، ولعله ما اطلع على حقيقة أقوالهما كما يقول مصطفى حلمي -حفظه الله- .وله من المؤلفات كتاب حافل وهو «موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين» رد فيه على العقلانيين، وهو كتاب جيد لولا ما خالطه من كلام ليس بجيد عن مذهب السلف وأئمته، وكذلك له كتاب «قولي في المرأة»، وكتاب «النكير على منكري النعمة»، وهو من أواخر كتبه، وانظر شيئًا من ترجمته في مقدمة الدكتور مصطفى حلمي لكتابه «النكير».

وبالرغم أن الشيخ مصطفى صبري والذي كان يلقب بشيخ الإسلام لكونه شيخًا للدولة العثمانية، أقول بالرغم من أنه هاجم بعض آراء السيد محمد رشيد في كتابه «موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين..»[(١)] إلَّا أنه لما اختبر الشيخ رشيد عن قرب عرف علمه وفضله، فتراه يتكلم عن كتاب رشيد رضا «الخلا الإمامة العظمى» فيقول:

«وأما كتاب صاحب المنار، ففي غاية الإفادة والإجادة، كما يتوقع من مؤلفه الذي هو فارس خطير في أمثال هذا الميدان، وقد وجه إلى الحكومة التركية الحاضرة انتقادات ووصايا ودعاهم إلى الصلاح والإصلاح، وقدمهم في الاستعانة والاستخدام لرقي الإسلام، فلله دره في تحقيق المقام واجتهاده في إحياء منصب الخلافة الصحيحة مع قطع النظر عن آرائه ومذاهبه التي تدور حول الأشخاص والأسماء، وموازنة بعضهم على بعض لكن المهم المقدم على كل شيءٍ، وما يليق أن أقول في كتابه، وألفت الأنظار إليه أنه لم يصرح أصل الداء حق صراحته، وإن بالغ في تعريف الدواء..»[(٢)]. اهـ.

---

(١) ومن ذلك قوله تعليقًا علىٰ كلام لمحمد عبده: «.. وبهذه النهضة المعكوسة والحماسة الضالة المأسورة من الإمام قال تلميذه صاحب المنار فيما كتبه دفاعًا عن كتاب حياة محمد لمعالي هيكل باشا: «إن المعجزات شبهة لا حجة». اهـ. (ص٣٤٧) من مواقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وما ذكره عن رشيد رضا ليس بالوجه الذي أنكره لأن السيد رشيد ذكر أن المعجزات الكونية أعطاها الله لنبينا تأييدًا في الشدائد ولم يكن حجة علىٰ نبوته كالقرآن (ص٨٠، ٨١) من «الوحي المحمدي».

(٢) من (ص١١٣) من كتاب «النكير علىٰ منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة». دراسة وتقديم الدكتور مصطفىٰ حلمي.

□ ذكر الأستاذ حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مذاكرات الدعوة والداعية تصديرًا لمجلة المنار كتبه الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر جاء فيه: «.. وكان صاحبها السيد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا عالمًا عاملًا غيورًا مخلصًا للإسلام، محبًا لكتاب الله، وسنة رسوله وآثار السلف الصالح، وقف حياته لخدمة دينه، والأمم الإسلامية، وكان شجاعًا في الحق لا يهاب أحدًا ولا يجامل ولا يحابي ونشأ على هذا واستمر فيه إلى أن لقي ربه»[(١)].

□ كتب الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة جماعة أنصار السنة المحمدية رحمه الله تعالى خاتمة لكتاب السنة والشيعة، بالغ في الثناء على السيد رشيد رضا، ووصف نفسه بأنه «تلميذ حكيم الإسلام السيد رشيد رضا».

وقد ترجم الشيخ محمد بهجة البيطار علامة الشام لكتاب «الوحي المحمدي» أشاد بالكتاب ومؤلفه وكان يصفه بالسيد الإمام يترحم عليه ويترضى عنه.

□ سألت الشيخ الفاضل «محمد رشاد غانم» [وهو من الرواد الأول لجماعة أنصار السنة في الإسكندرية وقرين للشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي] عن رشيد رضا، فذكر أنه (أبو السلفية في مصر)[(٢)].

---

(١) انظر (ص٢٥٣، ٢٥٤) من مذكرات الدعوة والداعية للأستاذ البنا.

(٢) وقد عرضت هذا القول على شيخنا وشيخ مشائخنا العلامة عبد الرزاق عفيفي فأجابني بأنه «ليس على كل حال»، وأنه في الجملة سلفي إلاَّ أن له شطحات، وأحالني على قصة آدم في تفسير المنار في سورة البقرة، وقرأتها عليه، وفيها ملحظ ومأخذ وإن كان السيد رشيد نقلها عن محمد عبده، وأشار إلى اختياره =

□ ويقول شكيب عنه: «ومما لا شك فيه أنه كان أعلم بعلوم كثيرة من أستاذه، وإنما كان الشيخ محمد عبده أطلق لسانًا»[(١)].

□ وقد اجتمعت بالشيخ «عبد الله الصديق الغماري»[(٢)] المغربي، عندما زار مصر قد سوات، وسألته عن رأيه في بعض العلماء كالألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فشهد للأول بطول الباع في الحديث، وكان رأيه منحرفًا عن الثاني إلَّا أنه استطرد قائلًا: «لكن المحدث الحقيقي هو رشيد رضا» اهـ.

وقد أفاض الكثيرون في مدح رشيد.

□ قال عنه الشيخ المراغي: «كان شديد الإحاطة بها في العصر الذي

المخالف له في نهايتها وانظر المنار «التفسير» (ص٢٨٠) وما بعدها الجزء الأول كما أكد ذلك في مجلة المنار والأزهر وأن ما ورد فيها كان علىٰ طريقة أهل التأويل، وأنه منها بريء (ص٥٤، ٥٥).

(١) انظر ترجمة شكيب لرشيد رضا (ص٢٧٣)، «رشيد رضا أو إخاء أربعين عامًا».

(٢) وهو شيخ صوفي له مشاركة في الحديث والأصول وعلوم أخرىٰ، وإن كان له آراء عجيبة في الحديث، فهو مثلًا لا يرىٰ أن قواعد الحديث كلها مطبقة علىٰ الأحاديث، فلس هناك في الحقيقة شذوذ أو اضطراب في رأيه، ثم له آراء في الرجال أعجب فهو يصحح إسناد الحارث الزعوم (المتهم بالكذب) عن علي ابن أبي طالب، وربما يراه من أصح الأسانيد وقد قرأت عليه بعضًا من دروس الفقه من أبواب المعاملات، تخللها مناقشات طويلة في مسائل تتعلق بالعقيدة والاتباع، لما رماني بالوهابية، ولم تمنعه هذه المناقشات من أن يعطيني تزكيتين أنا وأخًا معي واحدة للالتحاق بكلية الشريعة في السودان، موجهة للشيخ المطيعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأخرىٰ موجهة للشيخ حسنين مخلوف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للحصول علىٰ تأشيرة الحج، ولم ييسر الله لي الأمرين.

كان يعيش فيه، خبيرًا بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية، ملمًّا بما في العالم من أصول جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان، فهو ممن أوتي الحكمة ورزق الخير الكثير»[١].

□ وقال عنه د. إبراهيم العدوي: «ويقف السيد رشيد رضا وسط عصره وأهله كأنه علم في رأسه نار تأتم به الهداة»[٢].

□ ويقول عنه محمد عبده: «هو ترجمان أفكاري»[٣].

□ ويقول عنه شكيب أرسلان «أستاذ الأساتيذ» وعلم العلماء وإمام الأئمة، ونبراس هذه الأمة[٤]، ومن قرأ تقاريظ كتاب «الوحي المحمدي» يعلم جملة من ثناء الأئمة والعلماء على السيد رشيد فقد قرظه كل من الإمام يحيى حميد الدين والملك عبد العزيز آل سعود والإمام محمد ابن عبد الله الخليلي إمام الإباضية[٥]، وشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى

---

(١) انظر (ص١٨٤) من الشرباصي.

(٢) «رشيد رضا» للعدوي (ص٥)، وانظر (ص١٧١) من الشرباصي.

(٣) (١/ ٩٦) من «المنار والأزهر».

(٤) وانظر هذه الألقاب في ترجمة شكيب لرشيد رضا في كتابه عنه (ص٢٧٨)، وانظر (ص١٧٦ - ١٧٧) من كتاب الشرباصي فقد نقل جملة منها.

(٥) الإباضية فرقة تعد من فرق الخوارج عند المصنفين إلاَّ أن أئمتهم الآن ينكرون ذلك ومن أصولهم في الاعتقاد القول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الباري في الأخرة، والحكم بخلود عصاة الموحدين في النار، ولا يقولون بصحة خلافة الدولة الأموية وما بعدها، ولهم آراء منحرفة في عثمان وعلي رضي الله عنهما، وقد قدر الله أن ألتقي بمفتي الإباضية في عمان الشيخ أحمد الخليلي ومدير الأوقاف والشؤون الإسلامية هناك الشيخ أحمد سعود السيابي، وقد طالت المناظرة بيننا في كثير من المسائل التي يخالفون فيها أهل السنة والجماعة، وقد سجلت =

المراغي، والشيخ محمد العدوي، والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ محمد رشيد ميقاتي مفتي طرابلس والشام، والشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي الذي وصف رشيد رضا بأنه (إمام هذا العصر وحكيمه الأكبر) وكذلك العقاد، وإن كان انتقد بعض مباحثه ورد عليه رشيد رضا، وكذلك شكيب أرسلان والذي ألف كتابًا في حياة رشيد رضا حافلًا بمآثره، وكل هذه التقاريظ فيها من الثناء الكبير والمدح العظيم الشيء الكثير.

تلاميذه:

في الواقع لا يمكننا أن نحصر تلاميذ رشيد رضا؛ لأن كل من قرأ المنار واستفاد منه، فقد تتلمذ على يديه ثم كل من كان في معهد الدعوة يكون قد أخذ عنه، وأذكر هنا نبذة عن أسماء لامعة هي من تلاميذه أو ممن افتخر بالانتساب له فمن هؤلاء محمد حامد الفقي رئيس جمعية أنصار السنة سابقًا، وربما كتب كما في (ص١٣٩) من هذه الرسالة عن نفسه «تلميذ حكيم الإسلام السيد محمد رشيد رضا».

ومن هؤلاء يوسف ياسين مقدم مجموع الفتاوى، وصف السيد رشيد بأنه أستاذه ونقل عنه كلامًا له على شيخ الإسلام [(١)].

□ ويقول عنه محمد فؤاد عبد الباقي: «إنه مرشدي وأستاذي»[(٢)].

هذه المناظرة كتابة وبعضها في شريط مسجل.

(١) انظر ص(د) من مقدمة الأستاذ يوسف ياسين من جزء (١) من «مجموع الفتاوى»، والشيخ يوسف هذا هو كاتب سر الملك عبد العزيز آل سعود.

(٢) انظر (ص٢٠٣) من كتاب الشرباصي.

□ ويقول عنه محمد عبد الرزاق حمزة: «أنا تلميذ السيد رضيد رضا واستفدت منه ما أشكر الله وأشكر أستاذي على ذلك وأترحم عليه لأجله»[(١)].

□ ويقول عنه أحمد محمد شاكر: «أستاذنا السيد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[(٢)].

الألباني ومدرسته والشيخ رشيد رضا:

لا يشك أحد في أن علامة الشام الألباني قد أثر في فكر الدعوات الإسلامية الموجودة الآن على اختلاف مناهجها.

كما لا يشك منصف أن محدث الشام قد بعث روح السلفية في كثير من الأفراد والجماعات الإسلامية، وجدد مادرس من الشريعة والدين، وأكد على ضرورة الالتزام بالمنهج الحديثي في التصحيح والتضعيف لئلا يقع المسلم في نسبة حديث للنبي ﷺ لم يقله، أو في نفي رواية صحيحة عن النبي ﷺ لأنها خالفت رأي إنسان أو آخر.

ومن العجب أن للسيد رشيد رضا فضل التأثير على الشيخ الألباني في هاتين النقطتين أي السلفية ومنهج البحث الحديثي، وبه تخرج المحدث الألباني وهو يذكر هذا للشيخ رشيد فيذكره بالجميل، رغم أنه خالفه في أمور نبه عليها في مصنفاته.

□ يقول الشيخ محمد المجذوب في كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم» من حديث دار بينه وبين الشيخ الألباني: «.. وركز الشيخ من بين

---

(١) «من ظلمات أبي رية» (ص٢٣٧)، «عن الاحتجاج بالأثر» (ص٢٨٨).

(٢) «تعليق أحمد شاكر على المسند» (١٢/ ١٢٤)، وهذا والذي قبله كان في معرض ردهما لقوله بإنكار صحة أحاديث المهدي.

الموجهين له على السيد رشيد رضا الذي يعتبره من أكبر الجال أثرًا في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف»[(١)].

□ ويقول الألباني ملخصًا صلته بالسيد رشيد على نحو ما ورد في كتاب المجذوب: «أول ما ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربية كالظاهر وعنترة و.. إلى أن قال: وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءًا من مجلة المنار فاطلعت عليه ووقعت على بحث بقلم السيد رشيد رضا يصف فيه كتاب الإحياء للغزالي، ويشير إلى محاسنه ومآخذه ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله ثم أمضي لأتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على الإحياء..».

□ وقد نقل محمد بن إبراهيم الشيباني عن الألباني رأيه في السيد رشيد تحت عنوان «الألباني ومدرسة محمد رشيد رضا» يقول فيه[(٢)]: «السيد محمد رشيد رضا، رَحِمَهُ اللَّهُ له فضل كبير على العالم الإسلامي، بصورة عامة، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بوساطة مجلته «المنار» وقد جاهد في سبيل ذلك جهادًا يشكر عليه، ويرجى أن يكون أجوه مدخرا عند ربه وبالإضافة إلى كونه داعية إلى اتباع منهج السلف الصالح فيما كانوا عليه من عقيدة وفكر وسلوك فقد كانت له عناية تشكر بالأحاديث الصحيحة والضعيفة، هذه الأحاديث التي لا يخفى على أي

---

(١) انظر (ص ٢٩١) من «علماء ومفكرون عرفتهم» للمجذوب.

(٢) انظر (١/ ٤٦) من كتاب «حياة الألباني» لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

مسلم عنده شيء من الثقافة الإسلامية أنها هي السبيل الوحيد لفهم كتاب الله تعالى فهمًا صحيحًا، حيث إن كثيرًا من الآيات لا يمكن أن يتوصل إلى فهمها إلَّا بطريق بيان السنة النبوية وقد نص الله ﷻ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فهذا وغيره من النصوص تؤكد للمسلم أنه لا سبيل إلى فهم القرآن إلَّا بطريق سنة الرسول ﷺ وقد كان للسيد محمد رشيد رضا عناية بالغة بعلم الحديث بحدود مساعدة وضعه العلمي والاجتماعي والسياسي فكثيرًا ما نبه إلى ضعف بعض الأحاديث من حيث إسنادها، عبر مجلته «المنار» التي أصبحت نواة طيبة، لفتت أنظار المسلمين للعناية بأحاديث الرسول ﷺ .. فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلًا هذه الكلمة ليطلع عليها من بلغته، فإنني بفضل الله ﷻ بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولًا، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانيًا يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن طريق أعداد مجلته «المنار» التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم..».

❑ ثم سرد الشيخ الألباني بعض ما انتقد به السيد رضا فذكر منها قضية الإيمان بالغيب، وأن الشيخ محمد عبده رغم تحرره وجهوده في تطوير الأزهر لم يكن كالسيد رشيد رضا من حيث الحرص على نهج السلف الصالح من عقيدة ومنهاج، وعلى الرغم من ذلك تأثر به رشيد في مجال الإيمان بالغيب وضرب مثلًا على ذلك بالجن فقال: «ولعل من الأمثلة المشهورة في أنه كان ينقل عن محمد عبده تفسيره للجن المذكور في الكتاب والسنة بما يقرب الجن إلى العقل المادي المثقف ثقافة مادية، فادعى

أن الجن هي الميكروبات الخفية التي تؤثر في صحة الناس ونحو ذلك [(١)]، ولا أذكر بأن أحدًا رد عليه مبينًا خطأه بأن هذا التأويل يشبه طريقة الباطنية والمعتزلة وغيرهم ممن انحرفوا عن الكتاب والسنة بسبب التأويل».

ثم تابع الألباني انتقاده للسيد رشيد في إنكار الأخير أحاديث خروج المهدي ونزول عيسى [(٢)] واعتذر له بأنه أراد أن يرد انحرافات وتأويلات القاديانية في ادعائهم مهدية ميرزا غلام أحمد القادياني وبذلك بإنكار أو تشكيك في بعض الأحاديث التي يتعلق بها فلا يبقى لهم حجة يدعي بها مدع أنه عيسى أو مثيله أو المهدي.

---

(١) ذكر الشيخ رشيد في «المنار» (٣/ ٩٦) أن المتكلمين يقولون: إن الجن أجسام حية خفيفة لا ترىٰ قال: وقد قلنا في «المنار» غير مرة إنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفيفة التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمىٰ بالمكروبات يصح أن تكون نوعًا من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن..» وعبارة السيد رشيد هذه أقل خطبًا من التي أخذت عليه، فهو لم يجزم بذلك بل يقول: «إنه يصح أن تكون نوعًا من الجن» فهو لم يزعم أن الجن كله من الميكروبات بل جعل الميكروبات من أنواعه بدليل أن الطاعون وخز الجن، وهو وإن كان مما لا يجزم به إلاَّ أنه ليس تأويلًا باطنيًا في الجملة كما قد قيل، كما أن الشيخ رشيد قد أثبت الجن كما يثبته أهل السنة ف غير ما موضع من تفسيره انظر تفسير آيات (٢: ٢٤ ص٢٦٥/ ١)، (٢: ١٦٧ ص٩٦/ ٢)، (ص٢٩/ ٣)، (ص٤٢٥- ٤٣٠/ ٥)، (ص٣٢٨- ٣٧٢/ ٨) وقد نفي السيد رشيد هذا عن نفسه لما اتهمه الديجوي بذلك وأبان أن عقيدته في الجن هي عقيدة السلف، راجع «المنار والأزهر» (ص٦٣- ٦٧).

(٢) وقد سبق الإشارة لكلام رشيد رضا في ذلك في (ص٣٥) من هذا البحث.

□ ثم قال الألباني -حفظه الله-: «لقد أصيب السيد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ بشيءٍ من الاستعجال بإنكار أحاديث صحيحة معروفة عند عامة المحدثين قديمًا وحديثًا وسلفًا وخلفًا وإن كان الباعث له باعثًا حسنًا ولكن من المسلم به لدينا نحن معشر المسلمين أن الغاية لا تبرر الوسيلة» اهـ.

ثم انتقد الشيخ الألباني السيد رشيد في تصحيحه بعض الأحاديث الضعيفة بعبارة مهذبة. علمية دقيقة [١].

□ وأخيرًا، فإنه من المعلوم أن الشيخ الألباني هو حامل راية السلفية في الشام بخاصة، وفي باقي بلاد العالم الإسلامي بعامة، وقد استفاد من علمه وكتبه الموافق والمخالف، ولولا حدة تعتري بعض ما كتب لكان محل اتفاق إذ الجميع يذعنون له بالعلم والفضل.

فإذا عرفنا مما سبق صلة الشيخ الألباني بالسيد رشيد وأن رشيدًا كان الدافع له على الاتجاه السلفي، والاتجاه النقدي الحديثي، علمنا تأثير مدرسة المنار التي حمل لواءها الشيخ رشيد في المدارس الفكرية المختلفة في هذا العصر.

ولا يحتاج الأمر إلى عقد مقارنة بفضيلة بين الرجلين في ميدان السلفية والنقد الحديثي إذ إن ما سبق يوضح مسيرة الشيخ الألباني على منهج رشيد في الجملة [٢]، وأن مخالفاته له كانت في بعض ما استدركه عليه من

---

(١) انظر «حياة الألباني في تصنيف الشيباني» (١/ ٤٠٠- ٤٠٥).

(٢) ومن عجيب الاتفاق بينهما أن قول الشيخ الألباني بجواز كشف المرأة وجهها عند الأجنبي عند أمن الفتنة (كما بكتابه «حجاب المرأة المسلمة») هو نفس =

الأمور التي اعتبره قد أخطأ فيها وسبق بيانها».

ولقد تأثَّرت جماعة الإخوان بالمدرسة الرشيدية، ويرجع ذلك إلى تأثير مؤسسها الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ بدعوة المنار فقد اعتبر دعوته امتدادًا أو تطبيقًا لما نادى به السيد رشيد رضا، وقد تابع الشيخ حسن البنا إصدار المنار بعد موت الشيخ رشيد كما سطر ذلك في مذكرات الدعوة والداعية[1]، وهذا يؤكد امتداد دعوة الإخوان لدعوة الشيخ رشيد، وقد قدم شيخ الأزهر المراغي تصديرًا للعدد الخامس جاء فيه: «.. والآن قد علم أن الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث المنار، ويعيد سيرته الأولى، فسرني هذا.. وبعد فإني أرجو للأستاذ البنا أن يسير على سيرة السيد رشيد رضا، وأن يلازمه التوفيق كما لازم السيد رشيد رضا.

□ يقول ريتشارد ميتشل في كتابه «الإخوان المسلمون»: «أما رأي البنا في رشيد رضا فقد عبر عنه في تقويمه لمجلة المنار حين أشرف عليها رضا إذ وصفها بأنها: «من أعظم المؤثرات في خدمة الإسلام المعاصر في مصر وغيرها من البلاد، وحتى بعد أنهارت المنار رغم جهود الجمعية لإنقاذها، اعتبر البنا مجلته الخاصة «الشهاب» امتدادًا لها..»[2].

□ وذكر أيضًا أن تفسير المنار كان مقدمًا على تفسير ابن كثير في قائمة

كلام الشيخ رشيد، فقد نصر هذا القول في فتوىٰ له (٢/ ٢٦٩ فتاوىٰ السيد رشيد رضا) وقال في آخرها: «ولكن المرأة التي تعلم أن في كشف وجهها مفسدة يحرم عليها كشفه بلا شك» اهـ (٢/ ٦٨٣ فتاوىٰ رشيد رضا) ومحل تحقيق المسألة في غير هذا البحث، وإنما أشرت إليها لشهرتها.

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» للبنا (ص٢٥٣) –ط المكتب الإسلامي.

(٢) «كتاب «الإخوان المسلمون» لريتشار ميتشل ترجمة د. محمود أبو السعود.

أسماء الكتب التي كانت توزع على معلمي الجمعية لتوجيههم حتى يعدوا أنفسهم لبناء جيل جديد من الشباب المسلم من بين تلامذتهم»[١] اهـ.

ولعل في هذا القدر ما يثبت ما بدأت به من تأثر حركة «الإخوان المسلمين» بالسيد رشيد رضا، ومدرسته المنارية هو واقع لا ينكر، مما سبق يتبين العلاقة الوثيقة بين «الإخوان المسلمون» ورشيد رضا وكيف كانت جماعة «الإخوان» امتدادًا لفكر السيد رشيد، مع اختلاف في بعض الأمور كمدى الالتزام بعقيدة السلف، والوحدة مع الشيعة، ومعاملة أهل الكتاب والتصوف.

□ ولقد تأثرت جماعة «أنصار السنة المحمدية» بمصر بالسيد محمد رشيد رضا، وأفكار هذه الجماعة شديدة الالتصاق بأفكار السيد رشيد، إذ كان كبار الروّاد الأول للجماعة كانوا من تلاميذ السيد رشيد ممن أخذ عنه مباشرة أو عن مجلته الغرّاء المنار.

وكان الشيخ محمد حامد الفقي رئيس الجماعة في وقت من الأوقات يفتخر بانتسابه لرشيد رضا، وربما كان يكتب عن نفسه بأنه «تلميذ حكيم الإسلام رشيد رضا» وامتد التأثير إلى كثير من رجالات الجماعة نذكر منهم فضيلة الشيخ العلّامة المحدِّث أحمد محمد شاكر، والعلّامة محمد عبد الرزاق حمزة والشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح[٢]، وقد امتد تأثر

---

(١) المرجع السابق (ص٤٩٥).

(٢) وعن الأخيرين يقول الشيخ محمد رشيد رضا (وهما من تلاميذي) انظر (ص٧٥٦) من ترجمة شكيب لرشيد رضا، وأيدّ ذلك الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

الشيخ رشيد إلى الأجيال التالية في جماعة أنصار السنة.. بل وُجد في بعضهم التأثر بالشيخ رشيد في إنكار بعضهم «المهدي»، وتصورهم لحقيقة الجن[(١)].

□ لقد كان للشيخ رشيد رضا ومجلته المنار أعظم الأثر في العالم الإسلامي.. ولله در شكيب أرسلان وهو يقول في رثاء الشيخ محمد رشيد رضا:

هوى وكل جبال العلم دانية ... عن شأوه فهي منه كالأهاضيب

أين الذي كان إنْ أجرى يراعه ... في أيِّ فنٍّ أتانا بالأعاجيب

قضى الذي كانت مكانته ... بين الأئمة في أعلى الشناخيب

عدا على عبقر من ليس ذا صلة ... معها على الرَّغم من نعتٍ وتلقيب

فالعبقرية وصفٌ في رشيد رضا ... والعبقرية ليست بالأكاذيب

قِسْ كل صاحب فضل مع رشيد ... قِسْ الرُّهام إلى الطير المناسيب

تسمو المنابر إعجابًا بوطأته ... لها وتخضع أقواس المحاريب

سبحان من زاده عِلْمًا وألهمه ... تلك البراهين في أحلى الأساليب

له المنار الذي كانت تُنار به ... سفائن القوم في لُجِّ التجاريب

مُقِلَّة من أصول الشرع أشرعةً ... تمشي مع العقل تسيار الأصاحيب

كان المنار لحزب الحق مقتصرًا ... يهديهم بشعاعٍ غير محجوب

---

(١) يُوخذ على الشيخ رشيد رضا تأثره بالمدرسة العقلية مدرسة محمد عبده في أمور أنكرناه عليه في كتابي «زهر البساتين» وكل يؤخذ من قوله ويُرَد إلا الرسول ﷺ.

غـدت بـه ملـة الإسـلام حجتهـا ... شهباء في حـازب منهـا ومحـزوب

وكـم كتـاب لـه غـير المنـار غـدا ... فوق الكتائـب في حـشدٍ وتكتيـب

في كـل عـامٍ تـآليفٌ يجـود بهـا ... كالغيث يرسل شؤبوبًا بـشؤبوبِ

مواقـف لـن تـرى مـن يـستقلّ بهـا ... ولـن تـرى طامعًـا منهـا بتقريـب

□ يقول أمير البيان شكيب أرسلان عن الشيخ محمد رشيد رضا: «لا يختلف اثنان في أن السيد رشيد رضا هو من أعاظم رجال الإسلام في كل دور سواءً نُسب إلى عصره أو إلى الأعصر الذي تقدّمته، وإن الآثار التي تركها ستجعله حيًّا في نفوس الأنسال القادمة، حُجَّة عند مسلمي الأدوار المستقبلة لا يزيده تعاقب الملوين إلَّا شهرة ومكانة وجلالة قدر. وإنه سيأتي وقت يبحث الناس فيه عن الشاردة والفاردة من كلماته، ويُدقِّق أهل العلم في الحرف والحركة من أقواله»[1].

٢١- المحدث شعيب الأرنؤوط جوانب من سيرته وجهوده في تحقيق التراثة[2]:

□ يتغيا هذا البحثُ تقديمَ صورةٍ واضحة الملامح للشيخ المحدِّث شعيب الأرنؤوط، أحد شيوخ علم الحديث في هذا العصر، والمحقق الذي توفَّر على نشر كثير من ذخائر التراث العربي في مجالات التفسير والعقيدة والفقه والحديث الشريف والتاريخ والأدب وكتب الرجال، من خلال مسيرةٍ حافلة نيَّفت على نصف قرن، رسّخ من خلالها معالم أساسية

---

(١) «السيد رشيد رضا» (ص٣٠٥) لشكيب أرسلان.

(٢) انظر رسالة «المحدث شعيب الأرنؤوط جوانب من سيرته وجهوده في تحقيق التراث» للشيخ إبراهيم الكوفي.

في التعامل مع متون التراث الصعبة التي لا يتيسَّر تقريب مآخذها وارتياد آفاقها إلاَّ للواحد بعد الواحد من بَرعَة العلماء.

ولعل هذه الكلمة أن تكون أول بلورة منهجية تتعلق بشخصية هذا العالم؛ إذ ليس بين يدي كبير شيء يتعلق به سوى بعض الإشارات التي كتبها بعض المحققين في مقدمات الكتب التي اضطلعوا بأعباء تحقيقها، كما سيأتي الإشارة إليه، وسوى كلمة وجيزة كتبها عمر حسن القيام حول جهود الشيخ غبَّ صدور تحقيقه لكتاب «شرح مشكل الآثار» للإمام الطحاوي، نشرها في مجلة «الزهراء» الصادرة عن جامعة آل البيت[١]. وهي على وجازتها كلمة تنبئ عن خبرة بأعمال الأرنؤوط، ذهب فيها الباحث إلى أن العلامة الأرنؤوط هو أحد الثلاثة الكبار في هذا العصر، وهم: أحمد محمد شاكر، ومحمد ناصر الدين الألباني، وشعيب الأرنؤوط، وأن هذا الأخير قد بَرَعَ صاحبيه وأربى عليهما في كثرة أعماله وطبيعة تحقيقاته[٢].

□ ويبدو أن حظ هذا الحكم من الصواب غير قليل؛ فالمحدِّث الأرنؤوط قد تجاوز بإنجازته إنجازات هذين العلمين فضلاً عن غيرهما،

---

(١) العدد ٧، ١٩٩٧، (ص٦٢- ٦٣).

(٢) ربما كان مناسبًا في هذا السياق الإشارة إلى ظاهرة التعثر التي ظهرت في أعمال الشيخ أحمد شاكر، حيث تصدىٰ لنشر موسوعات حديثية ضخمة، ولكن جهوده تبدّدت بسبب عدم التركيز، فهذا تفسير الطبري، و«مسند أحمد»، و«صحيح ابن حبان»، و«سنن الترمذي»، و«المحلىٰ» لابن حزم، وغيرها من المصنفات الضخام قد تركها غير مكتملة، ولو قدّر لها الاكتمال لكان له شأن آخر، ولصعب تقديمُ أحدٍ من المعاصرين عليه.

ويلحظ المتتبع لإنجازاته أنه قد تصدَّى لأعمال كبرى توقَّفت دونها مؤسسات، كما في جهده الكبير في إخراج كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي، الذي كانت الجامعة العربية قد شرعت في نشره تحت إشراف الدكتور طه حسين، ولكنها لم تستطع إكمال العمل وتوقفت في بدايته، وكذا القول في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» الذي كان الشيخ أحمد محمد شاكر قد نشر قريبًا من ثلثه ثم قضى قبل تمامه، فجاء الشيخ الأرنؤوط فاستولى بمثل هذه الإنجازات على الغايات التي تطمح إليها أبصار المشتغلين في نشر التراث، وبعث علوم الثقافة العربية الإسلامية، مما بوَّأه منزلةً سنيةً بين العلماء، ورفعه مكانًا عاليًا بين أفذاذ المحققين.

□ لقد مضى أكثر من أربعين سنة على انخراط الشيخ في نشر التراث، حيث كانت البداية في «المكتب الإسلامي» بدمشق سنة ١٩٥٨، وكانت أعظم إنجازاته في الأردن الذي استوطنه منذ ما يقرب من تسع عشرة سنة، ولا يزال في رحاب هذا البلد الذي أحسن استقباله بعد مفارقته الشام في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين. ولقد كان لوجوده أثر جليلٌ على بعث علوم السنة في الأردن، حيث تدرَّب على يديه غير واحدٍ من الباحثين، كما سيأتي ذكره، وأفاد من غزير علمه أفواجٌ من طلاب العلم، وخصوصًا أساتذة الجامعات وطلبة الدراسات العليا ممن يستعينون بخبرته الواسعة وأنظاره النافذة في تقويم أبحاثهم، وتوجيه جهودهم العلمية نحو الطريق الصحيح.

□ هذا، ولقد اتصلت أسبابي بأسباب هذا العالم منذ زمن ليس بالقصير، وسارعت بالخفوف إليه والاختلاف إلى مكتبه في عمَّان طمعًا في الإفادة من علومه، ورغبة في ارتياد آفاق هذا النمط من العلماء الذين أفنوا

أعمارهم معتكفين في محاريب المعارف. وبعد أن توثقت علاقتي به أيقنت أنني بين يدي عالم من نمط أولئك العلماء الذين نقرأ أخبارهم: دقة نظرٍ، ولطفَ مأخذٍ، وغزارةَ محفوظٍ، وفقهَ نفسٍ، وإدراكًا دقيقًا لطبيعة المرحلة التاريخية التي تجتازها الأمة العربية الإسلامية، وما تقتضيه من إعمالٍ للبصيرة، وإرهاف للحس، وتحوُّطٍ بالغ في الفُتيا من خلال الإدراك العميق لمقاصد الشريعة الإسلامية وضوابطها الكلية، بحيث تشعر أنك أمام فقيهٍ بعيدِ الغور، لا يكتفي بالنظر الطائر في القضايا، بل تراه يُعمل عقله وبصيرته، ويضم النظير إلى النظير، ويجري على المنهاج العظيم الذي اختطه لنا أسلافنا الكبار من حيث سَبْرُ عللِ الأحكام والوقوفُ على أسرار الشريعة؛ مما يفسر عناية الشيخ بإنجازات العِزِّ بن عبد السلام[١] وابن تيمية[٢] وابن القيم[٣] والشاطبي[٤] وجميع الفقهاء الذين أسسوا مناهجهم على استقراء الجزئيات للنفوذ إلى أسرار الكليات، وهو مما

(١) انظر، علىٰ سبيل التمثيل، العز بن عبد السلام، «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، مؤسسة الريان، بيروت ١٩٩٠.

(٢) انظر: «ابن تيمية»، «القواعد النورانية الفقهية»، تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ط، ١٩٩٤، وابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، حققه علي بن محمد المغربي، دار الأرقم، الكويت ١٩٨٦.

(٣) انظر: «ابن قيم الجوزية»، «أعلام الموقعين عن رب العالمين»، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ١٩٨٧، وابن قيم الجوزية «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، تحقيق محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة.

(٤) انظر: الشاطبي «الموافقات في أصول الشريعة»، شرح وخرّج أحاديثه عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١.

سمعتُ الشيخَ يحثُّ عليه تلاميذه، ويرى فيه منهجًا بريئًا من آفاق الفقه السطحي والفتيا المتعجلة، شعورًا منه بعظمة المناهج التي تبلورتْ في مسيرة الفقه الإسلامي، وإدراكًا عميقًا للمخاطر الناجمة عن إهمال مثل هذه الطرائق في الفقه والتفقُّه.

□ ولد الشيخ شعيب بن محرم الأرنؤوط في مدينة دمشق سنة ١٩٢٨م، وهو ينحدر من أسرة ألبانية الأصل، كانت تقطن عاصمة ألبانيا، ثم هاجرت إلى دمشق سنة ١٩٦٢م، واستقرت فيها.

ويبدو أن السبب في هذه الهجرة يحور إلى ما كان يسمعه أبوه ثمَّةَ من فضل الشام، والترغيب في سكناها[1]، فعلى الرغم من أن أباه كان عاميا، إلى حد ما، فإنه كان محبًّا للعلماء، حريصًا على مجالستهم ومصاحبتهم، وتطبيق ما يسمعه من نصائحهم في الدين، وما يرشدون إليه؛ ولذلك أزمع على بيع أراضيه التي كان يعيش عليها في ألبانيا، ثم حمل أسرته، ليستقر في دمشق، وقد عاش فيها، بعد أن نفد المال الذي بين يديه، على تقطيع أخشاب الجوز إلى ألواح في أحد المصانع، وظل هذا مصدر كسبه إلى آخر حياته.

□ نشأ الشيخ الأرنؤوط في ظل والديه نشأةً دينيةً خالصة، تعلم في خلالها مبادئ الإسلام، وحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم، ولعل الرغبة الصادقة في الفهم الدقيق لمعاني القرآن، والإدراك العميق لأسراره،

---

(١) لمزيد من المعلومات في هذا الموضوع، انظر: العز بن عبد السلام «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام»، تحقيق وتخريج محمد شكور بن محمود إمرير الميادينى، مكتبة المنار، الزرقاء، ط١، ١٩٨٧.

من أقوى الأسباب التي جعلته يندفع بقوةٍ ونشاطٍ منذ السابعة عشرة من عمره، إلى دراسة اللغة العربية، والعناية الفائقة بها.

□ وكان في هذا الوقت يعتقد أن من عوامل سقوط الدولة العثمانية المتراخية، هو عدم جعل العربية اللغة الرسمية للدولة، إذ لو كانت فعلت ذلك، لتمكنت بسهولةٍ من توحيد الشعوب المختلفة الواقعة تحت سلطانها، وتمكنت كذلك من إيجاد طبقة من العلماء المجتهدين القادرين على أن يمدُّوا الدولة بالحلول المناسبة لجميع معضلات الحياة، فضلاً عن عدم احتفالها بالنواحي المادية التي من شأنها أن تكسبها القوة والمنعة، وتجعلها في مقدمة الأمم.

□ وقد مكث الشيخ الأرنؤوط في دراسة العربية ما يربو على عشر سنوات، كان يختلف في خلالها إلى مساجد دمشق ومدارسها القديمة، قاصدًا حلقات اللغة في علومها المختلفة، من نحوٍ وصرفٍ وأدبٍ وبلاغة وما إلى ذلك.

□ ومن أبرز ما تمتاز به الدراسة في هذه الأماكن آنذاك: أن الطالب هو الذي يختار فيها العلم الذي يريد، فلم يكن من أحد يقسره على دراسة علم بعينه، لا يتفق مع رغبته، ولا ينسجم مع قدراته، ولذلك لا تجد في حلقاتها الكثيرة المبثوثة هنا وهناك، إلاَّ طالبًا مجتهدًا، لديه الرغبة العارمة في العلم والتحصيل.

□ وفي خلال هذه المدة قرأ الشيخ الأرنؤوط على كبار أساتذة العربية في دمشق آنذاك أشهر مصنفات اللغة والبلاغة العربية، ومن ذلك، على سبيل التمثيل: «شرح ابن عقيل»، و«كافية» ابن الحاجب (بشرح ملاّ

جامي)، و«المفصل» للزمخشري و«شذور الذهب» لابن هشام الأنصاري، و«أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» لعبدالقاهر الجرجاني، وغيرها.

□ ومن الأساتذة الذين درس العربية عليهم، وتلمذ لهم، الشيخ محمد صالح الفرفور، وكان هذا من التلاميذ الملازمين لمحدِّث الديار الشامية في عصره الشيخ محمد بن يوسف المعروف ببدر الدين الحَسَني، وله فيه كتابٌ، نشره منذ سنواتٍ، يتحدث فيه عن حياته الشخصية والعلمية[1]، وكان الشيخ الفرفور في طليعة الذين يعرفون العربية، ويجيدون فهمها، وله شعرٌ رصينٌ، ينمُّ عن أصالةٍ وتمكُّنٍ من ناصية البيان.

□ ومن هؤلاء الأساتذة أيضًا، الشيخ عارف الدوجي، وكان هذا معيدًا عند الشيخ بدر الدين الحسني، والمعيد في ذلك الوقت هو المؤهل أن يكون أستاذًا فيما بعد، يخلف شيخه في الحلقة، وأبرز ما يتميز به هو إلمامه الواسع بعلوم العربية، ثم إلمامه بالعلم الذي هو بصدده.

□ وممن قرأ عليهم كذلك، الشيخ سليمان الغاووجي الألباني، الذي استقر آخر حياته في دمشق، وكان هذا الشيخ يشرح لطلابه الكتب التي كانت تدرس في الدولة العثماني، ككتاب «العوامل» للبَركوي، و«الإظهار» للأطَهْلي، وغيرهما.

وبعد هذه الرحلة الشاقة في أعماق العربية، والتي أكسبته القدرة على الفهم الصحيح، والاستنباط الدقيق، وإبداء الحجة والدليل، بفضل ذكائه

---

(١) « انظر: محمد صالح الفرفور «المحدث الأكبر وإمام العصر العلامة الزاهد السيد الشريف الشيخ محمد بدر الدين الحسني . كما عرفته، دار الإمام أبي حنيفة، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

الحاد، وحافظته القوية، وهمته العالية، أحس الشيخ الأرنؤوط بأنه في مسيس الحاجة إلى دراسة الفقه الإسلامي، فلزم أكثر من شيخ، يقرأ عليه كتب الفقه، ولا سيما التي تخص المذهب الحنفي، من مثل: «مراقي الفلاح» للشُرُنبلاّلي، و«الاختيار» للموصلي، و«الكتاب»[1] لأبي الحسن القُدُوري، وحاشية ابن عابدين، التي تدعى: «ردّ المحتار على الدر المختار»، وغيرها.

□ وقد ظل يدرس الفقه الإسلامي دراسةً متعمقةً أكثر من سبع سنوات، يتخلل ذلك دراسة أصول الفقه، وتفسير القرآن، ومصطلح الحديث، وقراءة كتب الأخلاق، وما إلى ذلك، وكان عمره في هذه الفترة قد جاوز الثلاثين سنة.

□ ولعل أبرز ما لحظه الشيخ الأرنؤوط في أثناء دراسته للفقه، وكان له تأثيره الكبير في حياته العلمية فيما بعد، ذلك القصور الواضح، عند شيوخه وغيرهم ممن عاصرهم، في معرفة صحيح الحديث وسقيمه.

□ فكانت الأحاديث الضعيفة والموضوعة هي التي تدور، في الغالب، على ألسنتهم، وتتداول في مجالسهم، وكثيرًا ما كانوا يستشهدون بها في محاوراتهم التي تتعلق بفقه الخلاف، أو الفقه المقارن، كما يسمى اليوم، إذ قلما كانوا يعنون بدراسة كتب الحديث، ولعل قصارى أمر أحدهم أن يقرأ

---

(١) وهذه الثلاثة الكتب من المتون المعتبرة في الفقه الحنفي، ويطلقون عليها مصطلح «ظاهر الرواية»، وهي مسائل الأصول التي رويت عن أعيان المذهب، وهم: أبو حنيفة، وأبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني. انظر: «رسائل ابن عابدين» (١ / ١٦)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

كتاب «رياض الصالحين» للنووي فقط، ومن أجل التبرك، ليس غير[١]؛ مما جعله يدرك من أعماقه أنه لا بدّ من الاختصاص بهذا العلم، وسَبْر أغواره، ومعرفة أسراره، حتى يتسنّى له أن يحقّق كتب السنة، ويميز بين صحيحها وضعيفها، لتكون في خدمة جميع الباحثين، وخاصةً أنها لم تكن سهلةً ميسورةً، بل تحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ من أجل تقريبها لهم، ولسواهم من عامة القراء.

فعقد النية عازمًا على أن ينهد لسدِّ هذه الثغرة الخطيرة، والاضطلاع بهذا العبء، وكان يشتغل، منذ سنة ١٩٥٥، بتدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية بدمشق، فرأى أن يزايل هذا العمل؛ ليتفرغ بالكلية للاشتغال بتحقيق التراث العربي الإسلامي، ولا سيما كتب السنة المطهرة، التي أحس آنذاك أنها في مسيس الحاجة إلى التحقيق والتعليق، والتصحيح والتوضيح، وإخراجها إخراجًا علميًّا متقنًا، كيما تكون سهلة المتناول، ويعم الانتفاع بها.

وكانت بدايته الأولى في «المكتب الإسلامي» بدمشق سنة ١٩٥٨/، حيث رأس فيه قسم التحقيق والتصحيح، فكان فضلاً عن عمله في التحقيق، هو الذي يختار الكتب المراد تحقيقه، ويرسم المنهج الذي ينبغي أن يسلك في ذلك، ويشرف على مراحل التحقيق جميعها، ومتابعتها بدقة،

---

(١) وأقول: للتبّرك فقط، لأن «رياض الصالحين» يشتمل علىٰ جملة صالحة جدًّا من الأحاديث الصحيحة والحسنة التي تحول بين الفقيه وبين التلبس بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وربما كانت كافية في سدّ حاجة المشتغل بالفقه من الحديث النبوي، ولكن يبدو أن ثمة عوامل أخرىٰ كانت وراء هذه الظاهرة التي لا تزال عقابيلها ماثلة في حياتنا المعاصرة.

وتدريب العاملين معه، وخصوصًا الجدد منهم[(١)].

□ وقد تنوعت الكتب التي حققها الشيخ الأرنؤوط في «المكتب الإسلامي»، أو أشرف على تحقيقها، فشملت كتب السنة، والفقه، وعلم الرجال، والتفسير، والأدب، وما إليها، مما يدل على تبحُّره في الثقافة العربية الإسلامية، وتمكنه من عددٍ غير قليلٍ من العلوم.

وقد بقي في «المكتب الإسلامي» قرابة العشرين سنة، أسهم في خلالها في تحقيق ما يزيد على سبعين مجلدًا من أمهات كتب التراث، كـ «شرح السنة» للبغوي (ستة عشر مجلدًا)، و«زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (تسعة مجلدات)، و«روضة الطالبين» للنووي (اثنا عشر مجلدًا)، و«المبدع في شرح المقنع» لابن مفلح الحنبلي (ت٨٨٤هـ) (عشرة مجلدات)، و«مهذب الأغاني» لابن منظور (اثنا عشر مجلدًا)، وغيرها.

ثم رأى، لسبب ما أن يتركه؛ لينتقل بعد ذلك مباشرةً إلى العمل في «مؤسسة الرسالة»، وقد اكتسب خبرةً واسعةً في ميدان التحقيق، عزَّ نظيرها، فيترأس فيها قسم تحقيق التراث التابع لها، لينهض بمجموعة من المهمات، كالتحقيق، واختيار الكتب، وتحديد خطة العمل، وتدريب العاملين في القسم، والإشراف على عمليات التحقيق كلها من بدايتها إلى نهايتها.

وهو لا يزال يعمل في هذه المؤسسة، في مكتبها بعَمَّان التي رحل إليها منذ سنة ١٩٨٢م واستقر فيها، حتى يومنا هذا.

□ وليس يخفى أنَّ عمل الشيخ الأرنؤوط في «مؤسسة الرسالة» كان

---

(١) من مقابلة مع الشيخ شعيب الأرنؤوط في مكتبه بعمّان، بتاريخ ٩/٦/١٩٩٤.

أنضج وأرحب مدى، ولعل أهم إنجازاته في تحقيق التراث وأشهرها قد تمت أثناء عمله في هذه المؤسسة، التي تعد بحق رائدة بعث التراث العربي الإسلامي في هذه الأيام، بما توليه من عنايةٍ فائقةٍ بتحقيق أمهات كتبه، ونشرها نشرات علميةً متقنةً، تجعل الإفادة منها في غاية السهولة واليسر [(١)].

□ وقد يشار ها هنا، على سبيل التمثيل، إلى تحقيقه: «سِير أعلام النبلاء» للذهبي (خمسة وعشرون مجلدًا)، و«الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (ثمانية عشر مجلدًا)، و«العواصم والقواصم» لابن الوزير اليمني (تسعة مجلدات)، و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (خمسة مجلدات) وغير ذلك.

□ ولعل ما كتبه الدكتور بشار عواد معروف، من جامعة بغداد، في نهاية مقدمته لـ «سير أعلام النبلاء»، في معرض حديثه عن تحقيق الكتاب، يجلي نواحي مهمةً من طبيعة العمل الذي ينهض به الشيخ الأرنؤوط في قسم تحقيق التراث التابع لمؤسسة الرسالة، وأيضًا طبيعة الدور الذي يقوم به صاحب المؤسسة في توفير سبل النجاح لهذا القسم، ومن ذلك قوله: «وحين أزمع هذا الفاضل (يقصد صاحب «الرسالة» الأستاذ رضوان دعبول) على تحقيق «السير»، وفَّر له سُبُلَ التوفيق والنجاح على أحسن مَوفرٍ بأن نَدَبَ إلى الاشتغال فيه عددًا من المحققين البارعين الكفاة، أجزل

---

(١) لمزيد من الاطلاع حول جهود هذه «المؤسسة» في نشر التراث؛ انظر: محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٤، (ص١٦٢- ١٦٣)، وما كتبه العلامة محمود محمد شاكر في مقدمة كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» الصادر عن دار البشير بعمّان (التابعة لمؤسسة الرسالة، بيروت) سنة ١٩٩٢.

لهم العطاء، وحفظ حقوقهم كافة، وهيأ لهم مستلزمات التحقيق الدقيق: من نسخ موثقة، ومصادر مكدسة في متناول أيديهم، فضلاً عن بذل المال الوافر في الطباعة الأنيقة الدقيقة، والورق الفاخر، والصناعة المتقنة.

□ ثم توّج عمله، وركب جُدّةً من الأمر بأن نَدَب لمراجعة الكتاب والإشراف على تحقيقه، وإصلاح ما قد يطرأ عليه من الغلط عالمًا برع أصحابه في عمله، متأبهًا عن الشهرة، قديرًا على تذليل الصعب، فطينًا لإيضاح المبهم، كفيا بتيسير العسير، هو الأستاذ المحدث الشيخ شعيب الأرنؤوط.

وقد عرفتُ لهذا العالم فضله الكبير على هذا السفر النفيس آثر ذي أثيرٍ حين اشترط أن يقام التحقيق على أفضل قواعده وشاهدته وهو يمسك أصل النسخة الخطية، والمحقق يقرأ عليه عمله، وهو لا يسهو ولا يغفل لحظة، يبين المبهم، ويوضح الخفي، ويصرف الوقت الطويل الثمين في تدقيق لفظ، أو ضبط حركة، ويعيد ذلك ويبديه، ويعده أمانة وديانة، يشد به أزر المحققين، فضلاً عن قيامه بتخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب، وهي بليغة الكثرة، ووفق الأصول والقواعد المتبعة في علم المصطلح، وهو اليوم فارس هذا الميدان الخطير الذي ضرب آباطه ومغابنه، واستشف بواطنه»[1].

□وقد تخرّج على يد الشيخ شعيب الأرنؤوط في صناعة التحقيق عددٌ غير قليلٍ من طلبة العلم، وأصبح لدي كثيرٍ منهم القدرة على الإسهام في

---

(١) الذهبي «سير أعلام النبلاء» أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الإنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٤ (١/ ١٣٩- ١٤٠).

هذا المجال، ولا سيما الألى كانوا أكثر ملازمة له، وأخذًا منه، كمحمد نعيم العرقسوسي، وإبراهيم الزيبق، ورضوان العرقسوسي، وعادل مرشد، وعمر حسن القيام، وأحمد عبد الله، وعبد اللطيف حرز الله، وأحمد برهوم، وكامل قره بللي، وغيرهم... ممن تفرَّس فيهم أماراتِ القدرة على القيام بأعباءِ التعامل الصحيح مع علوم السنَّة، غير ملتفت إلَّا إلى قدرتهم على تجويد ما يضطلعون بأعباء تحقيقه، ولقد قرَّ الشيخ عينًا حين رأى هؤلاء التلاميذ وقد أصبح كلُّ واحدٍ منهم قادرًا على الاستقلال والانفراد بعمله، ورأى فيهم ثمارًا ناضجة لجهودٍ حثيثةٍ ستعود بالخير على الحياة الاجتماعية والثقافية بسبب ما تسلّحوا به من وعي، وما غرس فيهم الشيخ من ضرورة اختبار الأشياء وتمحيصها.

□ وأثر الشيخ الأرنؤوط واضحٌ جلي في الكتب التي حققها هؤلاء التلاميذ، ولم يكونوا ينكرون فضله عليهم، ورعايته لهم، بل كانوا أوفياء له، يهتبلون كل مناسبةٍ لكي يزجوا إليه جزيل الشكر، ويثنوا عليه أطيب الثناء.

□ يقول الشيخ نعيم العرقسوسي، على سبيل التمثيل، في مقدمة تحقيقه لكتاب «توضيح المشتبه» لابن ناصر الدين: «وأخص الشكر وأجزله، وعظيم الوفاء وأجمله إلى من لولا رعايته وعنايته ما كنت في عداد مَنْ يعنى بتحقيق التراث، إلى من هو جديرٌ بكل تقديرٍ واحترام، وأهل لكل تكريم وإعظام، إلى فضيلة الشيخ المفضال المعطاء المحتسب أستاذي شعيب الأرنؤوط حفظه الله ينبوعًا للعطاء، ونبراسًا مضيئًا بالعلم

والصدق والنقاء»[١].

□ ويقول الأستاذ إبراهيم الزيبق أيضًا في مقدمة تحقيقه لكتاب «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: «وبعد... هل تكفي كلمة شكر أزجيها لأستاذي وشيخي شعيب الأرنؤوط؟ وهل تجزئ عني كلمة ثناء أكتبها له بحروف المحبة والصدق؟... إن ما بعنقي له أوسع من الشكر، وأجزل من الثناء، إن ما فتح عليه عيني من أمر الحياة، وأنا أتلمس طريقي بعقل غض وقلبٍ مرهف جعل أيامي معه سنين في عمقها وغناها، ثم أخذ بيدي في عالم التحقيق، فمنحني ثقته وما أغلاها، وأنار دربي بعلمه وما أغزره، فلك يا أستاذي شكرٌ أوسع من الشكر، وثناءٌ أعظم من الثناء، والله يتولى عني حسن جزائك»[٢].

□ ويقول الأستاذ عمر حسن القيام، أحد المحققين الأردنيين الذين أفادوا من الشيخ الأرنؤوط، في مقدمة تحقيقه لرسالة ابن رجب الحنبلي «شرح حديث اللهم بعلمك الغيب»: «وشجعني على المضي قدمًا في هذا الطريق شيخي المحدِّث العلامة شعيب الأرنؤوط أحد شيوخ هذا الفن في هذا العصر، والعَلَم الذي نشر من نفائس السنة النبوية، ما يقضي بنبالة قدره، ومن ارتضاني للعمل معه في هذا العلم الشريف بعد سياحةٍ غير

---

(١) ابن ناصر الدين الدمشقي: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، حققه وعلّق عليه محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣ (١/ ١١٢).

(٢) إبراهيم الزيبق، ابن عبد الهادي وكتابه «طبقات علماء الحديث» مجلة البصائر، تصدر عن الاتحاد الثقافي في فرنسا، العدد (٣١) (ص٩، ١٠) (من مقدمة تحقيق كتاب «طبقات علماء الحديث»).

قصيرة في علوم اللغة والأدب، فله مني أجزلُ شكرٍ وأوفاه على حُسْنِ صنيعه معي، وإيثاره أياي بنفيس أوقاته، ورغبته النبيلة في تعليمي وإفادتي والأخذ بيدي في مدارج هذا العلم الشريف»[١].

□ وقد كانت علاقته بتلاميذه علاقة الصديق بأصدقائه، فكان قريبًا منهم، حريصًا على نفعهم وهدايتهم، ولم يكن يفرض عليهم آراءه وأحكامه، بل كان يحثهم على أن يُعمِلوا عقولهم، ويبدوا حجتهم، ويحاوروا ويناقشوا، وكثيرًا ما كان يستشيرهم، وينزل عند رأيهم، مما كان له أثره الطيب في نشأتهم وتعلمهم، ولعل هذه الخليقة قد تحدّرت إليه من منهج إمامه أبي حنيفة الذي كان لا يثبت مسألةً في الفقه إلاّ بعد أن يستشير غير واحدٍ من جلّة أصحابه كأبي يوسف القاضي وزُفَر بن الهذيل ومن هو على شاكلتهم من أعيان المذهب الحنفي[٢].

□ يقول الشيخ الأرنؤوط، في أحد هوامش الجزء السادس من «مسند الإمام أحمد» الذي حققه، تحت إشرافه، تلميذاه محمد نعيم العرقسوسي وإبراهيم الزيبق، معلقًا على بعض كلام لهما: «وهذا التحقيق النفيس الذي انتهى إليه صاحباي الشيخ نعيم والأستاذ إبراهيم في التفريق بين أبي سلمة الجهني وبين موسى الجهني، قد وافقتهما عليه واقتنعت بصحته، يلغي الخطأ الذي وقع مني في تعليقي على ابن حبان حيث تابعت فيه مَنْ تقدمني ممن ينتحل صناعة الحديث، فجزمت بأن أبا سلمة الجهني هو

(١) ابن رجب الحنبلي، شرح حديث «اللهم بعلمك الغيب»، اعتنى بضبطه عمر حسن القيام، دار البشير، عمّان، ط١، ١٩٩٧ (ص١٤).

(٢) انظر: جمال الدين الزيلعي، «نصب الراية لتخريج أحاديث الهداية» دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧ (١/ ٣٨- ٣٩).

موسى الجهني الثقة، فيستدرك هنا»[1].

□ وقد حدثني تلميذه الأستاذ عادل مرشد قال: «كتب الشيخ شعيب الأرنؤوط مرة ردًا عنيفًا على أحد المحدثين المعاصرين المعروفين، فلما عرضه علي، أشرت عليه بعدم نشره، درءً لما قد يثيره من الإحَنِ وَوَغْر الصدور، وكان محقًّا في كل ما أخذه عليه، فلم يجد الشيخ حرجًا من التراجع عن رأيه، وطيه، ووضعه في درج مكتبه.

□ ويختلف إلى مكتب الشيخ الأرنؤوط بعمّانَ كثيرٌ من أساتذة الجامعات، وخصوصًا المعنيين بتحقيق كتب التراث، وقد شاهدتُ بعضَهم بين يديه، يسألونه ويستشيرونه في عددٍ من القضايا والمسائل، فكان يبذل أقصى ما فيه وسعه من أجل حل مشكلاتهم، والإجابة عن أسئلتهم، وتقديم الإعانة والنصيحة لهم.

□ ويحرص كثيرٌ من الأساتذة على أن ينظر الشيخ الأرنؤوط في الكتب التي حققوها قبل أن ينشروها بين الناس، ليفيدوا من تعليقاته المهمة، وملحوظاته القيمة، بحسبه واحدًا من أبرز أعلام تحقيق كتب التراث في هذا العصر.

□ يقول الدكتور بشار عواد معروف، على سبيل التمثيل في آخر مقدمة تحقيقه لكتاب «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزي: «وأرى من الواجب علي أن أنوّه بفضل كل من ساعد على ظهور هذا الكتاب،

---

(١) أحمد بن حنبل «مسند الإمام أحمد بن حنبل»، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦ (٢/ ٢٤٨- ٢٤٩).

وأخص منهم بالذكر... صديقي العالم الفاضل المحقق، المتقن المتفنن، الشيخ شعيب الأرنؤوط، لما بذله ويبذله من مساعدات وإسهامات كان لها الفضل العظيم على إخراج هذا الكتاب، فقد قام بقراءته قراءة دارس عالم، وأنبهني على بعض ما فاتني، وخرَّج الأحاديث الشريفة الواردة فيه، وأبان عن درجة كل حديث من الصحة وغيرها، حسبما تقتضيه القواعد الحديثية... سدد الله خطاه، وأنجح مسعاه، ونوله رضاه»[1].

□ وللشيخ شعيب الأرنؤوط منهجٌ واضحٌ مستتبٌّ في التحقيق، تجده مطبقًا في معظم الكتب التي حققها، أو أشرف على تحقيقها، وكثيرًا ما كان يعرض هذا المنهج في مقدماته الضافية التي كان يصدّر بها هذه الكتب، والتي تشتمل، في الغالب، فضلاً عن «منهج التحقيق»، على ترجمةٍ وافية للمؤلف ودراسةٍ شاملة للكتاب، ووصفٍ دقيق للنسخ التي اعتمدها ونماذج من هذه النسخ.

□ وربما نيفت بعض مقدماته، كمقدمة تحقيقه لـ «مسند الإمام أحمد»، على مئة وخمسين صفحة، وبعضها، كمقدمة تحقيقه لـ «شرح مشكل الآثار»، على ثمانين صفحة، وبعضها كذلك، كمقدمة «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»، على سبعين صفحة، مما يدل على سعة عارضته، وكمال خبرته فيما يضطلع بأعباء تحقيقه من المصنفات.

□ وهو يرى أن من فضول القول، عند عرض منهج التحقيق، الحديث عن نسخ الكتاب، ومقابلة المنسوخ على الأصل، للتأكد من خلوه

---

(١) المزي، «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» حققه وضبط نصه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، ١٩٨٠ (١/ ٩٠).

من السقط، فتلك من أبجديات إخراج كتاب ما وأساسياته، ومن المسلم به أن الكتاب لا يقوم بغير ذلك، وإنما المطلوب في الحديث عن منهج التحقيق الكلام عن الخطة التي انتهجها المحقق إزاء نص الكتاب، والتي يفترض أن تكون ظلًّا للنص يخدمه ويحقق غايته، ويسبر مدى نجاح مؤلفه في قصده من تأليفه، وموضوع الكتاب هو الذي يحدد المنهج الذي يناسبه.

على أن هناك إطارًا عامًا لا بد من العمل ضمنه، من ذلك ما اتفق عليه الناس اليوم من ضرورة ضبط ألفاظ النص، وخاصة إذا كان آية قرآنية، أو حديثًا شريفًا، يلي ذلك ضبط أسماء الأعلام والبلدان والألقاب والأنساب والمواضع، وذلك لتجنب غير المختص في قراءتها.

ومن ذلك تحلية النص بعلامات الترقيم، وتوزيعه على نحو يسهل قراءته على طالب العلم، ويجنّبه كثيرًا من الزلل في فهم المراد.

هذا كله مما يتعلق بذات النص، أمّا ما يستدعيه من تعقيب أو تعليق أو استدراك أو تصحيح، فذاك، فيما يقول الشيخ الأرنؤوط، عمود منهج التحقيق، ويقيمه طبيعة الكتاب وموضوعه، فكتاب في الأدب، مثلاً، يتضمن بعض الأحاديث النبوية، أو المسائل الفقهية، ليس من المطلوب التوسع في تخريج حديث فيه، واستقصاء مصادر التخريج، ولا بسط المسألة الفقهية، وعرض دقائقها، بل يكفي ربط مثل هذا، بإيجاز، بالمصدر الرئيس له، والإحالة على كتاب يكون مفتاحًا لتلك القضية، ثم التركيز بعد ذلك على القضايا الكبرى التي هي موضوع الكتاب[1].

---

(١) انظر: ابن حبان البستي، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» بترتيب الأمير =

□ إن المحقق الأصيل، عند الشيخ الأرنؤوط، ليس عمله أن يخرج النص مصححًا كما كتبه المؤلف حسب، وإنما يتعدى ذلك إلى تتبع ما أورده المؤلف من أفكار، ورجحه من أقاويل، وبيان ما جانب فيه من الصواب، ولذا كثيرًا ما كان يخالف مؤلفي الكتب التي يحققها في بعض آرائهم وأحكامهم، ويوجه نقداته إليهم.

□ يقول الشيخ في مقدمة تحقيقه لكتاب «العواصم والقواصم» لابن الوزير: «وقد نخالف المؤلف ـ رحمه الله ـ في بعض ما ذهب إليه من آراء، وما انتهى إليه من أحكام، فنرد قوله برفق، معتمدين على نصوص الكتاب والسنة اللذين هما أصل الدين وملاكه، وإليهما المرجع في فصل النزاع في جميع مسائل الخلاف، وذلك مما يسر المصنف، إن شاء الله، ويرضيه فإنه رَحِمَهُ اللهُ كان يدعو إلى إمعان النظر في الأمور المختلف فيها بين الأئمة، واستعراضها، والاطلاع على حججهم ودلائلهم، والأخذ في كل باب بما هو أقوى دليلاً، وأبلغ في الحجة، من غير تعصب لمذهب أو عليه»[1].

□ ويقول أيضًا في مقدمة تحقيقه لكتاب «زاد المعاد» لابن القيم: «ولم نُخلِ تعليقاتنا هذه من توجيه نقداتٍ للمؤلف فيما يظن أنه أخطأ فيه، فإنه ـ رحمه الله ـ قد صرح في كتابه هذا بأنه لم يقصد من تأليفه نصرة مذهب

علاء الدين الفارسي، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٨، (١/ ٦٧ - ٦٨) (من مقدمة التحقيق).

(١) محمد بن إبراهيم الوزير، «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» حققه وضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط، دار البشير، عمّان، ط١، ١٩٨٥ (١/ ١٣٩).

من مذاهب الأئمة، وإنما قصد به مجرد هدي رسول الله ﷺ في سيرته وأقضيته وأحكامه، فلا ضير علينا إذا خالفناه في بعض ما ذهب إليه، إذا كان ما انتهينا إليه هو الصحيح القوي السديد»[١].

وكثيرًا ما كان يخالف الشيخ الأرنؤوط كبار العلماء المحققين ممن سبقوه، سواء أكانوا من القدماء، كالحافظ ابن حجر، مثلاً، أم من المحدثين، كالشيخ أحمد محمد شاكر.

□ يقول الشيخ الأرنؤوط في مقدمة تحقيقه لـ «مسند الإمام أحمد»: «وسيجد القارئ الكريم أننا قد خالفنا في تنقيد الرواة ابن حجر وغيره من أئمة هذا الشأن فيما انتهوا إليه من أحكام على عددٍ غير قليلٍ من الرواة نتيجة مراجعة كتب الجرح والتعديل المعتمدة التي تضمنت أقاويل الثقات في هؤلاء الرواة، والموازنة الدقيقة بينها، واستخلاص ما هو أقرب إلى الصواب منها، ولنا على كتاب «التقريب» للحافظ ابن حجر مؤاخذاتٌ غير قليلة، تدل على أنه ـ رحمه الله ـ لم يحرر تراجمَ عددٍ غير قليلٍ من الرواة تحريرًا دقيقًا، فقد وقعت له فيه أخطاء يستغرب صدورها من مثله»[٢].

□ ويقول بعد ذلك بقليل، في سياق حديثه عن عمل الشيخ أحمد محمد

---

(١) ابن قيم الجوزية، «زاد المعاد في هدي خير العباد»، حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩ (١/ ١٢).

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، «مسند الإمام أحمد بن حنبل»، أشرف على تحقيقه الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط، ١٩٩٣ (١/ ١٤٠-١٤١).

شاكر في «المسند»: «... ومع شهادة غير واحد من أهل العلم ببلوغه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرفة حديث رسول الله ﷺ رواية ودراية، مبلغًا لم يجاره أحد به من معاصريه ممن ينتحل صناعة الحديث، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تساهل في الحكم على أحاديث غير قليلة في «المسند» تساهلاً غير مرضي عند الحذاق من النقاد، فَقوَّى حال ابن لَهيعةَ مطلقًا وعلي بن زيد بن جُدْعان وشريك ابن عبد الله النخعي ومن هو من بابتهم، وفي كثير من الأحاديث التي جاءت في «المسند» يقول في كل واحد منها: إسناده صحيح، رجاله ثقات، مع أن في سندها من رُمِي بالاختلاط وراويه عنه ممن روى عنه بعد الاختلاط، أو ممن هو موصوف بسوء الحفظ، أو كان ممن يعرف بالتدليس وقد روى حديثه بالعنعنة، وقد صحح كثيرًا من الأسانيد التي فيها رواة مجهولون لم يؤثر توثيقهم عن أحد من الأئمة المعتمد عليهم، الموثوق بهم في هذا الفن وفي كل ذلك مخالفة للجهابذة من أهل الحديث في مختلف عصورهم، وهذا هو السبب الذي دعانا إلى مخالفته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كثير من الأحكام التي انتهى إليها في التصحيح والتضعيف»[(١)] .

على أنه إذ يخالفهم، ويسجل عليهم مؤاخذاته، يحرص جدًّا على أن يؤكد أن مخالفته إياهم، وانتقاده لهم، لا ينقص من قدرهم الجليل، ولا يغض من قيمتهم، وكان يتمثل دومًا بقول الإمام أحمد بن حنبل فيما رواه عنه أحمد بن حفص السعدي: لم يعبر الجسر (يعني جسر بغداد) إلى خراسان مثل إسحاق بن راهويه، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا»[(٢)] .

(١) المصدر نفسه (ص١٤٧- ١٤٨).
(٢) المصدر نفسه (ص١٥٠، ١٥١).

والواقع أن هذا الأسلوب المتزن في النقد من أظهر ما يتميز به منهج الشيخ الأرنؤوط في التحقيق، إذ قلما تجده في كتابات المشتغلين بهذا الفن في الوقت الحاضر، وخصوصًا، وللأسف، المشتغلين في مجال الحديث النبوي، تصحيحه وتضعيفه، الذين استفحل التشاتم والتطاعن بينهم، وكأن هذه القضية ليست من القضايا الاجتهادية التي تتباين فيها وجهات النظر بين العلماء.

ولا بأس ها هنا من تقديم نموذج لمنهج الشيخ شعيب الأرنؤوط في التحقيق، وهو منهجه في تحقيق «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» بترتيب الأمير علاء الدين الفارسي، وهو كتاب في الحديث النبوي، اشترط مؤلفه ألَّا يورد فيه إلا حديثًا صحيحًا، وهذا فيما يقول الشيخ الأرنؤوط، الذي حدد خطة العلم في إخراجه «والتي تتلخص في: هل وفَّى المؤلف بما التزم؟ ثم هل كانت أحاديثه تتحقق فيها شروط الصحة التي اصطلح عليها الجمهور؟.

هذا عماد منهجي في تحقيق الكتاب، وتفصيل خطواته وفقراته ما يلي:

١ ـ قمت بدراسة رجال إسناد كل حديث فيه عدا شيوخ ابن حبان، إذ يغلب على ظني أنهم كلهم ثقات لا حاجة للكشف عن حالهم، علمًا بأن شيوخه الذين عوّل عليهم أكثر من غيرهم في رواية هذا الكتاب، وعدتهم واحد وعشرون، كلهم من كبار الحفاظ الأثبات المتقنين، كما تبين من تراجمهم المتقدمة في بحث شيوخه من هذه المقدمة، يضاف إلى ذلك أنه لدى تخريج الأحاديث من المصادر التي تقدمت ابن حبان ممن هو أعلى طبقة منه، تبين من روى الحديث أيضًا عن شيوخ شيوخ ابن حبان، وحين

ينفرد ابن حبان بحديث لم يخرجه غيره، فلا بد من دراسة شيخه والكشف عن حاله، وسوف أقوم بعد الفراغ من تحقيق الكتاب، بعون الله، بترجمة شيوخه في جزء مستقل.

٢ ـ بما أن تصحيح المؤلف للحديث كان مبنيًّا على رأيه في توثيق المستور، فهو حسب منهجه قد وفى بما التزم واشترط لتصحيح الحديث، لذا كان من مقاصد دراسة الإسناد الوقوف على مدى موافقته لشرط الصحيح عند الجمهور، وأخص منهم شرط الشيخين، الذي هو أعلى درجات الصحة، وقد بينت ذلك إثر كل حديث، فقلت: إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم، أو على شرط البخاري، أو على شرط مسلم.

□ وهذه فائدة عظيمة تبين القدر الذي استدركه ابن حبان من الأحاديث التي هي على شرط الشيخين أو على شرط أحدهما، ولم يخرجاها في كتابيهما، غير أن قولي في حديث ما: إسناده صحيح على شرط الشيخين، أو على شرط البخاري، أو على شرط مسلم، أو على شرط الصحيح؛ إنما نعني به: أن رجال السند ما عدا شيخ المصنف هم بهذه المنزلة، وأنهم ممن احتج بهم الشيخان أو أحدهما، وليس ممن خرجا له استشهادًا، أو متابعة ـ رحمهما الله ـ ينتقيان من حديث من تكلم فيه ما توبع عليه، وظهرت شواهده، وعلم أن له أصلاً، ومن حديث المدلس ما صرح بالسماع فيه، ومن حديث المختلط بأخرة ما رواه الثقة عنه قبل اختلاطه.

□ولم أرد بقولي: «إسناد صحيح على شرطهما، أو شرط أحدهما تعقب الشيخين وإلزامهما بهذه الأحاديث التي استوفت الشروط التي التزامها لإخراج الصحيح؛ لأنهما رَحِمَهُمَاٱللَّهُ ذكرا أنهما لم يكونا يقصدان استيعاب جميع

الأحاديث الصحيحة في كتابيهما، كما بينت ذلك في أول مقدمة، وإنما ذكرت ذلك لبيان أن عددًا غير قليل من الأحاديث التي لم ترد عندهما هي مستوفية لشروط الصحة التي اشترطاها في كتابيهما.

ولا أترجم لأحد من الرواة إلاّ إذا كان ثمة ضرورة تدعو إلى ذلك، فجميع رجال السند عدا شيوخ ابن حبان غالبًا من رجال «التهذيب»، وتراجمهم فيه موسعة، فتؤخذ من هناك، لكن قد أحقق القول في الثقات الذين رموا بالاختلاط أو التدليس، أو ما شابه ذلك، وربما يكون شيخ شيخ ابن حبان في السند ممن تكلم فيه غيره، وهو ثقة عنده، فأذكر من تابعه عليه من الثقات للتوثيق والتعضيد.

٣ ـ خرجتُ أحاديثَ الكتاب من «الصحاح»، و«السنن» و«المسانيد» و«المعاجم» التي تيسرت لي، سواء منها ما ألف قبل ابن حبان أو بعده، وبما أن المؤلف قد يورد الحديث الواحد في مواضع متعددة، وفي كل موضع يورده من طريق غير التي أورده منها في الموضع الآخر على الأغلب، فقد قمت بتخريج كل طريق في موضعه، ذاكرًا أن المؤلف سيورده من الطريق الفلانية برقم كذا، وإن لم يخرجه إلاّ من طريق واحدة مع أن له طرقًا عديدة، أشرت إلى تلك الطرق الأخرى عن ذلك الراوي، وفي حال اختلاف الطريق كلها عدا الصحابي راوي الحديث أورد الإسناد بتمامه.

وإذا ورد لفظ الحديث أو معناه عن صحابي آخر، ولم يذكره المؤلف، وهو في درجة حديث الباب، أو أقل منه، إلاّ أنه يصلح أن يكون شاهدًا، أثبته، وعزوته إلى من رواه، مع تبيين حاله، ليكون شاهدًا يزداد به الحديث

قوة، ويخرج عن حد الغرابة.

٤ ـ صححت ما وقع من تحريف أو تصحيف في النسخة التي اعتمدناها من كتاب «الإحسان»، وذلك بالرجوع أولاً إلى أصله المنقول عنه، وهو «التقاسيم والأنواع» في الأجزاء المتيسرة التي سبق ذكرها، فإن كان التحريف في الأصل أيضًا، رجعت إلى تصحيحه من مصادر التخريج.

٥ ـ علقت على بعض المواضع ما يستدعيه المقام؛ من بيان الحال راو في السند، أو تفسير لفظ شارد، أو توضيح معنى غائم، أو ترجمة بلد وموضع، أو نقد رأي ذهب إليه المؤلف، أو نقل فائدة لمحها أحد الأئمة في الخبر، إلى غير ذلك مما يقتضيه النص.

٦ ـ حافظت على الأرقام التي كتبها الأمير علاء الدين عقب كل حديث للإشارة إلى موضعه في الأصل من القسم والنوع، وأثبتها في نهاية كل حديث.

٧ ـ أتبعت كل جزء مطبوع بفهرسين: أحدهما للكتب والأبواب والعناوين التي ذكرها المؤلف للأحاديث، والتي تشتمل على ما استنبطه من فقه الحديث، ثانيهما لأطراف الأحاديث التي يتضمنها ذلك الجزء مرتبة على حروف المعجم، وفي نهاية الكتاب سأقوم، إن شاء الله، بصنع فهارس مفصلة للكتاب في طليعتها فهرس لأحاديثه جميعها.

٨ ـ رقمت أحاديث الكتاب، كما رقمت كتبه وأبوابه، وأضفت عنوان (المقدمة) بين حاصرتين للبابين الأولين من الكتاب، إذ لم يذكر المؤلف لهما

عنوانًا[١].

ولعلَّ النَّظر في طبيعة هذا المنهج قاضٍ بأنَّه من أكثر المناهج سدادًا، بما توافر له من أُسسٍ متينة، لو قُيض لها أن تُطبّق على جميع ما ينْشرُ من ذخائر التراث لكان في ذلك الخيرُ العميم، ولأصبح التراث بمأمنٍ من الضّيم الذي لحقه على يد أنصاف المحققين، ولكان القارئ على ثقة مما يقرأُ، وفي أمانٍ من التصحيف والتحريف والأخطاء التي تعجُّ بها الكُتبُ التي لم يتحْ لها هذا النمطُ الجليل من التحقيق.

أمّا الكتب التي حققها الشيخ شعيب الأرنؤوط، حتى الآن، أو أسهم في تحقيقها، أو أشرف عليها، فقد نيفت على أربعين ومئتي مجلد، شملت كتب السنة النبوية، والفقه، وتفسير القرآن، والتراجم، والعقيدة، ومصطلح الحديث، والأدب، وما إلى ذلك.

وإذا كان قد تولى نشر بعضها «المكتب الإسلامي» أثناء عمل الشيخ فيه من سنة ١٩٥٨م حتى سنة ١٩٧٨م، فقد تولت «مؤسسة الرسالة» التي يعمل فيها منذ مفارقته «المكتب» إلى يومنا هذا، نشر الجزء الأكبر منها.

ولعل من المفيد أن أشير، ها هنا، إلى أهم هذه الأعمال:

أ ـ في «المكتب الإسلامي».

١ ـ «شرح السنة» للبغوي (ستة عشر مجلدًا).

٢ ـ «روضة الطالبين» للنووي، بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر الأرنؤوط (اثنا عشر مجلدًا).

---

(١) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (١/ ٦٨ - ٧١).

٣ ـ «مهذب الأغاني» لابن منظور (اثنا عشر مجلدًا).

٤ ـ «المبدع في شرح المقنع» لابن مفلح (عشرة مجلدات).

٥ ـ «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي، بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر الأرنؤوط (تسعة مجلدات).

٦ ـ «مطالب أولي النهى عن شرح غاية المنتهى» للرحيباني، بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر الأرنؤوط (ستة مجلدات).

٧ ـ «الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل» لابن قدامة المقدسي، بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر الأرنؤوط (ثلاثة مجلدات).

٨ ـ «منار السبيل في شرح الدليل» لابن ضويان (مجلدان).

٩ ـ «المنازل والديار» لأسامة بن منقذ (مجلدان).

١٠ ـ «مسند أبي بكر» للمروزي (مجلد).

ب ـ في «مؤسسة الرسالة»:

١١ ـ «سير أعلام النبلاء» للذهبي (خمسة وعشرون مجلدًا).

١٢ ـ «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (ثمانية عشر مجلدًا).

١٣ ـ «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (خمسة عشر مجلدًا).

١٤ ـ «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» لمحمد بن إبراهيم الوزير (تسعة مجلدات).

١٥ ـ «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية، بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر الأرنؤوط (خمسة مجلدات).

١٦ ـ «تاريخ الإسلام» للذهبي، بالاشتراك مع الدكتور بشار عواد معروف (صدر منه أربعة مجلدات).

١٧ ـ «طبقات القراء» للذهبي، بالاشتراك مع الدكتور بشار عواد معروف (مجلدان).

١٨ ـ «موارد الظمآن بزوائد صحيح ابن حبان» للهيثمي، بالاشتراك مع محمد رضوان العرقسوسي (مجلدان).

١٩ ـ «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز، بالاشتراك مع الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي (مجلدان).

٢٠ ـ «المراسيل» لأبي داود (مجلد).

٢١ ـ «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات» لزين الدين مرعي بن يوسف الكرمي (مجلد).

٢٢ ـ «رياض الصالحين» للنووي (مجلد).

٢٣ ـ «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (خمسون مجلدًا)، وهو أرومة «الموسوعة الحديثية الكبرى» التي تنوي «مؤسسة الرسالة» تحقيقها وإخراجها بإشراف الشيخ[1]، وتشتمل، فضلاً عن «مسند الإمام أحمد»، على «الصحيحين»، و«السنن الأربعة»، وغيرها من كتب السنة المسندة، ما طبع منها وما لم يطبع[2].

٢٤ ـ «الآداب الشرعية والمنح المرعية» لابن مفلح الحنبلي (ت ٧٦٣هـ) بالاشتراك مع عمر حسن القيام (أربعة مجلدات).

---

(١) من أبرز الذين يعلمون معه في تحقيق هذه «الموسوعة»: محمد نعيم العرقسوسي، وإبراهيم الزيبق، وعادل مرشد.

(٢) انظر مقدمة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي (المشرف العام على إصدار هذه الموسوعة)، في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (١/ ٣٠).

٢٥ ـ «تحرير التقريب» لابن حجر العسقلاني، بالاشتراك مع الدكتور بشار عواد معروف (أربعة مجلدات).

٢٦ ـ «سنن النسائي الكبرى»، بالاشتراك مع حسن شلبي (اثنا عشر مجلدًا).

٢٧ ـ «سنن الترمذي» (ستة مجلدات).

٢٨ ـ «سنن الدارقطني»، بالاشتراك مع حسن شلبي (خمسة مجلدات).

٢٩ ـ «التعليق المجد: شرح موطأ محمد» لأبي الحسنات اللكنوي (أربعة مجلدات).

خاتمـــة:

إنّ هذه الإنجازاتِ الضخمةَ المتنوعةَ للشيخ شعيب الأرنؤوط هي خيرُ دليلٍ على مساهمته الجليلة في مسار الثقافة العربية الإسلامية، وهو جِدُّ متيقظ إلى أنّ التراث بحاجةٍ إلى صفوةٍ ممتازة من الباحثين الذين يستطيعون جلاءَهُ برواءٍ أصيل، بحيث تبقى الصلة قائمة بين إنجازات السلف والخلف، ويبقى الباحثُ المعاصر قادرًا على الاستنارة بجهودِ آبائه الأفذاذ، ولن يتيسّر له ذلك إلا إذا ظلت جهود السابقين محوطةً بالعناية، وإلاّ إذا ظلّ نفرٌ كريمٌ من خيرة العقولِ متوفّرًا على بعث التراث العقلي والفكري والأدبي والتاريخي للأمة العربية الإسلامية.

ولعل هذه الصفحاتِ قد اسطاعت أن تلمع إلى أن الشيخ الأرنؤوط هو أحد أعظم المشتغلين ببعث التراث العربي الإسلامي، وأنه قد تهيأ لإنجازاته من الإتقان والتجويد ما جعله خليقًا بهذه المنزلة التي تبوّأها

عن جدارةٍ واستحقاقٍ.

هذا، وستبقى جهود الشيخ في خدمة التراث صالحةً لبلورة دراسةٍ تحليلة كبيرة، تطيل النَّفْس فيما أجملته ها هنا، وتستوعب أكبر قدرٍ من التفاصيل التي لا يتيسر أمر الإحاطة بها من خلال بحثٍ تنهض بنيته الأساسية على التركيز والتبصّر في كليات الموضوع دون الخوض في تفاصيله واستقصاء تفاريعه»[1].

لطيفة:

□ قال الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه «قواعد التحديث» (ص٦٠) تحت عنوان «أيادي المحدِّثين البيضاء على الأُمَّة وشُكر مساعيهم»: «يقول جامعه الفقير: من أين للبليغ أن يُحصيَ أيادي المحدِّثين، وهم الذي عَشِقوا الهدي النبوي دون العالمين، فتتبَّعوه ممَّنْ بدا وحضر، وكابدوا لأَخْذه أهوال السفر، فكم جابوا صَحَارَى تتلظَّى الرَّمضاء، وقطعوا عن العمران فيافي تستدعي اليأس وتُروِّع الأحشاء، فحفظوا ووعَوْا، ولِعَهْد النَّفْر للتَّفقُّه في الدين رعوْا، ودفعوا عن الدين صُنع الوضَّاعين، وانتحال المفترين، وذُبَّ الكذب عن كلام الرسول الصادق، بما مهَّدُوه من تحرِّي كل راوٍ موافِق، فدوَّنوا ما سمعوه بالسند فرارًا عن الرَّمْي باتِّباع الأهواء، وتحكيم الآراء، فاستبرؤوا لدينهم بجليل هذا الاحتياط، ودرَّبوا الأُمَّة على التَّثبُّت في توثيق عُرى الارتباط. رُحماك اللهمَّ، فالاعتراف بمآثرهم الحسنة أمرٌ واجب، وشُكر فضلهم لا يُقصِّر

(١) انظر رسالة «المحدث شعيب الأرنؤوط جوانب من سيرته وجهوده في تحقيق التراث» للشيخ إبراهيم الكوفحي.

عنه إلَّا مَن هو عن الاتِّباع ناكِب، أفَليست دواوينُهم -بعد القرآن- دعائمَ الإسلام التي قامت عليه صُرُوحُه، وأعضادَ الدِّين التي بان منها صَرِيحُه، لا جَرَم لولا أخْذُهم بناصيةِ ما دوَّنُوه من صحيح السُّنَّة، لَانثالت على الناس جرائيمُ الأباطيل المستكِنَّة، التي رُزئ بها الدِّين، في عصر الوضَّاعين المنافقين، الذين دخلوا في دين الله للتشويش، فردَّ اللهُ كيدَهم بتنقيبِ المحدِّثين عن خُرافاتهم ودأَبِهم في التفتيش، حتى أشرقت شموسُ صحاحِ الأخبار، وانبعثتْ أشعتُها في الأقطار، وتمزَّقتْ على البصائرِ حُجُبُ الجهالة، وأغشيةُ الضلالة. فرحم الله تلك الأنْفُس، التي نهضت لتأييدِ الدِّين، ورضِي عمَّن أحيا آثارَهم من اللاحقين. آمين».

٢٢- العلاَّمة الجليل الأستاذ الدكتور «مصطفى حلمي» العظيم الذي ردَّ الاعتبار إلى السلفية، والحاصل على «جائزة الملك فيصل»:

لا يعرف قدر الرجال إلَّا الرجال.. ونحن نستعير قلم شيخنا المقدم[(١)] ليحدثنا عن فضيلة الشيخ الجليل الدكتور «مصطفى حلمي»:

«هو العلَّامة الجليل الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي عَلَمٌ سلفيٌّ من أعلام الثقافة الإسلامية المعاصرة، المتميزة بشدة الالتصاق بجذورنا العميقة، وقوة التمسك بالأصالة في إطار منضبط من المعاصرة، وهو من الأفذاذ الذين وقفوا حياتهم على إنجاز مشروع علمي محدد الهدف واضح الوسيلة، يدندن حول «إحياء منهاج النبوة»، و«تجديد الدين»، و«بعث الأمة»، وقد لخَّص هذا كله في عبارة جامعة حين قال -حفظه الله تعالى-:

---

(١) مقدمة الدكتور محمد إسماعيل المقدم لكتاب «عقائد الشيعة» للدكتور مصطفى حلمي (ص١٣- ١٩)- طبع دار الخلفاء الراشدين.

«إذا كان المسلمون يتلمسون اليوم طريقًا للنهوض، فليس لهم في سبيل إلَّا وحدة جماعتهم، ووحدة الجماعة ليس لها من سبيل إلَّا الإسلام الصحيح[(١)]، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسُّنَّة[(٢)]، وهذه خلاصة الاتجاه السلفي: عودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»[(٣)].

□ إن سلسلة أعلام المنهج السلفي من المتأ ازدان نظام عِقدها بجواهر ولآلئ أمثال: محمود شكري الألوسي، وجمال الدين القاسمي، ومحمد بهجة البيطار، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، ومحب الدين الخطيب، وعبد الرحمن السعدي، وعبد الرحمن المُعَلِّمِي، ومحمد تقي الدين الهلالي، ومحمد الأمين الشنقيطي، وأحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، ومحمد خليل هراس، ومحمد رشاد سالم، وعبد العزيز بن باز، ومحمد ناصر الدين الألباني، وعبد الرزاق عفيفي، ومحمد بن صالح العثيمين، وبديع الدين الراشدي السندي، ومقبل بن هادي الوادعي -رحمهم الله أجمعين- وغيرهم كثير -للتألق بانضمام جوهرة نفيسة إلى هذا النظام، أستاذنا الكبير الدكتور مصطفى محمد حلمي -حفظه الله تعالى-:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامعُ

□ ولئن فاخر الشاعر -الهائم في وادي الاوهام- الأجيال بزعيم

---

(١) يعني فضيلته: الفهم الصحيح لدين الله ﷻ.

(٢) بفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان كما شرح ذلك فضيلته في مواضع عديدة من كتبه.

(٣) «قواعد المنهج السلفي» (ص٢٢).

الناصرية قائلًا:

وعندما يسألنا أولادنا:

في أي عصرٍ عشتمُ؟

في أي عصرٍ زاهرٍ؟

نجيبهم نجيبهم: في عصر عبد الناصر.

فنحن -معشر السلفيين- أجدر وأحق بأن نفاخر الأجيال بأننا أدركنا وعاصرنا، وتعلمنا من بعض رجالات تلك الدوحة المباركة التي بها قامت حجة الله على عباده، وعليها يصدق قول إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفهم: «يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحْيُون بكتاب الله تعالى الموتى، ويُبَصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليسَ قد أحيوه، وكم من ضال تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تعالى تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[١].

□ إن الأستاذ الدكتور مصطفى محمد حلمي» هو صاحب أهم الدراسات «الفلسفية» عن السلفية في العالم الإسلامي، وهو الرجل الذي رد الاعتبار إلى السلفية، وجددها، وحفر لها موقعًا مرموقًا في المناهج الدراسية «الفلسفية»[٢]، بالجامعات العربية انطلاقًا من كلية «دار العلوم» لأنه خاطبهم بلغتهم، خطابَ المتخصص المتمكن المحيط بثقافة عصره،

(١) جزء من الخطبة التي افتتح بها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه في «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية».

(٢) «المفروضة بحكم الأمر الواقع».

وبذلك نفخ في أنصار المنهج السلفي روح الاعتزاز به عن يقين بأنه يعلو ولا يُعْلَى عليه، كما بث فيهم قوة معنوية وبصيرة نافذة تؤهلهم للتصدي للانتقادات العالمانية والتغريبية الموجهة للسلفية.

إن سيرة الأستاذ الدكتور «مصطفى حلمي» العملية لا تنفصل عن سيرته العلمية، فهي انعكاس صادق يجسد القدوة السلفية المتميزة بالربانية، ورقة القلب، وسَعة الصدر، والحِلْم، وخفض الجناح للمؤمنين، وخصلة أخرى جميلة هي أبرز ما تصادفه من محاسن أخلاقه: إنها التواضع الجمُّ الذي يأسر قلب من يجلس إليه، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا.

□ لقد انطلق هذا العالم الجليل في مشروعه العلمي نحو الدفاع عن عقيدة ومنهج أهل السُّنَّة والجماعة من خلال محاور خمسة [(١)] أصدر فيها ما يزيد على الثلاثين كتابًا ما بين تأليف وتحقيق، وهي:

المحور الأول: السلفية:

وهي أهم المحاور على الإطلاق، وقد أَثْرَتْ مصنفاته فيها المكتبة الإسلامية المعاصرة، وأحدثت نقلة نوعية في مناهج دراسة ما يُسمَّى «بالفلسفة الإسلامية»، وتُوِّج إنجازه فيها بأن شرُفت جائزة الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ العالمية في الدراسات الإسلامية، بأن ضُمَّ اسمه إلى الأعلام المتميزين الذين سَعَتْ إليهم تكريمًا لهم، وعرفانًا بفضله.

لقد حفر الأستاذ الدكتور «مصطفى حلمي» -حفظه الله تعالى- في

---

(١) انظر مقالة الأستاذ/ حسام تمام: «مصطفى حلمي: بعث وتجديد السلفية فلسفيًا».

صخرة المنهاج الفلسفية -مكانًا مرموقًا للسلفية، وأرغمها على أن تتقبلها، وأن تغير موقفها السلبي [١] من السلفية التي طالما استبعدتها، وتجاهلتها، بل شوَّهتها، وصدَّت عنها.

ولقد رد أستاذنا الاعتبار إلى هذا العلم الشريف «السلفية» بأن نفض عنه غبار الاتهام بمضادة العقل، وبيَّن الفهم السوي لعلاقة العقل والنقل عند أهل السُّنَّة والجماعة، وأعاد رسم الصورة السلفية في الفكر والثقافة، وقعَّدها وضبطها، وحدد معالمها بصورة حاسمة، من خلال كتاباته الماتعة في هذا المجال، وأهمها:

١- منهج علماء الحديث والسُّنَّة في أصول الدين.

٢- السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية.

٣- قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي:

المحور الثاني: الفكر السياسي الإسلامي:

١- ومن بحوثه الرائدة في هذا المجال رسالته لنيل درجة الماجستير حول «فكرة الإمامة عند أهل السُّنَّة والجماعة»، ونظام الخلافة في الفكر الإسلامي، والتي تُوقشت خلال الحقبة الناصرية.

٢- ثم أضاف إلى ذلك دراسة وتحقيقًا لكتاب «غياث الأمم في التياث الظلم» لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني.

٣- ثم تحقيق كتاب «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة

---

(١) كانت المناهج الفلسفية تقتصر على دراسة الفرق الكلامية -كالمعتزلة- التي أعطتها مقام الصدارة، أو تركز على دراسة الصلات بين معتقدات الفرق الكلامية وبين المصادر الأجنبية من عقائد وأديان وفلسفات يونانية وفارسية.

والأمة» الذي أصدره بعنوان: «الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية»، والذي صار أحد كتابين يُتداولان سرًّا في تركيا مع كتاب «الرجل الصنم» الذي كِشف حقيقة أتاتورك.

المحور الثالث: أسلمة العلوم:

فقد أصدر في الثمانينيات كتابه «مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة العرب»، وكان بذلك رائدًا في هذا المجال الحيوي، تميز بالالتزام الصارم بأصول وقواعد منهج أهل السُّنَّة بعيدًا عن الاتجاهات الاعتزالية التي أُشربها بعض دعاة الأسلمة.

المحور الرابع: مقاومة التغريب والغزو الثقافي:

وذلك من خلال كتبه:

١- الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي.

٢- الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة.

٣- الإسلام والأديان: دراسة مقارنة.

٤- الأخلاق بين فلاسفة الغرب وعلماء الإسلام.

٥- الرؤية الإسلامية للفلسفات والمذاهب الغربية.

□ **ومن آثار الأستاذ الدكتور/ مصطفى حلمي:**

١- كيف نصون الهوية الإسلامية في عصر العولمة؟

٢- أضواء على ثقافة المسلم المعاصر.

٣- الموجز في العقيدة الإسلامية.

المحور الخامس: التصوف والتشيع:

أما التصوف:

فقد اهتم فضيلته برصد أصول التصوف، وانتقده نقدًا منهجيًّا، ووزنه بميزان أهل الحديث، ثم أعاد تعريفه، وحاول أن يقدم الجانب المشرق من التصوف السني البريء من البدع والشطحات، وذلك من خلال الكتب التالية:

١ - التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث.

٢ - أعمال القلوب بين علماء السُّنَّة والصوفية.

٣ - مع المسلمين الأوائل في نظرتهم للحياة والقيم.

٤ - ابن تيمية والتصوف.

٥ - معرفة الله وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية.

وأما التشيع:

فقد تضمنت بعض الفصول من كتابه «نظام الخلافة في الفكر الإسلامي» نقدًا لعقائد الشيعة لا سيما اعتقادهم في «الإمامة» التي يعدونا ركنًا من أركان الإسلام يزيدونها على أركانه الخمسة.

ثم توجهت همته -حفظه الله تعالى- إلى تقريب كتاب «المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال لابن تيمية» للحافظ الذهبي إلى شباب الصحوة الإسلامية الذين يستهدفهم «التبشير» الرافضي، وذلك بقصد تحصينهم وتقوية جهاز المناعة العقيدية لديهم، وبذلك تمت هذه السلسلة المباركة التي بدأت بشيخ الإسلام ابن تيمية، ثم بالحافظ الذهبي، ثم بمحامي الصحابة ومحبهم «محب الدين الخطيب»، لتُختم بعَلَم من أعلام السلفية المعاصرة فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي -حفظه الله تعالى- الذي أضاف إلى جهد من سبقوه إشارات وتنبيهات لشهادة الواقع المعاصر في العراق التي تُدين الرافضة، وتؤكد

مقولة رجلِ كلِّ العصور شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن الرافضة:

«وكثير مَنهم يوادُّ الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين، ولهذا لما خرج الترك الكفار من جهة المشرق فقاتلوا المسلمين، وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها، وكانت الرافضة معاونة لهم على قتال المسلمين، ووزير بغداد المعروف بالعلقمي هو وأمثاله كانوا من أعظم الناس معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام بحلب وغيرها، من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين، وكذلك النصارى الذين قاتلهم المسلمون بالشام كانت الرافضة من أعظم أعوانهم، وكذلك إذا صار اليهود دولة بالعراق وغيره تكون الرافضة من أعظم أعوانهم، فهم دائمًا يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى، ويعاونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم» اهـ.

✍ نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يبارك في عمر أستاذنا وفي علمه، وأن ينفع به العباد والبلاد، وأن يجزيه عن الإسلام والسُّنَّة خير الجزاء، وأن يحسن عاقبتنا وإياه في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

٢٣- علاَّمة اليمن ومحدِّثها الشيخ مقبل بن هادي الوادعي:

□ هو الشيخ العلاَّمة الذي ملأ ربوع اليمن علمًا ونشر السلفية في ربوعها، ولله دره حين يقول: «لا يفلح أحدٌ من طلبة العلم إلَّا إذا جعل الدنيا لوقت فراغه».

أما صبره على طلب العلم ونشره:

□ فلقد تحمل الشيخ في سبيل تحصيل العلم النافع المشاقَّ والمتاعبَ،،

حين كان طالبًا،وحين صار عالمًا مُعلِّمًا، فقد صبر على مرحلة اليتم، وافتقاد الأب الحنون المشجع لولده على الخير، وصبر على المجتمع الذي فُقد فيه علمُ الكتابِ والسُنَّة، وفي أثناء طلبه للعلم لم يكن هناك أحدٌ يساعده على طريقه الذي يسلكه منذ بدأ طريقه، بل كان هو الذي يعمل، ويتعلَّم، وكان دائمًا إذا ذكر تعلمه في جامع الهادي يقول: «اليوم الذي نجد فيه خبزًا ناشفًا مع شيءٍ من الطماطم يعتبر أسعد يوم، وأهنأ يوم من حيث المأكل».

□ ويذكر أنَّه في بعض الأيام كان يذهب إلى خزانة الخبز، أو المكان الذي يُرمى فيه كسرُ الخبز، التي لا يُحتاج إليها ويُخرج تلك الكسر، وقد علت عليها خيوط العنكبوت، ويمسح عنها ذلك ويأكلها، ويذكر أنه عندما رحل إلى مكة من نجدٍ، لم يكن عنده إلَّا إيجارُ السيارة، وشيءٌ من التمر، وأنه بَقِيَ على ما معه من التمر عند وصوله إلى الحرم حتى نفذ منه، وكان يأكله على الماء، ثم بعد ذلك كان يعاني من عدم وجود مالٍ ينفق على نفسه منه، ومن عدم وجود فراش يفرشه أو يتخذه غطاءًا في الحرم، فكان إن ذهب إلى واحد من أهل بلده المغتربين ليسكن عنده تأذى بأعمالهم ومعاصيهم، ومن سماعِ الملاهي وغير ذلك، وإن نام في الحرم لم يكن معه ما يتغطى به، وها هو يحدثنا عن موقفه: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «بقيت في مكة أشرب ماءً، وآكل تمرًا، حتى انتهى التمر، وأردت أن أشتغل، إن ذهبت إلى أصحابي شغلوني باللهو والطرب، وإن ذهبت إلى الحرم بردتُ، بعد ذلك اشتريت لي بطانية، وأشرب من زمزم وما تيسر من الطعام ونوم في الحصوة ويعلم الله أني أتصور أني ملك» اهـ.

□ وهكذا استمر يعمل ويتعلَّم، وكان يتعب، وترهقه الأعمالُ جدًّا،

حتى قال عن حاله: «إذا كان الشغل مرهقًا فأنسى في النهار»، أي معلوماته بسبب الإرهاق، وهكذا صبَّر نفسه وجاهدها، ولم يجعلها تسترسل مع ملذاتها وما ترغب فيه من قراءة المجلَّات وغيرها، وصبَّر نفسهُ على الغربة عن بلده، وطبيعة النفس تهوى منزلها الأول وتحبه، وبعد خروجه صبر على تنكُّرِ المجتمع له القريب منهم والبعيد، وواجه في بداية أمره المجتمع بأسره.

□ وصبر على تعليم أبناء المسلمين، وما كان يجد الراحة إلَّا مع العلم، فقد سمعته يقول في بعض دروسه: «ما نستريح من هموم الدنيا، إلَّا إذا سمعنا أخًا يقرأُ علينا: قال البخاري: حدثنا محمد بن كريب، وساق السند، وآخر يقول: قال مسلم حديثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة» إلخ.

□ كل هذا إذا ذكر ذهبت عنا همومُ الدنيا، وسمعته يقول: «ليس في الدنيا شيءٌ يماثلُ العلم».

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني بحمد الله أحبُّ كتاب ربِّي والسنَّة الغرَّاء سيما «الصحيحين» والقراءة فيهما عندي أحلى لذة في الدنيا، وإني إذا فتحت «صحيح البخاري»، وقلت: قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا عبد الله بن يوسف، قال حدثنا مالك.. إلخ، أو فتحت «مسلمًا»، وقلت: قال الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: حدثنا يحيى بن يحيى، قال قراءة على مالك، أنسى مشاغِل الدنيا ومشاكِلَها» اهـ.

□ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يخرج إلى درسه أحيانًا وهو في غاية من التعب، وخاصَّةً في أيامه الأخيرة، فكانت حياتُه مع العلم سواءً كان في بيته، أو في

مسجده، أو في طريقــه ورحلته، وعلى فراشه، فلا تراه إلَّا سائلًا أو مُجيبًا -رحمه الله تعالى- سواءً كان مريضًا أو صحيحًا، بل كان يقول: «أنا استشفي بدروسي».

▫ فقد كان الشيخُ حريصًا على تعليم نفسه وتعليم غيره، فقد بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بذل العلم وتبصير غيره، وهو في المرحلة الثالثة من مراحل من تعليمه رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي أثناء طلبه للعلم، وكان له دروسٌ لطلَّابِ العلم وهو في معهد الحرم، كذلك وهو في الجامعة في المدينة قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «منذ كنت في الحرم المكي، وأنا أدرِّس بعضَ طلبة العلم في «قطر الندى» وفي «التحفة السنيَّة» وعندما كنت في المدينة، كنت أدرِّس بعض إخواني في الحرم المدني في «التحفة السنيَّة»، ثم وعدت إخواني في الله بدروسٍ في بيتي بعد العصر في «جامع الترمذي» و«قطر الندى» و«الباعث الحثيث».

علوُّ همته:

كان الشيخ يتمتع بهمة عالية منذ صغره، فقد دفع نفسه إلى العلم، ولم يدفعه أحد، وانصرف إلى طلب العلم مع معاناته لكثير من المصاعب والمتاعب التي واجهته، وكان الشيخ كما يقال رجل جلاه في الثرى وهامةُ همته في الثريا.

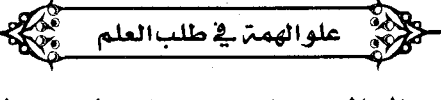
▫ كان الشيخ لا ينظر إلى الدنيا ومغرياتها، ولكن يهمه العلم، يهمه تعليم الأمة، يهمه كيف تنتشر سنة رسول الله ﷺ، يهمه كيف يخدم هذا الدين؟ أخبرني الأخ الفاضل/ خالد بن عبد الله بن غالب الوصابي قال: سمعت شيخنا يقول: «أول ما طلعت شعرة ببيضاء في لحيتي وأنا في المدينة. قال: فقلت في نفسي: ماذا قدمت للإسلام يا مقبل؟!!».

□ وكان يهمه كيف يربى طلابه على العلم النافع، لا يريد منهم أن يكونوا وعاظًا فحسب، بل يريد منهم ما هو أرفع من ذلك، يريد أن يكونوا مؤلفين ومحققين، ورادين على أهل الباطل، فقد قال: «نحن نريد أن نهيأ أنفسنا للتأليف والتحقيق، فضلًا عن أن نكون واعظين ومرشدين»، وكان يأمل أن تتربى الشعوب تربية قريبة من الصحابة، فقال قال: «ينبغي أن نربي شعوبنا تربية قريبة من «تربية» الصحابة؛ وما أظننا نستطيع، لكن ولو قريبة من الصحابة» اهـ.

□ ولعلو همته فقد كان يأمل أن تكون اليمن مُصدرة لطلاب العلم، والعلماء، والدعاة إلى الله، بدلًا من تحديرها العمال، فقد قال: «نحن حريصون على نهضة علمية في بلدنا، وعلى أن نُصدِّر علماء، نحن الآن نصدر شغالين إلى أمريكا، وإلى السعودية، وإلى، وإلى من البلاد التي تعرفونها، نحن نريد أن نصدر علماء ودعاة إلى الله».

نحن نحدِّث أنفسنا على أن نصدِّر العلم من بلدنا اليمنية، نصدِّر العلم وليس الجهل.

□ ومما يدل على علو همته عدم اهتمامه بالشهادات الدراسية؛ التي حصل عليها من كليتي أصول الدين والشريعة، وشهادة الماجستير التي حصل عليها من الدراسات العليا، بل سمعته مرة يقول: «لا أدري أين هي الشهائد، ولقد شهد له بهذا أحد مشايخه والمشرف على رسالة الماجستير، حين وقف في جلسة المناقشة أمام الجمهور، وقال كلمته المباركة، الصادقة، أما الأعظمي والعمري، اللذين حاولا أن يغمطا حق الشيخ مقبل ظلمًا، فقال صارخًا في وجهيهما: «هو –يعني الشيخ مقبل– لا



يقيم العالم بشهادته، وإنما ينظر إلى العلم بحد ذاته، فهو رجل يفي رجل يفي بوعده، رجل لا نملكه في هذا العصر، الطلبة معظمهم أو كثير منهم ينظر إلى العلم، حتى يأخذ الشهادة من الجامعة -يعني أن هذا الطالب نجح- لكن مقبلًا لا ينظر إلى هذا أبدًا، وقد صرح بذلك عدة مرات، وقال: «أنا لا أنظر إلى الشهادة».

وكان الشيخ يقول: «هذه الشهادات ستذوب».

وكان يرى أن منافسة أهل الدنيا ليس بالدنيا، ولكن بالعلم.

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «نريد أن نكون طلبة علم وحفظة قرآن ومبرزين في علم السنة، ونحن ننافس أهل المعارض في معارضهم، وأهل العمائر في عمائرهم، وأهل السيارات الضخمة في سيارتهم، إذا يسر الله لنا بطلب العلم سواء وجدت الكهرباء أم لم توجد، سواء وجد الماء وإلَّا ذهبنا نأتي بالماء كما كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يذهب ويأتي بالماء، وهو عند عبدالرزاق من مسافة، يهمنا هو استمرارُنا في طلب العلم»(١).

رحل إليه طُلَّاب العلم من الأمصار، وكان مركزه ملتقىً مباركًا لطلاب العلم الذي أخذوا العلم على يديه وعادوا به إلى بلادهم.

□ كان رَحِمَهُ اللَّهُ منارة من منارات السلفية في اليمن.. ويكفى أن تعلم أن عدد الطلَّاب عنده يزيد على الألْفيْن، منهم ستمئة عائلة تقريبًا.. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يمضي شطر ليله أو ثلثيْه مع العلم كما يقول تلميذه الشيخ أبو الحسن المأربي.

□ وكان يقول لطلابه: «إذا أردت أن تطلب العلم، وأن تجاري أهل

---

(١) انظر إلى «ترجمة الشيخ مقبل الوادعي» لأحمد بن منصور العديني.

المعارض، وأن تجاري أهل السيارات، وأهل العمائر، وهكذا تُجاري المسؤولين والموظفين، إلى غير ذلك، لا تستطيع أن تطلب العلم».

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «الإفلاس في طلب العلم مثل العسل، الحمدُ لله إذا وُجِدَ العلم، ولو بقي المخبأ شهرًا أو شهرين ما دخله ريال ولا حاجة، الحمد لله رز وزيت، ويأكل الشخص وهو يضحك مستريح، العبرة هي راحة النفس، ليست العبرة المأكل أو المشرب أو الملبس».

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «يعلم الله لو دُعينا لرئاسة الجمهورية، ولمُلْك اليمن وغيره اليمن، أو لثروات الدنيا لما أجبنا، فقد أحببنا العلم، فالحمد لله الذي حَبَّب العِلم إلينا».

□ ولقد صبر على تدريس العلم أشد الصبر، وهذا من علو همته، فعنده ثلاثة دروس بعد الظهر، وبعد العصر، وبين المغرب والعشاء، وأحيانًا بعد العشاء، هذا في آخر أمره، وأما في بدء أمره فهو الذي يدرِّس في المركز كل شيء، النحو، والمصطلح، وغيره.

□ ومن صبره على التدريس لطلبة العلم أنه كان يُلقى دروسه أحيانًا وهو في غاية التعب، يقول الشيخ أحمد الوصابي: «مرض الشيخ في إحدى العُطَل الصيفية مرَضًا شديدًا، فقلتُ له: يا شيخ لو استرحت كان أفضل لك ولصحتك، ولا تُكلِّف نفسك ما لا تُطيق؛ ويُوجَد من الإخوة من طلبة العلم المستفيدين من يسدُّ عنك الفراغ، حتى تُعافي، فقال: لو أموت على الكرسي، ولا أترك هذه الوجوه -يعني طُلَّاب العلم» اهـ.

□ وما كان شيء يشغله عن العلم حتى إن أهله تخبر أنه كان يأتيه الضيوف، ويقوم بأخذ الطعام من عند أهله لضيوفه، فإذا جاء إلى ضيوفه

ألقى عليهم سؤالًا، وإذا ذهب إلى أهله يريد أن يأخذ طعامًا ألقى عليهنَّ سؤالًا، إمَّا أن ينتظر الجواب، أو يذهب ويجعلهن يفكرن بالجواب».

ويُخبر الأخ محمد الحاشدي، أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مرضه بعد الحج، أُسعِف إلى المستشفى وبقي ثلاثة أيام.. قال محمد: بقيت عنده ليلة وهو مُتعب في غاية التعب، فكان يصحو أحيانًا، وما إنْ يصحوا إلَّا ويسأل عن حديث، حتى إنه من شدة التعب لا يستطيع أن يُكمِل السؤال، ويأخذه النعاس أو الإغماء قبل أن يُكمل سؤاله».

□ وقال الشيخ أبو الحسن: «بل ربما سأل من يسبح معه في البحر عن أسئلة في الحديث أو العربية، وهم في داخل البحر لا تُرى إلَّا رؤوسهم، وكان يسأل مَن يركب معه في السيارة، أو يتصل به عبر الهاتف، حتى في زمن مرضه وآلامه.

□ ما ضيّع الشيخ ثانية من وقته إلَّا في العلم وتدريسه، وإذا كلمه رجل بكلام لا فائدة فيه تمثل بيت من الشعر وقال:

فدع عنك نهبًا في حجراته وهات حديثًا ما حديث الرَّواحل

✍ فرحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى ورزقه جوار النبي ﷺ.

٢٤- فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان:

طودٌ شامخ وبحر زاخر يكفيه شرفًا أن قال عنه الشيخ الدكتور بكر ابن عبد الله أبو زيد بأنه «العلامة المحقق المشهور بن حسن آل سلمان»(١)، وهو والله حبيب إلى نفسي ونفس كل سلفي، وهو أنقى وأعطر وأحلى

(١) في مقدمته لكتاب «الموافقات» الذي حققه الشيخ مشهور.

وأغلى تلامذه الشيخ الألباني عندي وعند طلبة العلم من السلفيين، التقيت به وجالسته، وكأني أعرفه من زمن بعيد، وأنقل ما قاله عنه تلميذه يوسف بن عطاء السليمان:

«هو الشيخ، السلفي، المتفنن، صاحب التصانيف الماتعة الفريدة، والتواليف المليحة المفيدة، والتحقيقات العزيزة الفاردة، مشهور بن حسن ابن محمود آل سلمان، المَكْيِيُّ بأبي عُبيدة –حفظه الله- أُخرى المنون، ما توالت الأيام، وتتابعت السُّنون-.

ولد في فلسطين سنة ثمانين وثلاث مئة وألف، ونشأ في بيت حفاظ ودين، ونجار كريم. ثم ظَعَنَ وأهَل بيته إلى الأردن ذات العُوَيم، سنة سبع وثمانين وثلاث مئة وألف –وهي سنة هِياطٍ ومِياطٍ- عَقيبَ النازلة التي حلت بأهلها. ثم عَمَن في (عمّان) الأردن، وكانت دراسته الثانوية فيها، وإنه التحق بكلية الشريعة، سنة أربع مئة وألف، في قسم (الفقه وأُصوله).

رزقه الله مِفَةً للعلم الشرعي مذ كان في جِنِّ النَّشاط ورُبَّان الحداثة، وآتاه الله في كلِّ شيءٍ سببًا، فأتْبع سببًا فطاب مسلكًا ومشربًا، وانكبَّ على علوم الشريعة الغرَّاء، درسًا، وقراءة، وتحصيلًا والتقاطًا لشتيتها وأثيثها، واصلًا الآساد بالتأويب، ومُراوحًا بين الإهذاب والتَّقريب. فقرأ شطرًا عظيمًا من «المجموع» النواوي، و«المغني» لابن قُدامة، و«تفسير أبي الفداء»، و«تفسير القرطبي»، و«صحيح البخاري» بشرح الحافظ العسقلاني، و«صحيح مسلم» بشرح النووي، وغيرها جمع عظيم، وجَمٌّ غفير، لا يأتي عليه حيسوب.

وكان الشيخ -لا تَبلى مودَّتُه- مُستَهْتَرًا [(١)] بالكتب الشرعية كلِفًا بها. بدأ بالفتش والتَّنقير عنها قبل ظهور سِبَاله، ونبات عُثْنُونِهِ. فاجتَمَعَ له منها الشيءُ الكثيرُ، والعددُ الوفيرُ.

ثم اتَّبع سببًا، فتأثر بطائفة من فحولِة العلماء ومحققيهم، وقفًا أثرهم، وعرف أخواتَهم، ومنهم:

شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد ابن تيمية النُّميريُّ (م سنة ٧٢٨هـ)، والشيخ ولوع به يقدِّمُهُ.

وتلميذهُ البارُّ، العالم الرباني وشيخ الإسلام الثاني، أبو عبد الله ابن قيم الجوزية (م سنة ٧٥١هـ)، والبيهقي، والنَّواوي، والذهبي، والقرطبي، وابن حجر، وابن عبد البر، والشاطبي -رَحِمَ الله الجميع-.

وإنه استراح -بعدُ- من النظر إلى التحقيق، ومن التحقيق إلى التعليق، وإنها -لَعَمْري- الطريقة المُثلى، في التحصيل والطلب، ونيل القِدْح المُعلَّى، وبُلوغ الأرب.

تأثر بجماعة من أساتيذه تأثرًا عظيمًا، سواء ممن أخذ عنه على مقاعد الدراسة النِّظامية، أو في المجالس العلميَّة، ومنهم:

- فضيلة شيخنا العلَّامة المُحدِّث محمد ناصر الدين الألباني، وشيخُ أشياخنا العلَّامة الفقيه مصطفى الزرقاء -زاد الله في أنفسهما-.

- قال أبو العباس: «أما شمايله وتوسُّمُه، فإن رائيه يخاله قطعة من نفسه. وإني -علم الله- ما رأيت مثله، زماتةً ورَكانة، وفطنة وزكانة، إلى

---

(١) أي: ولوعًا.

حلم، وأناة، وإسجاحٍ ولين جنب، ولكنه في الحق شديد الْخُنْزُوَانَةِ».

□ قال أبو العباس: «وهو من هو العناية بآثار الأسلاف وميراثهم، طول باع، وحُسن تفهم، وجلدًا على البحث، وتحصيلًا لكتبهم،وتفانيًا في خدمتها، وانخراطًا في سلكها، كيف لا، وهو جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ، وعُذَيقُها الْمُرَجَّب.

تواليفه كلُّها ترنو بعين أبيها إذا لَحَظَتْ، وتَمضي في جادَّة مستقيمة، وفجٍ رغيب، ونهج لاحب، لا عوجٌ فيها ولا أمت، فهو ابو بجدّتها، وربُّ نجدتها.

وبعضها وُضِعَ له القَبول في الأرض، ودُرِّسَ في أصقاع شتَّى، كـ«القول الْمُبين في أخطاء الْمُصلين».

□ أول كتبه تصنيفًا كتاب: «الجمع بين الصلاتين في الحضر بعُذر المطر»، وله –الآن– عليه زيادات مهمات تخرج– قريبًا إن شاء الله تعالى–.

□ وأول تصانيفه طبعًا كتاب: «المحاماة تاريخها في النُّظم، وموقف الشريعة الإسلامية منها»، قرأ جزءًا منه على شيخه العلَّامة مصطفى الزرقاء. وهو أول كتاب مفرد في بابه، نهل منه وعبَّ كل من كتب في هذه البابة.

□ ثم كتب «موقف الشريعة الإسلامية من خلو الرجل أو الفروغية»، وهو كالذي قبله، حيازة لفضل السبق، وفضل فتق الرتق، فسدَّ به ثغرة، وأزال حجر عثرة.

□ وله من الكتب أيضًا: «من قصص الماضين في حديث سيد

المرسلين»، و«إعلام العابد في حكم تكرار الجماعة في المسجد الواحد»[١]، و«دراسة حديث أرحم أمتي بأمتي أبو بكر..» تعقب فيه تصحيح شيخنا العلامة الألباني للحديث، و«المروءة وخوارمها»[٢]، و«الهجر في الكتاب والسنة»، و«الغول في الحديث النبوي»، و«كتب حذر منها العلماء»، طبع منه المجموعة الأولى [٣] في جَلَدين، وهو في مجموعات خمس (لكل مجموعة جَلَدان)، قدم له، وقرأهُ شيخُنا العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد.

□ وله أيضًا: «عناية النساء بالحديث النبوي»، و«معجم المصنفات الواردة في فتح الباري»[٤]، «والردود والتعقبات على الإمام النووي في الصفات وغيرها من المسائل المهمات»[٥] تتبع فيه تأويلات الإمام النواوي في «شرح صحيح مسلم»، وبيَّن مذهب السلف فيها، وأنحى باللائمة على من غمط النواوي حقه، وأجرى لسانه فيه بالثلب، وأفتى بحرق كتبه ومدوناته».

وله دراسة جمع فيها أسماء الرسائل التراثية الموجودة برُمتها في بطون (المجلات) أو (المجلدات) وسمها بـ «الإشارات»، تكون -إن شاء الله تعالى- في خمسة أجلاد، طبع منها الأول حَسْبُ.

---

(١) طُبع طبعَتين، في الثانية فوائِـدُ زوائد، وتجمع عنده زيادات مهمات لعلها تظهر -إن شاء الله- في طبعة ثالثة.

(٢) طُبع ثلاثَ طبعات، الثالثة تزيد على الأولتين قرابة (مئة صفحة).

(٣) طُبع أكثر من مرة، ولاقى قَبُولًا، فللهِ الحَمدُ والمِنَّة.

(٤) استلَّه وجرده من «الفتح» تلميذه الأخ رائد صبري، وعلق الشيخ عليه وراجعه وعرف بالكتب وطبع باسميتهما.

(٥) طبع أكثر من مرة.

وله عناية بما لا يصح من القصص، نبوية تاريخية، يجمعها في سلسلة تنشر متتابعة بعنوان «قصص لا تثبت»، الرابع منها قيد الإعداد.

□ وله عناية بالقرطبي وتراثه، فكتب عنه دراسة جادة بعنوان «الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير» وصنع كشافًا فقيهًا لـ «تفسيره»، جعله على أبواب الفقه، وعنده عزم على تخريج أحاديثه، إذ جمعها في بطاقات منذ زمن، وخرج قسمًا يسيرًا منها، وحقق له «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (لم يطبع بعد)، وجمع كلامه في «التفسير» على الصوفية، وطبعه بعنوان «القرطبي والصوفية»، وطبع أيضًا «شكوى القرطبي من أهل زمانه»، وهما رسالتان صغيرتان، وله سلسلة بعنوان «تنبيهات على محذورات» طبع منها «حكم الشرع في لعب الورق»، و«أضرار كرة القدم»، كتبت لأسباب تخص مواضيعها مع بعض أقاربه ومحبيه، وهي رسائل صغيرة، وكذا له «ألفاظ كفرية» جمعها من مجالس العامة على اختلاف طبقاتهم، و«تراجعات ابن حجر العسقلاني في فتح الباري» (قيد الطبع)، وكذا له «نصيحة ذهبية إلى الجماعات الإسلامية»، ضمنها في التقديم والتعليق على فتوى لشيخ الإسلام ابن تيمية في الطاعة والبيعة، كتبها وأرسلها إلى المشايخ والعلماء ليبدوا رأيهم فيها، فظهرت مطبوعة دون علمه، ووقع فيها ما لا يُرْتَضى.

ويعمل الآن على جمع الأحاديث النبوية الشريفة، المبثوثة في بطون كتب التاريخ، والأدب، واللغة، والقراءات، والرقائق، وما ليس تحت يد المشتغل بصناعة الحديث، وإنه يطبعها -إن شاء الله تعالى- في جمهرة عظيمة.

وكذا بدأ بجمـع الآثار المسندة لتكون -بعدُ- في معلمة كاملة شاملة -إن شاء الله تعالى-.

وله جهود في التحقيق عظيمة، فعمل على نشر كثير من كتب التراث مما لم تر الور إلَّا بجهده، فهو أول من حقق كتاب «الطهور» لأبي عبيد القاسم بن سلام، و«الطبقات» للإمام مسلم بن الحجاج و«الخلافيات» للبيهقي (طبع منه مجلدان، والثالث والرابع والخامس قيد الإعداد)، وإنه يربو -إن شاء الله تعالى- على مجلدات عشرة، وحقق «المجالس الخمسة التي أملاها الحافظ أبو طاهر السِّلَفي بسلماس» للحافظ السِّلفي (ت٥٧٦هـ)، و«أحاديث منتخبة من مغازي موسى بن عقبة» لابن قاضي شهبة (ت٧٨٩هـ)، و«أحكام النظر إلى المحرمات وما فيه من الخطر والآفات» لابن حبيب العامري (ت٥٣٠هـ)، و«جزء فيه عاش مئة وعشرين سنة من الصحابة» لأبي زكريا يحيى بن منده (٥١١هـ)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للحافظ أبي بكر الخلال (ت٣١١هـ)، و«الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط لما روي في ذلك من أحاديث ووجه تأويلها» لأبي الوليد بن رشد (ت٥٢٠هـ)، و«الجامع للآداب» لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) (ولم يكتب اسمه عليها)، و«درة الضرع لحديث أم زرع» لمحمد ابن عبد الكريم القزويني (ت٥٨٠هـ)، و«تالي تلخيص المتشابه» للخطيب البغدادي (وهو قيد الطبع)، و«تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين (النواوي)» لابن العطار (ت٧٢٤هـ)، و«الكبائر» للإمام الذهبي، وبيَّن فيه زيف الطبعة المشهورة وأن الذهبي بريء منها، و«تشبه الخسيس بأهل الخميس» للذهبي أيضًا (ظهر في مجلة «الحكمة»)، و«ذكر ابن أبي الدنيا وما وقع

عاليًا من حديثه» لأبي موسى المديني، و«فنون العجائب» للنقاش، و«جزء القاضي الأشناني»، و«فضائل الرمي في سبيل الله» للحافظ القراب (ت٤٢٩هـ)، و«فضيلة العادلين»، و«جزء فيه طرق حديث إن لله تسعة وتسعين اسمًا» كلاهما لأبي نعيم (ت٤٣٠هـ)، و«الوجل والتوثق بالعمل» لابن أبي الدنيا، و«أدب النفوس» للآجري، و«مسألة سبحان» لنفطويه، و«حديث الجويباري» للبيهقي، وكلها ستظهر -إن شاء الله تعالى- في مجموعة قريبًا، وقد فرغ من تنضيدها. وحقق «العزلة» لابن أبي الدنيا، وهو (قيد الطبع)، وله حواشٍ ومراجعاتٌ وتعليقاتٌ على تحقيق «الغيلانيات» لأبي بكر الشافعي، وكذا على كتاب شيخه الألباني «المنتخب من فهرس مخطوطات الظاهرية».

□ وحقق مجموعة من كتب ابن القيم، مثل «الفروسية»، و«جلاء الأفهام»، و«الطرق الحكمية»، و«الفوائد الحديثية» لم يُطبع قبلُ، و«إعلام الموقعين»، و«زاد المعاد».

□ وحقق أيضًا: «جزء في طرق حديث أفرضكم زيد» لمحمد بن عبدالهادي، و«تذكرة الطالب المعلَّم فيمن قيل إنه مخضرَم» لسبط ابن العجمي.

□ وحقق أيضًا: «تنبيه المعلم بمبهمات صحيح مسلم» لولد سبط ابن العجمي، و«غرر الفوائد المجموعة في بيان ما وقع في صحيح مسلم من الأحاديث المقطوعة» لرشيد الدين العطار، وهو في ذيل «الإمام مسلم ومنهجه في الصحيح»، و«من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة» لابن حيويه (ت٣٦٦هـ) (تلميذ النسائي)، و«الباعث على إنكار البدع

والحوادث» لأبي شامة المقدسي (شيخ النواوي)، و«مجموعة رسائل حديثية» للإمام النسائي، و«المتوارون»، و«الأوهام التي في مدخل أبي عبدالله الحاكم النيسابوري» كلاهما للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي (ت٤٠٩هـ)، و«الفوائد الزينية في مذهب الحنفية» لابن نجيم (ت٩٧٠هـ).

□ وحقق مجموعة من رسائل الأسيوطي (ت٩١١هـ)، هي: «الأمرُ بالاتباع والنَّهيُ عن الابتداع»، و«تمهيد الفرش في الخصائل الموجبة لظل العرش»، و«بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال»، و«بشرى الكئيب بلقاء الحبيب»، و«التعليل والإطف النارِ لا تطفي»، و«كتاب في احب الذوق السليم ومسلوب الذوق اللئيم» (وهو عبارة عن مقامة، ولم يكتب اسمه عليها)، و«المسارعة إلى المصارعة».

□ وحقق أيضًا مجموعة من رسائل السخاوي، وهي: «رجحان الكِفَّة في بيان نبذة من أهل الصُّفة»، و«الجواب الذي انضبط عن لا تكن حلوًا فتسترط»، و«تخريج أحاديث العادلين»، و«الفخر المتوالي فيمن انتسب للنبي ﷺ من الخدم والموالي»، و«تحرير الجواب عن ضرب الدواب» (ظهر في مجلة «الحكمة»)، و«القول المنبي في ترجمة ابن عربي»، و«الأجوبة العلية عن الأسئلة الدمياطية»، و«المسلسلات»، و«البلدانيات» و«القول البديع».

وجمع مؤلفات السخاوي في كتاب فرد.

□ وحقق أيضًا مجموعة من رسائل الشوكاني (م سنة ١٢٥٠هـ) مثل: «در السحابة في فضائل الصحابة»، و«تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، و«بلوغ المنى في حكم الاستمني»، و«إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي ﷺ».

▢ وحقق أيضًا «برد الأكباد في فضل فقد الأولاد» لابن ناصر الدين.

▢ وحقق مجموعة من رسائل الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، مثل: «تخريج حديث الأسماء الحسني»، و«ذكر الآثار الواردة في الأذكار التي تحرص قائلها من كيد الجن» (وطبع خطأ منسوبًا لابن حجر الهيتمي! وهو قطعة من «بذل الماعون»)، و«جزء في طرق حديث لا تسبوا أصحابي».

▢ وحقق مجموعة من رسائل الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي، مثل: «تحقيق البرهان في شأن الدخان»، وله بذيله «التعليقات الحسان»، و«إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان»، و«تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان»، و«تحقيق الخلاف في أصحاب الأعراف».

▢ وحقق أيضًا مجموعة من رسائل الشيخ علي القاري (م سنة ١٠١٤هـ)، مثل: «شم العوارض في ذم الروافض»، و«أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام»، و«الذخيرة الكثيرة في رجاء المغفرة للكبيرة»، و«سلالة الرسالة في ذم الروافض من أهل الضلالة»، و«تطهير الطوية في تحسين النية»، و«المقدمة السالمة في خوف الخاتمة»، و«فصول مهمة في حصول المتمِّة»، و«فرائد القلائد على أحاديث شرح العقائد»، و«الاستدعاء في الاستسقاء»، و«الأدب في رجب»، و«معرفة النساك في معرفة السواك»، و«التجريد في إعراب كلمة التوحيد»، و«رفع الجُناح وخفض الجَناح بأربعين حديثًا في النكاح»، و«شفاه السالك في إرسال مالك»، و«الأربعين القدسية»، و«البينات في بيان بعض الآيات»، و«إعراب القاري على أول باب البخاري»، و«صنعة

الله في صيغة صبغة الله»، و«أنوار الحجج في أسرار الحجج»، و«تزيين العبارة لتحصين الإشارة» وذيلها «التدهين التزيين على وجه التبيين»، و«فتح السماع في شرح السماع»، و«الاعتناء بالغَنا في الغِنا»، و«رسالة ما يتعلق في ليلة النصف من شعبان».

وفرغ من تحقيق «القواعد الفقيد» لابن رجب الحنبلي، وهو منشغل الآن بتحقيق «المجالسة» لأبي بكر الدِّينوَري.

□ وحقق أيضًا مجموعة من الرسائل الصغيرة في الفقه، والآداب، واللغة، مثل: «الدُّرر الثمينة في حكم الصلاة في السفينة» للحموي (ت١٠٩٨هـ)، و«مفيدة الحسنى لدفع ظن الخلو بالسكنى» للشَّرنبلالي (ت١٠٦٩هـ)، و«المطالب المنيفة في الذب عن الإمام أبي حنيفة» لمصطفى الحسيني، و«آداب العشرة وذكر الصُّحبة والأُخوة» للغزي (ت) و«القول المسموع في الفرق بين الكوع والكرسوع» للزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ) -رحم الله الجميع-.

□ قال أبو العَبَّاس: «فمجموعُ ما طُبِعَ له، حتى كتابة هذه السطور، قرابة مئة رسالة وكتاب، تحقيقًا أو تصنيفًا، وأتمَّ نحو العشرين مما لم يطبع، عدا عمّا في جَعْبَتِهِ ومسوداته من نسخ لأجزاء ومخطوطات مهمة، أو أعمال علمية متممة وغير متممة، نسأل الله أن يعينه على إتمامها وإخراجها إلى عالم النُّور.

وبعدُ: فإني لو رُمت البسط، ويممتُ شطره، لخرجت ترجمتي المعتصرة هذه في أجلاد وأجلاد، ولكن حال الجريضُ دون القريض، وخشية الإلغاظ دون الغريض.

وليعلم النَّاظر أني كتبت ما كتب عاصيًا لما يُرضيه، مطيعًا لما يرضيني، وإلَّا فله العتبى حتَّى يرضى.

✍ أسأل الله أن يوفق شيخنا ويعينه، وأن يُعظم له أجرًا، ويُخلِّد له ذكرًا»[1].

ومِسْك الختام:

٢٥- شيخنا المبارك أبو الفرج محمد بن إسماعيل المقدم شيخ السلفية بمصر، ومقدم السلفيين بمصرنا أشهر في الدنيا من الدنيا صاحب «عودة الحجاب»:

سَمِيُّ البخاري.. وهذا من عجيب الموافقة.. ولله في ذلك حكمة!!!

✍ هو شيخنا المبارك المكرم الفذّ محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم الذي ملأ ربوع مصرنا علمًا ودعوة.. الذي تعلّم منه جيلنا «السلفية» فهو حامل رايتها، وهو محطة من محطات التجديد كما قال شيخنا أحمد فريد: «والله ما كان الناس يعلمون معنى السلفية، وقواعد المنهج السلفي حتى أتى الله بمحمد إسماعيل في السبعينيات، فنشر ما عنده من العلوم وصبر على سرَ التعلّم والتعليم حتى امتدت ظلال السلفية وارفة مباركة.. وما رأيت أطلب للعلم ولا أصبر على نشره منه، وهو المنظِّر «للسلفية» في مصر في عصرنا الحالي، ودروسه في «مسائل الكفر والإيمان» يُحَلَّى به جيد الزمان، ودرسه الأسبوعي بمسجد «عباد الرحمن» ثم بمسجد «الفتح» كم تخرَّج منها مئات الدعاة بل الآلاف، وهو المنظرَ للسلفية، وإليه المرجع في

---

(١) ترجمة الشيخ مشهور في آخر «الموافقات» (٦/ ٨٥- ٩٤).

معرفة عقيدة أهل السنة والجماعة.. والله إني أتقرب إلى الله بحبه، وكلما نظرت إلى وجهه الطيب المبارك جدَّد لي علو الهمة، وتذكرت حديث رسول الله ﷺ: «أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِر الله».

سيبدو لكم في مضمر القلب والحَشَا سريرة حب يوم تبدوا السرائِرُ

□ هو الذي حبّب إلينا طلب العلم وسار بنا على الجادة، وعرَّفنا وحذَّرنا من بُنَيات الطريق.. هو الذي فسَّر القرآن كاملًا في دروسه، ولا ينسى العالم بأسره كتابه الفذّ المبارك «عودة الحجاب» الذي جعله سببًا في ارتداء آلاف الأخوات للنقاب، جعل الله ذلك في ميزان حسناته، وهذا الكتاب يدل على علو همة شيخنا المقدم في التأليف، وعلى غزارة علمه، وتبحُّره في العربية ولو لم يكن له إلَّا هذا السفر المبارك لكفاه فقد وضع الله لهذا السفر العظيم القبول في الأرض»، وكتابه «الصلاة.. لماذا؟»، و«أدلة تحريم حلق اللحية»، و«هل تُجزئ القيمة في الزكاة»، و«تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباس»، و«حرمة أهل العلم»، و«النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة» و«الأدب الضائع» سارت بها الركبان، وكانت كالوا بل الصيِّب انتفعت بها الأنام والبلدان، وإن كانت كتب الشيخ بالنسبة للمكثرين قليلة فإنها كما قال القائل:

قليــل منــك يكفينــي ولكــن قليلُــك لا يُقــال لــه قليــلُ

وكتبه كالدُّرَّة اليتيمةِ، عسل مصفًّى، وسلسبيل رقراق شرب منها الألوف من طلبة العلم، وتخرّجوا على كتبه ودروسه. والله إن كل محاضرة ألقاها –ولا يُحصى عددها- تصلح رسالة قيمة طيبة نيّرة.. ونتاج علمه المبارك في الآلاف التي سارت على نهجه السلفي الطيب، وهم في ميزان

حسناته، وكل كلمات الدنيا لا تصلح أن تصور حبي العظيم الكبير له، والله إني -إن شاء الله- أحبه أكثر من نفسي -ويعلم الله مني ذلك.. ومهما وصفت في علمه وعلو همته، وقدمه الراسخ في العلم، وعلو همته في نشره لا أوفِّيه حقه.. وأقول له «جزاك الله عن الإسلام خيرًا» جزاك الله عن السلفية خيرًا].

ومن عجبٍ أني أحِنُّ إليهمُ وأسألُ شوقًا عنهمُ وهمُ معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النَّوى قلبي وهم بين أضلعي

□ اللهم اجعل كل حرف سطّرناه أو نطقنا به -ابتغاء وجهك الكريم اجعل مثله في ميزان أبي الفرج فوالله ما تخرّجنا إلَّا على يديه..

لوددت أني اجتمع لي نفائس اللآلئ والمرجان، وكل نسيم رخيّ يداعب سامق الأشجار، وأطيب أريج للمسك والعنبر نصوغ منه أطيب وأرق الأشعار لحبيبنا وسيدنا الشيخ المقدم.. شيخ الثغر بل وشيخ الأمصار..

يا زهْرَ آمالِ البلاد وحبَّها يا حاديَ الغرباء للأوطانِ

وسَمِيَّ حَبْرٍ وطبِّ هدي نبيِّنا أعنى البخاري العظيم الشانِ

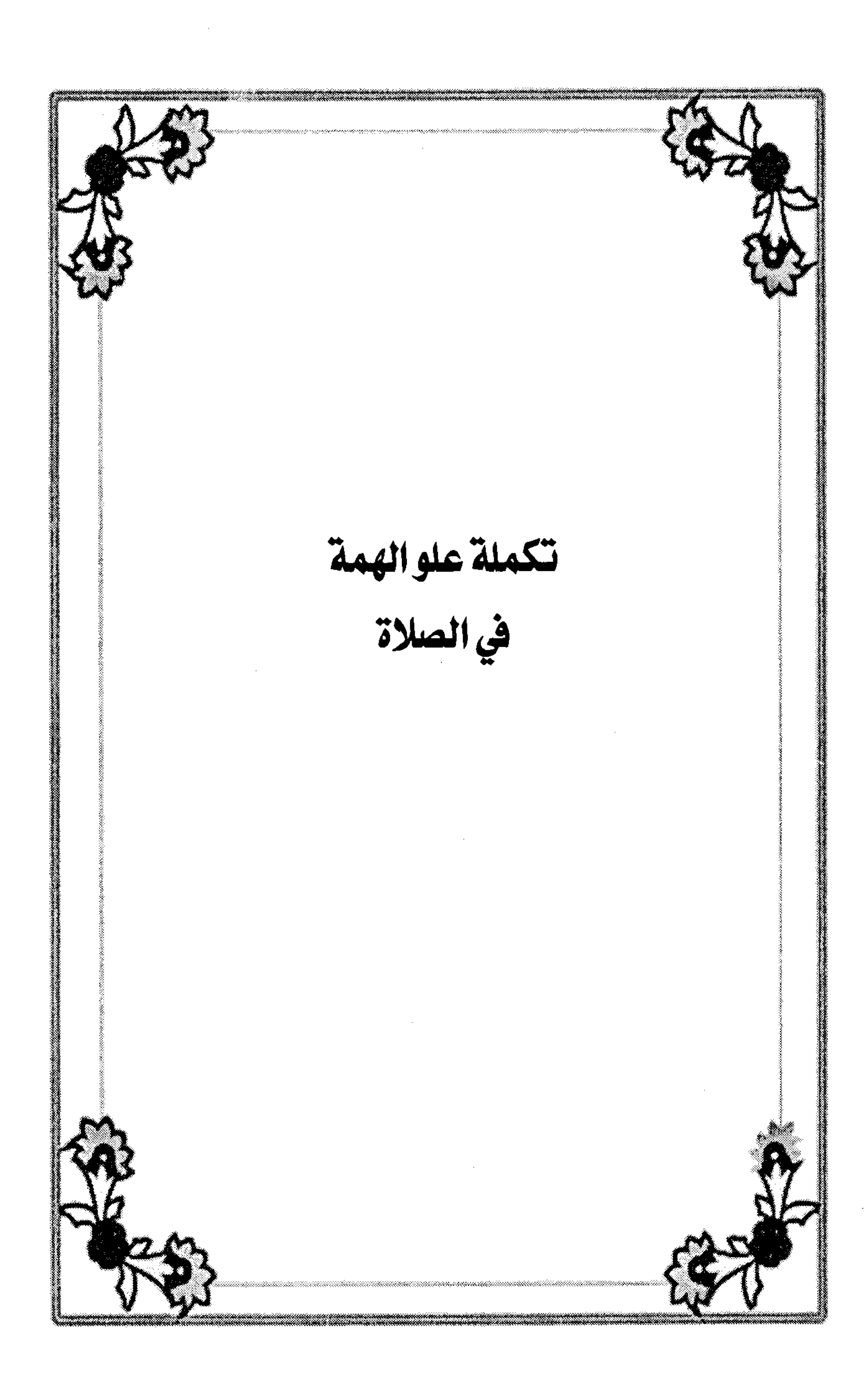
يا ابن إسماعيل ويا بقيّة سلفنا اروِ الغليل بشيخنا الألباني

وانشر علوم السابقين ودواوِنا لله درُّك من فتًى ربَّاني

يا حُسْن عودٍ للحجاب كتبته من نبض قلبك في حُلَى التبيان

ونصائح الأذكار قد سطَّرتها فيها شفا الركبان والأوطان

لا تنسنا مِن طِيبِ صالح دعوةٍ بظهر الغيوب لِحِبِّك العفاني



تكملة علو الهمة
في الصلاة

تكملة فصل علو الهمة في الصلاة

علو همة الشيخ أبو ذر القلموني في قيام الليل:

فضيلة الشيخ عبد المنعم أبو ذر القلموني تُعطَّر المجالس بذكره لشدة اتباعه وزهده وعلو همته في العبادة.

صَلِّ وراءه في أيّ صلاة تعرفُ قدر نفسك.. لا تستطيع أن تقوم أو تقعد له في صلاة.. اكحل جفون قلبك برؤيتك للشيخ أبي ذر عندها ستقول ما أنور هذا الوجه وما أرقه.. سَمْت الشيخ يدعوك إلى الله، وإذا أردت أن تعرف قيامه فسلْ مسجد أمهات المؤمنين، أو مسجده بالبراجيل وسل تلامذته.. واسأل مولاك أن يرزقك صحبته والتأدّب على يديه.. فله الصبر العجيب على العبادة قلَّ أن تجده عند غيره.

✍وللشيخ معي أحوال عجيبة وكرامات تجعلني لا أعدل به بدلا.

أُولاها: عند دخولي مستشفى القصر العيني لتغيير صمام بالقلب، وكانت حالتي سيئة جدًّا، وأتى الشيخ ورقاني بالرقية الشرعية.. وفي صبيحة اليوم التالي يأتي الدكتور المشرف على إعدادي لإجراء العملية، ويقف مبهورًا متعجِّبًا من هذا التحسُّن الغريب؛ فيخبره الدكتور سيد عقل الجرَّاح الذي أجرى العملية فيما بعد قائلًا: «لا تعجب فقد مرّ بالأمس على العفاني شيخ نحسبه صالحًا بمجرد أن رقاه حتى تغيَّرت الأوضاع تمامًا وسط دهشتنا جميعًا».

أما في المرّة الثانية: في يوم عقيقة ابني عبد الله، وكانت زوجتي الأولى التي تزوجتها منذ ثماني سنوات لا تنجب بعد أن استنفدنا كل وسائل العلاج؛ فطلبت منه أن يدعو لزوجتي الأولى.. التي تركت كل أسباب

العلاج وأشرفت على اليأس من الإنجاب وهنا قاطعني الشيخ أبو ذر قائلًا: إن شاء الله سيرزقها الله بولد ودعا لها.. وبعد أيام قليلة اتصلت بي الطبيبة المشرفة على علاجها وبكت وقالت: هل تصدق.. إن زوجتك حامل.. ورزقنا الله بولدي أحمد.

أما الحادثة الثالثة: ففي ليلة من الليالي وأنا مقيم في القاهرة نفدت نفقتي، ونظرت في جيبي بعد الواحدة من منتصف الليل فلم أجد شيئًا في جيبي.. وهنا رن تليفوني لأجد صوت الشيخ الحبيب عبد المنعم –يخبرني بأن سيرسل لي الشيخ أحمد البحيري بخبز وسط دهشة الشيخ البحيري، وهو يعرف ما بداخل الخبز.. وأفتح الخبز لأجد مبلغًا من المال يكفيني طيلة الشهر.. وصله الله في فردوسه الأعلى.

✍ الشيخ أبو ذر له مع الله الحال الطيب.. ولولا صحو السهر والجوع ما بان عندي هلال هذه الكرامات الثلاثة.. نعم لولا صيام القلموني وسهره وقيامه ما كانت له هذه الأحوال الطيبة..

علو همة شيخنا المقدم في القيام:

نظرة إلى وجه المقدم تنبئك بجلالة قدر سيدنا وشيخنا الذي تطيب بذكره المجالس، النظر إليه يذكرك بالله وبلآخرة، ويسرع بك للجنة، النظر إليه يُحيي موات الهمم، ويعلو بك للقمم..

وسل ليل رمضان في مسجد الفتح بالإسكندرية عن علوّ همَّة الشيخ في القيام.. وكيف يقرأ الشيخ بصوته النديِّ في القيام.. وكيف تتقاطر الدموع على الخدود تأثُّرًا بقراءته.. فما ظنك بليله إذا خلى وانفرد بربه..

لسان حاله يقول لربه:

سيبدو لكم في مُضمَر القلب والحشا ... سريرةُ حبٍّ يوم تبدو السرائِرُ

✍ ولإخلاص الشيخ المقدم وعبادته فتح الله له وبه مغاليق القلوب، وهدى الله على يديه الآلاف للمنهج السلفي الذي أينعت ثماره في مصرنا.

قيام الشيخ ياسر برهامي وعلو همته:

للشيخ ياسر قدر كبير في نفوس أبناء الدعوة السلفية.. وله مع الله سر هو تهجده وقيامه.. ولقد كنت رفيقه في زنزانة واحدة.. أنام أنا وهو على بطانية واحدة، وكنت أسمع صوت دموعه وخنينه وهو يُخفي وجهه بالبطانية..

وعند القيام يقوم بالأجزاء الطوال، ويكاد لايمرُّ بآية إلّا وهو يبكي.. فعلمتُ من قيامه لِمَ وضع الله القبول في نفوس الكثير والكثير..

✍ **ومِسْكُ الختام قيام الليل عند الشيخ الدكتور أسامة بحيّ الشافعي الإمام:**

علو همّة ريحانة العصر وسيِّد عُبّاد العصر فضيلة الشيخ الدكتور أسامة عبد العظيم في قيام الليل:

فضيلة الدكتور الأصولي شيخ الشافعية وعابدهم في عصرنا الشيخ أسامة عبد العظيم حفظه الله نسيج وحده في العبادة.. وإن تعجب لذاكم الجبل، فانظر إلى وجهه.. تجد أنوار القبول وذبول العبادة الوضيء يخبرك بحاله «وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتبرقعا»، ويُحدِّثكَ ويعظُك بلحظه قبل أن يجيبك بلفظه..وما ظنك بعبادة ذلكم السيد الذي ختم القرآن في مسجده في الجماعة أكثر من ألف مرة.. ولو نطقت جدران مسجده لأخبرت بعبادة الشيخ وخشيته لله ﷻ وعلو همته.

لِيُسقَ عهدكمُ عهد السرور فما كنتمْ لأرْواحِنا إلّا رياحينا

• القاضي والداني يعلم عظم قدر الشيخ أسامة لعبادته وعلمه.. وعلى يديه تعلَّمت القاهرة طول القيام، وهو مضرب المثل في ذلك، يصدق فيه، وفي الشيخ أبي ذر القلموني قول رسولنا ﷺ: **«أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله»**.

□ فمن راد أن يتأدب بأدب النبوة، وأن يعرف طريقة للعبادة، وعلو الهمة فيها والصبر على طول القيام والركوع والسجود، فليأت مسجد الشيخ أسامة بحي الإمام الشافعي، وهناك يرَى الأعاجيب، فلسان حال الشيخ وتلامذته قول القائل:

تركْنَا البحارَ الزَّخراتِ وراءنا ... فمِن أن يدري الناسُ أَنَّى توجَّهْنَا

✍ ونختمُ بما قيل في المتهجِّد عالي الهمة:

فللهِ دَرُّ العارِفِ النَّدْبِ إنَّه ... تَفِيضُ لفَرْطِ الوجْدِ أجفانُهُ دَمَا

يُقيمُ إذا ما الليلُ مدَّ ظلامَهُ ... على نفْسِهِ من شدَّةِ الخوفِ مَأْتَمَا

فصار قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نهارِهِ ... أخا السُّهْد والنَّجْوَى إذا الليلُ أظْلَمَا

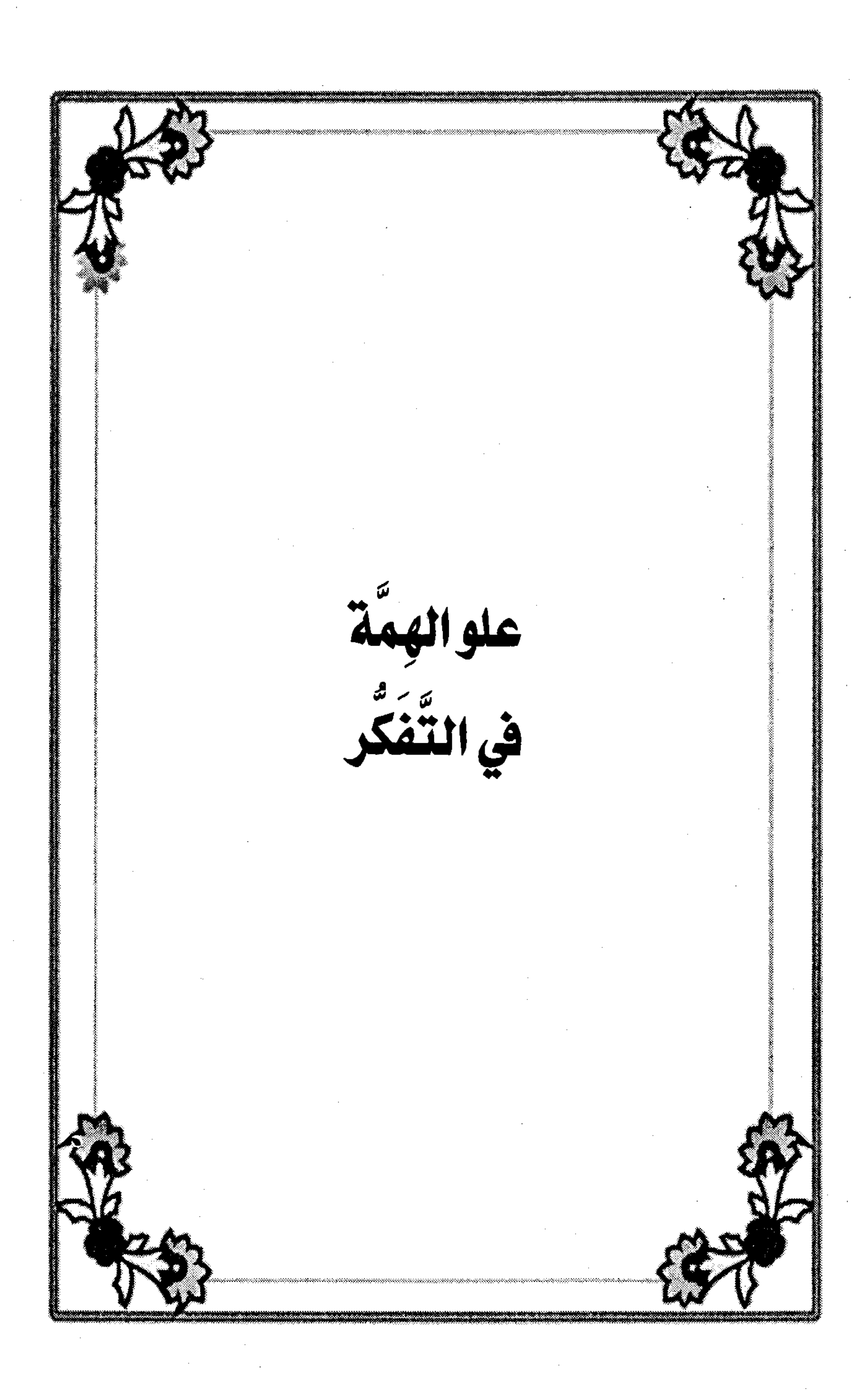
يقولُ: حبيبي أنت سُؤْلِي وبُغْيَتي ... كفى بك للرَّاجِينَ سُؤْلًا ومَغْنَمَا

ألستَ الذي غذيتَني وهديتَني ... ولا زلتَ منَّانًا عليَّ ومُنْعِمَا؟!

ففي يقْظتي شَوْقٌ وفي غَفْوَتي مُنًى ... تُلاحِقُ خَطْوِي نشْوَةً وتَرَنُّمَا[1]

---

(١) «ديوان الشافعي» (ص١١٥) تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.



علو الهِمَّة في التَّفَكُّر





علو الهِمَّة في التَّفَكُّر

عبادة التفكُّر ومنزلتها في الإسلام:

مِن الفوارق الْهامَّة التِي تُمَيِّزُ المؤمنَ عن غيرِه فِي هذه الحياة أنَّ المؤمن ينظرُ إلى كلِّ حركةٍ وسَكَنةٍ تقعُ حولَه فِي هذا العالَمِ بعينِ التَّفكُّرِ والاعتبار؛ وقد خَلَقَ اللهُ تعالَى هذا الكونَ العظيمَ -بِما فيه من مَخلوقاتٍ- دَلالةً على وحدانيَّته وعظمتِه وتفرُّدِه بالجلالِ والكمال؛ وطَلَب سبحانَه من عبادِه أن يتفكَّروا ويتأمَّلوا فِي هذه المخلوقات التي تُحيط بهم من كلِّ جانب؛ وهذا التفكُّرُ ليس مقصودًا لذاته؛ إنَّما المرادُ منه أنْ يتعلَّقَ القلبُ بربِّ العالَمِين، ويعرفَه، ويُحبَّه، ويُفرِدَه بالوحدانيَّةِ والذُّلِّ والخُضوع والعبادةِ [(١)]، فلا يَصرفُ لغيرِه منَ المَخلوقاتِ - في هذا الكونِ الفسيحِ الرَّحيب- أيَّ نوعٍ من أنواعِ العبادة؛ حتَّى يكونَ - سبحانه- هو كلُّ شيءٍ في حياة عبدِه [(٢)].

والتَّفكرُ معناه: تكرارُ تأمُّلِ القلب في الشيءِ مرَّاتٍ ومرَّات، حتَّى يتعرَّف العبدُ على خباياه وأسراره -قَدْر طاقته- [(٣)].

---

(١) وهذا الأمر يسري على كل ما نصبه الربُّ العظيمُ ليعرفه عبادُه.. ولذا بيَّن أهل العلم أن العلوم والاكتشافات العلمية التي تظهر يومًا بعد يوم إذا لم تقرب العباد لربهم فقد ضاعت منها الثمرة العظمى وصارت حُجةً على أصحابها يوم الدين.. انظر: «العقيدة في الله» للشيخ الأشقر، وفي «ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب (١/ ٥٤٥).

(٢) ومن أعظم ما يُحبِّبُ العبدَ إلى ربه، ويُعلِّقُ قلبَه به أمران: تدبر آياته المقروءة.. والتأمل في آياته المرئية.. وأنصح بقراءة الكتاب الجميل الرقيق «موارد الظمآن في محبة الرحمن».

(٣) مستفاد معناه من «تفسير القرطبي» (٤/ ٣٢٢- ط: دار الحديث).. وفيه أيضًا (٤/ ٣٢٣) خلاف الفقهاء والصوفية حول التفكر والصلاة أيهما أفضل؟ فقال =

□ وقال ابن القيم: «الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له»[1].

□ وقال: «الفكرة هي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملًا، ولمَّا يهتدِ إلى تفصيله وطريق الوصول إليه»[2].

وثمرة التفكُّر: اليقين، لا سيَّما مع كثرة الدلائل وتنوُّعِها.

وقد أخبرنا رب العالمين أنه وضع الآيات المتنوعة -المقروءة والمرئية- في هذه الحياة القصيرة ليتفكر فيها العباد:

* فقال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [البقرة].

□ قال الحسن البصري: «هي والله لمن تفكَّر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء»[3].

* وقال جل وعلا: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل].

* وقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

□ قال الحسن البصري: «والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم يقول: قرأت القرآن، ما يُرى عليه القرآن في

الصوفية: التفكر، وقال الفقهاء: الصلاة أفضل.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٤٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٣).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٤).

خُلُقٍ ولا عمل»[1].

دعوة القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة إلى التفكُّر:

✍ قد تنوَّعت أساليب القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهَّرة في بيان أهمية التفكر وضرورته، كسبيل هام جدًّا من سُبل الإيمان بالإله الواحد الأحد لا شريك له، والاستعداد للدار الآخرة وإليكم أبرز الأساليب القرآنية والنبويَّة الداعية إلى التفكُّر:

أوَّلاً: الدعوة الهادئة للتأمّل في آيات الكون:

لقد تكاثرت دعوة الله تبارك وتعالى للكافرين والمنافقين أن يتفكروا في الآيات المبثوثة في الكون -عاليه وسافله-، لعل هذا التفكر يأخذ بأيديهم بعد -رحمة الله تعالى- إلى الإقرار والانصياع لعبودية فاطرهم الأوحد، ونبذ ما سواه ممن لا ينفع ولا يضر.

* قال تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾

[يونس: ١٠١].

انظرُوا، وتأمَّلوا، واعتبِروا.. لعلكم تعقِلون وتتَّقون وتعلَمون لِماذا خُلقتم؟، وما هو واجبُكم تِجاهَ ربِّكم؟ وما هو المقصود من إيجادكم؟.

□ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السماوات من كواكب نيرات، وثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر؛ حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها

(١) «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٨٧).

وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مذلل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلَّا هو ولا رب سواه»[1].

□ «إن النظر بالقلب المفتوح والعين المُبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه والإبداع الذي يشهد به والإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير، والنظر إلى ما خلق الله من شيءٍ -وكم في ملكوت السماوات والأرض من شيء- يدهش القلب ويحير الفكر، ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور»[2].

□ «والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وزاد من سعة الشعور بالوجود، وزاد من التعاطف مع هذا الوجود، وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله، وبجلال الله، وبتدبير الله، وبسلطان الله، وبحكمة الله، وبعلم الله»[3].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٥).
(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٠٥).
(٣) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٨٢٢).

مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [سبأ: ٤٦].

إنَّها دعوة للتأمل والاتعاظ بأن يقوم العبد وحده -أو بمعاونة من يستشعر فيه العدل والإنصاف [(١)] - ليتأمل الجميع في بديع صنع الله تعالى، ليدَّبَّروا آياته، ويتعلقوا ما جاءهم به محمد ﷺ، ويزنوه على ميزان العقل السوي والفطرة النظيفة؛ وإذا لم تكابرهم نفوسهم، ولم يطمسوا على بصائرهم، فسوف يوقنون بإلهم ويخضعون لجلاله ويتبعون شريعته بنفس راضية مطمئنة.. وليس بعد هذا إلَّا السعادة والفوز العظيم.

* وقال جل جلاله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

إن الإله القدير العظيم الذي له كل هذا الملك بلا شريك ولا منازع هو الذي خلق أعظم آيتين في حياتكم لا تستطيعون إنكارهما -الموت والحياة-، خلقهما ليختبركم ويرى أعمالكم.. فمن كفر وضل عاقبه بعزته.. ومن آمن وخضع عاملة بعفوه ومغفرته.

إنه الملك العظيم الذي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، محكمة الصنع والإتقان، وبث فيها الدلائل الباهرات والآيات العجيبات النيرات التي تنطق كلها بوحدانية باريها ﷻ؛ وأنت -أيها الإنسان- لا يمكن أن ترى تناقضًا أو اضطرابًا في هذا الخلق البديع، ولك أن تكرر النظر مرات

(١) ولابد أن يكون الرفيق عاقلاً منصفًا وإلا لم تنفع الصحبة.

بعد مرات، هل ترى في تلك السماوات العظيمة من شروخ أو تصدعات تدل على الخلل والضعف وقرب الانهيار؟! أعد النظر وكرر ثم كرر، فإنك في النهاية تبوء بالفشل أن ترى ذرة خلل أو نقص أو وهن في هذه الآيات النيرات.

تأمل –أيها الإنسان– في هذا كله وتفكر، لتعرف خالقك وفاطرك، فإنك من دون هذه المعرفة لا تساوي أي شيء.

* وقال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر].

تأملوا وتدبروا في سنن الله تعالى في الحياة، لعلكم تفقهون.

* وقال سبحانه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران].

* وقال ﷻ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام].

* وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر].

إن إلغاء مسلمات العقل ليس في صالح الإنسان، وإن التعامي والتغابي عن سنن الله تعالى في الحياة وأفعاله مع الطائعين والحائدين لن يعود بمنفعة أو مكسب للعبد، فالعقل خلق لينظر ويعتبر ويتأمل ويقيس الأمور بمقاييس سديدة منصفة؛ ليرى نهايته المتوقعة من خلال منهجة في الحياة.. وهذه النهاية تتراءى أمام ناظريه من أشبابه وأمثاله الذين سبقوه إلى الآخرة.. فإنهم ما بين مؤمن وكافر.. وقد كشفت الأيام المتعاقبة للناس جميعًا سنة الله تعالى التي لا تتخلف في إكرام المطيعين وإهانة

المستكبرين المعرضين.

فليتأمل العبد وليعتبر إذن بالسالفين؛ فعما قريب سيكون مع أحد الفريقين لا محالة، وسوف يمسي ذكرى من الذكريات.

فهذا أسلوبٌ من الحوار الهادئ والدعوة المتريثة مع كل معرض عن مولاه آبٍ رشدَه وهداه، إنها دعوة للتفكر في هذه الحياة ونهايتها، والمصير المنتظر لأهلها -على اختلاف مشاربهم ومناهجهم وتوجهاتهم-، دعوة تفتح مغاليق العقول، وتبعثها بإذن الله من سباتها العميق.

ثانيًا: مدح المتفكِّرين وذم الغافلين المتغافلين:

* قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران].

وهنا يَذكرُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ ما خَلَقه من مخلوقاتٍ عظيماتٍ في الأرض والسَّماوات -وخاصَّةً اختلافُ أحوالِ الليلِ والنَّهار-، كلُّ هذا يَعتبرُ ويتَّعظُ به أولُو العقولِ الصحيحةِ التي لَم تَعْمَ ولَم تتلوَّثْ بلَوْثات الكُفر والإعراضِ عن خالِقها جلَّ وعلا.. إنَّهم هؤلاء الذين لا يَفتُرُون عن ذِكرِ الله بقلوبِهم وألسنتِهم وأبدانِهم في كافَّةِ أحوالِهم -قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم-، وهم في كلِّ هذا يتأمَّلون ويتفكَّرون في الكون الجليل بكلِّ ما فيه من آياتٍ وعِبَرٍ تَبعثُ في القلب الخشيةَ والخشوعَ والمَحبَّةَ لِخالقه العظيمِ تبارك وتعالَى، وهنا تدمعُ العين ويذلُّ اللسانُ قائلًا: ﴿ رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾، بل خَلقتَه بالحقِّ وللحقِّ [1].. وأنت – ربَّنا– كما خَلقتَ هذا الكون المترامِيَ الأطراف بقُدرتِك العظيمة، فأنت قادرٌ كذلك على إدخالِ مَن تشاءُ برحْمتِك إلَى الجنَّة، وإدخالِ مَن تشاءُ بعَدلِك إلَى النار، ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

فتأمَّلوا كيف وصلَ بهما لتأمُّلُ والتدبُّرُ في آياتِ ربِّهم في هذه الحياة إلى الدَّار الآخرة، فانتقَلوا في لَمحِ البصر إلى دارِا لخلود؛ لأنَّ هذا هو غايةُ التفكُّرِ –أيُّها الأحبَّة–، أن يَعرفَ العبادُ حقيقةَ وجودِهم، ولِماذا خُلقوا، وما هو مصيرُهمُ الذي يَنتظرُهم.. فإذا طهُرت قلوبُهم وسَمَتْ أرواحُهم ازدادَ تفكُّرُهم، وغاصُوا في آياتِ ربِّهم غوصًا، فانبعثَ منها الرَّهبةُ والرَّغبة منه ﷻ، فنَحَّتِ الراحةَ يسارًا، وشَحذت هِمَمَها لعبادةِ خالقها تحقيقًا للمراد الأساسِ من وُجودِها.

«وأولو الألباب –أولو الإدراك الصحيح –يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقولهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه.

ومشهد السماوات والأرض ومشهد اختلاف الليل والنهار لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح له العيون أول مرة، لو استنقذنا حِسَّنا من همود الإلْف وخمود التكرار لارتعشن له

---

(١) انظر عن معنى «الحق» كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» للعلامة عبد الرحمن الميداني (ص٤٥).

رؤانا، ولاهتزَّ له مشاعرنا [١].

إن القرآن يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته وبين التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة، ويجعله جانبًا من مشهد الذكر، فيوحي -بهذا الجمع- بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن التفكر في خلق الله والتدبر في كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله وهي تحرك هذا الكون وتقلب صفحات هذا الكتاب: هو عبادة لله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر.

الحقيقة الثانية: أن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلَّا للقلوب الذاكرة العابدة، وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم وهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهي الموصل إلى النجاة والخير والصلاح.

إنهما أمران متلازمان تعرضهما هذه الصورة التي يرسمها القرآن لأولِي الألباب في لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال.

إنها لحظة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتفتح الإدراك،

---

(١) ذكر الأستاذ سيد قطب هنا أن هذا النظام البديع لابدَّ أن وراءه «عقلاً» يدبِّر.. وهذا خطأ منه -عفا الله عنه- ، فإنه لا يحلّ أن يوصف الله تعالى بالعقل المدبِّر.. إنما هذا وصف الفلسفة المستمدة من كُتب اليونان والرومان، فانتبه، آتاك الله رشدك.

واستعداده للتلقي كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع.

إنها لحظة العبادة وهي بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال، فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ملهمًا للحقيقة الكامنة فيها، وإدراك أنها لمتخلق عبثًا ولا باطلًا»[(١)].

□ ومن اللطائف في هذه الآيات الكريمات أن الله تعالى لم يجعل عذرًا لأحد في ترك التفكر في آياته، فالتفكر شامل لكل حالات العبد من القيام والقعود والرقود؛ لأنه عبادة قلب، فيمكن للعبد أن يغيب في أعماق الأرض أو يغوص في أغوار البحار أو ينفذ في أقطار السماوات وهو راقد على فراشه، حيث يسبح بفكره في هذه الأجواء العجيبة المتنوعة وما فيها من ملايين الآيات التي تهتف جميعًا بوحدانية الخالق وتعظيمه وتقديسه.

□ قال الإمام قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾: «هذه حالاتك كلها يا ابن آدم، اذكر الله وأنت قائم، فإن لم تستطع فاذكره جالسًا، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك.. يُسرٌ من الله وتخفيف».

□ وقال الإمام مجاهد: «لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»[(٢)].

□ وقال العلامة القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر تعالى ثلاث هيئات، لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصر زمانه.. ومن هذا المعنى قول

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٥٤٦، ٥٤٤) باختصار.

(٢) «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١٧٩ - ط: دار هجر).

عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[(١)](٢).

□ قال الإمام الرازي -رحمه الله وعفا عنه-: «دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس.. ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ولما كان الأمر كذلك لا جرم أَمَر في هذه الآية بالفكر في خلق السماوات والأرض؛ لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم، وكيف لا نقول ذلك؟! ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى في تلك الورقة عرقًا واحدًا ممتدًا في وسطها، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين، ثم يتشعب منها عروق دقيقة، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصر، وعند ذلك يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكمًا بالغة وأسرارًا عجيبة، أن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض، ثم إن ذلك الغذاء يجري في تلك العروق حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة جزء من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم، ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة وكيفية التدبير في إيجادها وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها لعجز عنه، فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة، فحينئذٍ يقيس تلك الورقة على السماوات مع ما فيها من الشمس

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/ ٣١٩)، ثم ذكر رحمه الله خلاف العلماء حول جواز ذكر الله تعالى في الخلاء وغير ذلك من المباحث الفقهية.. فراجعه -إن شئت- ، وبنحو ما قال القرطبي قال ابن القيم كما في «بدائع التفسير» (١/ ٥٤٠).

والقمر والنجوم، وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان: عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء كالعدم.

فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السماوات والأرض، وإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام لم يبق معه إلَّا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين، بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة وأسرار عظيمة وإن كان لا سبيل إلى معرفتها، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وكلمة هذا متضمنة لضرب من التعظيم.. أي: ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثًا عاريًا عن الحكمة خاليًا من المصلحة.. بل منتظمًا لحكم جليلة ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك، وأن يكون مدارًا لمعايش العباد ومنارًا يرشدهم إلى معرفة المبدإ والمعاد»[1].

ثالثًا: ضَرْبُ الأَمثال:

إن ضرب الأمثال مما تستلذه الأسماع وثير اتِّباعُه العقولَ إلى المقصود من وراء هذا المثل.. وهو بلا شك ذو أهمية كبرى في حياة العرب خاصة والناس عامة، وله فوائد وأغراض عديدة كلها تشي بمكانته المتميزة لدى أهل الفطن والبصائر.

وقد تكاثرت جدًا الآيات القرآنية الضاربة للأمثال، والتي ترمي إلى

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٤/ ١٠٦٧- ١٠٦٨).

إقامة الحجج على المخالفين المحادين لله ورسوله، وإنما قامت الحجة عليهم بها لأنهم فهموا مضمونها، وتفكروا في مغزاها، وأكثرهم أيقن بصدقها وصدق منزلها والمرسل بها؛ فإذا أعرضوا بعد ذلك، لم يكن لإعراضهم سبب سوى الأنفة والاستكبار.. وبئست الصفة.

ولنقتطف بعض الأمثلة السامية التي تدعوا بمضمونها إلى التفكر والتدبر في حقيقة الحياة والكون.

* قال تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم].

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

* وقال عز وجل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ

ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

والأمثلة القرآنية الشريفة غير هذا كثيرة جدًّا.

ولما كانت تلك الأمثال الجليلة السامية في غاية الوضوح والبيان كانت متدبرها بصيرًا ومنكرها أعمى.. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام].

رابعًا: العرض التفصيلي لبعض آيات الله تبارك وتعالى:

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟

نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

* وقال سبحانه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم].

* وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ

يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

[الروم].

* وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور].

* وقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا

ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[الأنعام].

* وقال جل وعلا: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

* وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم

مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ

ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

والآيات المبينة لبعض نعم الله تعالى على عباده أكثر من أن تحصر.. وكلها تنطق بوحدانية الإله العظيم وجلاله وكبريائه وعزته وجماله وحكمته وقدرته، وهي تدعو العباد -في نفس الوقت- إلى محبة الرحمن وتعلق القلوب به والتفكر في هذه الدنيا ومصيرها والتطلع للآخرة ونعيمها.

خامسًا: الاستفهام الاستنكاري:

* قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

[النمل].

* وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا

لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق].

* وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة].

* وقال جل جلاله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

[الغاشية].

سادسًا: ذمُّ المتغافلين عن آيات الله تعالى:

لقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذم الغافلين المتغافلين عن رؤية آياته والتفكر في عظيم آلائه، ومعلوم أن ذم الشيء إشارة إلى أن خلافه هو المطلوب.. ولما كثر ذم الغافلين عن آيات الله دل هذا على أن التفكر أمر مطلوب وللرب محبوب.

ومن الآيات التي ذم فيها العمي الغافلون ما يلي:

* قال جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى

ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

* وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف].

□ قال الحسن في هذه الآية: «أي: أمنعهم التفكر فيها»[١].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية (١/ ٥٣٩) ط: دار ابن عفان.

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا ﴾ [محمد].

* وقال عن بعضِ صفاتِ أهل النار: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الكهف].

أعطاهمُ اللهُ تعالَى عيونًا فأطبقُوها عن رؤيةِ آياتِه الكونيَّة.. وأعطاهم أسْماعًا فأغلقوها عن الانتفاعِ بآياتِه السمعيَّة، فكان جزاؤهم أن أكبَّهم على وجوههم صُمًّا وعُميانًا في دارِ الويل والشقاء.

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس].

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ أهلَ التَّقوى همُ المنتفعون بآياتِ الله عَزَّ وَجَلَّ.. أمَّا النَّاكبون عن الصِّراط، المنحرفون عن طريقِ الحقِّ والرَّشاد فلن يلتفِتوا إلى آياتِ ربِّهم إلَّا قليلًا، ولن يتأمَّلوا في مخلوقاته إلَّا نادرًا؛ لأنَّ قلوبَهم منشغلةٌ بباطلها، فلم يَعُدْ للحقِّ فيها موضعٌ.. نسأل الله تعالَى العافية.

* وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

□ قال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ ذا الكونَ كتابٌ مفتوح، يحمل بذاته دلائلَ الإيمان وآياتِه، وينطقُ أنَّ وراءَه يدًا تُدبِّره بِحكمةٍ، ويُوحي بأنَّ وراء هذه الحياةِ الدنيا آخرةً وحسابًا وجزاءً.. وإنَّما يُدركُ هذه

الدلائلَ، ويقرأُ هذه الآياتِ، ويرى هذه الحكمةَ، ويَسمعُ هذه الإيْحاءات: أولو الألباب من الناس، الذين لا يَمرُّون بِهذا الكتاب المفتوح [1] وبهذه الآيات الباهرةِ مُغمِضِي الأعيُنِ غيرَ واعِين.

وهذه الحقيقةُ تُمثِّلُ أحدَ أُسسِ التصوُّرِ الإسلاميِّ عن هذا الكون والصِّلة الوثيقة بينه وبين فطرةِ الإنسان، والتفاهمِ الداخليِّ الوثيقِ بين فطرةِ الكون وفطرةِ الإنسان، ودلالةِ هذا الكون بذاته على خالِقه من جهةٍ، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبُه من «غايةٍ، وحكمةٍ، وقَصْد» مِن جهة أخرى.. وهي ذاتُ أهَميةٍ بالغةٍ في تقريرِ موقفِ الإنسان من الكون وإلَهِ الكون سبحانه وتعالَى.. فهي ركيزةٌ من ركائز التصوُّر الإسلاميِّ للوجود.

والقرآنُ يوجِّهُ القلبَ والأنظار توجيهًا مكرَّرًا مؤكَّدًا إلَى هذا الكتاب المفتوح الذي لا تفتأُ صفحاتُه تُقلَبُ، فتتبدَّى فِي كلِّ صفحةٍ آيةٌ موحِيةٌ تستجيشُ في الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقرِّ في صفحاتِ هذا الكتاب.

التفكّر من أساليب دعوة الأنبياء:

وإن مما يدل على قيمة التفكر وأهميته في حياة الناس أنه من أهم أساليب دعوة أنبياء الله ورسله -عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

إن مقام الدعوة إلى الله -جل وعلا- أسمى وأعلى المقامات في هذه الحياة، وأشرف ألوان الاستجابة على الإطلاق أن يستجيب لك الكافر والمنافق والملحد؛ وهم غالبًا لا يؤمنون بهذا القرآن، وقد يؤمنون به باطنًا

(١) أي: الكوْن.

لكنهم لأسباب عديدة يأبون الدخول تحت ظل دوحة الإسلام.

وقد علمنا الله تعالى كيفية دعوة الصنف الأول خاصة إلى الإسلام، هذا الصنف الذي يكفر بالقرآن كلية ولا يؤمن أنه من عند الله ﷻ.. وكان من ألوان الدعوة المؤثرة لهؤلاء الكافرين الدعوة بالتفكر والتأمل في مخلوقات رب العالمين.. وهو من المناهج التي سار عليها الأنبياء وكرروها تكرارًا حثيثًا.. ولنكتف بدعوة الخليلين الكريمين -عليهما صلوات الله وسلامه-:

أولاً: دعوة خليل الرَّحمن إبراهيم عليه السلام:

* قال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ[2] ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ[3] فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا

---

(١) الملكوت: الملك والسلطان وما فيه من عجائب المصنوعات.

(٢) أي: ستره وواره.

(٣) اختلف علماء التفسير حول المراد من هذه الجملة.. فذهب بعضهم إلى أن إبراهيم عليه السلام عبد الكوكب حتى غاب ثم تركه، ثم بد القمر حتى غاب، ثم تركه، ثم عبد الشمس حتى غابت، ثم تركها.. وقال آخرون: بل كان هذا في مرحلة الطفولة قبل البلوغ.. وقال آخرون: بل المقصود: «أهذا ربِّي؟» استنكارًا منه.. وقال آخرون: بل المراد من هذا مناظرة المشركين وإقامة الحجة العقلية عليهم أن هذه المخلوقات لا تصلح للعبادة.. وهذا القول الأخير هو الصواب عندي والذي قبله جيِّد.. والذي اختاره الكثير من الأئمة.. وأنكرُ الأقوال وأبعدها عن الصواب هو الأول؛ فإبراهيم عليه السلام لم يكن في يوم من الأيام مشركًا كما قال تعالى عنه: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.. وأبعد من هذا كله أن البعض قال: إن قائل جملة: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ هو آزر، فردّ عليه إبراهيم عليه السلام ﴿ لَآ أُحِبُّ =

رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

لقد وقف إبراهيم عليه السلام مع قومه -كغيره من الأنبياء- موقف الناصح الأمين المشفق عليهم من عذاب ربهم العظيم، وحاول معهم بكل السبلِ ليجرهم بعيدًا عن نيران الجحيم، وكانت المناظرات العقلية -التي تقر وتعترف بها العقول السليمة- من أهم أساليب دعوته المباركة.

ففي هذه الآيات أراد عليه السلام إقناع عباد الكواكب أنها لا تصلح للألوهية لأنها جميعًا تتفق في الغياب عن الأنظار، وبعضها يتناقص مع مرور الأيام حتى يختفي بالكلية، فكيف لمثل هذه المخلوقات الناقصة ذات المنافع المحدودة أن تُعْبَد من دون فاطرها وخالقها؟! بل إن ثبوتها على منهج واحد وتحركها في مسار محدد يمنع كونها آلهة تعبد، بل يدل هذا على أن هناك من يسيرها ويوجهها ويأمرها ألا تخالف النهج الذي اختطه لها[1].

كل هذا من باب الدعوة إلى الله تعالى بالتفكر في مصنوعاته، والاستدلال بها على أعظم علمٍ وهو العلم بالخالق تبارك وتعالى.

ٱلْأَفِلِينَ﴾ .. وهذا تكلّف ظاهر.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٤٧)، «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٥)، «بدائع التفسير» (٢/ ١٥١)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٣)، «الدر المنثور» (٦/ ١٠١)، «محاسن التأويل» (٣/ ٣٤٧)، «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٣٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٤٨٦)، «الملل والنحل» للشهرستاني.

ثانيًا: دعوة الحبيب محمد ﷺ مع قومه:

• عن أَبِي رَزِين رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي اللهُ المَوتَى؟ فقال: «**أَمَا مَرَرتَ بالوادي مُمحِلًا**[١]، **ثُم تَمُرُّ**[٢] **به خَضِرًا؟**» قلتُ: بلى. قال: «**كذلك يُحيي اللهُ المَوتى**».

• وفي روايةٍ أخرى عنه رضي الله عنه: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي اللهُ الموتى؟ قال: «**أَمَا مررتَ بأرضٍ من أرضك مُجدِبةٍ، ثُم مررتَ بِها مُخصِبةً؟**» قلت: نعم. قال: «**كذلك النُّشور**»[٣].

• ومن روائعِ ألوان دعوةِ الرَّسولِ ﷺ للمُخالفين له أنه كان يدُلُّهم على الإيمان بربهم من خلال التأمل في الآيات الكونية فإنه لَمَّا جاءَ رسولَ الله ﷺ رجلٌ، فقال له: تدعونِي إلَى جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ

---

(١) ممحلا: أي مُجدبًا.

(٢) أي: مررت. وهذا تعبير عربي صحيح، أن يأتي فعل ماض، ثم يعطف عليه بفعل مضارع، ويكون المضارع في معنى الماضي.. وانظر هذا في النحو الوافي للعلامة النحوي البارع عباس حسن رحمه الله.

(٣) حسن: رواه أحمد والطبراني.. وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٣٣٤).. وللحديث بقية، وهي: «قلت: يا رسولَ الله، وما الإيْمان؟ قال: أن تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن مُحمدًا عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحرق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله، وأن تُحبَّ غيرَ ذي نسبٍ لا تحبُّه إلا الله عز وجل، فإذا كنتَ كذلك فقد دخل حبُّ الإيمان في قلبك كما دخل حبُّ الماء للظمآن في اليوم القائظ. قلت: يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أني مؤمن؟ قال: «ما من أمتي عبد يعمل حسنة، فيعلم أنها حسنة، وأن الله عز وجل جازيه بها خيرًا، ولا يعمل سيئة، فيعلم أنها سيئة، واستغفر الله عز وجل منها، ويعلم أنه لا يغفر إلا هو، إلا وهو مؤمن».

أُعِدَّت للمُتَّقين، فأين النَّارُ؟ فقال رسولُ الله: «**سبحانَ الله! أين الليلُ إذا جاء النَّهار؟!..**» الحديث (١).

والأمثلة بلا ريب كثيرة وفيرة.. والمقصود منها أن نعلم أن التفكر والتأمل في آيات الكون البديع من أنفع وأقرب وسائل الدعوة إلى الله تعالى، ولا سيما أنها تعتمد على البدهيات العقلية التي لا ينكرها العقل السليم أيًّا كانت نحلة صاحبه ومذهبه.

وبهذا السبيل المضمون يمكننا جميعًا أن ندعو الكفار إلى الإسلام، ونتدرج معهم في بيان أحقية إله العالمين وحده بالعبادة دون كل من وماء سواه ﷻ وتقدست أسماؤه (٢).

علو همة الرسول ﷺ في التفكّر:

• عن عطاءٍ قال: دخلتُ أنا وعُبَيدُ بنُ عُمير على عائشة ﵂، فقالت: لِعُبيدٍ: قد آنَ لك أن تزورَنا! فقال: أقولُ –يا أُمَّه– كما قال الأول: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» (٣).

فقالت: «دَعُونا من رَطَانَتِكُم هذه» (٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد.

(٢) انظر «الكلمات القيمة» للشيخ الدكتور عمر الأشقر في ردّه على شبهة القائلين: كيف ندعو بالقرآن من لا يؤمن بالقرآن في كتابه القيمّ «العقيدة في الله».

(٣) معنى: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»، أي: زُرْ بين يومٍ وآخَرَ يزددْ حُبُّ صاحبِك لك.. ولا تَزُرْه كلَّ يومٍ فيملَّ ويسأمَ. وأودُّ التنبيهَ على أن هذا الكلامَ جاء من حديث النبي ﷺ، رواه الطبراني والبزار، وهو حديث حسنٌ بطرُقه وشواهده.. انظر «صحيح الجامع».

(٤) أي: من تبريراتكم هذه.

فقال ابنُ عُميرٍ: أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسولِ الله ﷺ، فسكتت، ثُم قالت ﵂: لَمَّا كان ليلةٌ من الليالي قال: «**يا عائشةُ، ذَرِيني أتَعَبَّدُ الليلةَ لربِّي**». فقلتُ: والله إنِّي لأُحِبُّ قُربَك، وأُحِبُّ ما يَسرُّكَ.. فقام، فتطهَّرَ، ثُم قام يُصلِّي؛ فلم يزل يَبكي حتَّى بَلَّ حِجرَه؛ ثُم بكى، فلم يزل يَبكِي حتَّى بلَّ لحيتَه؛ ثُم بكى، فلم يزل يَبكي حتَّى بلَّ الأرضَ، فجاء بلالٌ يُؤذِنُه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسولَ الله، لِمَ تَبكِي وقد غفر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! قال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟! لقد نَزلت عليَّ الليلةَ آيةٌ، ويلٌ لِمَن قرأها ولَم يتفكَّرْ فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]**»[(١)].

□ وقد قيل للإمام الأوزاعي عن هذه الآيات: «ما غاية التفكُّر فيهن؟ فقال: يقرؤهن وهو يعقلهن»[(٢)].

□ وثبت أن رسول الله ﷺ كان يذهب إلى حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد». هذا قبل بعثته ﷺ.

□ وثبت عنه ﷺ أنه «كان كثير النظر إلى السماء»[(٣)].

• وقال رسول الله ﷺ: «لا تتفكَّروا في ذات الله، وتفكَّروا في خلْق الله»[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه ابن حبّان (٢/ ٣٨٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٥)، و«الدر المنثور» (٤/ ١٨٢).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم.

(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وحسنه الألباني في «الصحيحة».. وقال العلامة القاسمي في «محاسن التأويل» (٢/ ١٩٣)- ط: «التاريخ العربي»: له =

وهاكم طائفةً من أقوالِ السَّلف الصالِح:

□ عن مُحمَّد بنِ واسع: «أن رجلًا من أهل البَصرة ركِب إلى أمِّ ذر - بعدما ماتَ أبو ذرٍّ -، فسألَها عن عِبادةِ أبِي ذرٍّ.. فقالت: كان نَهارَه أجْمعَ فِي ناحيةِ البيت يتفكَّرُ».

□ وعن عَونِ بن عبد الله بن عُتبة قال: «سألتُ أمَّ الدرداء. ما كان أفضلَ عملِ أبي الدَّرداء؟ قالت: التفكُّرُ والاعتبار».

□ وعن الحسنِ قال: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ»[1].

□ وقال أيضًا: «مَن لَم يكن كلامُه حِكمةً فهو لَغوٌ.. ومَن لَم يكن سكوتُه فِكرًا فهو سَهوٌ.. ومَن لَم يكن نَظَرُه اعتبارًا فهو لَهوٌ».

□ وقال بعضُ السَّلف: «كُونوا فِي الدنيا أضيافًا، واتَّخِذوا المساجدَ بُيوتًا، وعوِّدوا قلوبَكمُ الرِّقَّة، وأكثِروا التفكُّرَ والبكاء، ولا تَختلفَنَّ بكمُ الأهواء.. تَبنُون ما لا تَسكنون! وتَجمَعون ما لا تأكلون! وتأمَلون ما لا تُدرِكون!!».

□ وعن الفُضيل قال: «الفِكرةُ مرآةٌ تُريك حَسناتِك وسيِّئاتك».

□ وكان لُقمانُ يُطيلُ الجلوسَ بِمفرده، فقيل له: «إنك تُكثِرُ الجلوس وحدَك! فلو جالستَ الناسَ كان آنسَ لك.. فقال: إنَّ طُولَ الوِحدةِ أفهمُ للفِكر، وطولَ الفِكرِ طريقٌ مِن طُرقِ الجَنَّة».

شواهد كثيرة.. والحديث ضعفه العلامة شعيب الأرنؤوط في «تحقيق الآداب الشرعية» للإمام ابن مفلح وورد موقوفًا على ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٠، ١٨١).

(١) «الحلية» (٦/ ٢٧١).

□ وقال وهبُ بنُ مُنبِّهٍ: «ما طالت فكرةُ امرئٍ قطُّ إلَّا عَلِم.. وما عَلِم امرؤٌ قطُّ إلَّا عَمِل».

□ وقال عمر بن عبد العزيز: «الكلام بذكر الله حسن، والفكرة في نعم الله عَزَّلَجَلَّ أفضل العبادة»[١].

□ وقال أيضًا: «اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه».

□ وعن بكر بن خنيس قال: قلت لسعيد بن المسيب -وقد رأيت أقوامًا يصلون ويتعبدون-: «يا أبا محمد، ألا تتعبد مع هؤلاء القوم؟ فقال لي: يا ابن أخي، إنها ليست بعبادة. قلت له: فما التعبد يا أبا محمد؟ قال: التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله تعالى».

□ وقال صالِحُ بن مُحمَّد الليثي: «كان فتيةٌ من بني ليثٍ يَختلفون إلَى مسجد رسول الله ﷺ، يصومُون، ويقومُون بين الظهر والعصر، فقلت لسعيدِ بن المسيَّب: يا أبا مُحمَّد، ما يَمنعُنا أن نفعلَ كما يفعلُ هؤلاءِ الليثيُّون؟ فقال: اسكت، فإن عبادةَ الله ليست بالصوم ولا بالصلاة، ولكن بالفقه فِي دينه، والتفكُّرِ فِي أمره»[٢].

□ وعن كعب قال: «من أراد أن يبلغ شرف الآخرة، فليكثر التفكر يكن عالِمًا».

□ وقال عبد الله بن المبارك يومًا لسهل بن علي -وقد رآه صامتًا متفكرًا-:«أين بلغت؟ فقال: الصراط».

---

(١) «الحلية» (٥/ ٣١٤).

(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ١١٨).

□ وقال بشر: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط».

□ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ».

□ وبينما أبو شريح يمشي يومًا إذ جلس، ثم بكى بكاءً شديدًا.. فقيل له: ما يبكيكَ؟ فقال: «تَفكَّرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي».

□ وقال أبو سليمان: «عودوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر»[1].

□ وعن أبي عاصم بن يزيد قال: «ربما كان يأخذ سفيان في التفكر، فينظر إليهِ الناظرُ، فيقول: مَجنون».

□ وعن سفيان بن عيينة قال: «التفكر مفتاح الرحْمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب».

□ وعنه أنه كان يتمثَّل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة[2]

□ عن مغيث قال: «بينما رجل –مِمن كان قبلكم- يسير وحده، إذ تفكر فيما سلف من ذنوبه –وكان يعمل بالمعاصي-، فقال: اللهم غفرانك.. فأدركه الموت على تلك الحال، فغفر له».

□ وعن يوسف بن سعيد بن مسلم قال: «قلت لعلي بن بكار: كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟ قال: لا؛ ولكنه صاحبُ تفكر يجلس ليله يتفكر».

---

(١) «الحلية» (٩/ ٢٧٤).

(٢) «الحلية» (٧/ ٣٠٦).

□ وجاء في بعض الكتب السابقة: «وعلى العاقل أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب».

□ «وقيل لإبراهيم بن أدهم: «إن تطيل الفكرة! فقال: الفكرة مخ العقل».

□ وقال الحسن: «طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة».

□ وقال وهبٌ: «ما طالت فكرة أحد قط إلَّا علم، وما علم امرؤٌ قط إلَّا عمل».

□ وقال أبو سليمان: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية؛ والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلوب».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «التفكر في الخير يدعو إلى العلم به».

□ وقال الحسن: «إن أهل العلم لَم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتَّى نطقت بالحكمة».

□ وقال الشافعي رحمه الله: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة».

□ قال الإمام ابن القيم معلقًا: «وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح».

وأيضًا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد؛ فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له،

وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة، فيشتغل به دون الأول.

فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها -بل بحرها- الذي لا تنفك سابحة فيه، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة»[1].

□ وقال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله.

ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش، ويحرز قيمته، والنجار ينظر إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط!.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر [2]، وإن رأى مؤلمًا ذكر

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٨- ٥٤٠).

(٢) كما ورد عن الإمام الجبل عبد الله بن المبارك أنه كان مع بعض أصحابه يومًا، فانطفأ السراج، فخرج أحدهم ليحضر سراجًا آخر، فلمَّا جيء بالمصباح وجدوا عينيه تذرفان الدموع.. وذلك لأنه تذكر ظلمة القبر.. انظر: مقدمة «الزهد والرقائق» للإمام ابن المبارك (١٥- ط: دار العقيدة)، بتحقيق الشيخ الحبيب أحمد فريد.

العقاب [١]، وإن سمع صوتًا فظيعًا ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا ذكر الموتَى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بها ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.

وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقاء في الجنة، وأن بقاءه لا ينقطع ولا يزال ولا يعتريه منغص، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلبًا في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى يطيش فرحًا، ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه؛ فإن المشتاق إلى الكعبة يهون عليه رمل زرود، والتائق إلى العافية لا يبالِي بمرارة الدواء، ويعلم أن جودة الثمر، ثم على مقدار جودة البذر هاهنا.. فهو يتخير الأجود ويغتنم الزرع في تشرين العمر من غير فتور، ثم يتخيل المؤمن دخول النار والعقوبة، فيتنغص عيشه ويقوى قلقه.. فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها.. فقلبه هائم في بيداء الشوق تارة، وفي صحراء الخوف أخرى، فما يرى البنيان.

فإذا نازله الموت قوي ظنه بالسلامة، ورجا لنفسه النجاة، فيهون عليه.

فإذا نزل إلى القبر وجاءه من يسألونه قال بعضهم لبعض: دعوه، فما استراح إلَّا الساعة.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل، وتمنعنا من اختيار الرذائل؛ فإنَّه إن وفِّق، وإلَّا، فلا نافع» انتهى [٢].

---

(١) كما يحكي عن طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان إذا مر برجل يشوي رؤوس الأغنام كان يغشىٰ عليه ولا يقدر أن يتعشىٰ هذا اليوم.. وما ذاك إلا لأنه تذكر أهل النار حين تشوىٰ رؤوسهم في نار الجحيم عياذًا بالرب الرحيم.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٦٤٤، ٦٤٥) ط. ابن خزيمة.

□ وقال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيءٍ، إلَّا رأيت لله فيه علي نعمة، وليس فيه عبرة».

□ وقال سفيان بن عيينة: «الفكرة نور يدخل القلب».

□ وقال عيسى: «طوبَى لمن كان قِيلُه تذكرًا، وصمته تفكرًا، ونظره عبرًا».

□ وقال لقمان: «إن طول الوحدة ألهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق أبواب الجنة».

□ وقال مغيث بن الأسود: «زوروا القبور تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين، إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها.. وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعًا من بين أصحابه قد ذهب عقله».

□ وقال بعض الحكماء: «من نظر إلى الدنيا بغير العبرة، انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة».

□ وقال غير واحد من الصحابة ﭫ: «إن ضياء الإيمان التفكر».

□ وقال عيسى: «يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكن في الدنيا ضيفًا، واتخذ المسجد بيتًا، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد».

□ وقال الشاعر:

نزهــة المــؤمن الفكــر ... لــذة المــؤمن العــبر
نَحمـــد اللهَ وحـــده ... نَحن كـل عـلى خطـر
رب عيش قد كان فـو ... ق المنَـى مونـق الزهـر

فِي خريـر مـن العيـو ... ن وظـل مـن الـشجر

وسرور مـــن النبـــا ... ت وطيـب مـن الثمـر

غيرتـــــه وأهلـــــه ... وسرعة الـدهر بـالغير

نَحمـــــد اللهَ وحـــــده ... إن في ذا لَمعتـــــبر

إن في ذا لعـــــــبرة ... للبيـــــت إن اعتـــبر [(١)]

□ وعاتبت امرأة صهيب الرومي ﷺ زوجها في كثرة السهر، فقال لها: «إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه» [(٢)].

□ وقال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه علم أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة» [(٣)].

□ وقال بعض الحكماء: «أحي قلبك بالمواعظ، ونوره بالفكر، وموته بالزهد وقوِّه باليقين، وذلاه بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الأيام، واعرض عليك أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسر في ديارهم وآثارهم وانظر ما فعلوا، وأين حلوا، وعم انقلبوا».

□ وقال الشاعر:

يا من يصيخ إلَى داعي الـشقاء وقـد ... نادى بـه الناعيـان: الـشَّيب والكِـبَرُ

إن كنت لا تسمعُ الذكرى ففيم ترى ... فِي رأسك الواعيان: السمعُ والبصرُ؟

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٩٥) ط- أولاد الشيخ.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١١٦).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ٢١٦).

ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ لَم يهـده الهاديـان: العـينُ والأثـرُ

لا الدهرُ يبقى ولا الدنيا ولا الفَلَكُ الـ أعـلى ولا النـيِّران الـشمسُ والقمـرُ

لـيَرحلنَّ عـن الـدنيا وإن كَرِهَـا فراقها الثاويان: البيدُ والحَـضَرُ [(١)]

لله درّ سلفنا الصالح:

✍ لقد اعتنى سلفنا الصالح بعبادة التفكر عناية عظيمة، وخصت بها بعض المؤلفات النفيسة، وكل هذا يدل على معرفة هؤلاء الأفاضل بقيمة هذه العبادة في التعلق بالرب العظيم وحبه والاستقامة على دربه.. ولنأخذ بعض الأقوال والأحوال من سيرتهم العطرة:

□ فها هو الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يُسألُ عن أدلّةِ وجودِ الله تعالَى، فيَستدلُّ على ذلك باختلافِ النَّغماتِ واللُّغاتِ والأصواتِ.

□ والإمامُ أبو حنيفةَ رَحِمَهُ اللَّهُ جاءه بعضُ الزَّنادقة، وسألوه عن دليلٍ يَدُلُّهم على وجودِ الربِّ العظيم.. فقال لَهم: «دعونِي الآن، فإنِّي أُفكِّرُ في أمرٍ مُحيِّرٍ. فقالوا له: وما هو؟ قال: أخبَرونِي أن هناك سفينةً فِي البحر مُحمَّلةً بأنواعِ البضائع، وليس فيها أحدٌ يَحرُسُها ولا يقودُها، وهي مع ذلك تذهبُ وتَجيءُ وتسيرُ بنفسها وتَخترقُ الأمواجَ العظامَ حتَّى تتخلَّصَ منها، ثُم تضعُ بضائعَها بنفسها فِي البلاد.

فقالوا له مُندهِشِين: هذا لا يُمكنُ أن يَحدث، ولا يقولُه عاقلٌ!!.

فقال لَهم: ويْحكم!! فهذه الموجوداتُ بِما فيها من العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما اشتملت عليه من الأشياء المُحكمة، أليس لَها صانعٌ؟!!.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٧٩، ٨٠).

فتابُوا جَميعًا، واسلموا على يديه.

□ والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، سُئل عن دليلٍ على وجود الله تعالَى، فقال: «هذه ورقةُ توتٍ، تأكلُه الدُّودُ فيَخرجُ منها الحرير، وتأكلُه النَّحلُ فيخرجُ منها العسلُ، وتأكلُه الشَّاءُ والبَقرُ والأنعام فيَخرجُ منها البَعرُ والرَّوَثُ، وتأكلُه الظِّباءُ فيَخرجُ منها المِسكُ.. كلُّ هذا والتُّوتُ شيءٌ واحد!!.

□ والإمامُ أحْمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ سُئل عن نفسِ الشيء، فقال: لدينا حِصنٌ حصينٌ أملسُ، ليس له بابٌ ولا مَنفذٌ ظاهر، وهو كالفِضَّةِ بياضًا، وباطنُه منَ الداخل كالذَّهب الخالص.. وبينما هو كذلك إذِ انشقَّ جِدارُه، فخرج منه حيوانٌ سَميعٌ بصيرٌ ذو شكلٍ حسن وصوتٍ مليح.

ويقصدُ الإمامُ بِهذا كلِّه: البَيضةَ والطائر.

□ وسُئل أحدُ الأعراب عن دليلٍ على وجودِ الله تعالَى، فقال: سبحان الله!! سَماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، وبِحارٌ ذاتُ أمواج.. ألَا يدلُّ ذلك على وجودِ اللطيف الخبير؟!!.

إلَى غير ذلك من الأخبار التِي تُبيِّنُ أن أهل الإيْمانِ كانوا يَسلكون فِي دعوتِهم ومناظرة غيرهم مسلك التفكّر في آيات الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

تفكّر يؤدي إلى المعاينة واليقين:

□ عن جعفر بن سليمان قال: سمعت خليفة العبدي يقول: «لو أن الله لم يُعبد إلَّا عن رؤية ما عبده أحد؛ ولكن المؤمنون تفكَّروا في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملأ كل شيءٍ، وغطَّى كل شيءٍ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل؛ وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وفي

(١) انظر «معارج القبول» للشيخ حافظ حكمي (١/ ١٣٥) ط: دار ابن الجوزي.

النجوم، وفي الشتاء، وفي الصيف؛ والله ما زال المؤمنون يتفكَّرون فيما خلق ربهم، حتى أيقنت قلوبهم بربهم؛ وحتى كأنما عبدوا الله تعالى عن روية»[(١)].

□ كان عتبة الغلام يستقبل القبلة فلا يزال في فكرٍ وبكاءٍ حتى يُصبح.

علو همّة سفيان الثوري في التفكُّر:

□ عن يوسف بن أسباط قال: «كان سفيان من شدَّة تفكُّره يبول دمًا»[(٢)].

□ وعن يوسف بن أسباط قال: «قال لي سفيان الثوري -وأنا وهو في المسجد-: يا يوسف، ناولني المطهرة أتوضَّأ؛ فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خدِّه، ونمت؛ فاستيقظت، وقد طلع الفجر، فنظرت إليه، فإذا المطهرة في يده على حالها؛ فقلت: يا أبا عبد الله، قط طلع الفجر؛ قال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكَّرُ في الآخرة إلى هذه الساعة»[(٣)].

□ وعن أبي عاصم بن يزيد قال: «ربما كان سفيان يأخذ في التفكُّر، فينظر إليه الناظر، فيقول: مجنون»[(٤)].

□ عن سلام قال: «أتى الحسن بكوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى؛ وقال: ذكرت أمنية أهل النار وقولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وذكرت ما أُجيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]»[(٥)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٠٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٣).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٥٣).

(٤) «الحلية» (٦/ ٣٩٢).

(٥) المصدر السابق (٦/ ١٨٩).

□ وعن سليمان بن إدريس المقري قال: «اشتهى الحسن بن صالح سمكة، فلما أُتِي بها، ومدَّ يده إلى سُرَّة السمكة، فاضطربت يده، أُمِر به فرُفِع، ولم يأكل منه شيئًا؛ فقيل له في ذلك. فقال: إني ذكرت لما ضربت بيدي: أن أولما ينتن من الإنسان بطنه، فلم أقدر أن أذوقه»[١].

□ وعن عبد الأعلى بن زياد الأسلمي قال: «رأيت داود الطائي، قائمًا على شاطئ الفرات مبهوتًا؛ فقلت: يا أبا سليمان، ما يوقفك هنا؟ قال: أنظر إلى الفلك، كيف تجري في البحر مسخَّرات بأمر الله تعالى»[٢].

□ ومَرَّ الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويبكي، فمرَّ به رجل، فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ قال: «ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء؛ فذلك الذي أبكاني»[٣].

□ وعن الحسن بن صالح قال: «إن لقمان لمّا قال لابنه: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ [لقمان: ١٦]، تفكَّر، فمات»[٤].

□ وقال أبو سليمان الداراني: «رُدَّ سبيل العُجب: بمعرفة النَّفس، وتخلَّصْ إلى إجماع القلب: بقلّة الخطأ، وتعرَّض لرقة القلب: بمجالسة أهل الخوف، واستجلب نور القلب بدوام الحُزْن، والتمس باب الحزن: بدوام الفكرة، والتمس وجوه الفكرة في الخلوات»[٥].

---

(١) «الحلية» (٧/ ٣٢٨).
(٢) «الحلية» (٧/ ٣٥٧).
(٣) «الحلية» (٥/ ٧٨).
(٤) «الحلية» (٧/ ٣٣٠).
(٥) «الحلية» (٩/ ٢٦٦).

□ وعن وهب بن منبه قال: «ألم يفكِّر ابن آدم، ثم يتفهَّم ويعتبر، ثم يبصر، ثم يعقل ويتفقَّه حتى يعلم»[(١)].

□ وقال الإمام الهروي صاحب «منازل السائرين» عن «الفكرة»: «هي تلمُّس البصيرة لاستدراك البغية».

□ وقال ابن القيم معلِّقًا: «أي التماس العقل المطلوب بالتفتيش عليه».

□ قال الهروي: «وهي ثلاثة أنواع: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصَّنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال».

□ قال ابن القيم: «قلتُ: الفكرة فكرتان: فكرة تتعلَّق بالعلم والمعرفةِ، وفكرة تتعلَّق بالطلب والإرادة».

فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي. والتي تتعلَّق بالطلب والإرادة: هي الفكرة التي تُميِّز بين النافع والضار.

ثم يترتَّبُ عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضرّ فيتركها.

فهذه ستة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء.

فالفكرة في التوحيد: استحضار أدلَّته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنيْن، والتوكل على اثنيْن، بل لا تصح العبادة إلَّا للإله الحق، والرب الحق، وهو الله الواحد القهار» اهـ[(٢)].

---

(١) «الحلية» (٤/ ٢٣- ٢٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٤٦) ط. أنصار السُّنَّة.

□ عن ذي النون قال: «لا يتفكَّر القلب لغير الله، إلَّا إذا كان عليه عقوبة»[(١)].

□ وقال: «تُنال المعرفة بالنظر في الأمور كيف دبَّرها؟ وفي المقادير: كيف قدَّرها؟ وفي الخلائق: كيف خلقها؟»[(٢)].

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد صنَّفَ هذه المخلوقات فأحسن التركيب وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب؛ فأيُّ لُبٍّ أوغل في النظر، مُدِح على قدر فهمه.

وكذلك أُنزل القرآن يحتوي على عجائب الحِكَم؛ فمن فَتَّشَهُ بيد الفهم وحادثه في خلوة الفِكْر؛ استجلب رضى المتكلِّمِ به، وحَظِيَ بالزُّلْفَى لديه، ومَن كان ذهنُه مُسْتَغْرِقَ الفهم بالحِسِّيَّات؛ صُرِف عن ذلك المقام».

* قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

أصلُ الخير من قِبَل التفكّر:

«أصلُ الخير والشرِّ مِن قِبَل التفكُّر؛ فإنَّ الفِكْرَ مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والتَّرْك والحُبِّ والبغض، وأنفع الفكر الفكرُ في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها.

ويليها أربعة: فِكْرٌ في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها.

فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٣).

(٢) المصدر السابق.

□ ورأس القسم الأوّل الفِكْرُ في آلاءِ الله ونعَمه وأمره ونهيه، وطُرقِ العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابِهِ وسُنَّةِ نبيِّه وما والاهما.

وهذا الفكْر يُثمِرُ لصاحبه المحبَّة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخِسَّتها وفنائها: أثمر له ذلك الرَّغْبَةَ في الآخرة والزهدَ في الدنيا، وكُلَّما فكَّر في قِصَر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجدَّ والاجتهاد وبَذْلَ الوُسْعِ في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكارُ تُعْلِي هِمَّتَه وتُحْييها بعد مَوْتها وسُفولِها، وتجعلُه في وادٍ والناسَ في وادٍ» [(١)].

فيا نفسُ:

«الخلوة الخَلْوة! واستحضري قرين العقل، وجُولي في حَيْرةِ الفِكْرِ، واستدركي صُبَابَة [(٢)] الأجلِ، قبل أن تميل بك الصَّبَابة عن الصواب» [(٣)].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرَّبُّ تعالى يدعو عبادَه في القرآنِ إلى معرفتِهِ من طريقين:

أَحدهما: النَّظَرُ في مفعولاتِهِ [(٤)].

والثاني: التفكُّرُ في آياتِهِ وتدُّبرُها، فتلكَ آياتُه المشهودةُ، وهذِهِ آياتُه المسموعةُ المعقولةُ.

---

(١) «الفوائد» لابن قيم الجوزية، وانظر «فوائد الفوائد» (ص٣٤٨- ٣٤٩).

(٢) صُبابة الأجل: البقيّة الباقية من العمر. والصَّبابة:الأهواء.

(٣) «صيد الخاطر» (ص٣٤١- ٣٤٢).

(٤) أي: ما هو مَفعولٌ له سبحانَه وتعالىٰ؛ من أَصناف المخلوقات، وأَنواع الموجودات.

فالنوعُ الأوَّلُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

وهو كثيرٌ في القرآنِ.

والثاني: كقولِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقولِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وهو كثيرٌ أيضًا.

فأَمَّا المفعولاتُ؛ فإِنَّها دالةٌ على الأفعالِ، والأَفعالُ دالَّةٌ على الصفاتِ؛ فإِنَّ المفعولَ يدلُّ على فاعلِ فعلِهِ، وذلكَ يستلزمُ وجودَه وقدرتَه ومشيئتَه وعلمَه؛ لاستحالةِ صُدورِ الفعلِ الاختياري [١] من معدومٍ أو موجودٍ لا قدرةَ له ولا حياةَ ولا علمَ ولا إِرادةَ.

ثمَّ ما في المفعولاتِ من التخصيصاتِ المتنوِّعةِ: دالٌّ على إِرادةِ الفاعلِ، وأَنَّ فعلَه ليسَ بالطَّبعِ؛ بحيثُ يكونُ واحدًا غيرَ متكرِّرٍ.

وما فيها من المصالحِ والحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ: دالٌّ على حكمتِهِ تعالى.

وما فيها من النَّفعِ والإِحسانِ والخيرِ: دالٌّ على رحمتِهِ.

---

(١) الذي يفعلُه متى شاءَ كيفَ شاءَ.

وما فيها من البطشِ والانتقامِ والعقوبةِ: دالٌّ على غضبِهِ.

وما فيها من الإكرامِ والتقريبِ والعنايةِ: دالٌّ على محبتِهِ.

وما فيها من الإهانةِ والإبعادِ والخِذلانِ: دالٌّ على بُغضِهِ ومَقْتِهِ.

وما فيها من ابتداءِ الشيءِ في غايةِ النَّقصِ والضَّعْفِ: ثمَّ سَوْقِه إلى تمامِهِ ونهايتِهِ دالٌّ على وقوعِ المعادِ.

وما فيها من أَحوالِ النَّباتِ والحيوانِ وتَصْريفِ المياهِ: دليلٌ على إِمكانِ المعادِ.

وما فيها من ظُهورِ آثارِ الرَّحمةِ والنعمةِ على خلقِهِ: دليلٌ على صحّةِ النبوّاتِ.

وما فيها من الكمالاتِ التي لو عُدِمَتْها كانت ناقصةً: دليلٌ على أَنَّ مُعطِيَ تلكَ الكمالاتِ أَحقُّ بها.

.. فمفعولاتُهُ من أَدلِّ شيءٍ على صفاتِهِ، وصدقِ ما أَخبرتْ به رُسلُهُ عنه.

فالمصنوعاتُ شاهدةٌ تُصَدِّقُ الآياتِ المسموعاتِ، مُنبِّهةٌ على الاستدلالِ بالآياتِ المصنوعاتِ:

* قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، أَي: أَنَّ القرآنَ حقٌّ، فأَخبرَ أَنَّه لا بدَّ أَنْ يُريَهم من آياتِهِ المشهودةِ ما يُبيِّنُ لهم أَنَّ آياتِهِ المتلوّةَ حقٌّ.

ثمَّ أَخبرَ بكفايةِ شهادتِهِ على صحّةِ خبرِهِ؛ بما أَقامَ من الدّلائلِ والبراهينِ على صدقِ رسولِهِ.

فآياتُهُ شاهدةٌ بصدقِهِ، وهو شاهدٌ بصدقِ رسولِهِ بآياتِهِ، فهو الشاهدُ

والمشهودُ له، وهو الدَّليلُ والمدلولُ عليه، فهو الدَّليلُ بنفسِهِ، كما قالَ بعضُ العارفين: كيفَ أَطلبُ الدَّليلَ على مَنْ هو دليلٌ لي على كلِّ شيءٍ؟ فأَيُّ دليلٍ طلبتُهُ عليه فوجودُهُ أَظهرُ منه!!

ولهذا قالَ الرُّسلُ لقومِهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فهو أَعرفُ من كلِّ معروفٍ، وأَبْيَنُ من كلِّ دليلٍ، فالأَشياءُ عُرِفتْ به في الحقيقةِ، وإِنْ كانَ عُرِفَ بها في النَّظرِ والاستدلالِ بأَفعالِهِ وأَحكامِهِ عليه»[1].

□ وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «معرفةُ الله سبحانَه نوعانِ:

الأولُ: معرفةُ إقرارٍ، وهي التي اشتركَ فيها الناسُ؛ البَرُّ والفاجرُ، والمطيعُ والعاصي.

والثاني: معرفةٌ توجِبُ الحياءَ منه والمحبةَ له وتعلُّقَ القلبِ به والشوقَ إلى لقائِهِ وخشيتَهُ والإنابةَ إليه والأنسَ به والفرارَ من الخلقِ إليه، وهذه هي المعرفةُ الخاصةُ الجاريةُ على لسانِ القوم، وتفاوتُهم فيها لا يُحصيهِ إلَّا الذي عرَّفَهم بنفسِهِ وكَشَفَ لقلوبِهِم من معرفتِهِ ما أخفاهُ عن سِواهم، وكلٌّ أشارَ إلى هذه المعرفةِ بحَسَبِ مقامِهِ وما كُشفَ له منها، وقد قالَ أعرفُ الخلقِ به: «**لا أُحْصِي ثَناءً عليكَ أنتَ كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ**»[2]، وأخبرَ أَنَّه سبحانَه يفتحُ عليه يومَ القيامةِ من محامِدِهِ بما لا يُحْسِنُهُ الآنَ.

---

(١) «فوائد الفوائد» (٢٧- ٢٩).

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم (٤- كتاب الصلاة، ٤٢- باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

□ ولهذه المعرفةِ بابانِ واسعانِ:

البابُ الأولُ: التفكُّرُ والتأمُّلُ في آياتِ القرآنِ كلِّها، والفَهْمُ الخاصُّ عن الله ورسولِهِ ﷺ.

البابُ الثاني: التفكُّرُ في آياتِهِ المشهودةِ، وتأمُّلُ حكمتِهِ فيها وقدرتِهِ ولطفِهِ وإحسانِهِ وعدلِهِ وقيامِهِ بالقِسْطِ على خَلْقِهِ.

وجُمَّاعُ ذلك: الفقهُ في معاني أسمائِهِ الحسنى وجلالِها وكمالِها وتفرُّدِهِ بذلك وتعلُّقِها بالخَلْقِ والأمرِ؛ فيكونُ فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائِهِ وقدرِهِ، فقيهًا في أسمائِهِ وصفاتِهِ، فقيهًا في الحُكْمِ الدينيِّ الشرعيِّ والحكم الكونيِّ القَدَريِّ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]»[1].

□ وقال مُغيثُ الأسوَدُ: «زُورُوا القُبُورَ كُلَّ يوم تُفكِّركم، وشَاهِدوا الموقِفَ بقُلوبِكُمْ، وانظروا إلى المنصرَفِ بالفريقَيْنِ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ، وأَشعِرُوا قُلُوبَكُمْ وأَبْدَانَكُمْ ذِكْرَ النَّارِ وَمَقَامِعَهَا وأطْبَاقِهَا، وكان يَبْكِي عندَ ذلك حَتَّى يُرْفَعَ صريعًا من بين أصحابِهِ قد ذهب عَقْلَهُ»[2].

□ وقالَ أَبو سُليمانَ: «الفِكْرُ في الدُّنيا حِجَابٌ عن الآخرةِ والفكْرُ في الآخرةَ يُورِثُ الحكمةَ ويُحيِي القلوبَ»[3].

□ وعن امرأةٍ كانت تَسكنُ البادية قريبًا من مكَّةَ أنها قالت: «لو تَطلَّعَتْ قُلوبُ المتَّقين بِفكرِها إلى ما قَدِ ادُّخِرَ لها في حُجبِ الغيبِ من خيرٍ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٣٧٨- ٣٧٩).

(٢) «الإحياء» (٤/ ٤٢٥).

(٣) «الإحياء» (٤/ ٤٢٤).

الآخرةِ لم يَصْفُ لهُم في الدُّنيا عيشٌ ولم تقرَّ لهم في الدُّنيا عينٌ»[١].

□ وقال العلامةُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنْفَعُ الدواءِ أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيكَ دون ما لا يعنيكَ، فالفِكرُ فيما لا يَعني بابُ كُلِّ شَرٍّ، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفعِ الأشياءِ له بما لا منفعةَ له فيه، فالفِكْرُ والخواطرُ والإرادةُ والهمَّةُ أحقُّ شيءٍ بإصلاحِه من نفسك؛ فَإِنَّ هذه خَاصَّتُكَ وحقيقتُكَ التي لا تَبتَعِدُ أو تقتربُ من إلهك ومعبودِكَ الذي لا سَعادة لك إلَّا في قُرْبِهِ وَرِضَاهُ عنك إلَّا بها، وكُلُّ الشَّقَاءِ في بُعدِكَ عنْهُ وسُخْطِهِ عليك، ومن كان في خَوَاطِرِهِ ومَجالاتِ فِكرِه دَنِيئًا خَسِيسًا لم يكن في سَائِرِ أمرِهِ إلَّا كذلك»[٢].

□ أَنْشَدَ بَعْضُ الأُدَباءِ:

إنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا ... فتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى

فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَعَالَمِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا تَفْنَى

وَبَلَوْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا فَإِذَا ... كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ يَسْعَى

أَسْنَى مَنَازِلِهَا وَأَرْفَعُهَا ... فِي الْعِزِّ أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَهْوَى

تَعْفُو مَسَاوِيهَا مَحَاسِنَهَا ... لا فَرْقَ بَيْنَ النَّعْيِ والبُشْرَى

ونختم بهذه الأحاديث العظيمة لسيد الأنام ﷺ:

• عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قالَ: بِتُّ عند خَالتي مَيمُونَةَ فتحدَّث رسولُ الله ﷺ مَع أهْلِهِ ساعةً ثم رَقدَ، فلمَّا كان ثُلثُ الليلِ الآخرِ قعَدَ فنظر إلى

(١) نفس المصدر (٤/ ٤٢٤).

(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص٨٦).

السماءِ فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران]، ثمَّ قامَ فتوضَّأَ واستَنَّ[١] فصلَّى إحْدَى عشرةَ ركعةً ثم أذَّنَ بلالٌ فصلَّى ركعتين ثم خرج فصلَّى الصُّبْحَ»[٢].

• عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليْتُ مع النبي ﷺ ذاتَ ليلةٍ. فافتتحَ البقرة. فقُلتُ[٣]: يركَعُ عِنْدَ المئةِ، ثم مَضَى. فقلتُ: يُصلِّي بها في ركعةٍ. فمضى. فقلتُ: يَركعُ بها. ثُمَّ افتتَحَ النساءَ فقرأها. ثم افتتَحَ آل عمرانَ فقَرَأَها. يقرأُ مُتَرَسِّلًا. إذا مرَّ بآيةٍ فيها تَسبيحٌ سَبَّحَ. وإذا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ. وإذا مَرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ. ثم ركَعَ فَجعَلَ يقولُ: «**سُبحانَ ربِّيَ العظيم**»، فكان ركوعُهُ نحوًا من قيامِهِ ثم قال: «**سَمِعَ الله لمن حمِدَهُ**»، ثم قام طَويلًا قريبًا مما رَكَعَ. ثمَّ سَجَدَ فقال: «**سُبْحَانَ ربِّيَ الأعلَى**» فكان سُجُودُهُ قريبًا من قيامِه».

قال وفي حديثِ جَريرٍ من الزِّيادَةِ: فقال: «**سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ. ربَّنا لك الحمدُ**»[٤].

• عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**اقرأْ عليَّ القُرآنَ**» قال: فقلتُ: يا رسولَ الله،أَقرَأُ عليك وعليك أُنزِلَ؟ قال: «**إنِّي أَشْتَهِي أن أسمَعَهُ من غيْرِي**». فقرأْتُ النساءَ حتَّى إذا بَلَغْتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] رَفعتُ رأسِي أو غَمَزَنِي رَجُلٌ إلى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأسِي فَرأيت دُمُوعة

(١) اسْتَنَّ: أي استعمل السواك.

(٢) البخاري «الفتح» (٤٥٦٩)، ومسلم (٧٦٣).

(٣) فقلت: أي في نفسي، يعني ظننت أنه يركع عند مئة آية.

(٤) مسلم (٧٧٢).

تَسِيلُ»(١).

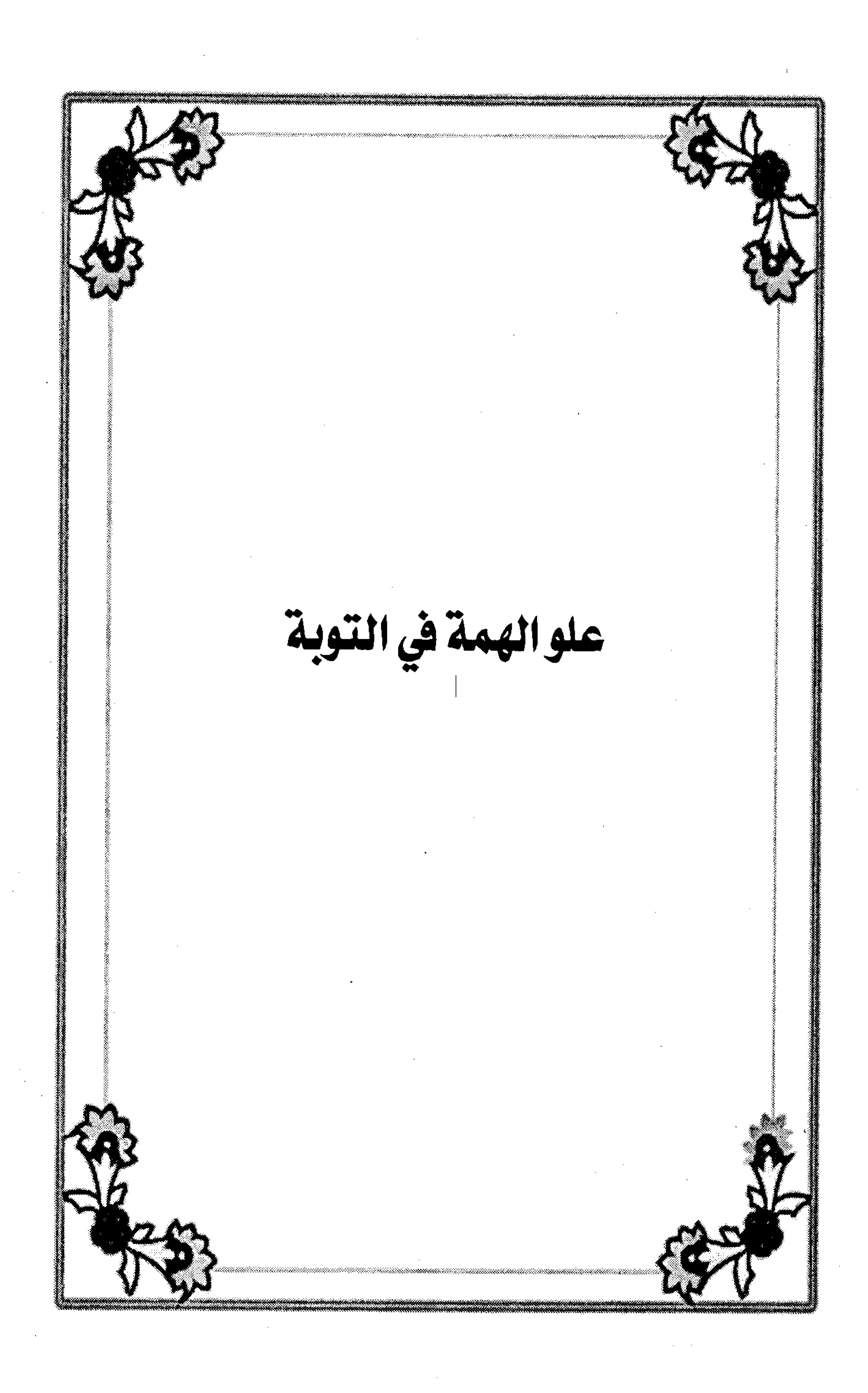
النبيِّ ﷺ أنَّهَا قالت للنبيِّ ﷺ: هلْ أَتَى عليكَ يومٌ كان أَشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ قال: «لقدْ لَقِيتُ من قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وكان أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يومَ العَقَبَة، إذ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابن عبد ياليل بن عبدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْني إلى ما أَرَدْتُ، فانطلقتُ وأَنَا مَهْمُومٌ على وَجْهِي، فلم أَستَفِقْ إلَّا وأنا بِقَرْنِ الثعَالِبِ(٢) فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا أَنا بَسَحابةٍ قد أظَلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبرِيلُ، فنَادَاني، فقال: إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَومكَ لك وما رَدُّوا عليك وقَدْ بعثَ اللهُ إليكَ مَلكَ الجبالِ لتأمُرَهُ بما شئْتَ فيهم. فنَادَاني مَلَكُ الجبَالِ فسَلَّمَ عليَّ ثمَّ قال: يا مُحَمَّدُ فقال: ذلك فيما شئت، إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الأَخشبينِ»(٣) فقال النبيُّ ﷺ: «بلْ أَرْجُو أن يُخرِجَ اللهُ من أَصلابِهِم من يَعْبُدُ اللهَ لا يُشرِكُ به شيئًا»(٤).

(١) البخاري «الفتح» (٨/ ٤٥٨٢)، مسلم (٨٠٠) واللفظ له.

(٢) قرن الثعالب: مكان قريب من مكة.

(٣) الأخشبين: جبلان بمكة. قال ابن الأثير: الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة، وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان (موضع بمكة أيضًا) والأخشب كل جبل خشن غليظ الحجارة «النهاية» (٢/ ٣٢).

(٤) البخاري «الفتح» (٦/ ٣٢٣١) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٥).



علو الهمة في التوبة

علو الهمة في التوبة

اعلم -يا أسير الخطايا والذنوب، يا مَن لو كانت لذنوبه رائحةٌ، لضجَّت من رائحته المشام لُخبث آثامه والعيوب-، أن مَنزل التوبة ومقامَها أولُ منازل السالكين إلى الله وآخرُها، لا يفارقُه العبدُ السالكُ ولا يزالُ فيه إلى المات. وإنِ ارتحل إلى منزلٍ آخرَ ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبةُ هي بداية العبد ونهايته.

فأُفٍّ للذنوب! ما أقبح آثارَها! وما أسوأ أخبارها.

«سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلَّا إقامةُ المروءة، وصَوْن العِرْض، وحفظُ الجاه، وصيانة المال -الذي جعله الله قِوَامًا لمصالح الدنيا والآخرة-، ومحبَّة الخلْق، وصلاحُ المعاش، وراحة البدن، وقوَّةُ القلب، وطِيبُ النَّفْس، ونعيمُ القلب وانشراحُ الصدر، والأمنُ من مخاوف الفُسَّاق والفجَّار، وقلَّةُ الهمِّ والغمِّ والحُزن، وعِزُّ النفس عن احتمال الذُّلِّ، وصونُ نور القلب أن تُطفئَه ظلمةُ المعصية، وحصولُ المخرج له ممَّا ضاق على الفُسَّاق والفجَّار، وتيسيرُ الرزق من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الذنوب والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه وتيسيرُ العِلم، والثناءُ الحسن في الناس، وكثرةُ الدعاء له، والحلاوةُ التي يكتسبُها وجهُه، والمهابةُ التي تُلْقَى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميَّتُهم له إذا أُوذي وظُلِمَ، وذبُّهم عن عرْضِه إذا اغتابه مغتابٌ، وسرعةُ إجابة دعائِه، وزوالُ الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرْب الملائكة منه، وبُعْدُ شياطين الإنس والجنِّ منه، وتنافُسُ الناس على خدمتِهِ وقضاءِ حوائجه، وخِطبتُهم لمودَّتِه وصحبته، وعدمُ خوفه من الموت، بل

يفرحُ به لقدومه على ربِّه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا من قلبه، وكِبر الآخرة عنده، وحرصُه على المُلك الكبير والفوزِ العظيم فيها، وذوقُ حلاوة الطاعة، ووَجْدُ حلاوة الإيمان، ودعاءُ حملة العرش ومَن حوله من الملائكةَ له، وفرَحُ الكاتبينْ به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحِه بتوبته، وهذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعضُ آثار ترك المعاصي في الدنيا.

فإذا مات تلقَّتْه الملائكةُ بالبشرى من ربِّه بالجنة، وبأنه لا خوفٌ عليه ولا حَزَن، وينتقلُ من سجن الدنيا وضيقِها إلى روضةٍ من رياض الجنة، ينعَمُ فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يومُ القيامة كان الناسُ في الحرِّ والعَرَقِ، وهو في ظلِّ العرش، فإذا انصرفوا من بين يدَي الله أُخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة]»[1].

(١)«الفوائد» لابن قيم الجوزية.

فضل التوبة

(١) مقامُ التوبة مقامٌ رفيع، فهو أولُ الأمر وآخرُه، والدينُ كلُّه داخلٌ في مسمَّاها:

* «التوبةُ هي بداية العبد ونهايته. وحاجتُه إليها في النهاية ضروريَّة. كما أن حاجتَه إليها في البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور]، وهذه الآيةُ في سورةٍ مدنيَّة، خاطَب اللهُ بها أهلَ الإيمان وخِيارَ خلقِه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم»[1].

* وقال تبارك وتعالى في وصف التائبين ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

فحفظُ حدود الله جزءٌ من التوبة، والتوبةُ هي مجموع هذه الأمور.

فالتوبةُ هي حقيقة دينِ الإسلام، والدينُ كلُّه داخلٌ في مسمَّى «التوبة»، وبهذا استحق التائبُ أن يكون حبيبَ الله، فإن الله يحبُّ التوَّابين ويحب المتطهِّرين. وإنما يحبُّ اللهُ مَن فعل ما أمر به، وترَك ما نهى عنه، فإذاً «التوبة» هي الرجوعُ مما يكرهه اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.

ويدخل في مسمَّاها «الإسلام، والإيمان، والإحسان». وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غايةَ كل مؤمن، وبدايةَ الأمر وخاتمته، وهي الغاية

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨).

التي وُجِد لأجلها الخَلْق. والأمر والتوحيد جزءٌ منها. بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها».

* قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

«وأكثرُ الناس لا يعرفون قدْرَ «التوبة» ولا حقيقتَها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا. ولم يجعل اللهُ تعالى محبته للتوَّابين إلا وهم خواصُّ الخلق لديه.

ولولا أنَّ «التوبة» اسمٌ جامع لشرائع الإسلام وحقائقِ الإيمان، لم يكن الربُّ تعالى يفرحُ بتوبة عبده ذلك الفرحَ العظيم. فجميعُ ما يتكلم فيه الناسُ من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها»(١).

(٢) التوبة ومغفرة الذنوب صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ:

مغفرةُ الذنوب هي الرحمة والفضل من الله، وهي صفةٌ من صفاته، والغفورُ، والرحيم، والرحمن، وقابلُ التوب: من أسمائه.

* قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر].

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج].

* وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦- ٣٠٧).

* وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر].

* وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم].

* وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر].

«إن أسماءه الحسنى تقتضي آثارَها اقتضاءَ الأسباب لمسبباتها، فاسمُ «الرحيم» يقتضي مرحومًا. وكذلك أسماء «الغفور، والعفوِّ، والتواب، والحليم» يقتضي مَن يغفرُ له، ويتوبُ عليه، ويعفو عنه، ويحلُم. ويستحيلُ تعطيلُ هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماءٌ حسنى وصفاتُ كمال، ونعوتُ جلال، وأفعالُ حكمةٍ وإحسانٍ وجود، فلابد من ظهور آثارها في العالَم، وقد أشار إلى هذا أعلمُ الخلق بالله صلوات والله وسلامه عليه، حيث يقول: «**لو لم تُذنبوا، لَذهب اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم**».

وأنت إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدومًا، فمَن يرزقُ الرزاقُ سبحانه؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفيةً من العالَم، فلمنْ يغفر؟ وعمَّن يعفو، وعلى من يتوبُ ويحلُم؟ وإذا فرضتَ الفاقاتِ كلَّها قد سُدَّتْ، والعبيدَ أغنياءَ معافَون، فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابةُ وشهود الفضل والمنة، والتخصيصُ بالإنعام والإكرام؟.

فسبحانَ مَن تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرُّفات، ودلَّهم عليه

بأنواع الدلالات، وفَتح لهم إليه جميعَ الطرقات، ثم نَصب إليه الصراط المستقيم، وعرَّفهم به ودلَّهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

إن الله ﷻ إنما خلَّى العبدَ والذنب؛ ليعرفَ عزَّته في قضائه، وبِرَّه في ستره، وحِلمَه في إمهال راكبه، وكرمَه في قبول العذر منه، وفضلَه في مغفرته، فيُحدِثُ له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمِه وكرمه، وتُوجِبُ له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصلُ بدون لوازمها ألبتة. ويعلمُ ارتباطَ الخلق والأمر، والجزاءِ والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجَبُ الأسماء والصفات، وأثرُها في الوجود، وأن كل اسمٍ وصفة مقتضٍ لأثره وموجبه، متعلقٌ به لا بد منه.

وهذا المشهدُ يُطلِعُه على رياضٍ مُونِقةٍ من المعارف والإيمان، وأسرارِ القدَر والحكمة، يَضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكَلِم»[(١)].

إن للذنب كسرةً خاصةً تحصلُ للقلب، لا يشبهُها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصلُ بجوعٍ ولا رياضة، ولا حبٍّ مجرد، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كله، تَكسِرُ القلب بين يدي الرب كسرةً تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقتْه بين يديْ ربِّه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيِّده، فأُخذ، فأُحضِر بين يديه، ولم يجدْ مَن يُنجيه من سَوطه، ولم يجدْ منه بدًّا، ولا عنه غَناءً، ولا منه مهربًا، وعلِم أن حياته وسعادتَه وفلاحَه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علِم إحاطةَ سيِّده بتفاصيل جناياته.. هذا مع

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٦).

حبِّه لسيده، وشدَّة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيِّده، وذلِّه وعزَّة سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرةٌ وذلَّةٌ وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكَسرة والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

□ فلله ما أحلى قولَه في هذا الحال: «أسألك بعزِّك وذلِّي إلَّا رحمتني. أسألك بقوَّتك وضعفي، وبغناك عنِّي وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبةُ الخاطئةُ بين يديك، عبيدُك سواي كثير، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأً ولا منجى منك إلَّا إليك، أسألُك مسألةَ المسكين، وأبتهلُ إليك ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضرير، سؤالَ مَنْ خضعت لك رقبتُه، ورَغِم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبُه».

يا من ألوذُ به فيما أُؤمِّلُهُ ... ومَنْ أعوذُ به مما أحاذرهُ
لا يجبرُ الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يَهِيضون عظمًا أنت جابِرُهُ [(١)]

(٣) كتب اللهُ كتاب الرحمة بيده، ليدلَّ على عِظَم المغفرة:

إن اللهَ خلق الكائناتِ بـ«كن» فيكون، إلَّا أشياءَ؛ لشرفها وكرامتها على الله، خلقها بيده، فخلق آدمَ بيده، وخلق جنةَ عدْنٍ بيده، وكتب التوراة لموسى بيده، وكتب كتاب الرحمة بيده.. فما أعظمَ كرمَ الرحمن!.

• قال رسولُ الله ﷺ: «كَتب ربُّكم على نفسه بيده ـ قبل أن يخلق

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦ - ١٨٧).

الخلق ـ: رحمتي سبقت غضبي»[(١)].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ، كتب في كتابه ـ فهو عنده فوقَ العرش ـ: إن رحمتي غلبت غضبي»[(٢)].

* والمغفرة رحمة: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران].

دعوةُ الله إلى المغفرة:

دعا الله إلى الجنة.. ودعا إلى المغفرة.. فيا لِعظم المغفرة حين يساوي اللهُ بين الدعوة إلى الجنة والدعوة إليها.. وهي المقدمةُ للجنة.. سارعوا.. سابقوا.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٩) عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٧٥).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٦٦) والبخاري (٣٠٢٢) ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة.

مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران].

أفق وضيء أفق المغفرة.. وغاية تستحق السباق.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾:

لقد دعاكم إلى البِدار مولاكم، وفتح بابَ الإجابة ثم استدعاكم، ودلَّكم على منافعكم وهَداكم، فالتفتوا عن الهوى فقد آذاكم، وحُثُّوا حَزْمَ جَزْمكم، وصُبُّوا ذَنوب الحُزن على ذنبكم، ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

بابُه مفتوحٌ للطالبين، جنابُه مبذولٌ للراغبين؛ وفضلُه ينادي: يا غافلين، وإحسانُه ينادي الجاهلين، فاخرُجوا من دائرة المذنبين، وبادِروا مبادرةَ التائبين، وتعرَّضوا لنسمات الرحمة تخلُصوا من كرْبكمْ، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

كم شُغلتم بالمعاصي فذهب الفرْض، وبارزتم بالخطايا ونسيتمُ العرْض، حضَّكم فما نفع الحضّ، طالت آمالُكم قد ذهب الشبابُ الغضّ، رأيتم موتَ القُرناء وقد أُنذر البعضُ بالبعض، ففرُّوا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طوله والعرض، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر].

إنها الرحمةُ الواسعةُ التي تسعُ كل معصية -خلا الشرك- كائنةً ما كانت، وإنها الدعوةُ للأوْبة. دعوةُ العصاة المسرفين الشاردين المبعَدين في تيه الضلال. دعوتُهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده.

ليس بين العبد وقد أسرف في المعصية، ولَجَّ في الذنب، وأبَقَ عن الحِمى، وشَرَد عن الطريق، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخيَّة، وظلالها السمْحة المحيية، ليس بينه وبين هذا كله إلَّا التوبة، التوبةُ وحدها، الأوبةُ إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بوَّابٌ يمنع، والذي لا يحتاجُ من يلج فيه إلى استئذان.

* قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر].

الإنابةُ والإسلام، والعودةُ إلى أفياءِ الطاعة وظلال الاستسلام.. هذا هو كلُّ شيء.. بلا طقوسٍ ولا مراسم ولا حواجز، ولا وسطاءَ ولا شفعاء. مَن أراد الأوْبة من الشاردين فلْيَؤب، ومَن أراد الإنابةَ من الضالين فليُنب، ومن أراد الاستسلام من العصاة فلْيستسلم وليأت.. ليأتِ وليدخل، فالبابُ مفتوح، والفَيْء والظل والنَّدى والرخاء: كلُّه وراء الباب، لا حاجبَ دونه ولا حسيب! هيا هيا يا ابن النُّطف: ابسط بساطَ الحزن على رَماد الأسف، هيا والزمْ سُدَّة باب مولاك، واقرعْ بابه بقلبِك لا بظفرك؛ فإن أبوابَ الملوك لا تُقرع بالأظافير. نادِ بوجيب قلبك،

وواكِف دمْعِك: قد قدِم الغائب.

* قمْ في الدجى بلسان الذُّل وقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨].

هيا.. هيا قبل فوات الأوان ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزمر] فما هنالك من نصير. هيا فإن النَّفس قد يخرج ولا يعود، وإن العينَ قد تطرِف ولا تطرفُ الأخرى إلّا بين يدي مولاها. هيا قبل التحسُّر على فوات الفرصة، وعلى التفريط في حق الله، وعلى السخرية بوعيد الله: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر].

الفرصةُ ها هي ذي سانحة، ووسائلُ الهُدى ما تزال حاضرة، وبابُ التوبة ها هو ذا مفتوح.

أبوابُ العباد مغلقة.. وبابُه مفتوح لمن دعاه.

* فإذا كانت القيامة ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر].

وهي أمنيةٌ في القيامة لا تُنال.. لا كَرَّةَ ولا رجوع.. وإنما دماءُ العين بعد الدموع.

«إن أهل النار لَيبكُون، حتى لو أُجريت السفنُ في دموعهم جرت، وإنهم لَيبكون الدم»[1].

فما لك منها غيرُ ذكرى وحسرةٍ وتسألُ عن ركبانها أين يمَّموا

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٤/٦٤٨) عن أبي موسى، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٣٢).

* هي فرصة واحدة، إذا انقضت لا تعود.. ستُسألون عنها مع التبكيت والترذيل: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر].

أخي: إن الذنوب لا ترعى حُرمة لذي فضل.

• عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسوَّدَتْه خطايا بني آدم**»[(١)].

يا هذا، سوَّدتِ الخطايا الحجر وهو من الجنة، وأنت من التراب ومن الأرض، فانظر لنفسك، سوَّدته وهو صلْد، أفلا تنكس القلب إذا عصى وأصرَّ وهو من لحمٍ ودم!!.

* أما سمعت في بداية الزلل ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ﴾ [الأعراف]، وفي وسطه ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، وفي آخره ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

أتبكي على معاصيك، والإصرار يضحك؟ أتخادع بالتوبة؟ وإنما تمكر بدينك..

---

(١) صحيح: قال ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٥٤٠): «أخرجه الترمذي، وصححه، وفيه عطاء بن السائب وهو صدوق، لكن اختلط، وجرير ممن سمع منه بعد اختلاطه لكن له طرق أخرىٰ في «صحيح ابن خزيمة» فيقوىٰ بها». وصححه السيوطي، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٣٢)، و«تخريج المشكاة» رقم (٢٥٧٧).

رأيــت النــاس خــدَّاعًا إلى جانــــب خـــدَّاعِ
يعيــشون مــع الــذئبِ ويبكــون مــع الراعــي

□ قال محمد بن يحيى الذهلي -وهو من هو علمًا واتِّباعًا وصيانة وديانةً ورأسًا في الجرح والتعديل-: «تقدَّم رجلٌ إلى عالم، فقال: علِّمْني وأوجز، قال: لأُوجزَنَّ لك، إن الله أوحى إلى نبيٍّ من أنبيائه: قلْ لقومك: لو كانت المعصية في بيت من بيوت الجنة لأوصلتْ إليه الخراب»[1].

✍ انظر يا أخي إلى آيةٍ شريفة وأشرف حديث لأهل الشام.

آياتُ «الزُّمَر» التي مرَّت تغسل مرارات المعاصي، وتشهدُ لأطلاق المغفرة بأمور:

الأول: نداؤهم بعنوان العبودية، فإنها تقتضي المذلَّة، واقتضاؤها للترحُّم ظاهر.

الثاني: الاختصاصُ الذي تُشِعر به الإضافةُ إلى جَنابه تقريبًا من بابه، فإن السيد من شأنه أن يرحمَ عبده ويشفق عليه.

الثالث: تخصيصُ ضررِ الإسراف المشعرة به «على أنفسهم».. فضرر الذنوب عائد عليهم لا عليه سبحانه، فيكفي ذلك من غير ضرر آخر، كما في المثل: أحسِنْ إلى مَن أساء، كفى المسيءَ إساءتُه. فاستحقاقُ العقاب عقابٌ عند ذوي الألباب، فلو ضمِن اللهُ لهم التوبة، كفاهم همَّ الحياءِ منه.

الرابع: النهي عن القنوط مطلقًا عن الرحمة، فضلًا عن المغفرة وإطلاقها.

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٨١- ٢٨٢).

الخامس: إضافةُ «الرحمة» إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات، فإن ذلك ظاهرٌ في سعتها، وهو ظاهرٌ في شمولها للتائب وغيره.

السادس: التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، فإن التعليل يحسُن مع الاستبعاد، وترْك القنوط من الرحمة مع عدم التوبة، أكثر استبعادًا من تركه مع التوبة.

السابع: موضعُ الاسم الجليل فيه موضعُ الضمير، لإشعارِه بأن المغفرة من مقتضياتِ ذاته -لا لشيءٍ آخر من توبةٍ أو غيرها-.

الثامن: تعريفُ «الذنوب»، فإنه في مقام التمدح ظاهرٌ في الاستغراق، فتشملُ الذنب الذي تعقبُه التوبة والذي لا تعقبُه.

التاسع: التأكيد بالجميع.

العاشر: التعليل.

الحادي عشر: التعبير بـ «الغفور»؛ فإنه صيغةُ مبالغة، وهي إن كانت باعتبار «الكمِّ» شملت المغفرةُ جميع الذنوب، أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبةٍ.

الثاني عشر: حذف معمول «الغفور» فإن حذف المعمولِ يُفيد العموم.

الثالث عشر: إفادةُ الجملةِ الحصر، فإن من المعلوم أن الغفران قد يوصَف به غيرُه تعالى، فالمحصورُ فيه سبحانه، إنما هو الكامل العظيم، وهو ما يكون بلا توبة.

الرابع عشر: المبالغة في ذلك الحصر.

الخامس عشر: الوعدُ بالرحمة بعد المغفرة، فإنه مشعرٌ بأن العبدَ غيرُ

مستحقٌّ للمغفرة لولا رحمته، وهو ظاهرٌ فيما إذا لم يتُب.

السادس عشر: التعبير بصيغة المبالغة فيها.

السابع عشر: إطلاقها، ومَنَعَ المعتزلة مغفرة الكبائر والعفو عنها من غير توبة.

□ وقال بعض أجلَّة المُدقِّقين: إن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾، خطاب للكافرين والعاصين، وإن كان المقصود الأوْلى الكفار، لمكان القُرب وسبب النزول، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: إن أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ ﷺ أنه من عَبَدَ الأوثان ودعا مع الله إلهًا آخر، وقتل النفس التي حرَّم الله، لم يُغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس، ونحن أهل شرك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

□ وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعةَ والوليدِ بن الوليد، ونفرٍ من المسلمين كانوا أسلموا ثم تركوا دينهم بعذابٍ عُذِّبوه، فنزلت هؤلاء الآيات، وكان عمر رضي الله عنه كتابًا، فكتبها بيده، ثم كتب بها إلى عياش وإلى الوليد وإلى أولئك النفر، فأسلموا وهاجروا.

□ وأخرج ابن جرير عن عطاءِ بن يسار، قال: «نزلت هذه الآيات الثلاث: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥﴾ بالمدينة في وحشي وأصحابه.

□ انظر إلى سعة المغفرة «يقتلون أولياءَه ثم يأمرهم بالتوبة.. انظر إلى كرم الله..» هذا شأنه فيمن يقتل أولياءه ويتوب، فكيف شأنُه فيمن يُقتل فيه.

□ فتح اللهُ بابَ المغفرة بالإسلام أمامَ اليهود الذين قالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤]، والذين قَتلوا أنبياءه، وأمامَ النصارى الذين قالوا: إن الله ثالثُ ثلاثة، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج].

فيا من أبعدتم نفوسَكم عن الحضرات الربانية، وأركستموها في الدنايا الشيطانية.. انتعِشوا بفتح باب الأمل بهذه الآية بغفران الذنوب، فرب معصية أورثت صاحبها عزًّا طويلًا.. إذا ذلَّ وعرف بابَ مولاه «وأنينُ المذنبين أحبُّ إلى الله من زجل المسبحين».

أخي أين مغفرة من مغفرة!!.

* لو أراد ملِكٌ من ملوك الدنيا العفوَ عن أهل الجرائم، قام عليه جنده، فانحلَّ عقده، وانثلم حدّه، فعلَّل هذه العلّة بما يخصه فقال مؤكدًا لاستبعاد ذلك بالقياس على ما يعهدون: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ يمحو الذنوب عينًا وأثرًا، فلا يعاقب ولا يعاتِب.

* هو «قابل التوب» أتى بالمصدر ليُفهِمَ أن أدنى ما يُطلق عليه الاسم كافٍ.. فما بالُك بالتوبة النصوح.

* فيا أربابَ الدنس، ويا أوساخَ الذنوب ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص]. لا تقنعوا بصبِّ ماء التوبة على الظاهر، بُلُّوا الشعر، وأنقُوا البشرة، ما لم تسبَحْ بدمع عينيك، لم تأت بسُنة الغسل.

فلو داواك كلُّ طبيب داءً بغير كلام ربِّي ما شفاكا

* وكلامُ الملوك ملوك الكلام. قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ

وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام].

فَكِّرْ في الذنبِ وما احتقَبَتْ ... كَفَّاكَ عليكَ وما اكْتَسَبَا

كم بِتَّ على ذنبٍ فرحًا ... وغدوتَ على ذنبٍ طَرَبا

وعَلِمتَ بأنَّ الله يَرى ... فأَسَأْتَ ولمْ تُحسِنْ أدَبا

فَأَعِدَّ الزَّاد فما سفرٌ ... كالموتِ تَرى فيه النَّصَبَا

وأَفِقْ فالعُمْرُ به رَمَقٌ ... فَكَأَنْ قد فاتَ وقَدْ ذَهَبَا

يا كثير الدرَن والدنس، يا من كلما قيل: «أقبِل» انتكسْ، يا من أُمر بترك ما يفنى لما يبقى، فعَكَس، جاء الأجل، وحديث الأمل هَوَس.

يا أهل الذنوب والخطايا، ألكم صبرٌ على العقوبة؟ ﴿ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [المعارج]، إذا شاهَدت من اشترى لذة ساعةٍ بعذاب سنين ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ ﴾ [الملك: ٨]، فكيف أمن العُصاة؟ ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾ [مريم: ٧١].

✍ **أخي:** «لا يجعل الله عبدًا أسرع إليه كعبدٍ أبطأ عنه». أما يكفيك هذا لقول من طبيب القلوب «الحسن البصري».

□ قال شُميط بن عَجْلان: «الناس ثلاثةٌ: فرجلٌ ابتكر الخير في حداثةِ سِنِّة، ثم داوَم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرَّب، ورجلٌ ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة، ثم راجع بتوبةٍ، فهذا صاحب يمين. ورجلٌ ابتكر الشر في حداثة سنة ثم لم يزل فيه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب شمال»[1].

---

(١) «روح المعاني» للألوسي (٢٤/ ١٤- ١٥).

✍ **أخواني:** المعاصي تنكِّس الرأس، وما مخلِّط كمنْ كاس [١]، ولا بانٍ على رمْلٍ كمحكم الأساس، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس، وعلى وجه الطائع نور طاعته، وعلى وجهِ العاصي ظلامُ مخالفته، وعند الموت يُتَلَقَّى هذا بالبشارة، ويقع هذا في الخسارة، وفي القبر يَفترِشُ هذا مهاد الفلاح، ويُلقى ذاك على حَسَك [٢] القِباح، وعند الحشر هذا يَرْكب وذاك يُسحَب، ثم يقال للعصاة: هَلَّا ذكَرْتُمْ، وللطائعين: سلام عليكم بما صبرتم.

كمْ بين خَجِلٍ يَذِل، وبين طائعٍ يُدِلُّ

إياكم إياكم والذنوب، احذروا عواقب العيوب.

✍ **أخي:** هذا أشرف حديث لأهل الشام -كما قال الإمام أحمد بن حنبل- وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدث به جثا على ركبتيه:

• عن أبي ذر ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى: يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلته محرمًا بينكم، فلا تظالموا. يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا منْ هديته، فاستهدوني أهدِكم. يا عبادي كلكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُه، فاستطعِموني أُطعِمْكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلَّا من كسوتُه، فاستكسوني أَكْسُكم. يا عبادي، إنكم تخطِئون بالليل والنهار، وأنا أغفرُ الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفرْ لكم. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسَكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ**

---

(١) كاس: عقل.

(٢) الحسك: الشوك.

منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلَّا كما يَنقصُ المِخيطُ إذا أُدخل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم؛ ثمَّ أوفيكم إيَّاها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومن إلَّا نفسه»(١).

* ومن حثِّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على التوبة قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

* وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

* وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة].

* وأمر تبارك وتعالى المؤمنين بالتوبة النصوح فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

والله يريد التوبة على عباده:

* فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠)، ومسلم (٢٥٧٧).

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

* قال تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

والله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا إلى مضى شطر الليل وينادي عباده ويدعوهم إلى التوبة.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مضى شطرُ الليل، -أو ثُلثاه- يَنزلُ الله إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائلٍ فيُعطى؟ هل من داعٍ فيُستجابَ له؟ هل من مستغفر فيُغفرَ له؟ حتى ينفجر الصبح**»[(١)].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «**يتنزَّلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»[(٣)].

واللهُ تعالى يأمرُ عبادة بالتوبة، ويَعِدُ بالقبول لها، ويفتحُ باب الرجاء.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٤) ومسلم (٧٥٨).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٦٤) والبخاري (٤٩٨) ومسلم (٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥) والترمذي (٣٤٩٨) وابن ماجه (١٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٢)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة.

(٥) محبته للتائبين:

شأن عظيم أن تُحِبَّ مولاك وأعظم منهُ أن يُحبَّك الله، «ليس الشأنُ أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحبَّ»، وقد أخبر الله عن محبته للتائبين، فيا لها من نعمة سابغة أنعم الله بها على خواص عباده التائبين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

(٦) فَرح الله العظيم بتوبة عبده:

• قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبدِه حين يتُوبَ إليهِ من أَحَدِكُم كان على راحلَتِه بأرض فَلاة، فانْفَلَتَتْ منه وعليها طعامه وشرابه، فأَيِس منها، فأتى شجرة فاضطَّجَعَ في ظلها قد أَيِس من رَاحلته، فبينا هو كذلك إذا هُوَ بها قائمةً عنده، فأخذ بخُطامِها، ثم قال من شدة الفَرَح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربُّكَ، أخطأَ مِن شِدة ه الفرح»[١].

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبده المؤمن من رَجُلٍ في أرضٍ دَوِّيَّة مُهْلِكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذَهَبَتْ فطلبَها حتى أدركَهُ العَطَش، ثم قال: أرجعُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه، فأنامُ حتى أموتَ، فوضع رأسه على ساعِدِه ليموتَ، فاستيقظَ وعندَه راحلتُهُ وعليها زادُهُ وطعامُه وشرابُهُ، فاللهُ أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المؤمنِ من هذا براحلته وزاده»[٢].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة أحدكم مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٤)، وانظر البخاري (٢٣٠٨).

أحدِكُمْ بضالَّتِهِ إذا وجدها»[١].

• وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللهُ أفرحُ بتوبة عبده مِن أحَدِكم سَقَط على بعيره وقد أضَلَّه في أرض فلاة»**[٢].

وهذا الفرح العظيم هو «السِّرُّ الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا يُنادى عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد، فازدادت به معرفةً لربها ومحبة له، وطمأنينةً به وشوقًا إليه ولهْجًا بذكره، وشهودًا لبرِّه، ولُطْفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسرِّ العبودية، وإشراقًا على حقيقة الألوهيَّة»[٣].

إن هذا الفرحَ له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهمالُه والإعراض عنه، ولا يطلَّع عليه إلَّا من له معرفةٌ خاصةٌ بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعزِّ جلاله.

وهذا الفرح الإلهي متعلِّق بإحسان الله وجوده وبِرِّه.

□ وأما إنْ لاحظتَ تعلُّقَه بإلهيته وكونه معبودًا فذاك مشهدٌ أجلُّ من هذا وأعظم منه، وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خَلق الخلْق لعبادته، الجامعة لمحبَّته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خُلِقت به السموات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر. فإذا خرج العبد عمَّا خُلِق له من الطاعة والعبودية، فقد

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٣٠٩)، ومسلم (ص٢١٠٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩).

خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خُلِقت الخليقة، وصار كأنَّه خُلِق عبثًا لغير شيء، إذْ لم تُخرج أرضه البذر الذي وُضِع فيها، بل قَلَبَتْهُ شوكًا ودَغَلًا. فإذا راجع ما خُلِق له وأُوجِد لأجله فقد رجع إلى الغاية التي هي أحبُّ الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خُلِق لأجلها، وخرج عن معنى العبث والسُّدَى والباطل، فاشتدت محبةُ الرب له، فإن الله يحب التوابين ويحبُّ المتطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يُقدَّر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوعٌ أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقدِ لمادة حياته وبلاغِه في سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده.

وهذا كشدةِ محبته لتوبة التائب المحبِّ إذا اشتدت محبتُه للشيء وغاب عنه، ثم وجده وصار طَوعَ يده، فلا فرحةَ أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبُّه حُبًّا شديدًا، أَسَره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن هذا العدو سيسومه سوء العذاب، ويُعَرِّضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه، وهو غَرْسُك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يَفْجَأكَ إلَّا وهو على بابك، يتملَّقُك ويترضاك ويستعينُك، ويُمرِّغُ خَدَّيْه على تراب أعتابك. فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيتَه لقُربك، وآثرتَه على سواه؟

هذا، ولستَ الذي أوجدتَه وخلقتَه، وأسبغت عليه نعمك، والله ﷻ هو الذي أوجد عبده وخلقه وكوَّنه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أنْ يتمَّها عليه، فيصير مظهرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، مُحِبًّا لِوَلِيِّها، مطيعًا له عابدًا له معاديًا لعدوّه، مبغضًا له عاصيًا له. والله تعالى يحب من عبده

معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يجب أن يواليَ اللهَ مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه، ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه مع حصول محبوبه. وهذا هو حقيقة الفرح.

• وفي صفة النبي ﷺ في بعض الكتب المتقدِّمة «**عبدي الذي سُرَّت به نفسي**»، وهذا لكمال محبته له، جعله مما تُسَرُّ نفسه به سبحانه. ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده، حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه. وليس في أثبات هذه الصفات محذورٌ ألبتة، فإنه ﷻ «فرح» ليس كمثله شيءٍ، و«ضحك» ليس كمثله شيء، وحكمه كحكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته، فالباب واحد، لا تمثيل ولا تعطيل»[1].

(٧) استغفار حملة العرش للمؤمنين دالٌّ على عُظْم المغفرة:

يا جوهرةً لا تعرف قدرها، حملةُ العرش يستغفرون لك.. فمن تكون حتى يستغفروا لك!.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر].

«يقدِّمون بين يدي الدعاء بأنهم في طلب الرحمة للناس: إنما يستمِدُّون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وَسِع كلَّ شيء، وأنهم لا يُقدِّمون بين يدي الله بشيء، إنما هي رحمتُه وعلمه؛ منهما يستمدُّون، وإليهما يلجئون.

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (١/ ٢١٠- ٢١٧).

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ تلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة وبصفة الله هناك.. غافر الذنب وقابل التوب.. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر] هذه الدعوة – بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن – لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة، وتوردهم مورد التهلكة، فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها، وقاهم نتائجها وعواقبها، وكانت هذه هي الرحمةَ في ذلك الموقف، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة، وذلك هو الفوزُ العظيم.. فمجردُ الوقاية من السيئات هو أمر عظيم»[1].

(٨) امتنان الله على نبيه ﷺ بالمغفرة التَّامَّة:

* قال تعالى ممتنًّا على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [الفتح].

هذا الفض الإلهيُّ على رسوله ﷺ فتحٌ مبين ومغفرةٌ شاملة، ونعمةٌ تامة وهدايةٌ ثابتة ونصرٌ عزيز، إنها جزاء الطمأنينة التامةِ لإلهام الله وتوجيهه والاستسلام الراضي له.

لقد فرح رسول الله ﷺ بهذه الصورة.. فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين به.. فرح بالفتح المبين وفرح بالمغفرة الشاملة وفرح بالنعمة التامة..

• قال رسول الله ﷺ: «نزل عليَّ البارحة سورة هي أحبُّ إليَّ من الدنيا

(١) «الظلال» (٥/ ٣٠٧١).

وما فيها».

• وفي رواية: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾»[1]. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته، فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتصنعُ هذا وقد غَفر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[2].

(٩) الشفاعة وسؤال المغفرة للأُمَّة مقام نبيِّنا المحمود ﷺ:

* قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء].

يأمر الله نبيه ﷺ بقيام الليل عساه يبلغُ هذا المقام، قيام الليل ليبلغ الكمالَ اللائق به.. وهو الشفاعة وسؤالُ المغفرة.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾، وسُئل عنها فقال: «**هي الشفاعة**»[3].

• وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «يأتون النبي ﷺ فيقولون: يا نبي الله، أنت الذي فتح الله بك وختم، وغفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما

---

(١) رواه مسلم، وقد تقدم في «علو الهمة في الصلاة».

(٢) المصدر السابق.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣١٣٧) وحسنه، مقبل بن هادي الوادعي في كتاب «الشفاعة» (ص٣١)، وصححه الشيخ الألباني.

تأخر، فاشفعْ لنا إلى ربك فيقول: «نعم. أنا صاحبُكم، فيخرج يحوشُ النار، حتى ينتهي إلى باب الجنة، فيأخذ بحلقة في الباب من ذهب فيقرع الباب، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد. قال: فيُفتح له، قال: فيجيء حتى يقوم بين يدي الله، فيستأذن في السجود، فيُؤذن له، قال: فيفتحُ الله له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحدٍ من الخلائق، فيُنادى: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تُعط، وادْعُ تُجب. قال: فيرفع رأسه فيقول: رب أمتي أمتي، ثم يستأذن في السجود، فيؤذن له، فيفتح له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يُفتح لأحد من الخلائق، فيُنادى: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع، وادع تجب». -قال: يفعل ذلك مرتين أو ثلاثًا-، فيشفع لمن كان في قلبه حبَّةٌ من حِنطة، أو مثقال شعيرة، أو مثقال حبة من خردل من إيمان».

قال سلمان رضي الله عنه: فذلك المقام المحمود[(١)].

(١٠) سؤال المغفرة هي الدعوة التي خبَّأها النبي ﷺ لأمته:

المغفرةُ عظيمةُ القدر.. وقد كان سؤالُ المغفرة هي دعوة نبينا ﷺ.. وهي التي اختارها ورآها أولى من دخول نصف أمته الجنة.. فهل بعد ذلك فضل.

• قال ﷺ: «**لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة يدعو بها وإني اختبأْتُ دعوتي**».

وفي رواية: «**وأريد أن أختبئَ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة**».

---

(١) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة، ورواه الطبراني بإسناد صحيح، وقال الحافظ في «المطالب العالية»: صحيح موقوف، وقال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»: إسناده صحيح.

وفي رواية: «فتعجَّل كل نبي دعوته».

وزاد في رواية: «فهي نائلة من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»[(١)].

• وقال ﷺ: «خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يَدخلَ شطرُ أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة»[(٢)].

• وقال ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربي، خيّرني بين أن يُدخل نِصفَ أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»[(٣)].

فأيُّ قدر للمغفرة أعظمُ من هذا.. المغفرةُ أثمنُ عند نبينا ﷺ من دخول نصف أمته الجنة، وهي من خصائص نبينا ﷺ.

(١١) سؤال المغفرة هو الدعاء المأثور في أغلى ليالي العمر؛ ليلة القدر:

• عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ إن علمتُ أي ليلةٍ ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللَّهم إنك عَفُوٌّ تُحبُّ العفو، فاعف عني»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٤٥) ومسلم (١٩٩) من وجوه (مع الزيادة)، وأبو عوانة (بالزيادة وبدونها)، والترمذي (٣٦٠٢) (بالزيادة) وابن ماجه (٤٣٠٧) (بالزيادة) ومالك (٤٩٤) والدارمي (٢٥٦٧) وابن خزيمة وأحمد (٥/ ١٤٧) (بالزيادة).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٧٥) عن ابن عمر وابن ماجه (٤٣١١) عن أبي موسى، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٣٣٣٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد عن أبي موسى (٤/ ٤٠٤)، والترمذي (٢٤٤١) وابن حبان (٧٢٠٧) عن عوف بن مالك الأشجعي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٥٦)، وكذا الشيخ شعيب الأرنؤوط في «المسند».

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٧١) والترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه =

(١٢) دعوة الأنبياء دعوة للمغفرة:

يكفي المغفرة شرفًا أنها هي دعوة الأنبياء ودعوة التوحيد:

فعن نبي الله نوح عليه السلام ودعوته:

* قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح].

* وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم].

وعن نبي الله هود عليه السلام:

* قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

وعن شعيب عليه السلام:

* قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

وعن نبي الله صالح عليه السلام ودعوته:

* قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم

(٣٨٥٠)، وصححه الترمذي. وقال الألباني: إسناده صحيح. في «تخريج مشكاة المصابيح» (رقم ٢٠٩١)، وصححه كذلك الشيخ شعيب الأرنؤوط.

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل].

* وقال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت].

وعن لسان رسولنا ﷺ:

* قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود].

(١٣) حرمان الشيطان من المغفرة، والإنعام بها على بني آدم، تشريفاً من الله لهم:

• قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطانَ قال: وعزَّتك يا ربِّ، لا أبرحُ أُغوي عبادَكَ ما دامت أرواحُهم في أجسادهم، فقال الربُّ: وعزتي وجلالي، لا أزال أَغفرُ لهم ما استغفروني»[(١)].

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٢٩) وأبو يعلىٰ (٢/ ٤٥٨) والحاكم (٤/ ٢٩٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٢) عن أبي سعيد، وصححه الحاكم، وأقرَّه الذهبي، وقال الهيثمي في أحد إسنادي أحمد: «رجاله رجال الصحيح، وكذا أحد إسنادي أبي يعلىٰ». وصححه السيوطي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ١٦٥٠)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق «المسند»، والشيخ حسين الداراني محقق «مسند أبي يعلىٰ».

□ قال المُناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٥١): «في إشعار الخبر توهينٌ لكيد الشيطان، ووعد كريم من الرحمن بالغفران».

(١٤) تسهيل الله التوبة لأُمَّة رسوله ﷺ:

إن من رحمة الله بهذه الأمة المحمدية تيسير التوبة لها وتسهيلها عليهم، مقارنة ببني إسرائيل.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة].

□ قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٣٠-١٣١): «هذه صفةُ توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادةِ العجل: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتلَ كلُّ رجلٍ منهم كلَّ مَن لَقِيَ -من ولد ووالد-، فيقتلُه بالسيف، ولا يُبالي مَن قتل في ذلك الموطن».

□ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: «أمر موسى قومه -مِن أمْرِ ربِّه عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجرَ من أيديهم، وأصابتهم ظُلَّةٌ شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلَّة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة».

□ وقال الزهري: «لما أُمِرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قَبِل الله توبتهم قبض

أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قُتِل منكم فحيّ عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته. فسرّ بذلك موسى، وبنو إسرائيل» اهـ[1].

قد كان هذا تطهيرًا وتكليفًا مرهقًا لهم شاقًّا عليهم، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه، ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوّارة، التي لا تتماسك عن شر، ولا تتناهى عن نكر، ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العدل. وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتُربِّيهم.

• فما أعظم رحمة الله بأمة نبيه ﷺ حين يسرَّ لهم التوبة، فقال ﷺ: «الندم توبة».

(١٥) حَجْبها عن المنافقين والكافرين:

من كرامة المغفرة على الله ﷻ، وأنها من الله بمكان، أن حجبها عن المنافقين والكافرين.

* قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون].

* وقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

---

(١) رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء].

(١٦) سؤال الأنبياء المغفرة لعظمها:

وسؤالُ الأنبياء المغفرة يدلُّ على عِظَم شأنها عندهم، حتى إن الأنبياء في عرصات القيامة يقولون: «**اذهبوا إلى محمدٍ، عَبْد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»[(١)].

أ- آدم عليه السلام:

* قال تعالى عن معصية صَفِيِّه آدم: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه].

* وعن سؤال آدم للمغفرة قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة].

□ قال ابن القيم في «الفوائد» (٥١، ٥٢): «إيَّاك والمعاصي؛ فإنها أذلَّت عِزَّ ، ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ وأخرجتْ إقطاعَ ﴿ٱسْكُنْ﴾.

يا لها لحظةً أثمرتْ حرارة القلق ألف سنة، ما زال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص، ويُرسلها مع أنفاس الأسف، حتى جاءه توقيع

(١) صحيح: وهو جزء من حديث الشفاعة، وهو في المسند والصحيحين وغيرها.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ .

فرح إبليسُ بنزول آدم من الجنَّة، وما عَلِم أن هبوطَ الغائص في اللُّجَّة خلف الدُّرِّ صعودٌ.

كم بين قوله لآدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، وقوله لك: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ ، ما جرى على آدم هو المراد من وجوده «لوْ لمْ تُذنبوا».

يا آدم، لا تجزع من قولي لك: ، ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ فلك ولصالح ذُرِّيَّتك خلقْتُها.

يا آدم، كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك.

يا آدم، لا تجزع من كأس زَلَل كانت سببَ كيسك، فقد استخرج منك داءَ العُجْب، وأُلبست خِلْعة العبودية ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا﴾.

لعـلَّ عَتْبَـك محمـودٌ عواقبُـه ... ورُبَّـما صـحَّتِ الأجـسامُ بالعِلَـلِ

يا آدم، لم أُخْرِجْ إقطاعك إلى غيرك، إنَّما نحَّيْتُك عنه لأُكمل عمارتَهُ لك، وليُبعث إلى العُمَّال نفقة ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ .

يا آدم، إنَّما ابتليتك بالذنب؛ لأني أُحبُّ أن أَظهر فضلي، وجودي وكرمي، على مَنْ عصاني، «لو لم تُذنبوا لذهبَ الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

يا آدم، إذا عصمتُك وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى مَنْ أجود بحلمي، وعلى مَنْ أجودَ بعفوي ومغفرتي وتوبتي، وأنا التواب الرحيم.

يا آدم، لا تجزع من قولي لك: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ ، فلك خلقْتُها، ولكن

اهبط إلى دار المجاهدة، وابذر بذر التقوى، وأمطرْ عليه سحائب الجفون، فإذا اشتد الحَبُّ واستغلظ، واستوى على سُوقه، فتعالَ فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتُك من الجنة إلَّا لتتوسَّل إليَّ في الصعود، وما أخرجتُك منها نَفْيًا لك عنها، ما أخرجتك منها إلَّا لتعود..

إن جرى بيننا وبينك عَتْبٌ ... وتناءت منَّا ومنك الدِّيارُ

فالودادُ الذي عهدتَ قديمٌ ... والعثار الذي أصبت جُبَارُ

يا آدم، ذنب تذلُّ به لدينا، أحبُّ إلينا من طاعةٍ تُدلُّ بها علينا.

يا آدم، أنينُ المُذنبين، أحبُّ إلينا من تسبيح المُدِلِّين.

تالله ما نفعه عند معصيته عزُّ ﴿ٱسْجُدُوا﴾ ولا شرفُ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾، ولا خصيصةُ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ولا فخرُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وإنما انتفع بِذُلِّ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، لَمَّا لبس درع التوحيد على بدن الشكر، وَقَعَ سهم العدو منه في غير مقتلٍ، فجرحَهُ، فوضع عليه جُبار الانكسار، فعاد كما كان، فقام الجريح كأنْ لم يكن به قَلَبَة»[(١)].

ب- نوح عليه السلام:

* عصى نوحُ ربَّه، لَمَّا دعا ربه في ابنه الكافر ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود]، فلامَهُ ربُّه على مقالته هذه، وأعْلَمَه أنه ليس من أهله، وأنَّ هذا منه عملٌ غير صالح ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ صالح [هود]، فسأل ربَّه

(١) القَلَبَة: هو الداء الذي يتقلَّب منه صاحبه على فراشه.

المغفرة وتاب، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾ [نوح].

جـ- إبراهيم عليه السلام:

* قال تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.[إبراهيم].

* وقال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [البقرة].

د، هـ: كليم الرحمن موسى، وهارون عليهما السلام:

* أراد عليه السلام نُصرة الذي من شيعته، فوكز خصمَهُ القبطيّ فقضى عليه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [القصص]. واستغفر موسى لذنبه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى عن لسانه: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ [الأعراف].

* وعن موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ ﴾ [الأعراف].

و- أبناء يعقوب عليه السلام :

* وعن أبناء يعقوب عليه السلام قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨ ﴾ [يوسف].

ز- داود عليه السلام :

* وقال تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤ ﴾ [ص].

ح- سليمان عليه السلام :

* وقال تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ ﴾ [ص].

ط- ذو النون عليه السلام :

* وقال تعالى عن ذي النون عليه السلام: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ ﴾ [الأنبياء].

ي- سيِّد الخلق محمد ﷺ:

* عاتبه ربه في أمور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم]. نزلتْ بسبب تحريم الرسول ﷺ العسل على نفسه، أو تحريم مارية القبطية.

* وعاتبه ربه بسبب عُبُوسه في وجه الأعمى ابن أُم مكتوم، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلى الله. والإقبال على الأعمى، الرَّاغِب فيما عند الله، هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾ [عبس].

* وقبل الرسول ﷺ من أسرى بدر الفديةَ، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال].

* واستغفر رسول الله ﷺ كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ [غافر].

* وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد].

* قال الله عز وجل لنبيه حاثًّا له على الاستغفار: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ [النساء].

* وقال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

* وقال سبحانه: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا

﴿٣﴾ [النصر]. فكان ﷺ أسرع الخلق امتثالًا لأمر به.

فكان أصحابه يَعدُّون له في المجلس الواحد «ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التوَّاب الرحيم»، وفي رواية: «إنك أنت التوابُ الغفور» مئة مرة[(١)].

• ويقول عن نفسه ﷺ: «والله إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنه ليُغَان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»[(٣)].

• وقال ﷺ: «إني لأتوب إلى الله تعالى في اليوم سبعين مرة»[(٤)].

• وقال ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليوم سبعين مرة»[(٥)].

• وقال ﷺ: «توبُوا إلى الله تعالى، فإني أتوبُ إليه كل يوم مئةَ مرَّة»[(٦)].

• وقال ﷺ: «يا أيها الناس! توبوا إلى ربكم. فوالله إني لأتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في اليوم مئة مرَّة»[(٧)].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥١٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٧٨٤) من حديث ابن عمر..

(٢) أخرجه البخاري «فتح الباري» (١١/ ١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم، انظر «مسلم مع شرح النووي» (١٧/ ٢٣).

(٤) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» وابن حبان (٣/ ٢٠٤)، وصححه العلَّامة شعيب الأرنؤوط، والعَّامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٧٧).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٢٥٩)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه العلَّامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٨٣).

(٦) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٢١)، وصححه العلَّامة الألباني.

(٧) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(١٧) حَجْب التوبة والمغفرة عن أصحاب البدع:

ومن عِظَم المغفرة والتوبة، أن حَجَبَها الله عن أهل البدع الذين يُطفئون نور السُّنَّة ببدعهم.

• فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله احتجَرَ التوبةَ على كلِّ صاحبِ بدعةٍ**»[١].

• وعنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعةٍ حتى يَدَعَ بدعته**»[٢].

(١٨) سؤال أصحاب الأنبياء المغفرة:

* قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران].

* وقال عن قوم موسى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى في شأن المهاجرين -كما رجَّحه ابن جرير في تفسيره-:

---

(١) صحيح: ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٥٧٩)، وعزاه لابن فيل والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب»، والضياء المقدسي وصححه العلَّامة الألباني.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٢٨١)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٥٩) وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٣٩٨)، وحسنه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»، وصححه العلَّامة الألباني.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)﴾ [الحشر].

* وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ [الممتحنة].

(١٩) سؤال الشهداء المغفرة:

* قال تعالى عن سَحَرَةِ فرعون، عند استشهادهم، فقال البَرَرَةُ عند قتلهم: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣)﴾ [طه].

* وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾ [الشعراء].

(٢٠) سؤال أولي الألباب والمتهجِّدين المغفرة:

* قال تعالى عن أُولي الألباب وسؤالهم المغفرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا

يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران].

والمتهجِّدون إذا قاموا إلى تهجُّدهم، يُعلِّمهم سيِّدُهم دعاء الاستفتاح لتهجُّدهم، وكلُّه سؤالٌ للمغفرة بعد حمد الله والثناء عليه؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام الليل يتهجَّد قال: «**اللهم لك الحمدُ، أنت قيِّم السموات والأرض ومَنْ فيهنَّ، ولك الحمدُ، لك مُلك السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت مَلِك السموات والأرض ومن فيهنَّ،ولك الحمد، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤك حقٌّ، وقولك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمد ﷺ حقٌّ، والساعة حقٌّ، اللَّهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلت، وإليك أَنَبْتُ، وبك خاصمت، وإليك حاكمتُ، أنت ربُّنا وإليك المصيرُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعْلَمُ به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، أنت إلهي لا إله إلَّا أنت، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله**»[1].

(٢١) مع المغفرة إلى عَرَصات القيامة:

* مع المغفرة حتى بعد المقبرة.. وفضل المغفرة يظهر جليًّا في سؤال الصالحين لها ونورهم يسعى بين أيديهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له ما عدا ما بين الأقواس، ومسلم وأبو عوانة وأبو داود وابن نصر والدارمي.. وقد تقدم في «الصلاة».

تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحريم].

(٢٢) من كذَّب بالمغفرة لا تُقبل شفاعته:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن اللَّعَّانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**»[(١)].

فاللعن دعاءٌ بالطرد مطلقًا من رحمة الله، وعدم المغفرة.

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**مَن كذَّب بالشفاعة فليس له فيها نصيب**»[(٢)].

(٢٣) التصديق بالمغفرة شعارُ أهل السُّنَّة والجماعة، والتكذيب بها شعارُ أهل البدع:

لله در أهل السنة والجماعة.. فهموا القضيَّة.. وعلموا أنهم بشرٌ فرحموا العاصيَ من البريَّة.. بخلاف أهل البدع من الخوارج الحروريَّة، الذين كفَّروا بالكبيرة أُمَّةَ خير البريَّة.. وأعملوا فيها السيف.

□ قال الإمام الطحاوي في «عقيدته»: «وأهلُ الكبائر من أُمَّةِ محمد

---

(١) رواه أحمد (٦/٤٤٨) ومسلم (٢٥٩٨) وأبو داود (٤٩٠٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣١٦) وفي «التاريخ الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٥٩) وابن حبان (٥٧٤٦) والحاكم في «المستدرك» (١/٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه سعيد بن منصور بسندٍ صحيح. قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/٤٢٦).

ﷺ[(١)] في النار لا يُخلَّدون، إذا ماتوا وهم موحِّدون.

□ قال في «شرح الطحاوية»: «ردّ لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار، لكن الخوارج تقول بتكفيرهم، المعتزلة بخروجهم من الإيمان، لا بدخولهم في الكفر، بل لهم منزلة بين منزلتين»[(٢)].

ومن أصول المعتزلة -مُؤَنثَة الخوارج- الخمسة: الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين.

□ **قال ابنُ أبي العِزِّ** في «شرح الطحاوية» (٢/ ٧٩٣): «وأمَّا الوعيد، فقالوا: **إذا** أوعد -الله- بعضَ عبيده وعيدًا، فلا يجوز أن لا يُعذِّبهم ويُخلف وعيده؛ لأنه لا يُخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يريد عندهم». تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

□ وقال ابن أبي العِزِّ: «وأمَّا المنزلة بين المنزلتين، فعندهم أن من ارتكب كبيرًا، يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر» ويُخلَّد في النار.

وعمر وهُو المحدَّث من هذه الأمة، يخبر عن هؤلاء المبتدعة قبل أن يراهم؛ **قال** ابن عباس رضي الله عنهما: خطب عمر رضي الله عنه، وفي الخطبة: «وأنه سيكون من بعدكم قومٌ يُكذِّبون بالرّجْم وبالدَّجَّال، وبالشفاعة وبعذاب القبر، وبقومٍ يخرجون من النار بعد ما امْتُحِشوا»[(٣)].

□ أمَّا أهل السنة والجماعة ورحمتهم للمسلمين، فيقول الطحاوي:

(١) ومن كان مسلمًا من الأمم السابقة.

(٢) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٢٤). تحقيق د. التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط. طبع مؤسسة الرسالة.

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وهذا الأثر له شواهد.

«ولا نُنزل أحدًا منهم جنَّةً ولا نارًا».

□ قال الشارحُ ابنُ أبي العِزِّ: «يريد أنَّا لا نقول عن أحد معيَّن من أهل القبلة: إنه من أهل الجنة أو من أهل النار. إلَّا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة؛ كالعشرة رضي الله عنهم. وإن كنا نقول: إنه لا بُدَّ أن يدخل النار من أهل الكبائر، مَنْ يشاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنَّا نقف في الشخص المعيَّن، فلا نشهد له بجنةٍ ولا نارٍ، إلَّا عن علْم؛ لأن حقيقة باطنه وما مات عليه، لا نُحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء»[١].

(٢٤) شغلُ الصالحين: الاستغفارُ عَقِيب الطاعاتِ، وفي كلِّ حِين:

□ قال ابن القيم رحمه الله: «وأربابُ العزائم والبصائر أشدَّ ما يكونون استغفارًا عَقِيب الطاعات؛ لشهودِهم تقصيرهم فيها، وترْك القيام لله بها كما يليقُ بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمرُ، لما أقدَمَ أحدُهم على مثل هذه العبودية، ولا رَضِيَها لسيِّده.

* وقد أمر الله تعالى وفده وحُجَّاج بيته، بأن يستغفروا عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجلُّ المواقف وأفضلها، فقال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة].

---

(١) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٣٨).

* وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران].

□ قال الحسن: «مَدُّوا الصلاة إلى السَّحَر، ثم جلسوا يستغفرون اللهَ عَزَّوَجَلَّ».

• وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ كان إذا سلَّم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: **«اللهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**.

* وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحجِّ، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أُنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر].

ومن ها هنا فَهِم عمرُ وابنُ عباس رضي الله عنهم أن هذا أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عَقِيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلامٌ بأنك قد أدَّيتَ ما عليك، ولم يَبْقَ عليك شيء، فاجعل خاتمتَه الاستغفار، كما كان خاتمةَ الصلاة والحج وقيام الليل.

• وخاتمةُ الوضوء أيضًا أن يقول ـ بعد فراغه ـ: **«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهدُ أنْ لا إله إلَّا أنت، أستغفرُك وأتوب إليك. اللهمَّ اجعلْني من التَّوّابين واجعلني من المتطهِّرين»**.

فهذا شأنُ من عَرف ما ينبغي لله ويليقُ بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهلُ أصحاب الدعاوي وشطحاتهم.

□ وقال بعضُ العارفين: «متى رَضِيتَ نَفْسك وعملَك لله، فاعلمْ أنه غيرُ راضٍ به، ومَنْ عرف أن نفسه مأوى كلِّ عيبٍ وشرٍّ، وعمله عُرضةٌ

لكلِّ آفةٍ ونقص، فكيف يَرضى لله نفسه وعمله؟!».

□ ولله درُّ الشيخ أبي مَدْين حيث يقول: «من تحقَّق بالعبودية، نظرَ أفعالَهُ بعين الرياء، وأحوالَه بعين الدعوى، وأقوالَه بعين الافتراء، وكلَّما عظُم المطلوب في قلبك، صَغُرَتْ نَفْسُك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلَّما شهدتَ حقيقة الربوبية، وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النَّفْس، وتبيَّن لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ولو جئت بعمَلِ الثقلين، خشيتَ عاقبتَهُ، وإنَّما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويُثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضُّله»[١].

أمَّا إذا لم تصحَّ توبتُك واستغفارك، وكانت توبةَ علَّةٍ واستغفارَ علَّة، فاستغفارك يحتاج إلى استغفارٍ.

فيا عَفُوُّ، عفوك.. عند السَّكرات عفوك، وعند المهات عفوك، وفي القبور عفوك، وفي العَرَصات عفوك، وعند تطايُر الصحف عفوك، وعند الميزان عفوك، وعند العرض عفوك، وعند الصراط عفوك.. دائمًا وأبدًا مع كلِّ نَفَسٍ وفي كل حينٍ.. يا عَفُوُّ، عفوك.

(٢٥) والله أهل التقوى وأهل المغفرة يفتح باب التوبة لمرتكبي الكبائر:

فتح الله ﷻ بابَ التوبة والإنابة أمام أهل الكبائر، حتى لا يَقنَطَ أحدٌ من رحمة الله ﷻ.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٥ - ١٧٦).

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

[الفرقان].

وفتح بابَ التوبة أمام المفسدين قطاع الطريق الذين يحاربون الله ورسوله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة].

* وفتح بابَ التوبة والمغفرة أمام الذين أضاعوا الصلاة، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾﴾

[مريم].

* وفتح باب المغفرة والتوبة أمام من قذفوا المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة والزنا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾ [النور].

□ ومن رحمة الله أنه فتح باب التوبة أمام من قَتل تسعةً وتسعين نفسًا، ولما صَدَق اللهَ في توبته، قبضته ملائكة الرحمة.

(٢٦) فتحُ باب التوبة أمام الكافرين: اليهود والنصارى ما داموا في دار الدنيا:

□ وأصحابُ الأخدود -الذين كفروا وحرَّقوا المؤمنين وجلسوا على حافة الأخدود ينظرون إلى النار تلتهم أجسادَ المؤمنين-، مع كل هذه الموبقات والجرائم المُهلكات، فَتح الله لهم باب التوبة كي يتوبوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج].

يقتلون أولياءَه ثم يأمرهم بالتوبة! فما أعظمَ الله وما أرحمَه وأحلمه!.

* وأمام المنافقين: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

* وفتح باب التوبة في الدنيا أمام النصارى الكافرين الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وأمام اليهود الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [النساء].

(٢٧) فتح باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها:

• قال رسول الله ﷺ: «**فَتح اللهُ بابًا للتوبة من المغرب، عرضُه مسيرةُ سبعين عامًا، لا يُغلَقُ حتى تطلعَ الشمس من نحوه**»[1].

---

(١) حسن: رواه البخاري في «التاريخ» عن صفوان بن عسال، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤١٩١).

• وقال ﷺ: «للتوبة بابٌ بالمغرب، مسيرةَ سبعين عامًا، لا يزال كذلك حتى يأتي بعضُ آيات ربك، طلوعُ الشمس من مغربها»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل بالمغرب بابًا مسيرةُ عرضِه سبعون عامًا للتوبة لا يُغلق ما لم تطلع الشمسُ مِن قِبَلِه، وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾»[(٢)] [الأنعام: ١٥٨].

• وقال رسول الله ﷺ: «لا تنقطعُ الهجرة، حتى تنقطعَ التوبة، ولا تنقطعُ التوبة حتى تطلعَ الشمس من مغربها»[(٣)].

• عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قالت قريشٌ للنبي ﷺ ادْعُ لنا ربَّك أن يجعلَ لنا الصَّفا ذهبًا ونؤمنُ بك. قال: «وتفعلون؟». قالوا: نعم. فدعا فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: إنَّ ربك يقرأُ عليك السلام ويقول: «إنْ شئت أَصبحَ لهم الصَّفا ذَهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذابًا لا أُعذِّبه

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن صفوان ابن عسال، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٥١٨١).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، وابن ماجه (٤٠٧٠) وأحمد (٤/ ٢٤٠)، (٤/ ٢٤١)، والطيالسي (٢٧٨٧ ـ منحة المعبود)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٣٠٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ١٤٤)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٧٢). وهذا إسناد حسن لأن عاصم بن أبي النجود ـ على إمامته في القراءات ـ حَسَنُ الحديث، لكن تابع زبيد اليامي عاصم بن أبي النجود عند ابن جرير (٢/ ٧٨). زبيد اليامي ثقة ثبت؛ فالحديث صحيح. والله أعلم، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وحسنه العلامة الألباني والعلامة شعيب الأرنؤوط.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢٤٢، ٣٤٥)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وقال العلاّمة شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

أحدًا من العالمين، وإنْ شئت فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة. قال: بل باب التوبة والرحمة».

(٢٨) التحذير من اليأس والقنوط من رحمة الله:

* جعل اللهُ اليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ كبيرةً من الكبائر، فقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

* وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

□ أخرج الطبري بإسناد صحيح عن البراء بن عازب في الآية ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قال: «هو الرجل يُصيبُ الذنوب، فيُلقى بيده إلى التهلكة فيقول: لا توبة لي».

□ وبإسنادٍ صحيح عن ابن سيرين قال: «سألتُ عَبيدةَ السَّلْماني عن ذلك فقال: هو الرجل يُذنب الذنب فيستسلم، ويُلقي بيده إلى التهلكة ويقول: لا توبة له».

□ وقال الطبري بعد أن أورد جملةَ أقوال في تفسير الآية: «وكذلك الآيسُ من رحمة الله لذنبٍ سلف منه مُلْقٍ بيديه إلى التهلكة؛ لأن الله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «الكبائرُ: الشرك بالله، والإياسُ من رَوْح[١]

(١) رَوْح الله: رحمة الله.

الله، والقنوط[١]»[٢].

• وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أذنبَ عبدٌ ذَنْبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي فقال -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أنه له ربًّا يغفر الذَّنْب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال. أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنبًا، فعَلِمَ أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت، فقد غفرتُ لكَ»[٣].

• وعن عمر رضي الله عنه أن رجلًا كان على عهد النبي ﷺ، كان اسمه عبدالله وكان يلقب حمارًا وكان يُضحِك رسول الله، وكان النبي ﷺ قد جَلَدَه في الشراب، فأُتِي به يومًا، فأمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنْه، ما أكثَرَ ما يُؤتَى به. فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله مَا عَلِمْتُ أنه يحب اللهَ ورسولَه»[٤].

وفي رواية: أن رجلًا قال: مَا لَه أخزاه الله! فقال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم»[٥].

• وعند أبي يعلى: «لا تلعنوه، فإنه يحبُّ اللهَ ورسوله»[٦].

• وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا تسألُ عنهم: رجلٌ يُنازِعُ الله إزارَه، ورجلٌ يُنازِعُ الله رداءه؛ فإن رداءه الكبرياء، وإزاره العزُّ، ورجلٌ في شك

---

(١) القنوط: انقطاع الأمل.

(٢) حسن: رواه البزار عن ابن عباس، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٥١) و«صحيح الجامع» (٤٦٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٥) رواه البخاري (٦٧٨١).

(٦) رواه أبو يعلىٰ (١/ ١٦١) بسندٍ حسن.

من أمر الله [(١)]، والقنوطُ من رحمة الله» [(٢)].

(٢٩) ترهيب من يُقنِّط الناس في رحمة الله ومغفرته:

• عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حَدَّث: «أَنَّ رجلًا قال: والله لا يغفرُ اللهُ لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألَّى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان! فإني قد غفرت لفلان وأحبطتُ عملك» [(٣)].

• وقال رسول الله ﷺ: «كان رجلان في بني إسرائيل مُتواخيَيْن، فكان أحدهما يُذنِب، والآخر مجتهدٌ في العبادة، فكان لا يزالُ المجتهد يَرى الآخرَ على الذَّنْب فيقول: أَقصِرْ، فوجَدَه يومًا على ذنب، فقال له: أقصِرْ، فقال: خَلِّني وربِّي، أَبُعِثتَ عَلَيَّ رقيبًا، فقال: والله لا يغفرُ اللهُ لك -أوْ لا يُدْخِلك الله الجنة-. فقَبَضَ اللهُ أرواحَهُما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهدُ، أكُنتَ بي عَالمًا؟ أو: كنتَ على ما في يدي قادِرًا؟ وقال للمذْنب: اذهب فادخلِ الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذْهبُوا به إلى النار» [(٤)].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «قال رجلٌ: لا يغفرُ اللهُ لفلان! فأَوحى الله

---

(١) أي: في البعث وأحوال الآخرة.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٩) والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٠)، وأبو يعلي، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٣٠٦)، وابن حبان (٤٥٥٩)، وابن عساكر والحاكم (١/ ١١٩) عن فضالة بن عُبيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٢)، و«صحيح الجامع» (٣٠٥٩)، و«تخريج السنة» لابن أبي عاصم (٨٩)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٦٢١).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه العلاَّمة الألباني.

تعالى إلى نبي من الأنبياء: إنها خطيئةٌ، فلْيستقبلِ العمل [(١)]»[(٢)].

(٣٠) سعةُ رحمة الله ﷻ وعظيم مغفرته التي لا تحيط بها عقول البشر:

• قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أسلَم العبدُ فحسُن إسلامه، يُكفِّرُ اللهُ عنه كلَّ سيئةٍ كان أزلَفَها، وكان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها إلى سَبْعِمئة ضِعْف، والسيئةُ بمثلها، إلَّا أن يتجاوز الله عنها»[(٣)].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا عَمِلتَ سيئةً، فأتبِعْها حسنةً تمحُها»[(٤)].

• وقال ﷺ: «أسرف رجلٌ على نفسه [(٥)]، فلما حضره الموتُ أوصى بَنيه فقال: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثم اسحقُوني، ثم أذْروني [(٦)] في البحر، فوالله لئن قَدَر [(٧)] عليَّ ربي لَيُعذبنِّي عذابًا ما عذَّبه أحدًا، ففعلوا ذلك به، فقال الله للأرض: أدِّي [(٨)] ما أخذتِ، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حملك على ما

---

(١) أي يبدأ من جديد في فعل الطاعات، فما سبق قد أحبطه الله؛ لحُكمه على الله بأنه لا يغفر لفلان.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٥) عن جندب، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٠١٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (٤١) والنسائي (٤٩٩٨) عن أبي سعيد.

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٩) عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٧٣)، و«صحيح الجامع» رقم (١٣٧٣)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

(٥) أي: في المعاصي.

(٦) انثروني وفرّقوني.

(٧) أي: استطاع جمعي وبعثي.

(٨) يعني: رُدِّي.

صَنَعْتَ؟ قال: خشيتُكَ يا رب، فغفر له بذلك»[١].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «إن الله تعالى خَلق الرحمةَ يوم خلقها مئةَ رحمة، فأمسَكَ عنده تِسْعًا وتسعين رحمة. وأرسل في خلقِه كلِّهم رحمةً واحدةً، فلو يعلمُ الكافرُ بكُلِّ الذي عند الله من الرحمة لم ييأسْ من الجنة، ولوْ يعلمُ المؤمنُ بالذي عند الله من العذاب لم يأمنْ منَ النار»[٢].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «إن الله تعالى يبسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويبْسُط يدَه بالنهار ليتوبَ مُسِيءُ الليل، حتى تطلعَ الشمس من مغربها»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «إن رَجُلًا حَضرهُ الموت فلمَّا أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا متُّ فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا جزْلًا[٤]، ثم أوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلَتْ لحمِي، وخَلَصَتْ إلى عظمي فامتُحِشْتُ[٥] فخذوها فاطْحنُوها، ثم انظروا يومًا راحًا[٦] فاذْرُوها في اليمِّ[٧]، ففعلوا ما أمرهمْ فجمعه الله، وقال له: لِمَ فعلتَ ذلك؟ قال: مِن خَشيتك، فغفر له»[٨].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٩) والبخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٢٧٥٢) والترمذي عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٩٥) ومسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) أي: غليظًا قويًا.

(٥) فامتُحِشْتُ: فاحْتَرَقتُ.

(٦) أي: شديد الرياح.

(٧) البحر.

(٨) رواه أحمد (٤/ ١١٨) و(٥/ ٣٨٣) والبخاري (٣٢٦٦) ومسلم (٢٩٤٣) والنسائي (٤/ ١١٣)، وابن ماجه عن حذيفة وأبي مسعود.

• وقال رسول الله ﷺ: «إن رجلًا كان قبلكم رغسه [١] الله مالًا. فقال لبنيه لما حُضِر: أيَّ أبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أبٍ، قال: إني لم أعملْ خيرًا قطُّ، فإذا مُتُّ فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرُّوني في يوم عاصفٍ [٢]، ففعلوا، فجمعه الله، فقال: ما حملك؟ قال: مخافتُك، فتلقَّاه برحمته»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: من عَلِم أني ذو قدرةٍ على مغفرة الذنوب غفرتُ له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئًا»[٤].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدم! إنك ما دعوتَني ورجوتَني، غفرتُ لك -على ما كان منك- ولا أُبالي، يا ابنَ آدم لو بلغت ذُنوبُك عَنان [٥] السماء، ثم استغفرتني، غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابن آدم! لو أنك أتيتني بقُراب [٦] الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشركْ بي شيئًا، لأتيتك بقُرَابها مغفرة»[٧].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله سيخلِّصُ [٨] رجلًا منْ أمَّتي على

---

(١) الرَّغْس: السعة في الرزق.

(٢) تهب فيه الريح الشديدة.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٦٩) والبخاري (٣٢٩١) ومسلم (٢٧٥٧) عن أبي سعيد.

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» والحاكم عن أنس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

(٥) سحاب.

(٦) أي: بما يُقارب ملئها.

(٧) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٤٨) والترمذي (٣٥٤٠) والضياء عن أنس، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٧)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٣٣٨)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٨) سيُنجي.

رُؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشُرُ عليهِ تِسعةً وتسعينَ سِجْلًا [١]، كلُّ سِجْلٍ مثلُ مدِّ [٢] البَصرِ، ثمَّ يقولُ: أتنكِرُ منْ هذا شيئًا؟ أظلَمَكَ كتبَتي الحافِظونَ؟ [٣] فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: أفلَكَ عذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رب، فيقول: بَلى، إنَّ لكَ عِندنا حسنةً، وإنهُ لا ظلمَ عليكَ اليومَ، فتخرجُ بطاقةٌ [٤] فِيها أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولهُ، فيقولُ: احضُرْ وزنكَ [٥]. فيقولُ: يا ربِّ! ما هذهِ البطاقةُ مع هذه السجلاتِ؟ فيقالُ: فإنكَ لا تُظلمُ، فتوضعُ السجلاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشَتِ [٦] السجلاتُ، وثقلتِ البطاقةُ، ولا يثقلُ معَ اسمِ اللهِ تعالى شيءٌ» [٧].

• وقال رسول الله ﷺ: «يُصاحُ [٨] برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينُشر له تسعةٌ وتسعون سِجْلًا، كلُّ سجلٍ مدُّ البصر، ثم

---

(١) السجل: الكتاب الكبير.

(٢) أي: منتهاه.

(٣) يعني: ملك اليمين وملك الشمال.

(٤) أي: رُقعة صغيرة.

(٥) أي: احضر وزن حسناتك وسيئاتك.

(٦) خفَّت.

(٧) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢١٣) والترمذي (٢٦٣٩) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦)، وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي في «الشعب»، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥)، و«شرح الطحاوية» (٥٦٧)، و«صحيح الجامع» (١٧٧٦)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٨) أي: يُنادَىٰ عليه.

يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنكِر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، ثم يقول: أَلَكَ عذرٌ، أَلَكَ حسنةٌ؟ فيَهابُ [(١)] الرجل فيقول: لا، فيقول: بلى، إن لكَ عندنا حسنةً، وإنه لا ظلمَ علَيك اليوم، فتُخرجُ له بطاقةٌ فيها أَشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلَمُ، فتوضع السِّجْلات في كفَّةٍ، والبطاقة في كفَّةٍ، فطاشت السجلات، وثَقُلتِ البطاقة»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ! مَهْمَا عَبَدْتَني ورَجوْتَني ولم تُشرِك بي شيئًا غَفرتُ لك على ما كان منك، وإنِ استقْبلتَني بملءِ السماءِ والأرضِ خَطايا وذُنوبًا استقبلتُكَ بمِلئِهِنَّ منَ المغفرةِ، وأَغفِرُ لكَ ولا أُبالي»[(٣)].

• وقال رسول الله ﷺ: «قالَ الله تعالى: إذا تقرَّب إليَّ العَبدُ شِبرًا تقرَّبتُ إليهِ ذِراعًا، وإذا تقرَبَ إليَّ ذِراعًا تقرَّبتُ مِنْهُ باعًا، وإذا أتاني مَشْيًا أتيتُه هَروَلة»[(٤)].

• وقال ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ! إنْ ذكَرتَني في نفسِكَ ذكَرتُكَ

---

(١) أي: فيخاف.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧١٠) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٠٩٥).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي الدرداء، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٤١).

(٤) رواه البخاري (٧٠٩٨) عن أنس و(٦٩٧٠) عن أبي هريرة، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن سلمان.

في نفْسي، وإنْ ذكرتَني في مَلإٍ ذكَرتُك في مَلإٍ خيْرٍ منْهُم، وإنْ دَنَوْتَ مني شِبْرًا دنوْتُ منْكَ ذِراعًا، وإنْ دنوتَ مني ذِراعًا، دنوتُ منك باعًا، وإنْ أتيتَني تَمشي، أتيْتُ إليكَ أهَروِلُ»(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ! قُمْ إليَّ أَمْشِ إليكَ، وامش إليَّ أُهَرْوِلُ إليكَ»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي؛ وأنا معه حين يذكرني، والله لله أفرَحُ بتوبة عبده من أحدكم يجدُ ضالَّتَهُ بالفلاةِ، ومن تقرَّب إليَّ شبرًا، تقرَّبت إليه ذراعًا، ومن تقرَّبَ إليَّ ذراعًا، تقرَّبت إليه باعًا، وإن أقبل إليَّ يمشي، أقبلتُ إليهِ أهرولُ»(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عمِلَ حسنةً، فله عشرُ أمثالها، وأَزيدُ، ومن عمِلَ سيِّئةً فجزاؤها مثلها، أو أغفِرُ، ومن عمِلَ قُرابَ الأرضِ خطيئةً، ثم لقِيَني لا يشرك بي شيئًا جعلتُ له مثلها مغفِرةً، ومن اقتربَ إليَّ شبرًا، اقتَربتُ إليهِ ذراعًا، ومن اقتربَ إليَّ ذراعًا، اقترَبتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي، أتيتُهُ هرولةً»(٤).

• وقال ﷺ: «لوْ أخطأتمْ حتَّى تَبلُغَ خطَاياكُم السَّماءَ، ثمَّ تُبتُمْ لتَابَ الله عليكمْ»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٧٨) عن رجل، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٧)، و«صحيح الجامع» (٤٣٤٠)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٧) عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (٥/ ١٥٣)، ومسلم (٢٦٨٧) وابن ماجه (٣٨٢١) عن أبي ذر.

(٥) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) عن أبي هريرة، وحسنه البوصيري في «الزوائد» =

• وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ العبادَ لم يُذْنِبوا لَخلَقَ الله خَلْقًا يُذْنِبونَ ثمَّ يستغفِرونَ، ثمَّ يَغفِرُ لهمْ، وهُوَ الغفور الرَّحيمُ»[1].

• وقال ﷺ: «لو تَعلمونَ قَدْرَ رحمةِ الله لاتَّكلتُمْ عليها»[2].

• وقال ﷺ: «لو لم تُذْنِبوا لجاءَ الله تعالى بقوْمٍ يُذنِبونَ؛ ليَغفِرَ لهم»[3].

• وقال ﷺ: «لولا أنَّكم تذنبون، لَخَلَقَ الله خلْقًا يذنبون، فيغْفِر لهم»[4].

• وقال ﷺ: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة، ما طَمِع في الجنة أحد، ولو يعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرحمة، ما قَنِط من الجنة أحد»[5].

• وقال ﷺ: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ لوْ أكثَروا منَ السيِّئاتِ، الذينَ بدَّلَ الله عَزَّوَجَلَّ سيئاتِهِمْ حَسناتٍ»[6].

والألباني في «الصحيحة» (٩٠٠)، و«صحيح الجامع» (٥٢٣٥).

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٤) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٤٣).

(٢) صحيح: رواه البزار عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٦٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٨٩) عن ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٠)، و«صحيح الجامع» (٥٣٠١)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

(٤) روا مسلم (٢٧٤٨) والترمذي (٣٥٣٩) عن أبي أيوب.

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٥) والترمذي (٣٥٤٢) عن أبي هريرة.

(٦) حسن: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨١) عن أبي هريرة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢١٧٧)، و«صحيح الجامع» (٥٣٥٩).

• وقال ﷺ: «من تابَ إلى الله قبلَ أن يغرغرَ، قبِل الله منهُ»[(١)].

وفي رواية: «إن الله تعالى يقبل..».

• وقال ﷺ: «مَن تاب قبل أن تطلعُ الشمس من مغربها، تاب الله عليه»[(٢)].

• وقال ﷺ: «مَن زنى خرج منه الإيمان، فإن تاب تاب الله عليه»[(٣)].

• وقال ﷺ: «النَّدمُ توْبةٌ»[(٤)].

• وقال رسول الله ﷺ: «النَّدمُ توبةٌ، والتائبُ من الذنْبِ كمنْ لا ذنْبَ لهُ»[(٥)].

• وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفْسي بيدِهِ، لو لم تُذنِبوا لذهَبَ الله بكم، ولجاءَ بقومٍ يذنبونَ فيستغفرونَ الله فيَغفرُ لهم»[(٦)].

• وقال ﷺ: «لو لم تكونوا تُذنبون، لخِفْتُ عليكم ما هو أكبرُ من ذلك؛ العُجْبَ العُجْب»[(٧)].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٦) عن رجل، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٣٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٣) عن أبي هريرة.

(٣) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٧٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «التاريخ» وابن ماجه، والحاكم عن ابن مسعود، والحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢). وقد تقدم.

(٥) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٠) عن أبي سعيد الأنصاري، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٣).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٣٠٩) ومسلم (٢٧٤٩) عن أبي هريرة.

(٧) حسن: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» والبزار عن أنس، وقال الحافظ المنذري: «إسناده جيد». وحسّنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٦٥٨)، =

• وقال رسول الله ﷺ: «يجيء يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، يغفرُها الله لهم، ويضعُها على اليهود»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار أربعةٌ، فيُعرضون على الله، فيلتفت إليه أحدهم فيقول: أي ربِّ! إذ أخرجتني منها لا تُعِدْني فيها، فينجيه الله منها»[٢].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يُدنِي[٣] المؤمِنَ، فيضعُ عليهِ كَنَفَهُ[٤] وسترَهُ منَ الناسِ، ويقرِّرهُ[٥] بذنوبِهِ فيقولُ: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ فيقولُ: نعمْ أيْ ربِّ، حتَّى إذا قررهُ بذنوبِهِ ورأى في نفسهِ أنهُ قد هلكَ، قالَ: فإني قد سترتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ، ثمَّ يُعطَى كتابَ حسناتِهِ بيمينِهِ، وأمَّا الكافرُ والمنافقُ فيقولُ الأشهادُ[٦]: هؤلاءِ الذينَ كذبُوا على ربِّهِمْ ألا لعنةُ الله على الظَّالِمِينَ»[٧].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ الرحمةَ يومَ خلقَها مئة رحمةٍ، فأمسكَ عندهُ تسْعًا وتِسعينَ رحمةً. وأرسلَ في خلقِهِ كلهمْ رحمةً واحِدةً، فلوْ يعلمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عندَ الله منَ الرحمةِ لم ييأسْ منَ الجنَّةِ، ولوْ يعلمُ

و«صحيح الجامع» (٥٣٠٣) و«صحيح الترغيب» (٢٩٢١).

(١) رواه مسلم (٢٧٦٢) عن أبي موسى.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٨٥) ومسلم (١٩٢) عن أنس.

(٣) يُقرِّب.

(٤) أي: سِترَه.

(٥) يجعله يعترف به.

(٦) أي: الحاضرون يوم القيامة من الأنبياء والملائكة.

(٧) رواه أحمد (٢/ ٧٤) والبخاري (٢٣٠٩) ومسلم (٢٧٦٨) والنسائي وابن ماجه (١٨٣) عن ابن عمر.

المؤمِنْ بالذي عندَ الله مِنَ العذابِ لم يأمَنْ من النارِ»[١].

(٣١) التوبة النَّصُوح تَجُبُّ ما قبلها:

* قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

* وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

• قال رسول الله ﷺ: «التائبُ من الذنب كمَن لا ذنبَ له»[٢].

□ سُئل ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: أأُسبِّحُ أو أستغفر؟ فقال: «الثوبُ الوسخ أحوجُ إلى الصابون مِن البخور»[٣].

(٣٢) التوبة النصوح تبدِّل السيئات حسنات:

* قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

(٣٣) التوبة والاستغفار يرفعان الدرجات:

• قال رسول الله ﷺ: «إن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ليرفعُ الدرجةَ للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنَّى لي هذه؟! فيقول: باستغفار ولدِك لك»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٤) ومسلم عن أبي هريرة.
(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) عن عبد الله مسعود رضي الله عنه.
(٣) ذكره ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (١١/ ١٠٣) وأقرّه واستحسنه.
(٤) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وحسنه العلاّمة شعيب الأرنؤوط.

(٣٤) التوبة سبب للفلاح:

* قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص].

(٣٥) التوبة النصوح سبب للحياة الهادئة المطمئنة الطيِّبة:

* قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

(٣٦) التوبة سبب لحلول البركات من السماء والأرض:

* قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

* وقال على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

* وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

فالتوبة والاستغفار سبب لسَعَة الرزق والإمدادِ بالمال والبنين.

(٣٧) والتوبة سبب لقوة البدن:

كما جاء في سورة هود في الآية (٥٢) التي مرَّت سابقًا.

(٣٨) التوبة حياة للقلب وسبب لنقائه وصفائه وبياضه:

* قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المؤمنَ إذا أذنب، كانت نُكتةٌ سوداء في قلبه، فإنْ تاب ونَزَع واستغفر، صُقِل قَلْبُه، وإن زاد زادت حتى يَعْلُو قلبه ذاك الرَّيْن الذي ذكر الله عز وجل في القرآن:** ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين]»[١].

• وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر فقال: أيُّكم سَمِع رسول الله يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. قال: لعلَّكم تَعنُون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قال: أجل، قال: تلك تُكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ فقال حذيفة: فأسكت[٢] القوم، فقلت: أنا، قال: أنت، لله أبوك!

فقال حذيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تُعرضُ[٣] الفتنُ على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا[٤]، فأيُّ**

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧) والترمذي (٣٣٣٤).

(٢) فأسكت القوم: قال جمهور أهل اللغة: سكت وأسكت لغتان بمعنى: الصمت. قال الأصمعي: سكت: صمت، وأسكت: أطرق.

(٣) «تعرض الفتن» أي: تلصق بعرض القلوب.. أي: جانبها -كما يؤثر الحصير بجنْب النائم.

(٤) «عودًا عودًا»: قال النووي: هذان الحرفان مما اختُلف في ضبطه على ثلاثة أوجه: أظهرها وأشهرها «عُودًا عُودًا»، والثاني: عَوْدًا عَوْدًا، والثالث: «عَوذًا =

قلب أُشْرِبَهَا [١]، نُكِت فيه نُكْتة [٢] سوداء، وأيُّ قلب أَنكَرَها [٣] نُكِت فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قلبيْن: على أبيض مثل الصَّفَا[٤] فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أَسْودُ مِرْبادًا [٥]، كالكوز مُجَخِّيًا[٦]، لا يعرف معروفًا ولا يُنكِرُ مُنكرًا،

عَوْذًا»، ولم يذكر صاحب «التحرير» غير الأول. وأما القاضي عياض فذكر هذه الأوجه الثلاثة عن أئمتهم واختار الأول أيضًا.

(١) «فأيّ قلب أشربها» أي: دخلت فيه دخولاً تامًّا وألزمها وحلَّت منه محل الشراب. ومنه قولهم: «ثوب مشوب بِحُمْرة» أي: خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها.

(٢) «نكت فيه نكتة» أي: نُقط نقطة، قال ابن دريد: كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت.

(٣) أنكرها: ردّها.

(٤) «مثل الصفا»: قال القاضي عياض: ليست تشبيهًا بالصفا بيانًا لبياضه، لكن صفة لأخرىٰ، لشدته علىٰ عقد الإيمان وسلامته من الخل، وأن الفتن لم تُلصق به ولم تُؤثِّر فيه كالصَّفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

(٥) «مربادا»: قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كذا هو في أصول روايتنا وأصول بلادنا، وهو منصوب علىٰ الحال». وذكر القاضي عياض خلافًا في ضبطه، وأن منهم من ضبطه كما ذكرنا، ومنهم من رواه مربئد، قال القاضي: وهذه رواية أكثر شيوخنا، وأصله أن لا يهمز، ويكون مربد مثل مسود ومحمر، وكذا ذكره أبو عبيد الهروي، وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج لأنه من «اربد» إلا علىٰ لُغة من قال: «احمأر» بهمزة بعد الميم؛ لالتقاء الساكنيْن، فيُقال: اربأد ومربئد. والدال مشدَّدة علىٰ القوليْن.

(٦) «مجخّيًا»: معناه: مائلاً. كذا قاله الهروي وغيره، وفسَّره الراوي في الكتاب بقوله: منكُوسًا، وهو قريب من معنىٰ المائل، قال القاضي عياض: قال لي ابن سراج: ليس قوله: «كالكوز مجخيًا» تشبيهًا لما تقدَّم من سواده، بل هو وصف =

إلَّا ما أُشرِب من هَوَاهُ»(١).

(٣٩) التوبة سبب لرفع البلايا:

* فالمصائبُ التي تحلُّ بالإنسان قد تكون بسبب ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى].

* وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة].

* وتأتي التوبة رافعةً للبلايا، كما قال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات].

(٤٠) التوبة سبب لدخول الجنة والبعد عن النار:

* قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾ [مريم].

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾ [التحريم].

• وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا

آخر من أوْصافه، بأنه قُلِب ونُكِس حتىٰ لا يعلق به خير ولا حكمة، ومثَّله بالكوز المجخي، وبيَّنه بقوله: لا يعرف معروفًا ولايُنكِر منكرًا».

(١) أخرجه مسلم (ح١٤٤).

كثيرًا»[(١)].

* وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر].

(٤١) ومن عظم التوبة والاستغفار أن الله أقام صفوة خلقه من النبيين والمرسلين يستغفرون للمؤمنين قبل وجودهم:

* قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

* وقال تعالى لخليله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

* وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

(٤٢) وأخيرًا: التوبة فرارٌ من ظلم النفس:

* فقد قسَّم الله العباد إلى تائب وظالم، وما ثمَّ قسمٌ ثالثٌ ألبتة، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات]، ولا أظلمُ مِن العاصي لجهله بعيْب نفسه وآفات عمله وعدم توقيره لربه.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٨١٨) عن عبد الله بن بسر، وأبو نعيم عن عائشة، وأحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء موقوفًا. وصححه الضياء، والبوصيري، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٣٠)، و«تحقيق المشكاة» (٢٣٥٦).

من علو الهمة في التوبة أن تعيَ حقائقها ومعانيها وسرائرها ولطائفها، وتُحقِّق ذلك عِلْمًا وعملاً وحالاً:

ما هي التوبة؟

التوبةُ هي رجوع العبد إلى الله. والهدايةُ التامة لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأوَّل: جهلٌ يُنافي معرفة الهدى، والثاني: غَيٌّ ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصحُّ التوبة إلَّا بعد معرفة الذنب، والاعترافِ به، والتخلُّص من سوء عواقبه أوَّلًا وآخرًا.

□ قال الهروي عن التوبة: «هي أن تنظرَ في الذنب إلى ثلاثة أشياء:

أ- إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه.

ب- وفرحك عند الظَّفَر به.

جـ- وقعودك على الإصرار عن تداركه، مع تيقُّنك نظرَ الحق إليك.

أ- انخلاعك عن العصمة حين إتيانه.

أي: انخلاعه عن اعتصامه، أو عصمة الله إياه.

□ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة: انخلاعه عن اعتصامه بالله؛ فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران]، فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدًا.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج]، أي: متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما العدوانِ اللذانِ لا يفارقان العبد، وعداوتُهما أضرُّ من عداوة العدو الخارجي. فالنصرُ على هذا العدو أهم، والعبدُ إليه أحوج،

وكمالُ النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

وسيأتي الكلام -إن شاء الله تعالى- بعد هذا في حقيقة «الاعتصام» وأن الإيمان لا يقوم إلَّا به.

ويحتملُ أن يريد الانخلاعَ من عصمة الله لك، وأنك إنما ارتكبتَ الذنب بعد انخلاعك من توبةِ عصمته لك، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظمَ خَطَره عنده، واشتدت عليه مفارقتُه، وعلم أن الهُلْك كل الهلك بَعْده، وهو حقيقةُ الخذلان، فما خَلَّى الله بينك وبين الذنب إلَّا بعد أن خذلك، وخلَّى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنبُ إليك سبيلًا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخُذلان: أن يَكِلكَ الله إلى نفسك، ويخلِّيَ بينك وبينها. والتوفيق: أن لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسك، وله سبحانه في هذه التخلية -بينك وبين الذنب وخُذلانك حتى واقَعْتَه- حكَمٌ وأسرار.

وعلى الاحتمالين فترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك»[(١)].

ب- فرحك عند الظَّفَر بالمعصية:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرحُ بالمعصية دليلٌ على شدة الرغبة فيها، والجهلُ بقدر من عصاه، والجهلُ بسوء عاقبتها وعظمِ خطرها، ففرحُه بها غطَّى عليه ذلك كله، وفرحُه بها أشدُّ ضررًا عليه من مواقعتها، والمؤمنُ لا تتمُّ له لذةٌ بمعصيةٍ أبدًا، ولا يكمُل بها فرحُه، بل لا يباشرُها إلَّا والحزنُ مخالطٌ لقلبه، ولكنَّ سُكرَ الشهوة يَحجبه عن الشعور به، ومتى خَلِيَ قلبه من هذا الحزن. واشتدت غِبطتُه وسروره، فلْيَتَّهم إيمانَه، ولْيَبْكِ على موت

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٩- ١٨٠).

قلبه؛ فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذنب، وغاظه وصعُب عليه، ولا يُحِسُّ القلبُ بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به فما لجُرح بميتٍ إيلامٌ.

وهذه النكتةُ في الذنب قلَّ مَن يهتدي إليها أو ينتبَّهُ لها، وهي موضعٌ مَخوفٌ جدًّا، مترامٍ إلى هلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء: خوفٌ من الموافاة عليه قبل التوبة. وندمٌ على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشميرٌ للجد في استدراكه»[1].

□ وقال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَنالُ لذَّةَ المعاصي إلَّا سكرانُ الغفلة.

فأما المؤمن؛ فإنه لا يلتذُّ؛ لأنه عند التذاذه يقفُ بإزائه عَلَمُ التحريمِ وحذرُ العقوبة.

فإن قويتْ معرفتُه؛ رأى بعين علمِه قُرْبَ الناهي، فيتنغَّص عيشهُ في حال التذاذه.

فإن غَلَبَ سُكْرُ الهوى؛ كان القلبُ متنغِّصًا بهذه المراقبات، وإن كان الطبع في شهوتِهِ.

وما هي إلَّا لحظةٌ، ثم خُذْ مِن غريم نَدَم ملازمٍ، وبكاءٍ متواصل، وأسفٍ على ما كان مع طولِ الزَّمان، حتى إنَّه لو تيقَّن العفوَ؛ وقف بإزائه حَذَر العتاب.

فأُفٍّ للذنوب! ما أقبحَ آثارَها! وما أسوأَ أخبارَها! ولا كانت شهوةٌ لا تُنال إلَّا بمقدار قوة الغفلة»[2].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠ - ١٨١).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٢٣٥ - ٢٣٦).

جـ: «وقعودك على الإصرار عن تداركه»:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الإصرار: هو الاستقرارُ على المخالفة، والعزمُ على المعاودة. وذلك ذنبٌ آخر، لعلَّه أعظمُ من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبةِ الذنب: أنه يوجِبَ ذنبًا أكبرَ منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصيةٌ أخرى، والقعودُ عن تدارك الفارط من المعصية إصرارٌ ورضًا بها وطمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهلاك، وأشد من هذا كله: المجاهرةُ بالذنب، مع تيقُّنِ نظرِ الرب جَلَّ جَلَالُهُ من فوق عرشه إليه، فإن آمَن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمِنْ بنظره إليه واطلاعه عليه فكُفرٌ وانسلاخٌ من الإسلام بالكلية. فهو دائرٌ بين الأمرين: بين قلَّة الحياء، ومجاهرةِ نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين، فلذلك يُشترطُ في صحة التوبة تيقُّنُه أن الله كان ناظرًا -ولا يزال- إليه مطلعًا عليه، يراه جَهْرةً عند مواقعة الذنب؛ لأن التوبةَ لا تصحُّ إلَّا من مسلم، إلَّا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له، فتوبتُه دخولُه في الإسلام، وإقرارُه بصفات الرب جَلَّ جَلَالُهُ»[(١)].

□ كان أحدُ العُبَّاد يبكي ويقول: «يا رب أَتُراك ترحم مَن لم تقرَّ عيناه بالمعاصي حتى علم أن لا عين تراه غيرك».

□ قال بلالُ بن سعد: «لا تنظرْ إلى صِغَرِ الخطيئة، ولكنِ انظرْ مَن عصيتَ؟»[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٥٤).

ويحك -يا عبد السَّوء-! لمَ جعلتَ اللهَ أهونَ الناظرين إليك؟! أفكان اللهُ عَجَّلَ أهونَ عليك من بعضِ خلقه؟!!.

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يا صاحبَ الذنب، لا تأمننَّ من سوء عاقبته. ولَـمَا يتبع الذنبَ أعظمُ من الذنب إذا عملتَه؛ قلَّةُ حيائك ممن على اليمين والشمال -وأنت على الذنب- أعظمُ من الذنب الذي عملته. وضَحِكُكَ -وأنت لا تدري ما اللهُ صانعٌ بك- أعظم من الذنب. وفرحُك بالذنب -إذا ظفِرت به- أعظم من الذنب: وحزنُك على الذنب -إذا فاتك- أعظم من الذنب إذا ظفرت به. وخوفُك من الريح إذا حرَّكت سترَ بابك -وأنت على الذنب- أعظمُ من الذنب، ولا يضطرب فؤادُك من نظر الله إليك -أعظم من الذنب إذا عملته»[1].

شرائط التوبة: الندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود إليه.. أضِف إليها الاعتذار:

□ قال الهروي: «وشرائطُ التوبة ثلاثةٌ: الندم، والإقلاع، والاعتذار».

□ قال ابن القيم معلِّقًا وشارحًا: «فحقيقةُ التوبة: هي الندمُ على ما سلف منه في الماضي، والإقلاعُ عنه في الحال. والعزمُ على ألَّا يعاودَه في المستقبل.

والثلاثةُ تجتمعُ في الوقت الذي تقعُ فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويُقلع، ويعزم.

فحينئذٍ يرجعُ إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوعُ هو حقيقةُ التوبة.

---

(١) «الحلية» (١/ ٣٢٤).

ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة، جُعلت شرائطَ له.

فأما الندم: فإنه لا تتحققُ التوبة إلَّا به، إذ مَن لم يندم على القبيح، فذلك دليلٌ على رضاه به، وإصراره عليه. وفي «المسند»: «**الندم توبة**»(١).

□ قال عكرمة: «كلُّ حزن يَبلَى إلَّا حُزن التائب»(٢).

ونقف مع الندم وقفة طويلة:

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾:

□ قال ابن الجوزي: «تفكرّتُ في نفسي يومًا تفكُّرَ مُحَقِّق، فحاسبتها قبل أن تحاسَبَ، ووزنتُها قبل أن تُوزن، فرأيتُ اللطف الربانيَّ:

فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لُطفًا بعد لُطفٍ، وسترًا على قبيح، وعفوًا عَمّا يُوجب عقوبةً، وما أرى لذلك شُكْرًا إلَّا باللسانِ.

ولقد تفكَّرتُ في خطايا؛ لو عُوقبتُ ببعضها، لهلكتُ سريعًا، ولو كُشِف للناس بعضُها لاستحييتُ.. فصرتُ إذا دعوتُ؛ أقول: اللهمَّ! بحمدكَ وسَتْرِكَ عليَّ اغفر لي!

ثم أنا أتَقاضى القدرَ مراداتي، ولا أتقاضى نفسي بصبرٍ على مكروه ولا بشكر على نعمةٍ.

فأخذتُ أنوحُ على تقصيري في شُكْر المنعم وكوني أتلذَّذُ بإيرادِ العِلْم من غير تحقيق عمل بهِ! وقد كنتُ أرجو مقامات الكبارِ؛ فذهب العمرُ وما حصل المقصودُ!! فوجدتُ أبا الوفاءِ بن عَقيل قد نحا نحوَ ما نُحْتُ، فأعجبتني نياحتُهُ، فكتبتها ها هنا..

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠١).

قال لنفسه: يا رعناءُ! تُقَوِّمين الألفاظ ليُقال: مناظر!! وثمرةُ هذا أن يُقال: يا مناظرُ! كما يقالَ للمصارع الفاره[(١)].

ضيَّعتِ أعزَّ الأشياء وأنفسَها عند العقلاء -وهي أيام العُمرُ-، حتى شاع لك بين من يموتُ غدًا اسمُ مناظر، ثم يُنْسَى الذاكرُ والمذكورُ إذا درستِ القلوب! هذا إن تأخَّرَ الأمرُ إلى موتِك، بل ربَّما نشأ شاب أفره منك، فموَّهوا له، وصار الاسم له!! والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انْطَووا نَشَرَهم[(٢)]، وهو العملُ بالعِلْمِ، والنظر الخالصُ لنفوسهم.

□ أُفٍّ لنفسي! وقد سطرتُ عدَّة مجلَّدات في فنون العلوم وما عبَقَ[(٣)] بها فضيلة، إنْ نُوظِرَتْ؛ شَمَخَتْ، وإنْ نوصِحَتْ؛ تَعَجْرَفَتْ، وإنْ لاحتِ الدنيا؛ طارت إليها طيران الرَّخَم[(٤)]، وسقطتْ عليها سقوط الغُراب على الجِيَفِ! فليْتَها أخذتْ أَخْذَ المضطرِّ مِن الميتة! توفِّر في المخالطة عيوبًا تُبْلِي ولا تحتسِمُ نظَرَ الحقِّ إليها!! وإن انكسرَ لها غَرَضٌ تضجَّرَتْ؛ فإن أُمِدَّت بالنِّعم؛ اشتغلت عن المنعِم!!

أُفٍّ والله مني اليوم على وجه الأرضِ وغدًا تحتها!

والله؛ إنَّ نتَنَ جسدي بعد ثلاثٍ تحت التراب أقلُّ من نتنِ خلائقي وأنا بين الأصحاب!

والله؛ إنني قد بهرَني حِلْمُ هذا الكريم عني، كيف يسترني وأنا أتهتَّك ويجمعني وأنا أتشتَّتُ؟ وغدًا يُقال: مات الحبرُ العالِمُ الصالحُ، ولوْ عرفوني

(١) الفارع: الجيد البارع.
(٢) يعني: إذا ماتوا أحيا ذِكرهم.
(٣) يعني: ما علق بنفسه فضيلة.
(٤) الرَّخَم: نوعٌ من أنواع الطيور الجارحة.

حقَّ معرفتي بنفسي ما دَفَنوني.

والله؛ لأُنادِينَّ على نفسي نداء المكشِّفين معائب الأعداءِ، ولأَنُوحَنَّ نَوْح الثَّاكِلِينَ للأبناء؛ إِذْ لا نائحَ ينوحُ عليَّ لهذه المصائب المكتومةِ والخلال المُغطَّاة التي قد سَتَرَها مَن خَبَرَها وغَطَّاها مَن عَلِمَها والله؛ ما أَجِدُ لنفسي خَلَّةً أستحسنُ أن أقول متوسِّلًا بها: اللهُمَّ! اغفرْ لي كذا بكذا.

والله؛ ما التفتُ قطُّ إلَّا وجدتُ منه سبحانه برًّا يكفيني ووقاية تحميني مع تسلُّطِ الأعداء، ولا عَرَضتْ حاجةٌ فمددْتُ يدي إلَّا قضاها.

هذا فِعلُه معي وهو ربٌّ غنيٌّ عنِّي، وهذا فعلي وأنا عبدٌ فقير إليه!!

ولا عُذْر لي فأقولُ: ما دريتُ! أو: سهوتُ! والله؛ لقد خلقني خلْقًا صحيحًا سليمًا، ونوَّر قلبي بالفِطْنَةِ، حتى إنَّ الغائبات والمكنونات تنكَشِفُ لفهمي.

فوا حسرتاه على عُمُرٍ انقضَى فيما لا يطابقُ الرِّضَى! واحِرْماني لمقامات الرجال الفطناء! يا حسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنب الله وشماتةِ العدوِّ بي! واخيبةَ من أحسن الظنَّ بي إذا شهدت الجوارحُ عليّ! واخذلاني عند إقامة الحجَّة!

سَخِر والله مني الشيطان وأنا الفَطِن!!

اللهم! توبةً خالصةً من هذه الأقذار، ونهضةً صادقةً لتصفية ما بقي من الأكدار! وقد جئتُكَ بعد الخمسينَ، وأنا من خَلَق المتاع، وأبى العلمُ إلَّا أن يأخذ بيدي إلى معدِنِ الكرم، وليس لي وسيلةٌ إلَّا التأسُّفُ والندم؛ فوالله؛ ما عصيتُك جاهلًا بمقدار نِعَمِك، ولا ناسيًا لما أسلفتَ مِن كَرَمِك؛

فاغفرْ لي سالفَ فعلي»[١].

أنا العبد:

أنـا العَبْـدُ الـذي كَـسَبَ الـذُّنُوبَا — وصَـدَّتْه الأمَـاني أن يَتُوبَـا

أنـا العَبْـدُ الـذي أضْـحَى حَزِينًا — عـلى زلَّاتِـهِ قَلِقًـا كَئِيبـا

أنـا العَبْـدُ الـذي سُـطِرَتْ عَلَيْـهِ — صَـحَائِفُ لَمْ يَخَـفْ فيهـا الرَّقِيبـا

أنـا العبـدُ المُسِيءُ عَـصَيتُ سِرًّا — فَـمَا لِي الآن لا أُبْـدِي النَّحيبـا

أنـا العَبْـدُ المُفَـرِّطُ ضَـاعَ عُمْـرِي — فَلَـمْ أَرْعَ الـشَّبيبةَ والمَـشِيبَا

أنـا العبْـدُ الغَريـقُ بلُـجِّ بَحْـرٍ — أَصِـيحُ لـرُبَّما أَلْقَـى مُجِيبـا

أنـا العَبْـدُ الـسَّقِيمُ مـن الخطايـا — وقـد أَقْبَلْـتُ ألـتمسُ الطَّبِيبَـا

أنـا العَبْـدُ المُخَلَّـفُ عَـنْ أُنـاسٍ — حَـوَوْا مِـنْ كُـلِّ معـروفٍ نَـصيبَا

أنا العبـدُ الـشَّرِيدُ ظلمـتُ نَفْـسِي — وقـد وافيـتُ بَـابَكُمُ مُنِيبـا

أنـا العبـد الفقـيرُ مَـدَدْتُ كَفِّـي — إلـيكُمْ فـادفعوا عَنِّـي الخُطُوبَـا

أنـا الغـدَّارُ كـمْ عاهـدتُ عَهْـدًا — وكنـتُ عـلَى الوفـاءِ بـه كَـذُوبَا

أنـا المقطـوعُ فـارحمني وَصِـلْني — ويَـسِّرْ منـكَ لي فرجًـا قريبَـا

أنـا المُـضْطرُّ أرجـو منـك عَفْـوًا — ومـن يَرْجُـو رضـاك فلـن يَخيبـا

فيـا أسَـفَى عـلى عُمْـرٍ تَقَـضَّى — ولم أكْـسِبْ بـه إلَّا الـذُّنُوبَا

وأحـذَرُ أن يُعَـاجِلَني ممـاتٌ — يُحَـيِّرُ هـوْلُ مـصْرَعِهِ اللبيبـا

ويا حُزْنَـاهُ مَـن حَـشْرِي ونَـشْرِي — بيـومٍ يجعـلُ الولـدانَ شِـيبَا

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٧٣٦- ٧٣٩).

تَفَطَّرَتِ السَّمَاءُ بِهِ ومَارَتْ — وأَصْبَحَتِ الجِبَالُ بِهِ كَثِيبَا
إذا مَا قُمْتُ حَيْرانًا ظميئًا — حسيرَ الطَّرْفِ عُرْيَانًا سَلِيبا
ويا خَجَلاهُ من قُبْحِ اكتسابي — إذا مَا أبدتِ الصُّحُفُ العُيُوبَا
وذِلَّةِ موقفٍ وحسابِ عَدْلٍ — أكونُ به على نفسي حسيبا
ويا حَذَرَاه من نارٍ تَلَظَّى — إذَا زَفَرَتْ وأَقْلَقَتِ القُلُوبَا
تَكَادُ إذا بَدَتْ تَنْشَقُّ غَيْظًا — على مَنْ كان ظَلَّامًا مُرِيبا
فَيَا مَنْ مَدَّ في كَسْبِ الخَطَايَا — خُطَاهُ أما آنَ الأوانُ لأنْ تَتوبا
أَلَا فاقلعْ وَتُبْ واجْهَدْ فإنَّا — رَأيْنا كُلَّ مُجتهِدٍ مُصِيبَا [1]

▫ «لا بُدَّ والله من قلق وحُرْقة: إما في زواية التعبُّد.. وإمَّا في هاوية الطرد.. إمَّا إن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب، وإلَّا فنار جهنم أشدُّ حرًّا.. القلق.. القلق يا من سُلِبَ قلبه.. البكاء.. البكاء.. يا من عظم ذنبه».

كيف لا يندم العاصي على ذنبه؟

كيف لا يندم العاصي المسيء على ذنبه، وهو يعلم أن الذنب تتبعه خصالٌ مذمومة:

أولها: أنه أسخط اللهَ وهو قادرٌ عليه.

والثانية: أنه فرَّح إبليس -لعنه الله-.

والثالثة: أنه تباعَدَ من الجنة.

والرابع: أنه تقرَّب من النار.

(١) لعلي زين العابدين.

والخامسة: أنه قد آذى أحبَّ الأشياء إليه، وهي نفسه.

والسادسة: أنه نجَّس قلبه -وقد كان طاهرًا-، فالذنب نجاسة معنويّة.

والسابعة: أنه آذى الحَفَظَة.

والثامنة: أنه أحزن النبيَّ ﷺ في قبره.

والتاسعة: أنه أشهَد على نفسه السماواتِ والأرضَ -وجميع المخلوقات- بالعِصيان.

والعاشرة: أنه خان العهدَ والأمانة مع الله رب العالمين.

الإقلاع عن الذنب:

فتستحيلُ التوبة مع مباشرة الذنب.

الاعتذار:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الاعتذار: ففيه إشكالٌ. فإن من الناس من يقول: مِن تمام التوبة تركُ الاعتذار، فإن الاعتذارَ محاجَّةٌ عن الجناية، وتركُ الاعتذار اعترافٌ بها، ولا تصحُّ التوبة إلَّا بعد الاعتراف، وفي ذلك يقول بعضُ الشعراء لرئيسه، وقد عتب عليه في شيءٍ:

وما قابلتُ عَتْبك باعتذار ... ولكني أقول كما تقولُ

وأطْرُقُ باب عفوك بانكسار ... ويحكم بيننا الخُلْقُ الجميلُ

فلما سمع الرئيسُ مقالتَه قام وركب إليه من فوره. وأزال عَتْبه عليه.

فتمامُ الاعتراف: ترك الاعتذار، بأن يكون في قلبه ولسانه: اللهم لا براءةَ لي من ذنبٍ فأعتذر، ولا قوةَ لي فأنتصر، ولكني مذنبٌ مستغفر. اللهم لا عذرَ لي. وإنما هو محضُ حقك، ومحضُ جنايتي. فإن عفوتَ وإلَّا فالحق لك.

والذي ظهر لي من كلام صاحب «المنازل»: أنه أراد بالاعتذار إظهارَ الضعفِ والمسكنة، وغلبةَ العدو، وقوةَ سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانةٍ بحقك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطلاعك، ولا استهانةً بوعيدك، وإنما كان من غلبةِ الهوى، وضعفِ القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتكالًا على عفوك، وحُسنَ ظنٍّ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعًا في سَعة حلمك ورحمتك. وغَرَّني بك الغرور، والنفسُ الأمارةُ بالسوء، وسِترُك المرخِيُّ عليَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلَّا بك، ولا معونة على طاعتك إلَّا بتوفيقك.

ونحو هذا من الكلام المتضمِّنِ للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعترافِ بالعجز والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياسُ المتملِّقون لربهم عَزَّوَجَلَّ، والله يحب من عبده أن يتملق له.

• وفي الحديث: «**تملَّقوا لله**»، وفي «الصحيح»: «**لا أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله**». وإن كان معنى ذلك الإعذار. كما قال في آخر الحديث: «**مِن أجل ذلك أرسَلَ الرسلَ مبشِّرين ومُنذِرين**».

* وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المراسلات]، فإنه من تمام عدلِه وإحسانه: أن أعذر إلى عباده، وأن لا يؤاخذَ ظالمهم إلَّا بعد كمال الإعذار وإقامةِ الحجة عليه. فهو أيضًا يحبُّ من عبده أن يعتذر إليه، ويتنصَّل إليه من ذنبه.

• وفي الحديث: «**مَن اعتَذر إلى الله، قَبِل اللهُ عُذرَه**». فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

□ قال رجلٌ لذي النُّون رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يَعِظُ الناس: «يا شيخ! ما الذي أصْنَع؟ كلما وقفتُ على باب من أبواب المولى صرفني عنه قاطِعُ المِحَنِ

والبلوى! قال له: يا أخي، كُن على باب مولاك كالصَّبِيِّ الصَّغير مع أمِّه، كُلَّما ضرَبتْهُ أمُّه ترامَى عليها، وكُلَّما طردَتْهُ، تقرَّبَ إليها، فلا يزال كذلك حتى تضُمَّه إليها»[1].

ارفعْ طرْفَك إلى السماء وقلْ: إلهي وسيدي ومولاي، قد آن الرحيل إليك، وأزِف القدومُ عليك، ولا عُذْرَ لي بين يديك، غير أنَّك الغفور وأنا العاصي، وأنت الرَّحيم وأنا الجاني، وأنت السَّيد وأنا العبد، ارحم خضوعي وذُلِّي بين يديك..

إلهي إن كنتُ الغريقَ وعاصِيًا ... فعفوُك يا ذا الجود والسَّعة الرَّحْبُ

بشدّة فقري باضطراري بحاجتي ... إليك إلهي حين يشتدُّ بيَ الكرْبُ

بما بي من ضَعفٍ وعَجْزٍ وفاقة ... بما ضَمَّنَتْ مِن وُسْعِ رحمتِك الكُتُبُ

اعف عني فأنت الكريم، وارحمني فأنا المخطئ الجهول..

أَمولاي إنِّيَ عبدٌ ضعيفٌ ... أتيْتُكَ أرْغَبُ فيما لديْكَ

أتيتُكَ أشكو مُصابَ الذُّنوب ... وهل يُشتكى الضُّرُّ إلَّا إليك

فَمُنَّ بعفوكَ يا سيدي ... فليس اعتمادِيَ إلَّا عليك

نعم: «إذا تذلَّل العبد لمولاه، واعتذر إليه ممَّا جناه، قرَّبه وأدناه، وجعل جنَّة الخلد مأواه».

الاعتذار بالقدَر مخاصمةٌ لله:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما الاعتذارُ بالقدَر: فهو مخاصمةٌ لله، واحتجاجٌ من العبد على الرب، وحملٌ لذنبه على الأقدار، وهذا فعلُ

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (ص٥٠).

خصماءِ الله، كما قال بعضُ شيوخهم في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]. قال: «أتدرون ما المراد بهذه الآية؟ قالوا: ما المراد بها؟ قال: إقامة أعذار الخليقة».

وكذب هذا الجاهلُ بالله وكلامه. وإنما المراد بها: التزهيدُ في هذا الفاني الذاهب، والترغيبُ في الباقي الدائم، والإزراءُ بمن آثر هذا المزيَّنَ واتبعه، بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يعلب به. فيهش إليه ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين، فلم يقل: «زَيَّنَا للناس» والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام].

*وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

• وفي الحديث: «بُعثتُ هاديًا وداعيًا، وليس إليَّ من الهداية شيء، وبُعث إبليسُ مُغْويًا ومزيِّنًا، وليس إليه من الضلالة شيء»[1]، ولا يناقضُ هذا قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فإن إضافةَ التزيين إليه قضاءً وقدرًا، وإلى الشيطان تسببًا، مع أن تزيينَه تعالى عقوبةٌ لهم على ركونهم إلى ما زَيَّنَه الشيطانُ لهم. فمِن عقوبة السيئة: السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة: الحسنة بعدها.

والمقصودُ: أن الاحتجاجَ بالقدر منافٍ للتوبة. وليس هو من الاعتذار في شيء.

---

(١) موضوع: عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٠٨٨) للعقيلي وابن عدي، وقال العلامة الألباني: «موضوع». انظر: «ضعيف الجامع» (٢٣٣٨).

وفي بعض الآثار «إن العبد إذا أذنب. فقال: يا رب، هذا قضاؤك. وأنت قدَّرتَ عليَّ. وأنت حكمتَ عليَّ، وأنت كتبتَ عليَّ. يقول الله ﷻ: وأنت عملتَ، وأنت كسبتَ، وأنت أردتَ واجتهدت، وأنا أُعاقبك عليه.

وإذا قال: يا رب، أنا ظلمتُ، وأنا أخطأتُ، وأنا اعتديتُ، وأنا فعلتُ. يقولُ الله ﷻ: وأنا قدَّرتُ عليك وقضيتُ وكتبت، وأنا أغفرُ لك.

وإذا عمل حسنة، فقال: يا ربِّ أنا عملتُها، وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعمت. يقول الله ﷻ: وأنا أعنتك وأنا وفقتك، وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني، وأنت مَنَنْت عليَّ. يقول الله: وأنت عملتها، وأنت أرادتها، وأنت كسبتها».

◻ فالاعتذارُ اعتذاران: اعتذارٌ يُنافي الاعتراف، فذلك منافٍ للتوبة، واعتذارٌ يقرِّرُ الاعتراف، فذلك من تام التوبة»[1].

ومن علو الهمّة في التوبة أن تعلم حقائِقَها وهي:

تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له:

الحقائق: ما يتحقّق به الشيء، وتتبيَّن به صِحَّتُه وثبوته، فلكل حقٍّ حقيقة.

تعظيم الجناية:

◻ قال ابن القيم: «فأمَّا تعظيمُ الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يَندمْ عليها، وعلى قدْر تعظيمها يكون ندمُه على ارتكابها، فإنَّ من استهان بإضاعة فَلْس -مثلًا-، لم يندم على إضاعته، فإذا علم أنه دينارٌ اشتد ندمه، وعظُمت إضاعته عنده».

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٣ - ١٨٤).

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء:

أ- تعظيم الأمر.

ب- تعظيم الآمِر.

جـ- والتصديق بالجزاء»[(١)].

◻ أما تعظيم الآمر عَزَّوَجَلَّ: فالله عَزَّوَجَلَّ أعزُّ وأعظم من أن يُعصى.

* قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح].

◻ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تعرفون حقَّ عظمته».

◻ قال الحسن: «ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه؟».

◻ وقال مجاهد: «لا تُبالون عظمة ربكم».

◻ وقال ابن زيد: «لا ترون لله طاعة».

◻ وقال ابن القيم: «أي: لا تعاملونه معاملة من توقِّرونه؟ والتوقير: العظمة».

«وهذه الأقوالُ ترجع إلى معنًى واحدٍ، وهو أنَّهم لو عظَّموا الله وعرفوا حقَّ عظمته: وَحَّدُوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه: بحسب وقاره في القلب»[(٢)].

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلبَ التعظيمَ والتوقير من الناس، وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره؛ فإنك توقِّر المخلوق وتجلُّه أن يراك في حالٍ لا توقِّر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٨٥).

(٢) انظر «الفوائد» لابن قيم الجوزية، «فوائد الفوائد» (ص٩٤).

﴿لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾»[(١)].

من علامات توقير الله وتعظيمه:

(١) ألا يُقرنَ اسمُه باسم ما يُستَحى من ذكره:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعضُ السلف: لِيَعْظُم وقارُ الله في قلب أحدكم أن يذكُرَهُ عند ما يُسْتَحى من ذكره فيقرن اسمَه به؛ كما تقول: قَبَّح اللهُ الكلب والخنزير والنَّتْنَ.. ونحو ذلك! فهذا من وقار الله»[(٢)].

(٢-٥) أن لا تَعدل به شيئًا من خلقه: في اللفظ، ولا في الحب والتعظيم، ولا في الطاعة، ولا في الخوف والرجاء:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن وقاره أن لا تعدلَ به شيئًا من خلقه: لا في اللفظ؛ بحيث تقول: والله وَحياتِكَ، ما لي إلَّا اللهُ وأنت، وما شاء الله وشئت.. ولا في الحب والتعظيم والإجلال.

ولا في الطاعة، فتطيعُ المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظمَ؛ كما عليه أكثرُ الظلمة والفجرة.

ولا في الخوف والرجاء؛ ويجعَلُهُ أهون الناظرين إليه..»[(٣)].

(٦) ولا يستهينُ بحقه:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يستهينُ بحقِّه ويقول: هو مبنيٌّ على المسامحة»[(٤)].

---

(١) «الفوائد» لابن قيم الجوزية (ص٤١١)- طبع دار ابن خزيمة.

(٢) «الفوائد» (ص٢١٤).

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٧-٨) ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يجعله على الفضلة.. ويقدِّم حق المخلوق عليه»[1].

ويُعطى لله الفضلة من الوقت والهَمِّ والبذل، والمال، والذكر.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١١].

(٩) ولا يكون اللهُ ورسولُه في حَدٍّ وناحيةٍ، والناس في ناحيةٍ وحدٍّ أعلى منهما:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يكون الله ورسوله في حدٍّ وناحيةٍ، والناسُ في ناحيةٍ وحَدٍّ، فيكون في الحدِّ والشِّقِّ الذي فيه الناس دُونَ الحدِّ والشقِّ الذي فيه اللهُ ورسولُهُ»[2].

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة].

(١٠) وأن يُعطي الله في مخاطبته قلبه ولُبَّه وبدنه وروحه:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في توقير الله أيضًا: «ولا يُعطي المخلوقَ في مخاطبته قلبَه ولُبَّه، ويُعطِي الله في خدمتهِ بدَنَه ولسانَه دون قلبه وروحه»[3].

(١١) ولا يجعل مراد نفسه مقدَّمًا على مُرادِ ربه:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يجعلْ مرادَ نفسه مقدَّمًا على مُرادِ ربه..

(١) نفس المصدر.

(٢) «الفوائد» (ص٤١٢ - ٤١٣).

(٣) نفس المصدر.

فهذا كلُّه من عدم وقار الله في القلب. ومن كان كذلك؛ فإنَّ الله لا يُلْقِي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبةً، بل يُسقِطُ وقارَه وهيبتَه مِن قلوبهم، وإن وقَّرُوه مخافة شرِّه؛ فذاك وقارُ بُغْضٍ لا وقارُ حُبٍّ وتعظيم»[1].

(١٢) الحياءُ من اطلاع الله على سِرِّه، فيرى فيه ما يكره:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن وَقارِ الله: أن يستحي من اطِّلاعه على سرِّه وضميره فيرى فيه ما يكره»[2].

* قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨].

(١٣) أن يكونَ حياؤه من الله أعظم من أكابر الناس:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن وقارِه أن يستحي منه في الخَلْوة أعظمَ مما يستحي من أكابر الناس»[3].

□ وقال: «والمقصودُ أنَّ من لا يوقِّرُ اللهَ وكلامَه وما آتاه من العلم والحكمة؛ فكيف يطلبُ من الناس توقيرَه وتعظيمَه؟!»[4].

* قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر].

* قال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج].

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

تعظيم الرب بالتعرف على صفات الألوهية، وصفات الربوبية:

□ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن كلام الله، وقد تجلَّى فيه لعباده بصفاته، فتارةً يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضعُ الأعناق، وتنكسرُ النفوس، وتخشعُ الأصوات، ويذوبُ الكِبْرُ كما يذوبُ المِلحُ في الماء. وتارةً يتجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمالُ الأسماء وجمال الصفات، وجمالُ الأفعال الدالِّ على كمال الذات، فيستفيد حُبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها».

□ وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام، والغضب والسُّخْط والعقوبة، انقمعت النفس الأمَّارة، وبطلت -أو ضعُفت- قواها من الشهوة والغضب، واللهو واللعب، والحرص على المحرّمات، وانقبضت أَعِنَّة رُعونتِها، فأَحضَرت المطِيَّةُ حظَّها من الخوف والخشية والحذر.

□ وإذا تجلَّى بصفات الأمر والنهي، والعهد والوصيَّة، وإرسالِ الرسل وإنزالِ الكتب وشَرْع الشرائع؛ انبعثت منها قوَّةُ الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغِ لها، والتَّواصي بها، وذكرها وتذكُّرِها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

□ وجُمَّاع ذلك: أنه سبحانه يتعرَّفُ إلى العبد بصفات إلهيَّته تارة، وبصفات ربوبيَّته تارة، فيُوجب له شهودُ صفاتِ الإلهية المحبةَ الخاصة والشوقَ إلى لقائه، والأنسَ والفرح به، والسرورَ بخدمته، والمنافسةَ في قُربه، والتودُّد إليه بطاعته، واللَّهَج بذكره، والفرارَ من الخلق إليه، ويصير هو وحده همَّه دونَ سواه.

ويوجبُ له شهودُ صفات الربوبية: التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

وكمالُ ذلك: أن يشهد ربوبيَّته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطائِهِ في منعه، وبرَّه ولُطفَه وإحسانه ورحمتَه في قيوميَّته، وعَدْله في انتقامه، وجودَه وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزَّه في رضاه وغضبه، وحِلْمَه في إمهاله، وكرمَه في إقباله، وغِنَاه في إعراضه»[(١)].

حديث شدّاد بن أوس: سيد الاستغفار لماذا؟

• عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**سيدُ الاستغفار أن تقول: اللهمَّ أنت ربي، لا إله إلَّا أنت، خلقتَني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ لك بذنبي، فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت. مَن قالها من النهار مُوقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، وهو موقنٌ بها، فمات قبل أن يُصبِحَ، فهو من أهل الجنَّة**»[(٢)].

□ لماذا كان هذا الحديثُ العظيمُ سيدَ الاستغفار -كما قال ذلك النبي ﷺ-؟ قالوا: إن العبد في طريقه إلى الله عز وجل يسيرُ بين مطالعةِ المنَّة ومشاهدةِ عيب النفس، مَن أنت؟ ومن ربك؟ بمعرفتك لهذا تصلُ إلى كمال التوبة «ومن عرف نفسه عرف ربه» كما قال يحيى بن معاذ الرازي.

□ قال ابنُ قيم الجوزيَّة: «لا يَنتفعُ بنعمة الإيمان والعلم؛ إلَّا من عَرَفَ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٧٣- ١٧٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٢) والبخاري مع «الفتح» (١١/ ٩٧)، والنسائي (٥٥٢٢)، وأبو داود (٥٠٧٠) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٩٦).

نفسه، ووقف بها عند قدْرِها، ولم يتجاوزْه إلى ما ليس له، ولم يتعدَّ طَوْرَه، ولم يَقُل: هذا لي، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتُذِلُّه نِعَمُ الله عليه وتكسِرُه كسرةَ من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا ألبتةَ، وأن الخيرَ الذي وصل إليه؛ فهو لله وبه، ومنه، فتُحدِثُ له النِّعَم ذُلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعبَّر عنه؛ فكلما جَدَّدَ له نعمة؛ ازداد له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبةً وخوفًا ورجاءً.

وهذا نتيجةُ عِلميْن شريفيْن:

أ- عِلْمه بربِّه وكماله وبِرِّه وغناه وجودِه وإحسانه ورحمته، وأنَّ الخير كلَّه في يديْه، وهو ملكه؛ يؤتي منه مَن يشاءُ ويمنع منه من يشاء، وله الحمدُ على هذا. وهذا أكملُ حمد وأتمُّهُ.

ب- وعلمه بنفسه، ووقوفه على حدِّها وقَدْرِها ونقصها وظلمِها وجهلها، وأنه لا خير فيها ألبتةَ، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس من ذَاتِها إلَّا العدمُ؛ فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلَّا العدمُ الذي لا شيء أحقرُ منه ولا أنقصُ؛ فما فيها من الخير تابعٌ لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذا العِلْمان صِبْغةً لها لا صبغةً على لسانها؛ عَلِمَتْ حينئذ أن الحمد كله لله، والأمر كله له، والخيرَ كله في يديه، وأنه هو المستحِقُّ للحمد والثناء والمدح دونَها، وأنَّها هي أوْلى بالذَّم والعيْب واللوم.

ومَن فاته التحققُّ بهذيْن العِلْمَيْن؛ تلوَّنتْ به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبَّطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصِّل له إلى الله. فإيصال العبد بتحقيق هاتيْن المعرفتيْن عِلْمًا وحالًا، وانقطاعه بفواتِهما.

وهذا معنى قولهم: مَن عَرَف نفسه؛ عَرَف ربَّهُ؛ فإنه من عَرَف نفسه

بالجهل والظلم والعيب والنَّقائص والحاجة والفقر والذُّلِّ والمَسْكنة والعدم؛ عَرَف ربَّه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرِها، ولم يتعدَّ بها طوْرها، وأثنى على ربِّه ببعض ما هو أهلُه، وانصرفت قوة حُبِّه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحدَه، وكان أحبَّ شيءٍ إليه وأخوف شيء عندَه وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبوديَّة. والله المستعان.

ويُحكَى أنَّ بعض الحُكماءِ كتب على باب بيته: أنه لن ينتفعَ بِحِكمتنا إلَّا من عَرَف نفسَه ووقف بها عند قدْرها؛ فمن كان كذلك؛ فليدخُل، وإلَّا؛ فليرجع حتى يكون بهذه الصِّفة»[1].

يا خليفةَ الأموات، يا ابن التراب، ومأكول التراب غدًا، قصِّر واعرف قدْر نفسك:

أنت عبدٌ، ليس لك غيرُ باب سيِّدِك وفضله وإحسانِه، وإن تخلَّى عنك هَلَكْتَ ولم يعطف عليك أحدٌ، بل تضيعُ أعظمَ ضيْعةٍ.

لا غنى بك عنه عَزَّ وَجَلَّ طرفةَ عين، وليس لك مَن تُعوذُ به وتلوذُ به غير سيدك الذي أنت عبده. تصرُّفُك على محض العبوديَّة، لا بحكم الاختيار لنفسك، فالتزم آدابَ العبودية من الذل والخضوع، وامتثالِ أمر سيدك، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه.

□ أنت ومالُك ونفسُك مِلكٌ لسيدك، ناصيتُك بيده، وقلبك بين إصبعين من أصابعه، في قبضةِ سيدك، أضعفُ من مملوكٍ صغير حقير، ناصيتُه بيد سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له تحت تصرُّفه وقهره؛ بل الأمرُ فوق ذلك.

---

(١) «الفوائد» (ص٣١٣ ـ ٣١٥).

بعيدًا عن طريق مولاك ما قدرُك؟

□ جدُّك البعيد ترابٌ ذليل، وأبوك القريب ماءٌ مهين، وأنت خرجت من مجرى البول مرَّتيْن، أوَّلُك نطفةٌ مَذِرة، وآخرُك جيفةٌ قذرة، وأنت بين هذا وذاك تحملُ العذرة، أنت كنيفٌ ودورةُ مياه متحرِّكة، تحمل أمعاؤك الغليظةُ ما تحمل الأنتان والحشوش ودورات المياه.. أنت أحقرُ من حشرة في مُلْك الله، لا تساوي نحلة، فالنحلةُ أعلم بما يخرج من بطنها، وأنت أعلمُ بما يخرج من بطنك، لو كانت للذنوب رائحةٌ، ما استطاع أحدٌ أن يجالسك من نتن رائحتك.

أنفٌ يسيلُ وأُذْنٌ كُلُّها سهكٌ ... والعين مرمصةٌ والثغرُ ملعوبُ
يا ابن الترابِ ومأكول التراب غدًا ... قصِّر فإنك مأكولٌ ومشروبُ

ومصيرك إلى القبر والدود والتراب مهما كان حسنك ومنظرك..

إني سألتُ الترابَ ما فعلتْ ... بعدُ وجوهٌ فيك مُنعَفِرةْ
فقال لي صيَّرتُ ريحَهُمُ ... يُؤذِيك بعد مناظر عَطِرةْ
وأكلتُ أجسادًا منعَّمةً ... كان النعيم يهزُّها نَضِرَةْ
لم تبقَ غيرُ جماجم عَرِيتْ ... بيضٍ تلوحُ وأعظم نخرةْ

بئس العبد عبد طغى وعتى ونسى المبدأ والمنتهى، بئس العبدُ عبدٌ طغى وعتى ونسى الجبار الأعلى، بئس العبدُ عبدٌ طغى وعتى ونسى المقابر والبِلَى.

* بلغتَ أيها العبدُ العاصي الغايةَ في الجهل والظلم، وأنت كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر]. بلاؤك مِن نفسك ومُصابك منها، وأنت أوْلى بكل ذمٍّ وظُلْم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة: «كفورٌ جحودٌ لنعم الله».

□ قال أبو عبيدة: «هو قليل الخير، و«الأرض الكنود»: التي لا نبْت فيها. وقيل: التي لا تُنبت شيئًا من المنافع».

لو علمتَ -أيها الظالمُ الجاهل- أنَّك أنت القاعدُ على طريق مصالحك تقطعُها عن الوصول إليك، فأنت الحَجَرُ في طريق الماء الذي به حياتك، وأنت السَّكْرُ الذي قد سدَّ مجرى الماء إلى بستان قلبك، وتستغيثُ مع ذلك: «العطشَ العطشَ»، فأنت حجابُ قلبك عن سرِّ غيبه، وأنت الغيْمُ المانعُ لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليك أضرُّ منك، ولا لك أعداءُ أبلغُ في نكايتك وعداوتك منك.

ما تبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

□ فتَبًّا له ظالمًا في صورة مظلوم، وشاكيًا والجنايةُ منه، قد جدَّ في الإعراض وهو ينادي: «طردوني وأبعدوني»، ولَّى ظهره البابَ، بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها، ويقول:

دعاني، وسدَّ الباب دوني، فهل إلى ... دخولي سبيلٌ، بيِّنوا لي قصتي

يأخذُ الشفيقُ بحُجْزته عن النار. وهو يُجاذبُه ثوبَه ويغلبُه ويقتحمُها، ويستغيث: «ما حيلتي؟ وقد قَدَّموني إلى الحُفيرة وقذفوني فيه!».

والله كم صاح به الناصح: الحذَرَ الحذر، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه، وكم أراهَ مصارع المقتحِمين وهو يأبى إلَّا الاقتحام:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ ... وقد يستفيدُ البِغْضةَ المتنصِّحُ

يا ويلَه ظهيرًا للشيطان على ربه، خصمًا لله مع نفسه، جَبْرِيُّ المعاصي، قَدَرِيُّ الطاعات، عاجز الرأي، مِضياعٌ لفرصته، قاعدٌ عن مصالحه،

معاتبٌ لأقدار ربه. يحتجُّ على ربه بما لا يقبلُه من عبده وامرأته وأَمَته، إذا احتجُّوا به عليه في التهاون في بعض أمره. فلو أمر أحدَهم بأمر ففرَّط فيه، أو نهاه عن شيءٍ فارتكبه، وقال: القدَرُ ساقني إلى ذلك، لَـمَا قَبِلَ منه هذه الحُجَّة، ولبادَرَ إلى عقوبته.

فإن كان القدَرُ حُجةً لك -أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك-، فهلَّا كان حجةً لعبدك وأمتك في ترك بعض حقِّك؟ بل إذا أساء إليك مسيءٌ، وجنى عليك جانٍ، واحتج بالقدر: لاشتدَّ غضبُك عليه، وتضاعف جُرمُه عندك، ورأيت حُجَّتَه داحضة، ثم تحتجُّ على ربك به، وتراه عذرًا لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس: أزاح عِلَلَك، ومَكنَّك من التزود إلى جَنَّته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر وما تتزود به، وما تحارب به قُطَّاعَ الطريق عليك، فأعطاك السمعَ والبصر والفؤاد، وعَرَّفك الخير والشر، والنافعَ والضار، وأرسل إليك رسوله. وأنزل إليك كتابه، ويسَّرَه للذكر والفهم والعمل. وأعانك بمددٍ من جُنده الكرام، يثبِّتُونك ويحرُسُونك. ويحاربون عدوَّك ويطردونه عنك. ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته. وأنت تأبى إلَّا مظاهرتَه عليهم، وموالاته دونهم. بل تُظاهره وتواليه دون وَليِّك الحق الذي هو أولَى بك.

* قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف].

□ طردَ إبليسَ عن سمائه، وأخرجه من جنته، وأبعده من قربه، إذ لم

يَسْجد لك، وأنت في صُلْب أبيك آدم، لكرامتك عليه، فعاداه وأبعده، ثم واليتَ عدوه، ومِلْتَ إليه وصالحته. وتتظلَّمُ مع ذلك، وتشتكي الطرد والإبعاد، وتقول:

عوَّدُوني الوصال، والوصلُ عَذْب ورمَوني بالصدِّ والصدُّ صعبُ

نعم. وكيف لا يَطْرُد من هذه معاملته؟ وكيف لا يُبعِدُ عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يَجعل مِن خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكَدَّره.

أمره الله بشكره، لا لحاجته إليه، ولكن لينالَ به المزيدَ من فضله، فجعل كُفرَ نِعَمِه، والاستعانةَ بها على مساخطه: من أكبر أسباب صرفها عنه.

* وأمره بذكره ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانَه سببًا لنسيان الله له: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]

أمره بسؤاله ليعطيَه، فلم يسأله. بل أعطاه أجلَّ العطايا بلا سؤال، فلم يقبل، يشكو مَنْ يرحمه إلى مَن لا يرحمه. ويتظلمُ ممن لا يظلمُه، ويَدَعُ من يُعاديه ويظلمه. إن أنعم عليه بالصحَّة والعافية والمال والجاه، استعان بنِعمه على معاصيه، وإن سَلَبه ذلك ظَلَّ متسخطًا على ربه وهو شاكيه. لا يَصلُح له على عافية، ولا على ابتلاء، العافية تُلقيه إلى مساخطه، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته، وشكايته إلى خلقه.

□ دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه، ثم فتحه له فما عرَّج عليه ولا وَلَجه، أرسل إليه رسولَه يدعوه إلى دار كرامته، فعصى الرسول، وقال: «لا أَبيعُ ناجزًا بغائب، ونَقْدًا بنَسيئة، ولا أتركُ ما أراه لشيء سمعتُ به»، ويقول:

خُذْ ما رأيتَ ودَعْ شيئًا سمعتَ به   في طَلْعة الشمس ما يُغنيكَ عن زحل

فإن وافق حَظُّه طاعةَ الرسول أطاعه لنيل حظِّه، لا لرضى مُرسِله، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه، حتى أعرض عنه، وأغلق الباب في وجهه.

□ ومع هذا فلم يؤيِّسْه من رحمته، بل قال: «متى جئتَني قبلتك، إن أتيتَني ليلًا قبلتك، وإن أتيتَني نهارًا قبلتك، وإن تقربتَ مني شبرًا تقربت منك ذراعًا، وإن تقربتَ مني ذراعًا تقربتُ منك باعًا، وإن مشيتَ إليَّ هرولتُ إليك، ولو لقيتَني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتَني لا تشرك بي شيئًا، أتيتُك بقُرابها مغفرة، ولو بلغتْ ذنوبُك عنانَ السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك، ومَنْ أعظم مني جودًا وكرمًا؟!.

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤُهم على فُرُشهم، إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم: أخلقُ ويُعبد غيري، وأرزُق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليَّ صاعد، أتحبَّبُ إليهم بنعمي، وأنا الغنيُّ عنهم، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي، وهم أفقر شيءٍ إليَّ.

من أقبل إليَّ تلقَّيتُه من بعيد، ومَن أعرض عني ناديتُه من قريب، ومَن ترك لأجلي أعطيتُه فوق المزيد، ومَن أراد رضاي أردتُ ما يريد، ومن تصرَّف بحولي وقوَّتي ألنتُ له الحديد.

أهلُ ذكري أهل مجالستي، وأهلُ شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهلُ معصيتي لا أُقَنِّطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، فإني أحبُّ التوابين وأحبُّ المتطهرين، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرَهم من المعايب.

مَن آثرني على سواي آثرتُه على سواه، الحسنةُ عندي بعشر أمثالها إلى سَبْعِمئة ضِعف، إلى أضعافٍ كثيرة، والسيئةُ عندي بواحدة، فإن ندم عليها

واستغفرني غفرتُها له.

أشكر اليسيرَ من العمل، وأغفرُ الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحِلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحمُ بعبادي من الوالدة بولدها «**لَلَّـهُ أشَدُّ فرحًا بتوبة عبده من رَجلٍ أضَلَّ راحلته بأرضٍ مَهْلَكةٍ دَوِّية عليها طعامُه وشرابه، فطلبها حتى إذا أَيِس من حصولها، نام في أصل شجرةٍ ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا هي على رأسه، قد تعلَّق خِطامُها بالشجرة، فاللهُ أفرحُ بتوبة عبده من هذا براحلته**».

وهذه فرحةُ إحسانٍ وبرٍّ ولطف، لا فرحةُ محتاجٍ إلى توبة عبده، منتفعٍ بها. وكذلك موالاتُه لعبده إحسانًا إليه، ومحبةً له وبرًّا به، لا يتكثَّر به من قِلَّة، ولا يتعزَّزُ به من ذِلَّة، ولا ينتصر به من غَلَبة، ولا يَعُدُّه لنائبة، ولا يستعين به في أمر ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء]، فنفى أن يكون له وليٌّ من الذل، والله ولي الذين آمنوا، وهم أولياؤه.

فهذا شأنُ الرب وشأنُ العبد، وهم يُقيمون أعذارَ أنفسهم، ويَحمِلون ذنوبهم على أقداره.

استأثر اللهُ بالمحامد والمجـ ـد وولَّى الملامَةَ الرجلَا

□ وما أحسن قول القائل:

تطوى المراحلَ عن حبيبك دائبًا وتَظَلُّ تبكيه بدمعٍ ساجم

كذبَتْكَ نَفْسُكَ لستَ من أحبابه تشكو البعاد، وأنت عين

□ كيف تعصي مَن أنت به؟! وبقاؤك منه، وتدبيرك بيده، ورجوعُك

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٢- ١٩٦).

إليه، وكلُّ مستحسَن في الوجود هو حسَّنَهُ وزيَّنَهُ وجَمَّلَهُ وعطفَ النفوس إليه، لقد أعطاكِ -أيتها النفس- ما لم تأملي، وبلَّغك ما لم تطلبي، وستر عليكِ من القبيح ما لو فاح لضجَّت المشام..

تـصدُّ وتنـأى عـن حبيبـك دائمًا ... فـأين عـن الأحبـاب ويحـك

«من أعجب الأشياء: أن تعرفه ثم لا تحبَّه، وأن تسمع داعِيَهُ ثم تتأخَّرُ عن الإجابة، وأن تعرف قدْرَ الرِّبح في معاملته ثم تعاملُ غيرَه، وأن تعرفَ قدْر غضبه، ثم تتعرَّض له، وأن تذوقَ ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلبُ الأنسَ بطاعته، وأن تذوق عَصْرَة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه، ثم لا تشتاقُ إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوقَ العذاب عند تعلُّق القلب بغيره، ولا تهربُ منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!! وأعجب من هذا: علمُك أنك لا بُدَّ لك منه، وأنك أحوج شيءٍ إليه وأنت معرضٌ عنه، وفيما يُبعدك عنه راغب!!»[١].

□ فـ «طوبى لمن أنصف ربَّهُ، فأقرَّ له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته. فإن آخذه بذنوبه رأى عدْلَه، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله.

ونكتة المسألة وسِرُّها أنه لا يرى ربَّه إلَّا مُحْسِنًا، ولا يرى نفسَه إلَّا مسيئًا أو مفرِّطًا أو مقصِّرًا، فيرى كلَّ ما يَسُرُّه من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكُلَّ ما يسؤوه من ذنوبه وعدل الله فيه»[٢].

□ كيف فلاحُك بين إيمانٍ ناقصٍ، وأمل زائدٍ، ومرضٍ لا طبيب له

---

(١) «الفوائد» (ص١١٩).

(٢) المصدر السابق (ص٩٥).

ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد، ساهيًا في غَمْرَتِكَ، عَمِهًا في سكرتِكَ، سابحًا في لُجَّة جهلك، مُستوحشًا من ربك، مستأنِسًا بخلْقِهِ، ذكرُ الناس فاكهَتُكَ وقوتُك، وذِكر الله حَبْسُكَ وموتُكَ، لله منك جزء يسير من ظاهرك، وقلبك ويقينك لغيره[١].

جـ- التصديق بالجزاء والوعيد:

كيف يلتذُّ العاصي بعيش وبمعصيةٍ وهو يعلمُ أن القبر موعده، وأن القيامة مشهده، وأن الصراط أمامه، كيف يهنأُ وهو يعلمُ أن المقامع لرأسه تُهيَّأ، وأن الزقوم طعامه، وأن النَّفَس الواحد من الرجل في النار لو أصاب مئةَ ألف -أو يزيدون-، كانوا في مسجدٍ لاحترق بمن فيه.

يا هذا، يا مغرورًا بالأماني، لُعِن إبليس وأُهبط من منزلِ العَزِّ بترك سجدةٍ واحدة أُمِر بها، وأَخرجَ آدمَ من الجنة بلقمة تناولها، وحجَب القاتل عنها بعد أن رآها عِيانًا بملء كفٍّ من دَم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأُنْمُلةِ فيما لا يَحِلُّ، وأمَرَ بإيساع الظَّهْر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرةٍ من مُسْكِر، وأبان عضوًا من أعضائك[٢] بثلاثة دراهم؛ فلا تأمَنْه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس].

ودخلتِ امرأة النار في هِرَّةٍ. وإنَّ الرجل ليتكلَّمُ بالكلمة لا يُلْقِي لها بالًا يَهْوِي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرِب.. العُمْرُ بآخره، والعمل بخاتمته.

□ من أحدثَ قبل السلام؛ بَطَلَ ما مضى من صلاته، ومن أَفْطَرَ قبل

---

(١) انظر «الفوائد» (ص١٦٠).
(٢) بِقَطْعِهِ.

غروب الشمس؛ ذهب صيامه ضائِعًا، ومن أساء في آخر عُمُرِهِ؛ لَقِيَ ربَّهُ بذلك الوجه»(١).

□ لقد خالف الهدهدُ سليمانَ في طريق الصحبة ثلاث مرَّات فقال: ﴿لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾، فيا من لم يوفِّ لله بأي حقٍّ، أما تخافُ أن يُقالَ لك في بعض غدراتك: اذهب فلا غفرتُ لك!.

تَصِلُ الذنوبَ إلى الذُّنوبَ وترتجي ... دَرَجَ الجنانِ ونيْلَ فوز العابِدِ

ونسيتَ أن الله أخرج آدمَ ... منها إلى الدنيا بذنب واحِدِ

* من يقدرُ على عذاب الله وأخذه ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود].

* من يقدرُ على غضب الله ووثاقه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر].

* مَن يصبر على النار ضيِّقةِ الأرجاء، مُظلِمةِ المسالك، مُبهَمَةِ المهالك، يخلدُ فيها الأسير، ويُوقدُ فيها السعير، دارُ الذلِّ والهوان، والعذاب والخذلان، دارُ الشهيق والزفرات، والأنينِ والعبرات، حرُّها شديد، وقعرُها بعيد، ومقامعُها الحديد، وشراب أهلها الصديد ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم].

رحم الله أقوامًا كان ذكر النار لا يدعهم ينامون..

أطار الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهلُ الأمن في الدنيا هجوعُ

---

(١) «الفوائد» (ص١٥٧ ـ ١٥٩).

ومن علوِّ الهمة في التوبة: اتهام التوبة والخوف من أن تكون توبة عِلَّة:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن اتهام التوبة: «فلأنها حقٌّ عليه. لا يتيقَّن أنَّه أَدَّى هذا الحقَّ على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديَه عليه، فيخاف أنه ما وفَّاها حقَّها، وأنها لم تُقبَل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة عِلَّة وهو لا يشعُر بها»[1].

توبة العِلَّة:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «١- كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس.

٢- أو أنه تاب محافظةً على حاله، فتاب للحال، لا خوفًا من ذي الجلال.

٣- أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكَدِّ في تحصيل الذنب.

٤- أو اتِّقاء ما يخافه على عِرضه وماله ومنصبه.

٥- أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته.

٦- أو لمنافاةِ المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدحُ في كون التوبة خوفًا من الله، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده، وعن البُعد والطَّرْد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة.

فهذه التوبةُ لون، وتوبةُ أصحاب العلل لون.

□ ومن اتهام التوبة أيضًا: ضعفُ العزيمة، والتفاتُ القلب إلى الذنب

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥).

الفَيْنة بعد الفَيْنة، وتذكُّر حلاوة مواقعته، فربما تنفَّس، وربما هاج هائجه.

◻ ومن اتهام التوبة: طمأنينتُه ووثوقُه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه أُعْطِي منشورًا بالأمان. فهذا من علامات التُّهمة(١).

◻ ومن علاماتها: «جمودُ العين، واستمرارُ الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة»(٢).

علامات التوبة الصحيحة:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التوبةُ المقبولة الصحيحة لها علامات:

١- منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

٢- ومنها: أنْ لا يزالَ الخوفُ مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفةَ عين، فخوفه مستمرٌّ إلى أن يسمعَ قول الرسل لقبض رُوحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت] فهناك يزول الخوف.

٣- ومنها: انخلاعُ قلبه، وتقطُّعُه ندمًا وخوفًا. وهذا على قدْر عِظَم الجناية وصغرها، وهذا تأويلُ ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] . قال: «تقطعها بالتوبة»، ولا ريب أن الخوفَ الشديد من العقوبة العظيمة يوجبُ انصداع القلب وانخلاعَه، وهذا هو تقطُّعُه، وهذا حقيقةُ التوبة؛ لأنه يتقطعُ قلبُه حسرةً على ما فَرَط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطعْ قلبه في

(١) فالمؤمن أسير الحق لا يزول عنه خوفه ولا يسكن اضطرابه حتىٰ يُخلِّف جسر جهنم وراء ظهره.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥).

الدنيا على ما فرَّط حسرةً وخوفًا، تقطَّع في الآخرة إذا حُقِّت الحقائق، وعاين ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين، فلابد من تقطُّع القلب -إما في الدنيا وإما في الآخرة-.

٤- ومن موجَبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلب لا يشبهُها شيء. ولا تكون لغير المذنب، لا تحصلُ بجوعٍ، ولا رياضة، ولا حبٍّ مجرد، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كلِّه، تكسُّرُ القلبِ بينَ يدي الرب كسرةً تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقتْه بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأُخِذ فأُحضر بين يديه، ولم يجد من يُنجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غَناءً، ولا منه مهربًا، وعَلِم أن حياتَه وسعادتَه وفلاحَه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطةَ سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبِّه لسيده، وشدةِ حاجته إليه، وعلمِه بضعفه وعجزِه وقوةِ سيِّده، وذلِّه وعزِّ سيده.

فيجتمع مِن هذه الأحوال كسرةٌ وذِلَّةٌ وخُضوع، ما أنفعَها للعبد، وما أجدى عائدتَها عليه! وما أعظمَ جَبْرَه بها، وما أقربَه بها من سيده! فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكَسرة، والخضوعِ والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

□فلله ما أحلى قولَه في هذه الحال: «أسألُك بعزك وذلي إلَّا رحمتني، أسألك بقوتِك وضعفي، وبغِناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبةُ الخاطئة بين يديك، عبيدُك سواي كثير، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأَ ولا منجَى منك إلَّا إليك، أسألك مسألةَ المسكين، وأبتهلُ إليك ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضرير، سؤالَ مَن خضعت لك رقبتُه، ورَغِم لك أنفُه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه».

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يَجْبُرُ الناسُ عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يَجِدْ ذلك في قلبه، فليتَّهِمْ توبته، ولْيرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقة، وما أسهلَها باللسان والدعوى! وما عالَج الصادقُ شيئًا أشقَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»(١).

□ المحبُّون التائبون كاتبوا الله بدموعهم، وهم ينتظرون ردّ الجواب..

صحائفُنا إشارتنا ... وأكثرُ رُسلِنا الحُرَقُ

لأن الكُتْبَ قد تُقرا ... بغير الدمع لا نثقُ

ارحم من لا راحمَ له سواك، ولا ربَّ له غيرُك.. مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجِّيك.

ومن علو الهمَّة في التوبة: تركُ العجب، وعدمُ الصَّولة بالطاعات:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأكثرُ الناس من المتنزِّهين عن الكبائر الحسيَّة والقاذورات: في كبائر مثلِها أو أعظمَ منها أو دونها، ولا يخطُرُ بقلوبهم أنها ذنوبٌ ليتوبوا منها، فعندهم -من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولةِ طاعاتهم، ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاءً لا يخفى على أحدٍ غيرهم، وتوابع ذلك- ما هو أبغضُ إلى الله، وأبعدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك، فإنْ تدارَك اللهُ أحدَهم بقاذورةٍ أو كبيرة يوقعُه فيها، ليكسرَ بها نفسَه، ويُعرفه

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦ - ١٨٧).

قدْرَه، ويُذلَّه بها، ويُخرجَ بها صَوْلَةَ الطاعة من قلبه، فهي رحمةٌ في حقه، كما أنه إذا تدارَك أصحابَ الكبائر بتوبةٍ نصوح، وإقبالٍ بقلوبهم إليه، فهو رحمةٌ في حقهم، وإلَّا فكلاهما على خطر»[1].

عُذر الناس في إساءتهم إليك وجنايتهم عليك:

الناظرُ في ذنوب البشر -كأنه عبدٌ مثلُهم يُخطئ كخطئهم- يَقبل أعذارهم، ويتجاوز عن جنايتهم، فاقبل: «أعذارَهم في إساءتهم إليك، وجنايتهم عليك، والنظر في ذلك إلى الأقدار، وأن أفعالَهم بمنزلة حركاتِ الأشجار، فتعذرُهم بالقدَر في حقك، لا في حقِّ ربك، فهذا حقٌّ، وهو من شأنِ سادات العارفين، وخواصِّ أولياء الله الكُمَّل، يفنَى أحدُهم عن حقه، ويستوفي حقَّ ربِّه، ينظرُ في التفريط في حقه، وفي الجنايةِ عليه إلى القدَر، وينظرُ في حق الله إلى الأمر. فيطلبُ لهم العذرَ في حقه، ويمحو عنهم العذرَ، ويطلبُه في حق الله.

□ وهذه كانت حالَ نبينا ﷺ، كما قالت عائشة ﵂: «ما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه قط، ولا نِيلَ منه شيءٍ فانتقم لنفسه، إلَّا أن تُنْتَهَكَ محارمُ الله، فإذا انتُهكت محارمُ الله لم يَقُمْ لغضبه شيء، حتى ينتقم لله».

□ وقال عائشةُ ﵂ أيضًا: «ما ضَرب رسولُ الله ﷺ بيده خادمًا، ولا دابةً، ولا شيئًا قط، إلَّا أن يجاهدَ في سبيل الله».

• وقال أنس ﵁: «خدمتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنين، فما قال لي لشيءٍ صنعتُه: «لمَ صنعتَه؟» ولا لشيءٍ لم أصنعه: «لمَ لَمْ تصنعه؟»، وكان إذا عاتبني بعضُ أهله يقول: «**دعوه. فلو قُضي شيءٌ لكان**».

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧).

فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حقه، وقيامِه بالأمر، وقطعِ يد المرأة عند حق الله. ولم يقُل هناك: القدر حكم عليَّ»(١).

ومن علو الهمة في التوبة ومن حقائقها:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إن الغيْرة لله، والغضبَ له من حقائق التوبة، فتعطيلُ عُذرِ الخليقة في مخالفةِ الأمر والنهي، وشدةُ الغضب هو من علامات تعظيم الحرمة، وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهي»(٢).

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ -مفرِّقًا بين عُذر الخليقة في حقه، وقيامه بالأمر في حق الله-: «فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حق نفسه، وقيامِه بالأمر، وقَطْعِ يد المرأة عند حق الله، ولم يقل هناك: القدرُ حكَم عليها.

وكذلك عزْمُه على تحريق المتخلِّفين عن الصلاة معه في الجماعة، ولم يقل: «لو قُضى لهم الصلاة لكانت».

وكذلك رَجْمه المرأة والرجل لما زنَيا، ولم يحتجَّ في ذلك لهما بالقدر.

وكذلك فعله في العُرَنِيِّن الذين قتلوا راعيه، واستاقوا الذَّود، وكفَروا بعد إسلامهم، ولم يقُل: «قُدِّر عليهم»، بل أمر بهم، فقُطعت أيديهم وأرجلُهم من خِلاف، وسُمِرت أعينُهم، وتُركوا في الحَرَّة يَسْتَسْقون فلا يُسقون، حتى ماتوا عطشًا، إلى غير ذلك مما يطول بسطه.

وكان رسولُ ﷺ أعرفَ بالله وبحقِّه من أن يحتجَّ بالقدَر على ترك أمره. ويقبلُ الاحتجاجَ به من أحد، ومع هذا فعَذَر أنسًا بالقدَر في حقه،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٧).

وقال: «لو قُضي شيء لكان»، فصلوات الله وسلامه عليه»[١].

ومن علو الهمَّة في التوبة: عِلمُك وعملك بأسرارها:

□ قال شيخ الإسلام الهروي: «وسرائرُ حقيقة التوبة ثلاثةُ أشياء: تمييز التَّقِيَّة مِن العِزَّة، ونسيانُ الجناية، والتوبةُ من التوبة؛ لأن التائب داخل في «الجميع» من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور]، فأمر التائب بالتوبة»[٢].

تمييز التقية من العِزَّة من علو الهمة:

«تمييزُ التقية من العزة: أن يكون المقصودُ من التوبة تقوى الله، وهو خوفُه وخشيته، والقيامُ بأمره، واجتنابُ نهيه، فيعملُ بطاعةِ الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويتركُ معصيةَ الله على نورٍ من الله، يخافُ عقاب الله، لا يريدُ بذلك عزَّ الطاعة؛ فإن للطاعة وللتوبة عزًّا ظاهرًا وباطنًا، فلا يكونُ مقصودُه العزة، وإن علم أنها تحصلُ له بالطاعة والتوبة، فمَن تاب لأجل العزة فتوبتُه مدخولة.

وفي بعض الآثار: «أوحى اللهُ تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء: قلْ لفلان الزاهد: أما زهدُك في الدنيا: فقد تَعَجَّلتَ به الراحة. وأما انقطاعُك إليَّ: فقد اكتسبت به العزَّة، ولكن ما عمِلتَ فيما لي عليك؟ قال: يا رب، وما لك عليَّ بعد هذا؟ قال: هل واليتَ فيَّ وليًّا، أو عاديتَ فيَّ عدوًّا؟».

يعني أن الراحةَ والعزَّ حظُّك، وقد نِلتهما بالزهد والعبادة، ولكن أين القيامُ بحقي، وهو الموالاة والمعاداة فيَّ؟

---

(١) المصدر السابق (ص١/ ١٩٦- ١٩٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠١).

فالشأنُ في التفريق في الأوامر بين حظِّك وحقِّ ربك علمًا وحالًا.

وكثيرٌ من الصادقين قد يلتبسُ عليهم حالُ نفوسهم في ذلك، ولا يميِّزه إلَّا أولو البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس»[(١)].

ومن علوِّ الهمة: وَعْي التائب بالمسائل المتعلقّة بالتوبة وفيها تفصيل، ومنها:

أ- نسيانُ الجناية:

□ **قال عكرمة:** «كل حُزن يبلَى إلَّا حُزن التائب»[(٢)].

□ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما نسيانُ الجناية: فهذا موضعُ تفصيل، فقد اختَلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: مَن رأى الاشتغالَ عن ذِكر الذنب والإعراض عنه صفحًا. فصفاءُ الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل: «ذِكرُ الجفا في وقت الصفا جفا».

ومنهم: مَن رأى أن الأولى ألَّا ينسى ذنبه، بل لا يزالُ جاعلًا له نُصب عينيه يلاحظُه كل وقت، فيُحْدِثُ له ذلك انكسارًا وذلًّا وخضوعًا، أنفعَ له من جمعيته وصفاءِ وقته.

قالوا: ولهذا نقشَ داودُ الخطيئة في كَفِّه، وكان ينظر إليها ويبكي.

قالوا: ومتى تُهتَ عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: أنك إذا رجعتَ إلى ذنبك انكسرتَ وذَلَلت، وأطرقتَ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، خاشعًا ذليلًا خائفًا، وهذه طريق العبودية.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠١).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠١).

والصوابُ: التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحسَّ العبدُ من نفسه حالَ الصفاء غَيمًا من الدعوى، ورقيقةً من العُجب ونسيانِ المنَّة، وخَطَفَتْه نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذِكْرُ الذنب أنفعُ له، وإن كان في حال مشاهدته مِنَّة الله عليه، وكمالِ افتقاره إليه، وفَنائه به، وعدمِ استغنائه عنه في ذرةٍ من ذراته، وقد خالط قلبَه حالُ المحبة، والفرح بالله، والأنْس به، والشوقُ إلى لقائه، وشهودُ سَعَةِ رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقتْ على قلبه أنوارُ الأسماء والصفات، فنسيانُ الجناية والإعراضُ عن الذنب: أولى به وأنفع؛ فإنه متى رجع إلى ذِكر الجناية توارى عنه ذلك. ونزل من عُلْوٍ إلى أسفل، ومِن حالٍ إلى حال، بينهما من التفاوت أبعدُ مما بين السماء والأرض. وهذا من حسدِ الشيطان له، أراد أن يحطَّه عن مقامه، وسَيْرِ قلبه في ميادين المعرفة والمحبة والشوق: إلى وحشة الإساءة، وحصر الجناية.

والأول يكون شهودُه لجنايته مِنَّةً من الله منَّ بها عليه، ليؤمِّنه بها من مقت الدعوى، وحجابِ الكبر الخفي الذي لا يشعرُ به، فهذا لونٌ وهذا لون.

وهذا المحلُّ فيه أمرٌ وراءَ العبارة، وبالله التوفيق، وهو المستعان»(١).

ب- التوبة من التوبة (استغفارنا يحتاج إلى استغفار):

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما التوبةُ من التوبة: فهي من المجمَلات التي يُرادُ بها حقٌّ وباطل، ويكونُ مرادُ المتكلم بها حقًّا، فيطلقُه من غير تمييز.

فإن التوبةَ من أعظم الحسنات، والتوبةُ من الحسنات من أعظم السيئات وأقبحِ الجنايات، بل هي كفر، إن أُخذت على ظاهرها، ولا فرق بين التوبة من التوبة، والتوبةِ من الإسلام والإيمان، فهل يسوغُ أن يقال

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٢- ٢٠٣).

بالتوبة من الإيمان؟.

ولكنَّ مرادَهم: أن يتوبَ من رؤية التوبة، فإنها إنما حَصَلت له بمنةِ الله ومشيئته، ولو خُلِّي ونفسه لم تسمحْ بها ألبتة، فإذا رآها وشهِد صدورها منه ووقوعها به. وغفل عن مِنَّة الله عليه: تاب من هذه الرؤية والغفلة، ولكنَّ هذه الرؤيةَ والغفلةَ ليست هي التوبة، ولا جزءً منها، ولا شرطًا لها، بل هي جنايةٌ أخرى عَرضت له بعد التوبة، فيتوبُ من هذه الجناية، كما تاب من الجناية الأولى. فما تاب إلَّا من ذنب، أولًا وآخرًا. فكيف يقال: يتوب من التوبة؟.

هذا كلامٌ غيرُ معقول. ولا هو صحيحٌ في نفسه. بل قد يكونُ في التوبة علَّةٌ ونقصٌ وآفةٌ تمنع كمالَها، وقد يشعرُ صاحبُها بذلك، وقد لا يشعرُ به، فيتوبُ من نقصان التوبة، وعدمِ توفيتها حقَّها.

وهذا أيضًا ليس من التوبة، وإنما هو توبةٌ من عدم التوبة، فإن القَدْر الموجودَ منها طاعةٌ لا يُتابُ منها، والقدْرُ المفقود: هو الذي يحتاجُ أن يتوب منه.

فالتوبةُ من التوبة إنما تُعقل على أحد هذين الوجهين.

نعم، هاهنا وجهٌ ثالثٌ لطيفٌ جدًّا، وهو أنَّ من حَصَل له مقامُ أُنسٍ بالله، وصَفَى وقتُه مع الله، بحيث يكونُ إقبالُه على الله، واشتغالُه بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفعَ شيءٍ له، حتى نزل عن هذه الحالة، واشتغل بالتوبة من جنايةٍ سالفة قد تاب منها، وطالَع الجناية، واشتغل بها عن الله، فهذا نقصٌ ينبغي له أن يتوبَ إلى الله منه، وهو توبةٌ من هذه التوبة؛ لأنه

نزولٌ من الصَّفاء إلى الجفاء. والله أعلم»[(١)].

التائب عالي الهمَّة ورؤيته لمشهد الأسماء والصفات: لماذا خلَّى الله بينه وبين الذنب؟:

□ قال شيخ الإسلام الهروي صاحب المنازل: «إن الله ﷻ إنما خَلَّى العبد والذنب لأجل معنييْن:

أحدهما: أن يعرف عِزَّته في قضائه، وبِرَّه في سِتره، وحِلمَه في إمهال راكبه، وكرمَه في قبول العذر منه، وفضلَه في مغفرته.

والثاني: أن يُقيم على عبده حجةَ عدْله، فيعاقبَه على ذنبه بحجَّته»[(٢)].

حين ينظرُ العبدُ إلى تمكين الله له من المعصية، وتخليتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيُحدثُ له ذلك أنواعًا من المعرفةِ بالله وأسمائه وصفاته، وحكمتِه، ورحمته، ومغفرتِه وعفوِه، وحلمِه وكرمِه. وتوجب له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصُلُ بدون لوازمها ألبتة. ويعلمُ ارتباطَ الخلق والأمر، والجزاءَ والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجبُ الأسماء والصفات، وأثرُها في الوجود، وأن كل اسم وصفةٍ مقتضٍ لأثره وموجبه، متعلِّقٌ به لابد منه.

وهذا المشهد يُطْلِعه على رياضٍ مُونِقَة من المعارف والإيمان، وأسرارِ القدَر والحكمة، يَضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكَلِم:

□ فمن بعضها: ما ذكره الشيخ «أن يعرفَ العبدُ عزَّته في قضائه» وهو أنه سبحانه العزيزُ الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمالِ عزَّته حكَمَ على العبد

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٣- ٢٠٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤).

وقضَى عليه، بأن قَلَّب قلبَه وصَرَّف إرادتَه على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريدًا شائيًا لما شاء منه العزيزُ الحكيم، وهذا من كمال العزة، إذ لا يقدرُ على ذلك إلَّا الله. وغايةُ المخلوق: أن يتصرَّف في بدنك وظاهرك، وأما جعلُك مريدًا شائيًا لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدرُ عليه إلَّا ذو العزَّة الباهرة.

فإذا عرف العبدُ عزَّ سيده ولاحظه بقلبه، وتمكَّن شهودُه منه، كان الاشتغال به عن ذلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له؛ لأنه يصيرُ مع الله لا مع نفسه.

□ ومن معرفة عزَّته في قضائه: أن يعرفَ أنه مدبَّرٌ مقهور، ناصيتُه بيد غيره، لا عصمةَ له إلَّا بعصمته، ولا توفيقَ له إلَّا بمعونته، فهو ذليلٌ حقير، في قبضة عزيزٍ حميد.

□ ومن شهود عزَّته أيضًا في قضائه: أن يشهدَ أن الكمالَ والحمد، والغَناءَ التام، والعزَّةَ كلَّها لله، وأن العبدَ نفسَه أولى بالتقصير والذم والعيبِ والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهودُه لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهودُه لعزَّة الله وكماله، وحمدِه وغناه، وكذلك بالعكس، فنقصُ الذنب وذلَّتُه يطلعُه على مشهد العزة.

ومنها: أن العبدَ لا يريدُ معصيةَ مولاه من حيث هي معصية، فإذا شَهِد جَرَيان الحُكم، وجعله فاعلًا لما هو غيرُ مختار له، مريدٍ بإرادته ومشيئته واختياره، فكأنه مختارٌ غيرُ مختار، مريدٌ غيرُ مريد، شاءٍ غير شاء، فهذا يَشهدُ عزَّةَ الله وعظمته، وكمال قدرته.

ومنها: أن يعرف بِرَّه سبحانه في سِتره عليه حالَ ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلْقه فحذِروه، وهذا من كمال بِرِّه،

ومن أسمائه «البَرُّ»، وهذا البِرُّ من سيده كان عن به كمال غناه عنه، وكمالِ فقر العبد إليه. فيشتغلُ بمطالعة هذه المنة، ومشاهدةِ هذا البر والإحسان والكرم، فيَذهلُ عن ذِكر الخطيئة، فيبقى مع الله سبحانه، وذلك أنفعُ له من الاشتغال بجنايته، وشهودِ ذُلِّ معصيته، فإن الاشتغالَ بالله والغفلة عما سواه: هو المطلَبُ الأعلى، والمقصدُ الأسنى، ولا يوجبُ هذا نسيانَ الخطيئة مطلقًا، بل في هذه الحال، فإذا فَقَدها فليرجع إلى مطالعةِ الخطيئة، وذِكرِ الجناية، ولكل وقتٍ ومقام عبوديةٌ تليقُ به.

ومنها: شهودُ حِلمِ الله سبحانه وتعالى في إمهالِ راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجَله بالعقوبة، ولكنه الحليمُ الذي لا يَعْجَل، فيُحدِثُ له ذلك معرفةَ ربه سبحانه باسمه «الحليم»، ومشاهدةَ صفة «الحِلم»، والتعبدَ بهذا الاسم.

والحكمةُ والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب: أحبُّ إلى الله، وأصلح للعبد، وأنفعُ من فَوتها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: معرفةُ العبد كرمَ ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدَّم من الاعتذار، لا بالقَدَر، فإنه مخاصمةٌ ومحاجة، كما تقدم. فيَقبلُ عُذرَه بكرمه وجوده، فيوجبُ له ذلك اشتغالًا بذكره وشكره، ومحبةً أخرى لم تكن حاصلةً له قبل ذلك، فإن محبتَك لمن شَكَرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعافُ محبتِك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهدٌ بذلك، فعبوديةُ التوبة بعد الذنب لونٌ، وهذا لونٌ آخر.

ومنها: أن يَشهدَ فضلَه في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله وإلَّا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلًا محمودًا وإنما عفوُه بفضله لا باستحقاقك،

فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة، وإنابةً إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدًا بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يُكَمِّلَ لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قَدرت لقالت كقول فرعون، ولكنه قدَر فأظهر، وَغَيْرُه عجز فأضمر،وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة ذل العبودية، وهو أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذلُّ الحاجة والفقرِ إلى الله، فأهل السموات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه، وهو وحده الغني عنهم. وكل أهل السماوات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذلُّ الطاعةِ، والعبودية. وهو ذلُّ الاختيار، وهذا خاصٌّ بأهل طاعته. وهو سرُّ العبودية.

المرتبة الثالثة: ذلُّ المحبة، فإن المُحِبَّ ذليلٌ بالذات، وعلى قدْر محبته له يكون ذلُّه، فالمحبةُ أُسِّست على الذِّلة للمحبوب، كما قيل:

اخضَعْ وَذِلَّ لمن تحبُّ فليس في ... حُكم الهوى أنْفُ يُشَال ويعقد

□ وقال آخر:

مساكينُ أهلُ الحب، حتى قبورهم ... عليها ترابُ الذل بين المقابر [(١)]

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتَمعت هذه المراتب الأربع: كان الذلُّ لله والخضوعُ له أكملَ

(١) أذل لمن أهوىٰ لأكسب عزة ... وكم عزة قد نالها المرء بالذل
إذا كان من تهوىٰ عزيزًا ولم تكن ... ذليلا له، فاقرئ السلام علىٰ الوصل

وأتم. إذ يَذِلُّ له خوفًا وخشية، ومحبةً وإنابةً، وطاعةً، وفقرًا وفاقة.

وحقيقة ذلك: هو الفقرُ الذي يُشير إليه القوم. وهذا المعنى أجلُّ من أن يسمى بالفقر، بل هو لُبُّ العبودية وسرُّها، وحصوله أنفعُ شيءٍ للعبد، وأحبُّ شيءٍ إلى الله.

فلابد من تقدير لوازمه: من أسبابِ الضعف، والحاجة، وأسبابِ العبودية والطاعة، وأسباب المحبة والإنابة، وأسباب المعصية والمخالفة، إذ وجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنع، والغايةُ من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه، مصلحةُ وجوده خيرٌ من مصلحة فَوْته، ومفسدةُ فوته أكبرُ من مفسدة وجوده، والحكمةُ مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما. وقد فُتح لك الباب، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل، وإلَّا فردَّ الباب وارجِعْ بسلام.

ومنها: أن أسماءَه الحسنى تقتضي آثارُها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم «السميع، البصير» يقتضي مسموعًا ومبصرًا، واسم «الرزاق» يقتضي مرزوقًا، واسم «الرحيم» يقتضي مرحومًا، وكذلك أسماء «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلابد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله، صلوات الله وسلامه عليه، حيث يقول: **«لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفرُ لهم»**.

وأنت إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدومًا، فمَن يرزقُ الرزاقُ سبحانه؟ وإذا فرضتَ المعصيةَ والخطيئةَ منتفيةً من العالَم. فلمن يغفر،

وعمن يعفو؟ وعلى من يتوبُ ويحلُم؟ وإذا فرضت الفاقات كلَّها قد سُدَّت، والعبيد أغنياءَ معافَون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات، وَدَلَّهُم عليه بأنواع الدلالات، وفتح لهم إليه جميع الطرقات، ثم نصب إليه الصراط المستقيم، وعرَّفهم به ودلهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال]»[١].

التائب عالي الهمة واعتباره بالمعصية:

عالي الهمة صاحبُ البصيرة إذا صدرت منه الخطيئةُ، فله نظرٌ إلى أمور:

أحدها: أن ينظرَ إلى أمر الله ونهيه. فيُحدثُ له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئة، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيُحدِث له ذلك خوفًا وخشية، تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظرَ إلى تمكين الله له منها، وتخليتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها، فيحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته»[٢].

النظر الرابع: النظرُ إلى محل الجناية ومصدرِها، وهو النفسُ الأمارة بالسوء، ويفيدُه نظرُه إليها أمورًا:

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤- ٢٠٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤).

منها: أن يعرفَ أنها جاهلةٌ ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كلُّ قول وعمل قبيح، وَمَن وَصفُه الجهلُ والظلمُ لا مطمع في استقامته واعتداله ألبته. فيوجب له ذلك بذْلَ الجَهد في العلم النافع الذي يخرجُها به عن وصف الجهل.

والعملُ الصالح الذي يخرجُها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلُها أكثر من علمها وظلمُها أعظمُ من عدلها.

فحقيقٌ بمن هذا شأنُه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَها شرَّها. وأن يؤتيَها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها؛ فإنه رَبُّها ومولاها، وأن لا يَكِلَه إليها طَرْفَةَ عين، فإنه إن وَكَله إليها هلك. فما هلك من هلك إلَّا حيث وُكِلَ إلى نفسه.

• وقال النبي ﷺ لحُصين بن المنذر: «**قل: اللهمَّ أَلهِمْني رُشْدِي، وَقِني شَرَّ نفسي**».

• وفي خطبة الحاجة: «**الحمدُ لله. نحمدُه ونستعينُه، ونستهديه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا**».

* وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

* فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبِعت عليه: علم أنها مَنْبَع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضلٌ من الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

* وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ [الحجرات] فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات] «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكوا عليه وبه، ويثمر عنده، «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

ومنها: ما ذكره صاحب المنازل فقال:

«**اللطيفة الثانية:** أن يعلمَ أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يُبقِ له حسنةً بحال؛ لأنه يسيرُ بين مشاهدة المِنَّة، وتَطَلُّبِ عيب النفس والعمل».

يريد: أن من له بصيرةٌ بنفسه، وبصيرة بحقوق الله، وهو صادقٌ في طلبه: لم يُبقِ له نظرُه في سيئاته حسنةً ألبتة، فلا يلقى الله إلَّا بالإفلاس المحض، والفَقر الصِّرف؛ لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشتَرى بها النجاة من عذاب الله. فضلًا عن الفوز بعظيم ثواب الله، فإن خَلَص له عملٌ وحال مع الله، وصفَا له معه وقتٌ شاهدَ مِنَّة الله عليه به، ومجردَ فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهلٌ لذاك، فهو دائمًا مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوبِ نفسه وعمله؛ لأنه متى تطلَّبَها رآها.

وهذا من أجلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيدُ الاستغفار: «**اللهمَّ أنت ربِّي لا إله إلَّا أنت، خلقتَني، وأنا عبدكُ، وإنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفرُ الذنوب إلَّا أنت**».

فتضمَّن هذا الاستغفار: الاعترافَ من العبد بربوبية الله، وإلهيته وتوحيده. والاعتراف بأنه خالقه، العالِمُ به: إذا أنشأة نشأة تستلزمُ عجزه

عن أداء حقِّه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيتُه بيده وفي قبضته، لا مهربَ له منه، ولا وليَّ له سواه، ثم التزام الدخولَ تحت عهده -وهو أمرُه ونهيه- الذي عَهدُه إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداءِ حقِّك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جَهْدِ المقِلِّ، وقدرُ الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدقٌ بوعدك الذي وعدتَه لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عهدك، مصدِّقٌ بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شَرِّ ما فَرَّطت فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تُعذْني من شرِّه، وإلَّا أحاطت بي الهلَكَة؛ فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقِرُّ لك وألتزِم بنعمتكم عليَّ. وأقر وألتزم وأنْخَعُ بذَنْبي، فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومني الذنبُ والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بمحْو ذَنبي، وأن تُعْفِيني من شَرِّه، إنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيدَ الاستغفار، وهو متضمنٌ لمحض العبودية، فأي حَسَنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوبَ نفسه وعملِه، ومنةِ الله عليه؟ فهذا الذي يُعطيه نظرُه إلى نفسه ونقصه.

النظر الخامس: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزَيِّن له فعلَها، الحاض له عليها، وهو شيطانه الموكَّل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظتُه: اتخاذَه عدوًا، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة: والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عَقَبة من سبع عَقَبات، بعضها أصعبُ من بعض. لا ينزل منه

من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلَّا إذا عجَز عن الظَفَر به فيها»[١].

تدرُّج الشيطان في الإغواء بعقباته السبع:

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردَتْ نارُ عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على.

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسلَ الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بها لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المِحدَثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان. قَلَّ أن تنفعك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال. فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفاجئهم إلَّا وأولاد الزنا يعيشون في بلاد الإسلام، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

□ وقال شيخنا: «تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة».

فإن قطع هذه العقَبة، وخلُص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصارُ المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمَحَتْ به نَصَب له أهلُ البدع الحبائل، وبغَوْه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢١٩- ٢٢٢).

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زَيَّنها له، وحَسَّنها في عينه، وسوّف به، وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق. فلا تقدح فيه الأعمال [(١)]، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: «لا يَضُرُّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية مَنْ عَزَله الله ورسوله، وعَزْل من وَلّاه الله ورسوله. واعتبار ماردّه الله ورسوله، ورد ما اعتره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب. ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق، بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلَّا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا

---

(١) يعني أعمال الفسوق والعصيان. والمعنىٰ المراد: أن الشيطان يقول له -عند فتح باب الإرجاء- إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي، وهذا وما بعده هو معنىٰ الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين.

لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ [النور].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللَّمَم، أوَ ما علمت أنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصِر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالًا منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد قال ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب.. ثم ضرب لذلك مثلًا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود. حتى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوا نارًا، وأنضجوا خُبزتهم، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد -وهو يستهين بشأنها- حتى تهلكه**».

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرُّز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشترى، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وصن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي «عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات»، فأمرهم بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأولى.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤسًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلَّا أنت**» - الحديث، وفي حديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»، وفي الأثر الآخر: «**إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن**»، ولا يقطع هذه العقبة إلَّا أهل البصائر والصدق من أولى العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه، وهي:

عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حب مرتبته في الخير. فكلما عَلَتْ مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهَر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها؛ فإنه كما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة»[1].

التائب عالي الهمة له من عبودية المراغمة النصيب الوافر:

□ قال ابن قيم الجوزية عن «عبودية المراغمة»: «ولا يتنبه لها إلّا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها: قوله: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء] سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٢- ٢٢٦).

وقال تعالى في مَثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية.

وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامة كانت ترغمان أنف الشيطان**»، وفي رواية: «**ترغيما للشيطان**»، وسماهما: «**المرغمتين**».

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة؛ ولأجل هذه المرغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلَّا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلَّا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولا حظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى»[1].

ترقِّي عالي الهمة في التوبة:

عالي الهمة يترقى في مقام التوبة من:

١ - رؤيته لحسناته وكثرتها.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٦- ٢٢٧).

٢- إلى استقلاله المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة لله.

٣- إلى توبته من تضييع المراقبة لله والحضور.

٤- إلى التوبة مما دون الله.

١- **التوبة من رؤيتهم لكثرة طاعتهم**، ورؤية كثرة الطاعة توبة مدخولة منقوصة وحسنات الأبرار المقرّبين.. ورؤية كثرة الطاعة متضمِّنٌ لثلاث مفاسد:

إحداها: أن حسناتهم التي يأتون بها: سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم -باستكثارها- عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها: هم جاحدون نعمة الله في سترها عليهم وإمهالهم، كثرة على أهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله، لكن أهل الذنوب مقرون بتره وإمهاله، وهؤلاء جاحدون لذلك؛ لأنهم قد توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات، دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما، ومحاسبة النفس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق. لَشَغلَهم ذلك عن استكثارها؛ ولأجل هذا كان مَنْ عَدِم الحضور والمراقبة والجمعية في العمل، خَفَّ عليه واستكثر منه، فكثر في عينه، وصار بمنزلة العادة؛ فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، وما في ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب، وجمعية القلب والهم على الله بكليته: وجد له ثقلًا كالجبال، وقَلَّ في عينه، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعيم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي، فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعلقها، وفهم ما أريد بكل آية، وحظك

من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة -أو أكثرها، أو ما قرأت منها- بسهولة وخفة، مستكثرًا من القراءة، فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد، والنظر إلى ما يخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به، لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها. وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة: لم تكد أن تصلي غيرهما إلَّا بجهد، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب، فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها هي توبة العامة.

المفسدة الثانية: رؤية فاعلها أن له حقًّا على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن أعماله، ولو كانت أعمال الثقلين لا تستقل بدخول الجنة ولا بالنجاة من النار، وأنه لن ينجو أحد ألبتة من النار بعمله، إلَّا بعفو الله ورحمته.

الثالثة: استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه، بما يشهدون من استحقاق المغفرة، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم، فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم، واستكثارهم منها لذلك، وكثرتها في عيونهم إظهار للاستغناء عن مغفرة الله وعفوه، وذلك عين الجبروت والتوثب على الله»[1].

وتوبة الأوساط: من استقلال العبد المعصية، وهو عين الجُرأة والمبارزة:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «يريد: أن استقلالَ المعصية ذنب، كما أن

---

(١) «المدارج» (١/ ٢٥٧- ٢٥٩).

استكثار الطاعة ذنب، والعارفُ من صغرت حسناتُه في عينه، وعظُمت ذنوبُه عنده، وكلما صغُرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس، ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده، وصغرت جدًّا في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه. وأن الذي يليق بعزته، ويصلح له من العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها؛ لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله، ولو كانت أعمال الثقَلين، وإذا كثرت في عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غيرَ عارف به وبما ينبغي له، وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه، وتعظم في عينه، لمشاهدته الحق ومستحقه، وتقصيره في القيام به، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

إذا عرف هذا، فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله، وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه، وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها، وخفت على قلبه، وذلك نوع مبارزة»[1].

وتوبة الخواص: من تضيع الإقبال على الله بالمراقبة والحضور، فإنه يُفضي إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة ويُكدِّر عين الصحبة:

فإضاعة وقت وجدٍ صادق وحال صحيحة مع الله يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٦٥).

موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف ألبتة، ما هو إلَّا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر] ولم يذكر واقفًا، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل محب في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لابد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجِمَّ نفسه، ويعدها للسير، فهذا وقفته سير، ولا تضره الوقفة، فإن «لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة».

وإمَّا أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه، فإن أجابه أخَّره ولابد، فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الرَّكْب له وعَلَى تأخُّره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع، ووثب وجمز واشتدَّ سعيًا ليلحق الرَّكْب، وإن استمرَّ مع داعي التأخُّر، وأصغى إليه لم يرض بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يردَّه إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكًا، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عَقيب الإبلال من المرض، فإنها أخطر وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبه منه من يد

عدوِّه وتخليصه، وإلَّا فهو في تأخُّر إلى الممات، راجع القهقري، ناكصٌ على عقبيْه، أو مُوَلٍّ ظهره، ولا قوة إلَّا بالله، والمعصوم من عصمه الله.

□ وقوله: «ويطفيء نور المراقبة»:

يعني أن المراقبة تُعطِي نورًا كاشفًا لحقائق المعرفة والعبودية، وإضاعة الوقت تُغطي ذلك النور، وتُكدِّرُ عين الصحبة مع الله. فإن صاحب الوقت مع صحبة الله، وله مع الله معيّة خاصة، بحسب حفظه وقته مع الله، فإن كان مع الله كان الله معه، فإذا أضاع وقته كَدَّر عين هذه المعية الخاصة، وتعرّض لقطع هذه الصحبة، فلا شيء أضرُّ على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله، ويُخشَى عليه إن لم يتداركه بالرجوع أن تستمِرَّ الإضاعة إلى يوم القيامة، فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته.. ويكون حاله شبيهًا بحال قوم يُؤمر بهم إلى الجنة، حتى إذا عاينوها وشاهدوا ما فيها، صُرِفت وجوههُم عنها إلى النار»[1].

التوبة مما دون الله:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوبة مما دون الله: أن يَخرُجَ العبدُ بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته، فيكون كلُّه له وبه.

وهذا أمرٌ لا يصح إلَّا لمن استولى عليه سلطان المحبَّة، فامتلأ قلبه من الله محبَّة له وإجلالًا وتعظيمًا، وذُلًّا وخضوعًا وانكسارًا بين يديه، وافتقارًا إليه.

فإذا صح له ذلك بقيت عليه بَقِيَّةٌ أخرى، هي عِلَّة في توبته، وهي

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٦- ٢٦٨).

رؤيته لها، وتوبته من رؤية تلك الرؤية..

وأمّا رؤيته له واقعًا بِمنَّة الله وفضله، وحوله وقوّته وإعانته، فهذا أكمل من غيبته عنه.. وأتم عبودية»[١].

التائب عالي الهمة من يتوب من أجناس المحرَّمات كلها:

□ قال ابن القيم تحت عنوان: «في أجناس ما يُتاب منه»: «ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص منها.

وهي اثنا عشر جنسًا مذكورة في كتاب الله ﷻ. هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلَّا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلم.

فالتوبةُ النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصُّن والتحرزُ من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها»[٢].

فأمَّا الكفر فنوعان:

□ **كفر أكبر موجب للخلود في النار.**

وهو خمسة أنواع: كفر التكذيب، وكفر الاستكبار، وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك وكفر نفاق.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٣٥).

□ وأما الكفر الأصغر: فموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود.

وأما الشرك فنوعان:

□ شرك أكبر: وهو أن يتخذ من دون الله نِدًّا يحبه كما يحب الله، واتخاذ الشفعاء لهم عند الله.

□ وأما الشرك الأصغر: كيسير الرياء، والتصنُّع لغير الله، والحلف بغير الله.

والنفاق الداء العضال نوعان: أكبر وأصغر

□ أما الأكبر: فهو الذي يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخٌ من ذلك كله مُكذِّبٌ له.

□ وأما النفاق الأصغر: فهو من كانت فيه خصلة من هذه الخصال: إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر.

وأما الفسوق فنوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان:

□ والمفرَد نوعان: فسوق كفر يخرج عن الإيمان كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة].

□ وأما الفسوق الذي لا يُخرِجُ عن دائرة الإسلام فكقوله تعالى:

﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ [الحجرات: ٦].

وهو **قسمان**: فسق من جهة العمل، وهو ارتكاب ما نهى الله عنه، فالفسق أخص بارتكاب النهي، والمعصية أخصُّ بمخالفة الأمر، ويطلق كلٌّ منهما على صاحبه.

□ **وفسق الاعتقاد**: كفسق أهل البدع من هذه الملة: كالخوارج والروافض، والقدريَّة، والمعتزلة، وكثيرٌ من الجهمية الذين ليسوا غُلاةً في التجهُّم.

□ وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، وكل منهما إذا أُفرد تضمّن الآخر ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما:

فـ «الإثم» ما كان محرم الجنس: كالكذب، والزنا، وشرب الخمر.

و«العدوان» ما كان محرَّم القدر والزيادة.

□ وأما «الفحشاء والمنكر»:

فالفحشاء: صفة لموصوف قد حُذِف تجريدًا لقصد الصفة. وهي الفعلة الفحشاء. وهي: ما ظهر قبحُها لكل أحد، واستفحشها كل ذي عقل سليم؛ ولهذا فُسِّرت بالزنا واللواط، وسماهما الله فاحشة لتناهي قبحهما، وكذلك الفُحْش في القول كالسَّب القبيح والقذف.

والمُنكَر: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكرَه لها الذي تشتد نفرتُها عنه هو الفاحشة؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الفاحشة: الزنا، والمنكر: ما لم يُعرَف في شريعة ولا سُنَّة».

□ وأما «القول على الله بغير علم»: فهو من أشدِّ المحرَّمات تحريمًا

وأعظمها إثمًا، ولهذا ذُكِر في المرتبة الرابعة من المحرَّمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تُباح بحال، بل لا تكون إلَّا مُحرَّمة.

* قال الله تعالى في المُحرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات.

التائب عالي الهِمَّة: التائب إلى الله توبة نصوحًا:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]، فجعل وقاية شر السيئات -وهو تكفيرها- بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات -وهو حصول ما يحب العبد- منوطًا بحصول التوبة النصوح.

و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة، كالشَّكور والصبور، وأصل مادة «ن ص ح» لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

✍ وقد اختلف عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد.

□ فقال عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب رضي الله عنهما: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع».

□ وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه».

□ وقال الكلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن».

□ وقال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «توبة نصوحًا، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحَلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

□ وقال محمد بن كعب القُرظي: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان».

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلَّا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار. بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه

وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عَزَّ وَجَلَّ.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه.

فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبةَ تسلتزمُ الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»[1].

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «قرأ الجمهور: نَصوحًا بفتح النُّون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمِّها. قال الزجّاج: مَن فَتَح فعَلَى صفة التوبة، والمعنى توبة بالغة في النصح، وفَعُول من أسماء الفاعلين التي تُستعْمَل للمبالغة في الوصف، .. ومن قرأ بالضَّمِّ فمعناهُ يُنصحون بها نصوحًا يُقال: نصحتُ لها نُصْحًا ونَصاحة ونُصُوحًا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذَّنْب وهو يُحدِّث نفسه ألا يعود».

وسُئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال: «نَدَمٌ بالقلب، واستغفار باللسان، وتركٌ بالجوارح، وإضمارٌ أن لا يعود».

وقال ابن مسعود: «التوبة النصوح تكُفَرِّ كُلَّ سيئة ثم قرأ هذه الآية؟؟؟؟؟؟

اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مَقْتُه لنفسه على قُبْح زَلَّتِه، فمنهم من قوى مقته لها، ورأى تعريضَها للقتل مباحًا في بعض الأحوال

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩- ٣١٠).

فعَرَّضها له، كما فَعَل ماعز والغامدية»[١].

أخي: يا نادمًا على الذُّنوب أين أثر ندمك؟ أين بكاؤك على زلّة قدمك؟ أين حَذَرُكَ من أليم العقاب، أين قلقك من خوف العتابَ؟ أتعتقد أن التوبة قول باللسان؟ إنما التوبة نارٌ تحرق الإنسان؟ جَرِّد قلبك من الأقذار، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حَلِّهِ حُلَّةَ الانكسَار، ثم أقمه على باب الرحيم الغفّار.

□ لهج بعض العُبَّاد بالبكاء، فعوتِبَ على كثرته فقال:

بكيتُ على الذُّنوب لعِظَم جُرْمِي ... وحُقَّ لِكُلِّ من يعصى البكاءُ

فلوْ أن البكاء يَرُدُّ هَمِّي ... لأسْعَدِتِ الدموعَ معًا دمائي

يا هذا:

اكتب قصة الرُّجوعِ بِقَلَمِ النُّزوع بمداد الدموع، واسْعَ بها على قَدَم الخُضُوع إلى باب الخشوع، وأتبِعْها بالعطش والجوع، وسَلْ رَفْعها فرُبَّ سائلٍ مسموع.

وهاك طرفًا من أخبار علاةُ الهمم من التائبين:

نبأ من قتل مئة نفْس:

• قال رسول الله ﷺ: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قَتَل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكَمَّل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مئة نفس فهل له**

(١) «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٢٩٥- ٢٩٦).

من توبة فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن فيها أناسًا يتعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء فانطلق حتَّى إذا نَصَف الطريق أتاه

الموتُ فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبًا مقبلًا بقلبه على الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدميّ، فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرَضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[1].

وفي رواية لهما: «فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فأوحى الله إلى هذه: أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوجداه إلى هذه أقرب بشبرٍ، فغُفِرَ له».

نبأ الثلاثة الذين خُلِّفُوا وتوبة كعب بن مالك رضي الله عنه:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلاَّ في غزوة «تبوك»، غير أني قد تخلَّفتُ في غزوة «بدرٍ» ولم يعاتِبْ أحدًا تخلَّف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام[2]، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مشهدَ

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٢) «الفتح»، ومسلم (١٧/ ٨٣- ٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أي: تبايعنا عليه وتعاهدنا.

بدرٍ- وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها-، وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك:أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيْسَر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتيْن قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا [(١)]، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلاَّ [(٢)] للمسلمين أَمَرهم ليتأهَّبوا أهبة [(٣)] غزْوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ [(٤)]. قال كعب: فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيَّب يظنُّ أن ذلك سيخفى له ما لم ينزلْ فيه وحيٌ من الله عزَّ وجلَّ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أَصْعَرُ [(٥)]، فتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معه، فأرجع ولم أقضِ شيئًا، وأقول في نفسي: «أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ». فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئًا، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط[(٦)] الغزو، فهممتُ أن أرتحل، فأُدرِكَهم، فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يُقدَّر ذلك لي، فطفِقتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خروج رسول الله ﷺ، يَحْزُنني أني لا

---

(١) أرض خلاء قليلة الماء يخاف فيها الهلاك.

(٢) أي: كشفه وبيَّنهُ ووضحه وعَرَّفهم ذلك علىٰ وجهه من غير تورية .

(٣) ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم.

(٤) أي: الدِّيوان.

(٥) أي: أميل.

(٦) أي: سبق الغزاة وتقدموا.

أرى لي أسوةً إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق [(١)]، أو رجلًا ممَّن عذَرَ الله من الضعفاء.

ولم يذكرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعبُ بن مالك؟».

قال رجل من بني سَلَمة: يا رسول الله، حبَسَه بُرْداهُ والنظرُ في عطفيه [(٢)].

فقال له معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلاَّ خيرًا. فسكتَ رسول الله ﷺ.

فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبيضًا في السَّرابُ [(٣)]، فقال رسول الله ﷺ: «كنْ أبا خيثمة». فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التمر حين لَمزه المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلمَّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا [(٤)] من تبوك، حضرني بثِّي [(٥)]، فطفقتُ أتذكَّر الكذبَ، وأقول: بِمَ أخرج من سُخْطه غدًا؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: «إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا [(٦)]، زاحَ عني الباطل حتى عرفتُ أني لن

---

(١) أي: متهمًا بالنفاق.

(٢) إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٣) أي: لابس البياض، والسراب هو ما يراه الإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء.

(٤) أي: راجعًا.

(٥) أي: أشد الحزن.

(٦) أي: أقبل ودنا قدومه.

أنجوَ منه بشيء أبدًا، فأجمعتُ صدقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتيْن. ثم جلس للناس، فلمَّا فَعل ذلك جاءَه المخلَّفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بِضعةً وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم؛ ووَكَلَ سرائرَهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمَّا سلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّم المغضَب، ثم قال: «**تعال**». فجئتُ أمشي حتى جلست بين يديه.

فقال لي: «**ما خلَّفك؟**» ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَك؟.

قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لَرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جدلًا[١]، ولكني والله لقد علمتُ لَئِن حَدَّثْتُكَ اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني، لَيوشكنَّ الله أن يُسخِطَك عليَّ، ولئنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجِدُ عَلَيّ فيه، إني لأَرجو فيه عُقبى الله، والله ما كان لي عذرٌ، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك.

قال رسول الله ﷺ: «**أمَّا هذا فقد صدق، فقمْ حتى يقضيَ الله فيك**». فقمتُ وثار رجالٌ من بني سَلَمة فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما عَلِمناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، لقد عجزتَ في ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون؛ فقد كان كافيَكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ.

قال: فوالله، ما زالوا يؤنِّبونني[٢] حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسي.

---

(١) أي: فصاحة وبراعة بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلي إذا أردت.

(٢) أي: يلوسونني أشد اللوم.

قال: ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معيَ من أحدٍ؟.

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك. قال: قلتُ: مَنْ هما؟.

قالوا: مُرارة ابن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي.

قال: فذكروا لي رجلَيْن صالحَيْن قد شهِدا بدرًا، فيهما أسوة. قال: فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامِنا- أيها الثلاثة- من بين مَن تخلَّف عنه.

قال: فاجتنبَنَا الناسُ. وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأَرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأمَّا صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بُيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم[1]، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: «هل حرَّك شفتيْه بردِّ السلام أم لا؟»، ثم أصلِّي قريبًا منه وأسارقُه النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظرَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوَه أَعرَضَ عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدارَ حائطِ[2] أبي قتادة- وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ-، فسلَّمتُ عليه، والله ما ردَّ عليَّ السلام.

فقلتُ له: يا أبا قتادة، أنشُدكَ بالله، هل تعلمني أني أحبُّ الله

---

(١) أي: أصغرهم سنا وأقواهم.

(٢) أي: علوت جدار بستان أبي قتادة.

ورسوله؟ قال: فسكتَ، فعدتُ فناشدتُه فسكت، فعدتُ فناشدتهُ، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضتْ عيناي، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ - من نبطِ [(١)] أهل الشام ممَّن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة - يقول: مَن يدلُّ على كعب بن مالك؟.

قال: فطفِقَ الناسُ يُشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إليَّ كتابًا من مَلِك غَسَّان - وكنت كاتبًا -، فقرأتهُ، فإذا فيه.

أمَّا بعد: فإنه قد بلغنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِك.

قال: فقلتُ -حين قرأتها-: وهذه أيضًا من البلاء!! فتيامَمْتُ بها التَّنُّورَ فسجرتُها [(٢)] بها.

حتى إذا مضتْ أربعون من الخمسين واستلبث الوحي [(٣)]، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمُرك أن تعتزلَ امرأتك.

قال: فقلتُ: أطلِّقها أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلْها فلا تَقْربنَّها.

قال: فأرسل إلى صاحبَّي بمثل ذلك.

قال: فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلِك، فكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر.

قال: فجاءتِ امرأةُ هلال بن أُميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول

---

(١) أي: فلاجو العجم.
(٢) أي: قصدت المكان الذي يصنع به الخبز فأحرقتها.
(٣) أي: أبطأ الوحي.

الله، إن هلال بن أُمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادم، فهل تكْرَه أن أخدمَه؟

قال: «لا، ولكن لا يَقربنَّك.

فقالت: إنه والله ما به حركةٌ إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك؛ فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه.

قال: فقلتُ: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجلٌ شابّ؟

قال: فلبثتُ بذلك عشرَ ليالٍ، فكَمُل لنا خمسون ليلةً من حين نُهي عن كلامنا.

قال: ثم صلَّيتُ صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ منا: قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحُبتْ [١]، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على سلْع [٢]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشرْ.

قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فرج.

قال: فآذنَ [٣] رسولُ الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشِّروننا، فذهب قِبَلَ صاحبَيَّ مبشِّرون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فرسًا، وسعى ساعٍ من «أسلم» قِبلي، وأوفى الجبلَ، فكان الصوت

---

(١) أي: بما اتسعت.

(٢) أي: صعده وارتفع عليه، وسَلْع جَبلٌ بالمدينة معروف.

(٣) أي أعْلَمَ الناس.

أسرع من الفرس، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني، نزعتُ له ثوبَيَّ. فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبيْن فلبستُهما، فانطلقتُ أتأمَّم[1] رسولَ الله ﷺ، يتلقَّاني الناسُ فوْجًا فوجًا، يُهنِّئوني بالتوبة ويقولون: لِتهنئك توبةُ الله عليك. حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة ابن عُبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره- فكان كعب لا ينساها لطلحة-.

قال كعب: فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور ويقول: «ابشرْ بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك».

قال: فقلتُ: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله».

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُهُ، كأنَّ وجهَه قطعةُ قمر.

قال: وكنا نعرف ذلك.

قال: فلمَّا جلستُ بين يديْه قلتُ: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسكْ بعضَ مالِكَ فهو خيرٌ لك».

قال: فقلتُ: فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخيبر.

قال: فقلتُ: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإنَّ من توبتي إلاَّ أُحَدِّثَ إلاَّ صِدقًا ما بقيتُ.

قال: فوالله ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق

---

(١) أي: قصده.

الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسنَ مما أبلاني الله به. والله ما تعمدتُ كِذْبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ..﴾ حتى بلغ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

قال كعبٌ: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ، بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظمَ في نفسي من صدقي رسولِ الله ﷺ ألاَّ أكونَ كذبتُه فأهلِك كما هلَك الذين كذبوا. إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد؛ فقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة].

قال كعب: كنا خُلِّفنا- أيّها الثلاثة- عن أمْرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمْرَنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عزَّ وجل: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكَرَ الله ممَّا خُلِّفنا تخلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيَّانا، وإرجاؤه أمْرنا عمَّن حلَف له واعتذر إليه

فقَبل منه»[١].

توبة امرأة من جهينة رضي الله عنها:

• هي امرأة تأتي معترفةً بذنبها تريد أن تتطهر من ذنبها وتَلْقى الله ولا تَبِعَةَ عليها، فتَجُودُ بنفسها لله سبحانه وتعالى، وتأتي معترفةً بالذنب إلى رسول الله ﷺ؛ كي يقيم عليها الحد ويهدأ بالها ويسكن خاطرها، ولا تَهُمَّنَّها الملابساتُ المحيطة بها ولا يُهِمُّنَّها حَمْلُها الذي في بطنها، ولا وليدها بعد أن وضعته، تلك هي الغامدية، وهذه هي قصتها التي يقشعر لها الجلد ويرق لها القلب ويقف معها الفؤاد وَجِلًا.

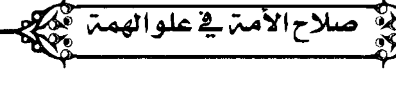
وها هي قصتها كما في «الصحيح»[٢] من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما: «أنَّ امرأةً من جهينةَ أتتْ نَبيَّ الله ﷺ، وهي حُبْلَى مِنَ الزنا، فقالت: يا نبيَّ الله، أصبتُ حدًا[٣] فَأَقِمْهُ عَلي، فدعا نبيُّ الله ﷺ وَليَّها، فقال: «أَحْسِنْ إِلَيهَا، فَإذا وَضَعَتْ فائتني بِها»، ففعل، فَأَمَر بها نبيُّ الله ﷺ، فَشُدَّتْ عليها ثيابَها، ثم أَمر بها فَرُجمتْ ثم صَلَّى عليها، فقال له عمر رضي الله عنه: تُصلِّي عليها يا نبي الله وقد زنت؟! فقال: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوبَةً، لو قُسمتْ بينَ سَبْعين من أهلِ المَدينة لَو سعتْهُم، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أفضَلَ مِنْ أنْ جادتْ بِنَفْسِهَا لله تَعَالَى؟!**».

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٤٢- ٣٤٣) «الفتح»، ومسلم (١٧/ ٨٧- ٩٨) النووي والسياق له.

(٢) «صحيح مسلم» (ح١٦٩٦).

(٣) أي: ارتكبت أمرًا يُوجب الحَدَّ.



ورجل من الصحابة رضي الله عنه:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَتَى رسولَ الله ﷺ رجلٌ من الناس وهو في المسجد، فناداه: يا رسول الله، إني زَنيتُ -يريد نفسه-، فأعرض عنه النبي ﷺ، فتنحَّى لشقِّ وجْهِهِ الذي أعْرض قِبْله، فقال: يا رسول الله، إنِّي زَنيتُ، فَأعرضَ عنه؛ فجاءَ لشقِّ وَجْهِ النبي ﷺ الذي أَعْرضَ عنه، فلمَّا شَهِدَ على نفْسِه أربعَ شهاداتٍ دعاه النبيُّ ﷺ فقال: «**أبِكَ جُنونٌ؟**» قال: لا يا رسول الله ﷺ. فقال: «**أَحْصَنْتَ؟**» قال: نَعم، يا رسول الله قال: «**اذْهَبُوا فَارْجُمُوهُ**»(١).

توبة ماعز بن مالك وتوبة الغامِدِيَّة رضي الله عنهما:

• عن بُريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: جاء ماعزُ بن مالكٍ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال: «**ويحك**(٢)**!!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه**». قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك!!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ ليه**».قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال النبي ﷺ مثلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «**فيمَ أُطهِّرك؟**». فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: «**أَبِهِ جنون؟**». فأُخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «**أشَرِبَ خمرًا؟**». فقام رجل فاستنكهه(٣)، فلم يجد منه ريحَ خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أزنيتَ؟**» فقال: نعم. فأمر به فُرجم، فكان الناس فيه

---

(١) رواه البخاري (حديث ٦٨٢٥)، ومسلم (ص١٣١٨).

(٢) «ويحك» قال ابن الأثير في «النهاية»: «ويح»: كلمة ترحُّم وتوجُّع، تُقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها.

(٣) «فاستنكهه»: أي: شمَّ رائحة فمه، طلب نكهته بشمِّ فمه، والنكهة رائحة الفم.

فرقتَيْن: قائل يقول: لقد هلَك. لقد أحاطت به خطيئته. وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز؛ إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلَّم ثم جلس، فقال: **«استغفروا لماعز بن مالك»**. قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال: فقال رسول الله ﷺ: **«لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمَّة لوسِعَتْهم»**.

قال: ثم جاءته امرأةٌ من غامد [1] من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طَهِّرني فقال: **«وَيْحَكِ! ارْجِعِي فاسْتَغفري الله وتوبي إليه»**، فقالت: أراك تريد أن تَرُدَّني كما ردَّدتَ ماعز بن مالك قال: **«وَمَا ذاكِ؟»** قالت: إنها حُبْلَى من الزنى [2]، فقال: **«آنت؟»**، قالت: نعم. فقال لها: **«حتَّى تَضَعِي مَا في بَطْنك»**، قال: فَكَفَلها رجلٌ من الأنصار [3] حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: «قد وَضَعت الغامديةُ». فقال: **«إذًا لا نَرجُمُها ونَدَعُ وَلَدَها صَغيرًا ليس لَهُ مِن يُرضعُهُ»**، فقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ فَقالَ: إليَّ رَضَاعُه [4] يا نبيَّ الله، قال: **«فَرجَمَهَا»** [5]. وللحديث رواية أخرى عند مسلم أيضًا، فيها:

---

(١) «غامد»: بطن من «جهينة».

(٢) «إنها حبلىٰ من الزنىٰ»: أرادت: إني حبلىٰ من الزنىٰ، فعبَّرت عن نفسها بالغيبة.

(٣) «فكفلها رجل من الأنصار»: أي: قام بمؤنتها ومصالحها، وليس هو من الكفالة التي هي بمعنىٰ الضمان؛ لأن هذا لا يجوز في الحدود التي لله تعالىٰ.

(٤) «إليَّ رضاعة»: إنما قاله بعد الفطام، واراد بالرضاعة: كفايته وتربيته، وسماه رضاعًا مجازًا.

(٥) رواه مسلم (١٦٩٥).

• أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ظلمتُ نَفْسي وزنيتُ، وإني أريد أن تُطهِّرني، فردَّه، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيتُ، فردَّه الثانية، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى قومه فقال: «**أَتعلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأسًا تُنْكِرونَ مِنهُ شيئًا؟**»، فقالوا: ما نَعلمُه إلَّا وَفِيَّ العَقلِ، من صالحينا -فيما نرى-، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضًا، فسأل عنه فأخبروه: أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حُفِرَ له حُفرةٌ ثم أمر به فرجم.

• قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهِّرني. وأنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لِمَ تردُّني؟ لعلَّك أن تردَّني كما رددتَ ماعزًا، فوالله إني لَحُبْلى. قال: «**إمَّا لا فاذهبي**[1] **حتى تلدي**». فلمَّا ولدتْ أتته بالصبي في خِرقةٍ، قالت: هذا قد ولدتُه. قال: «**فاذهبي فأرضعيه حتى تَفطميه**». فلما فطمتْه أتته بالصبي في يده كِسْره خبز، فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمتُه، وقد أكل الطعام. فدفعَ الصبيَّ إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدْرها، وأمر الناس فرجموها. فيُقْبِلُ خالد[2] بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضَّح[3] الدم على وجهِ خالد فسبَّها، فسمع نبيُّ الله ﷺ سبَّه إيَّاها؛ فقال: «**مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي**

(١) «إما لا فاذهبي»: هو بكسر الهمزة من «إما»، وتشديد الميم، وبالإمالة. الأصل: إن ما، فأدغمت النون في الميم وحذف فعل الشرط فصار إمَّا لا، ومعناه: إذا أبيتِ أن تستري على نفسك وتتوبي وترجعي عن قولك فاذهبي حتى تلدي، فترجمين بعد ذلك.

(٢) فيقبل خالد: حكاية للحال الماضية، أي: .

(٣) «فتنضح» قال النووي: رُوي بالحاء المهملة والمعجمة، والأكثرون على المهملة، ومعناه: ترشش وانصب.

بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ[١] لَغُفر له». ثم أمر بها فصلى عليها ودُفنتْ».

أصحاب الغار:

• عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينَما ثلاثةُ نَفَرٍ يَتمشُّونَ أخذَهُمُ المَطَرُ، فَأووا إلى غَارٍ[٢] في جَبَلٍ، فانحطَّتْ على فَمِ غارهم صَخْرةٌ من الجبَلِ، فانطَبَقتْ عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظُروا أعمالًا عملتُمُوها صالحةً لله، فادعُوا الله تعالى بها، لعلَّ الله يُفرِجُها عنكُمْ، فقال أحدهُمُ: اللهمَّ، إنَّهُ كان لي والدَانِ شيخَان كَبيران، وامرأَتي، ولي صبْيَةٌ صغَارٌ أَرْعَى عليهم، فإذا أَرحْتُ عليهم[٣] حَلَبْتُ، فبدأت بوالديَّ فسقيْتُهُمَا قبْلَ بَنيَّ، وأنَّه نَأى بي ذاتَ يوم الشَّجر[٤]، فلم آت حتى أمسيتُ فوجَدْتُهُمَا قد نَامَا، فحَلَبْتُ كما كنتُ أحلب فجئْتُ بالحلاب[٥]، فَقُمْتُ عندَ رؤسهما، أَكْرَهُ أنْ أُوقِظَهُمَا من نَومِهمَا، وأَكْرَهُ أنْ أَسْقِيَ الصبيَّةَ قَبْلَهُمَا، والصِبْيَةُ يتضاغُونَ[٦] عِندَ قَدمي، فَلم يَزلْ ذلك دَأبي[٧] ودَأبُهُم حتَّى طَلَعَ

---

(١) المكْس: الجبِاية.

(٢) «غار»: الغار: الثقب في الجبل.

(٣) «فإذا أرحت عليهم»: أي: إذا رددت الماشية من المرعىٰ إليهم، وإلى موضع مبيتها، وهو مُراحها، يقال: أرحتُ الماشية وروحتها، بمعنىٰ.

(٤) «نأىٰ بي ذات يوم الشجر»: وفي بعض النسخ: «ناء بي»، هما لغتان وقراءتان، ومعناه بعد، والنأي البعد.

(٥) «بالحلاب»: الإناء الذي يحلب فيه، يَسعُ حلبةَ ناقةٍ، ويقال له: المحلب. قال القاضي: وقد يريد بالحلاب هنا اللبن المحلوب.

(٦) «يتضاعون» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

(٧) «فلم يزل ذلك دأبي» أي: حالي اللازمة.

الفَجرُ، فإن كُنْت تعلَمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغَاءَ وجهك، فافرجْ لنا منها فُرْجةً، نرى منها السماءَ، ففرَّجَ اللهُ منها فُرجةً فرأوا منها السماءَ.

وقال الآخرُ: اللهمَّ، إنَّهُ كانت لي ابنَةُ عمٍّ أُحببْتُها كأَشَدِّ ما يُحِبُّ الرِّجَالُ النساء، وطلبتُ إليها نفسها، فأبتْ حتَّى آتيها بمئة دينارٍ، فتعبْتُ حتَّى جَمعتُ مئة دينار، فجئتُها بها، فلمَّا وقعتُ بين رجلَيها[١] قالت: يا عبدَ الله، اتَّقِ الله، ولا تَفْتَحُ الخاتمَ إلَّا بحقِّه[٢]، فَقُمتُ عنها، فإنْ كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ، فافرج لنا منها فُرجةً. ففرِّجَ لهم.

وقالَ الآخَرُ: اللهمَّ،إنِّي كنتُ استأجَرْتُ أجيرًا بفَرَق أرزٍّ[٣]، فلمَّا قَضى عَمَلَهُ قال: أَعطني حقِّي، فَعرضْتُ عليه فَرْقَهُ فَرغَبَ عنهُ[٤]، فلمْ أَزلْ أَزْرَعُهُ حتَّى جَمَعْتُ منهُ بقَرًا ورعاءهَا، فجاءَني فقال: اتَّقِ اللهَ ولا تَظلمْني حقِّي، قلتُ: اذهب إلى تلك البقرِ ورعائها فخُذهَا، فقال: اتَّقِ اللهَ، ولا تستهزئُ بي، فقُلتُ: إنِّي لا أستهزئُ بك، خُذ ذلك البقر ورعاءَها، فأخذهُ فذهب به، فإنْ كُنْت تعلَمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجْهِكَ، فافرُجْ لنا ما بقيَ، ففرَّجَ اللهُ ما بَقِي»[٥].

فلله درُّ الرجل الذي قعد بين رجليْ ابنة عمه كي يزني بها، ثم قام عنها

(١) «فلما وقعت بين رجليها»، أي: جلست مجلس الرجل للوقاع.

(٢) «لا تفتح الخاتم إلا بحقه»: «الخاتم» كناية عن بكارتها. وقولها: «بحقه» أي: بنكاح، لا بزنى.

(٣) بفرق: بفتح الراء وإسكانها، لغتان، الفتح أجود وأشهر، وهو: إناء يسع ثلاثة آصع.

(٤) «فرغب عنه»، أي: كرهه وسخطه وتركه.

(٥) البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

وتركها وانصرف خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ.

توبة زاذان الكندي:

□ روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مرَّ ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة، فإذا فتيان فسَّاق قد اجتمعوا يشربون (١)، وفيهم مغنٍ يُقال له: زاذان يضرب ويُغنِّي، وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله! ظجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زاذان قوله فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود -صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم-. قال: وأي شيءٍ قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى. فقام وضرب بالعُود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه، وجعل المنديل في عنق نفسه وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود، وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عَزَّوَجَلَّ فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من ذنوبه؛ ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن، وأخذ حظًا من العلم (٢) حتى صار إمامًا في العلم، وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما(٣).

توبة أبي عبد رب:

كان أبو عبد رب رَحِمَهُ اللَّهُ من أكثر أهل دمشق مالًا، فخرج إلى

---

(١) أي: الخمر.

(٢) حظًّا: قدْرًا.

(٣) «كتاب التوابين» لابن قدامة المقدسي (ص١٢٩ - ١٣٠)- دار الفجر.

أذربيجان في تجارة؛ فأمسى إلى جانب مرج ونهر فنزل به. قال أبو عبد رب: فسمعت صوتًا يكثر حمد الله في ناحية من المرج، فاتبعته. فوافيت رجلًا في حفير [(١)] من الأرض ملفوفًا في حصير. فسلمت عليه، وقلت: من أنت يا عبد الله؟ قال: رجل من المسلمين. قال: قلت: ما حالك هذه؟ قال: حال نعمة يجب عليّ حمد الله فيها. قال: قلت: كيف وإنما أنت في حصير؟ قال: وما لي لا أحمد الله أن خلقني فأحسن خلقي وجعل مولدي ومنشئ في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني، وستر عليّ ما أكره ذكره أو نشره؟! فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟ قال: قلت: رحمك الله! إن رأيت أن تقوم معي إلى المنزل فإنا نزول على النهر. قال: ولمه؟ قلت: لتصيب من الطعام ولنعطيك من يغنيك عن لبس الحصير. قال: ما بي حاجة.

قال الوليد: فحسبت أنه قال: إنَّ لي في أكل العشب كفاية عما قال أبو عبد رب، قال: فأردته على أن يتبعني، فأبى، قال: ما لي به من حاجة.

قال أبو عبد رب: فانصرفت وقد تقاصرتْ إليَّ نفسي ومقتُّها أني لم أخلِّف بدمشق رجلًا في الغنى يكاثرني وأنا ألتمس الزيادة فيه. وقلت: اللهم! إني أتوب إليك من سوء ما أنا فيه. قال: فبت ولم يعلم إخواني بما قد أجمعت به. فلمَّا كان من السَّحر رحلوا كنحو من رحيلهم فيما مضى؛ وقدَّموا إلى دابتي فركبتها وصرفتها إلى دمشق. وقلت: ما أنا بصادق التوبة إن أنا مضيت في متجري هذا، فسألني القوم فأخبرتهم؛ وعاتبوني على المضي فأبيت.

---

(١) حفير: حُفْرة.

قال ابن جابر: فلما قدم تصدق بصامت ماله [١]، وتجهز به في سبيل الله. قال ابن جابر: فحدثني بعض إخواني قال: ما كست صاحب عباءة في عباءة، أعطيته ستة وهو يقول: سبعة. فلمّا أكثرت قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل دمشق. قال: ما تشبه شيخًا وفد عليَّ أمس، يقال له: أبو عبد رب اشترى مني سبعمئة كساء بسبعة سبعة؛ ما سألني أن أضع له درهمًا، فسألني أن أحملها له، فبعثت أعواني، فما زال يفرقها بين فقراء الجيش، فما دخل إلى منزله منها بكساء.

قال ابن جابر: وباع عقدة وتصدق بها، وباع داره بمال عظيم وفرَّقه وكان مع ذلك موته. فما وجدوا منها إلَّا قدر ثمن الكفن. وكان يقول: والله لو أن نهركم هذا -يعني بردي- سال ذهبًا وفضة، من شاء خرج إليه فأخذ منه، ما خرجت إليه؛ ولو قيل: من مسّ هذا العمود مات، لسرني أن أقوم إليه شوقًا إلى الله وإلى رسوله» [٢].

توبة وليِّ الله إبراهيم بن أدهم:

☐ عن إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم قال:

قلتُ: يا إسحاق! كيف كان أوائل أمرك؟ قال: كان أبي من أهل «بلْخ»، وكان من ملوك خراسان، وحبّب إلينا الصيد، فخرجت راكبًا فرسي وكلبي معي، فبينما أنا كذلك، ثار أرنب أو ثعلب، فحركتُ فرسي فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خُلقتَ ولا بذا أمرتَ! فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أرَ أحدًا فقلت: لعن الله إبليس! ثم حرت فرسي فأسمع

---

(١) «كتاب التوابين» (ص١٣٨ - ١٣٩).

(٢) «كتاب التوابين» (ص١٣٨ - ١٣٩).

نداءً أجهر من ذلك: يا إبراهيم! ما لذا خُلقت ولا بذا أمرت! فوقفت، فقلت: أنبَهْتَ! أنبَهْت جاءني نذير من رب العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي. فرجعت إلى أهلي، ثم جئت إلى أحد رعاة أبي، فأخذت منه جبّةً وكساءً، وألقيت ثيابي إليه، ثم اقبلت إلى العراق، أرضٌ ترفَعُني، وأرضٌ تَضَعُني، حتى وصلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا، فلم يصف لي منا -يعني: الحلال- فسألت بعض المشايخ، فقال لي: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام، فَصرتُ إلى بلاد الشام، فسرت إلى مدينة يُقال لها: المنصورة -وهي المِصِّيصة-، فعملت بها أيامًا فلم يصفُ لي شيء من الحلال، فسالت بعض المشايخ. فقالوا لي: إن أردت الحلال الصافي، فعليك بطرسوس، فإن فيها المباحات والعمل الكثير، فتوجهت إلى طرسوس فعملت بها أيامًا أنظر البساتين وأحصد الحصاد. فبينا أنا قاعد على باب البحر، جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانه. فكنت في البستان أيامًا كثيرة، فإذا خادم قد أقبل ومعه أصحابه. فقعد في مجلسه، ثم صاح: يا ناطور! فقلت: هو ذا أنا. فقال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه، فذهبتُ فأتيتُه بأكبر رمان، فأخذ الخادم رمانة فكسرها، فوجدها حامضة، فقال: يا ناطور! أنت في بستاننا منذ كذا وكذا، تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا، ولا تعرف الحلو من الحامض؟

قال إبراهيم: قلتُ: والله ما أكلتُ من فاكهتك شيئًا ولا أعرف الحلو من الحامض، فأشار الخادم إلى أصحابه، فقال: أما تسمعون كلام هذا؟ أتَراكَ لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا؟ فانصرف، فلما كان من الغد ذكر صفتي في المسجد، فعرفني بعض الناس، فجاء الخادم ومعه عَنَق من الناس، فلما رأيته قد أقبل مع الناس اختفيتُ خلف الشجر والناس

داخلون، فاختلطتُ معهم وهم داخلون وأنا خارج هارب، فهذا كان أوائل أمري وخروجي من طرسوس إلى بلاد الرمال»[(١)].

توبة شقيق البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ عن علي بن محمد بن شقيق: «كان لجدي ثلثمئة قرية، ولم يكن له يوم مات كفنٌ يُكفَّن فيه، قَدَّمَهُ كلَّه بين يديه، قال: وكان خرج إلى بلاد الترك لتجارة -وهو حَدَثٌ- إلى قوم يقال لهم: الخلوخيّة يعبدون الأصنام. فدخل إلى بيت أصنامهم، وعالِمُهم قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابًا حمرًا أرجوانية، فقال له شقيق: إن هذا الذي أنت فيه باطل، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالقٌ صانع ليس كمثله شيء، له الدنيا والآخرة، قادر على كل شيء، رازق كل شيء. فقال له الخادم: ليس يوافق قولك فعلك. فقال له شقيق: كيف ذلك؟ قال: زعمت أن لك خالقًا قادرًا على كل شيء، وقد تعنيَّت إلى هاهنا لطلب الرزق، ولو كان كما تقول كان الذي يرزقك هاهنا يرزقك ثَمَّ فتربح العناء.

قال شقيق: فكان سبب زهدي كلام التركي. فرجع فتصدق بجميع ما ملك وطلب العلم»[(٢)].

توبة الفُضَيْل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ قال: «كان الفضيل يقطع الطريق وحده. فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق يُقال له: الفضيل. قال:

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٦٨- ٣٦٩)، و«التوابين» (ص١٠١- ١٠٢).

(٢) «كتاب التوابين» (ص١٠٤- ١٠٥).

فسمع الفضيل، فأرعد، فقال: ا قوم! أنا الفضيل، جوزوا، والله لأجتهدنَّ أن لا أعصي الله أبدًا! فرجع عما كان عليه. وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة؛ وقال أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفًا، ثم رجع فسمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. قال: بلى والله قد آن. فكان هذا مبتدأ توبته»[1].

□ وفي رواية أنه كان شاطرًا، وكان يتعشَّقُ الجواري وبينا هو يتسلَّق الدار إلى معشوقته سمع متهجِّدًا يتلو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: بلى والله قد آن..» وحسنت توبة الفضيل وصار من كبار أولياء هذه الأمة، حتى كان ابن عيينة وابن المبارك يُقبِّلان يده.

□ ويقول فيه ابن المبارك: «كنتُ كلما قسى قلبي نظرتُ إلى وجه الفضيل يجدِّد لي الحزن، وأمقت نفسي»، وقال: «إذا مات الفُضيل ارتفع الخوف من الأرض».

□ وقال إبراهيم بن الأشعث: «سمعت فضيلًا ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي ويردِّد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد]. وجعل يقول: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾! ويردد ويقول: وتبلو أخبارنا! إن بلوتَ أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا! إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا! وسمعته يقول: تزينت للناس وتصنّعت لهم وتهيأت لهم، ولم تزل ترائي حتى عرفوك فقالوا: رجل صالح! فقضوا لك الحوائج، ووسعوا لك في المجلس، وعظَّموك، خيبة

(١) المصدر السابق (ص١٣٣).

لك؛ ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك! وسمعته يقول: إن قدرت أن لا تُعرف فافعل؛ وما عليك أن لا تعرف، وما عليك إن لم يُثنَ عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا»[(١)].

توبة بشر بن الحارث الحافي إمام أهل الزهد والورع:

◻ كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إذا سُئل عن مسألة من مسائل الزهد والورع قال: «أتسألوني عن الزهد والورع وفيكم بشر؟».

◻ وقال: «من بيتهم -أي: بيت بشر- خرج الورع».

◻ قال محمد بن الدينوري يقول: «سعت بشر بن الحارث وسُئِلَ: ما كان بدء أمرك؛ لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبيّ؟ قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم؟ كنت رجلًا عيَّارًا صاحب عصبية، فجزت يومًا، فإذا أنا بقرطاس في الطريق، فرفعته فإذا فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾. فمسحته وجعلته في جيبي. وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما. فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية. ومسحته في القرطاس. فنمت تلك الليلة؛ فرأيت في المنام كأن قائلًا يقول: يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيّبته، لأُطيِّبنَّ اسمك في الدنيا والآخرة! ثم كان ما كان.

وحُكي أن بشرًا كان في بزمن لهوه في داره، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون. فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدق الباب. فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هذه الدار حر أو عبد؟ فقالت: بل حرّ! فقال: صدقت، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب.

(١) المصدر السابق (ص١٣٣).

فسمع بشر محاورتهما فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولّيَّ الرجل. فقال للجارية: ويحك! من كلمك على الباب؟ فأخبرته بما جرى. فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتبعه بشر حتى لحقه؛ فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم. قال: أعد علي الكلام. فأعاده عليه. فمرغ بشر خدَّيه على الأرض وقال: بل عبدٌ عبدٌ! ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرف بالحفاء. فقيل له: لم لا تلبس نعلًا؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلَّا وأنا حافٍ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات»[1].

□ وعن فاطمة بنت أحمد أخت أبي عليّ الروذباري، قالت: «كان ببغداد عشرة فتيان معهم عشرة أحداث. فوجهوا واحدًا من الأحداث في حاجة لهم؛ فأبطأ، فحردوا عليه. فجاء وهو يضحك، وبيده بطيخة. فقالوا له: تبطئ وتجيء وأنت تضحك؟! فقال: جئتكم بأعجوبة؟ وضع بشر يده على هذه البطيخة فاشتريتها بعشرين درهمًا. فأخذ كل واحد منهم يقبّلها ويضعها على عينه. فقال واحد منهم: بأي شيء بلغ بشر هذه المرتبة؟ فقالوا: بالتقوى فقال: هو يُشهدكم أنه تائب إلى الله تعالى، فقال القوم كلُّهم مثله. ويقال: إنهم خرجوا إلى طرسوس فاستُشهدوا كلهم -رحمة الله عليهم-».

□ أنبأ الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي قال: أنا أبو الحسين بن الطيوري، أنا أبو القاسم عبد العزيز بن أحمد بن الفضل، أنا أبو الحسن علي ابن عبد الله بن الحسن بن جهضم، ثنا علي بن هارون، ثم

---

(١) «كتاب التوابين» (ص١٣٥).

محمد بن مخلد قال أبو الفتح بن مخرق: «تعلق رجل بامرأة من بنات الشام فتعرّض لها بيده سكين، لا يدنو منه أحد إلّا عقره، وكان الرجل شديد البدن. فبينا الناس كذلك، والمرأة تصيح من يده، إذ مرّ بشر بن الحارث؛ فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل. فوقع الرجل إلى الأرض، ومضى بشر. فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيرًا؛ ومضت المرأة بحالها. فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكني حاكني شيخ، وقال: إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل! فضعفت لقوله قدمي وهبته هيبة شديدة، لا أدري من ذاك الرجل. فقالوا له: ذاك بشر بن الحارث. فقال: واسوءتاه! كيف ينظر إليّ بعد اليوم؟ وحُمَّ الرجل من يومه، ومات اليوم السابع»[1].

توبة أبي محمد حبيب العجمي أو الفارسي صاحب المكرمات ومجاب الدعوات:

كان رَحِمَهُ اللهُ مرابية وكان إذا مرّ بالشارع قال الصبيان: هذا أبو محمد حبيب العجمي المرابي.

كان سبب إقبال حبيب أبي محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة حضوره مجلس الحسن فوقعت موعظته في قلبه، فخرج عما كان يتصرف فيه ثقة بالله ومكتفيًا بضمانه، فاشترى نفسه من الله، فتصدق بأربعين ألف درهم في أربع دفعات: تصدق بعشرة آلاف درهم في أول النهار، فقال: يا رب! قد اشتريتُ نفسي منك بهذا، ثم أتبعها بعشرة آلاف أخرى، فقال: هذه شكرًا لما وفّقتني له؛ ثم أخرج عشرة آلاف أخرى فقال: يا رب! إن لم تقبل مني الأولى والثانية فاقبل مني هذه؛ ثم تصدق بعشرة آلاف أخرى،

(١) المصدر السابق (ص١٣٦).

فقال: يا رب! إن قبلت مني الثالثة فهذه شكرًا لها»(١).

توبة مالك بن دينار رحمه الله:

□ روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته، فقال: «كنت شرطيًّا وكنت منهمكا على شرب الخمر، ثم إنني اشتريتُ جارية نفيسة؛ ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتًا. فشغفتُ بها؛ فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبًا، وألفتني وألفتها. قال: فكنت إذا وضعتُ المسكر بين يديَّ جاءت إليَّ وجاذبتني عليه وهرَقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني حزنها. فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملًا (٢) من الخمر؛ ولم أصلِّ فيها عشاء الآخرة. فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحُشر الخلائق، وأنا معهم. فسمعت حسًا من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنِّين (٣) أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعًا نحوي. فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرعوبًا. فمررت في طريقي بشيخ نقيِّ الثوب طيب الرائحة؛ فسلمت عليه فردّ السلام. فقلت: أيها الشيخ! أجرني من هذا التنِّين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه؛ ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه. فوليت هاربًا على وجهي، فصعدتُ على شرف من شُرَف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوي فيها من فزع التنِّين؛ فصاح بي صائح، ارجع فلست من أهلها! فاطمأننت إلى قوله ورجعت،

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ١٤٩)، و«التوابين» (ص١٢٩).

(٢) أي: قد ذهب عقله من السكر، وأخذ منه الشرب مأخذًا.

(٣) التنِّين: نوع من الحيّات، عظيم كبير الحجم.

ورجع التنِّين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ! سألتك أن تجيرني من هذا التنِّين فلم تفعل. فبكى الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك

فيه وديعة فستنصرك. قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى مخرمة وستور معلق، على كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصَّلة باليواقيت مكوكبة بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير. فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربًا والتنِّين من ورائي؛ حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا! فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوِّه. فإذا الستور قد رُفعت والمصاريع قد فتحت، فأشرف علي من تلك المخرَّمات أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنِّين مني، فتحيرت في أمري. فصاح بعض الأطفال: ويحكم! أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه. فأشرفوا فوجًا بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم. فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله! ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت ين يدَّي. فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلَّقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنِّين فولى هاربًا.

ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبت، ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦].

فبكيت وقلت: يا بنية! وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت! نحن أعرف به منكم. قلت: فأخبريني عن التنِّين الذي أراد أن يهلكني. قالت: ذلك عملك السوء قوَّيته فأراد أن يغرقك في نار جهنم. قلت: فأخبريني

عن الشيخ الذي مررتُ به في طريقي. قالت: يا أبت! ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء. قلت: يا بنية! وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم. قال مالك: فانتبهت فزعًا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية وتبت إلى الله ﷻ. وهذا كان سبب توبتي»(١).

توبة داود الطائي رحمه الله:

□ قال الحماني: «كان بدء توبة داود الطائي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مُقيمٌ إلى أن يبعثَ الله خلقهُ ... لقاؤكَ لا يُرْجى وأنت قريبُ

تزيدُ بلى في كلِّ يوم وليلةٍ ... وتُسلى كما تبلى وأنت حبيبُ

□ وقال أبو نعيم: «قدم داود من السواد دلا يفقه؛ فلم يزل يتعلَّم ويتعبَّد حتى ساد أهل الكوفة».

□ وقال يوسف بن أسباط: «ورث داود عشرين دينارًا فأكلها في عشرين سنة».

□ قال أبو نعيم: «كان داود يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز».

وقال: «بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية».

ودخل إليه يومًا رجل، فقال: «إن في سقف بيتك جذعًا قد انكسر. فقال: يا ابن أخي! إني في هذا البيت منذ عشرين سنة. ما نظرت إلى

---

(١) «التوابين» (ص١٣٠ - ١٣٢).

السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام[(١)]»[(٢)].

توبة القعنبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ قال أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الصباح البزاز: «لم يرو القعنبي عن شعبة غير هذا الحديث الواحد وله شرح: حدثني بعض القضاة عن بعض ولد القعنبي بالبصرة، قال: كان أبي يشرب النبيذ ويصحب الأحداث. فدعاهم يومًا وقد قعد على الباب ينتظرهم. فمر شعبة على حماره والناس خلفه يهرعون. فقال: من هذا؟ قيل: شعبة. قال: وأيشٌ شعبة؟ قالوا: محدِّث. فقام إليه وعليه إزار أحمر. فقال له: حدّثني. فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك. فأشهر سكينه[(٣)] وقال: تحدّثني أو أجرحك؟ فقال له: حدثنا منصور عن ربعي عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[(٤)]. فرمى سكينه ورجع إلى منزله. فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فهراقه، وقال لأمه: الساعة أصحابي يجيئون، فأدخليهم وقدِّمي الطعام إليهم؛ فإذا أكلوا فخبريهم بما صنعتُ بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة، فلزم مالك بن أنس،فأثر عنه. ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة، فما سمع منه غير هذا الحديث»[(٥)].

---

(١) فضول النظر: ما زاد عن الحاجة، وفضول الكلام: ما ليس له نفعٌ للمتكلّم والسامع.

(٢) «التوابين» (ص١٣٢).

(٣) أشهر سكينه: أي سلَّه ورفعه.

(٤) رواه البخاري حديث رقم (٣٤٨٤).

(٥) «التوابين» (ص١٤٠).

توبة عكبر الكردي:

□ قال الإمام ابن قدامة: «قرأت في «الملتقط» عن بشر بن الحارث الحافي أنه قال: اعترضت عكبر الكردي، فقلت له: أيش كان أصل رجوعك إلى الله تعالى؟ فقال: كنت في بعض الدحال [(١)] أقطع الطريق، وكان فيها ثلاث نخلات، نخلة منهن لا تحمل وإذا بعصفور يأخذ من حمل النخلة التي تحمل رطبة فيدعها في التي لا تحمل. فلم أزل أعد عليه عشر مرار؛ فخطر بقلبي: قم وانظر! فنهضت، فإذا في رأس النخلة حية عمياء -يعني وهو يضع الرطبات في فيها- فبكيت، وقلت: سيدي! هذه حية قد أمر نبيُّك بقتلها؛ أعميتها وأقمت لها عصفورًا يقوم لها بالكفاية؛وأنا عبدك، أقر بأنك واحد، أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل؟! فوقع في قلبي: يا عكبر! بابي مفتوح. فكسرتُ سيفي، ووضعتُ التراب على رأسي، وصحت: الإقالة! الإقالة! فإذا بهاتف يقول: قد أقلناك! قد أقلناك! فانتبه رفقائي، فقالوا: ما لك؟ قد أزعجتنا! فقلت: كنت مهجورًا، وقد صولحت. فقالوا: ونحن أيضًا كنا مهجورين، وقد صولحنا. فرمينا ثيابنا وأحرمنا كلنا. فما زلنا كذلك ثلاثة أيام نصيح ونبكي ونحن سُكارى حيارى. فوردنا اليوم الثالث على قرية؛ وإذا بامرأة عمياء جالسة على باب القرية. فقالت: فيكم عكبر الكردي؟ فقال أحدنا: نعم، لك حاجة؟ قالت: نعم؛ لي ثلاث ليال أرى النبي ﷺ في النوم، وهو

---

(١) الدَّحْل: - ويضم- نقب ضيق فمه، متسع أسفله، حتىٰ يمشي فيه، وربما أنبت السدْرَ، أو مدخل تحت الجرف، أو في عرض خشب البئر في أسفلها، أو خرق في بيوت الأعراب يجعل لتدخله المرأة إذا دخل داخل. «القاموس المحيط» (ص١٢٩).

يقول: أعط عكبر الكردي ما خلّفه ولدك. فأخرجت لنا ستين شقّة. فائتزرنا ببعضها ودخلنا البادية إلى أن أتينا البيت»(١).

توبة سكران:

▫ قال ابن باكويه: «وحدثنا بكران بن أحمد قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفةٍ، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت. فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأنًا، فامض بنا، فجعلنا نقفو أثرها؛ فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أُذُنَهُ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت. ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم. ففتح عينيه؛ فقال: يا فتى! انظر مما نَجّاك الله: هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك. ثم أنشأ ذو النون يقول:

يـا غـافلًا والجليـلُ يَحْرُسُـه ... مـن كـلِّ سُوءٍ يـدبُّ في الظُّلَـم
كيـف تَنَـامُ العُيُـونُ عـن ملـك ... تأتِيـه مِنـه فَوَائِـدُ الـنِّعم

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك، فكيف رفقك بمن يطيعك؟ ثم ولّى، فقلتُ: إلى أين؟ قال: إلى البادية، والله لا عُدتُ إلى المُدُن أبدًا»(٢).

---

(١) «التوابين» (ص١٤١).
(٢) المصدر السابق (ص١٤٣).

توبة الأمير حميد بن جابر:

□ قال إبراهيم بن بشّار: «كنت يومًا مارًّا مع إبراهيم -يعني بن أدهم- في صحراء، فأتينا على قبر مسنَّم، فترحم عليه وبكى. فقلت: قبرُ من هذا؟ فقال: هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها. كان غرقًا في بحار الدنيا، فأخرجه الله تعالى منها واستنقذه[(١)]. ولقد بلغني أنه سُرّ يومًا بشيء من ملاهي ملكه ودنياه وغروره وفتنته. ثم نام في مجلسه ذلك مع من يخصّه من أهله، فرأى في منامه رجلًا واقفًا على رأسه، بيده كتاب. فناوله، ففتحه، فإذا فيه كتاب بالذهب مكتوب: لا تؤثرن فانيًا على باقٍ ولا تغترْنّ بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذاتك وشهواتك، فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم، وهو مُلك لولا أن بعده هُلك، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو غرور، وهم يوم لو كان يُوثق له بغد، فسارع إلى أمر الله تعالى، فإن الله تعالى قال: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران].

قال: فانتبه فَزِعًا، وقال: هذا تنبيه من الله عَزَّ وَجَلَّ وموعظة فخرج من ملكه لا يُعلم به، وقصد هذا الجبل، فتعبد فيه، فلما بلغني قصته وحُدِّثت بأمره، قصدته، فسألته، فحدثني ببدء أمره، وحدثته ببدء أمري، فما زلت أقصده حتى مات، ودُفن هاهنا، فهذا قبره رَحِمَهُ اللَّهُ»[(٢)].

(١) أي: أنقذه.

(٢) «التوابين» (ص١٠٠ - ١٠١).

توبة عبد الله بن مرزوق رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

□ كان عبد الله بن مرزوق رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع المهدي في دنيا واسعة. فشرب ذات يوم على لهوٍ وسماع، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب، وفي كل ذلك تنبِّهه جارية حظية عنده، فلما جاز وقت العشاء جاءت الجارية بجمرة فوضعتها على رجله، فانزعج وقال: ما هذا؟ قالت: جمرة من نار الدنيا، فكيف تصنع بنار الآخرة؟ فبكى بكاءً شديدًا، ثم قام إلى الصلاة.

ووقع في نفسه مما قالت الجارية، فلم يرَ شيئًا ينجيه إلَّا مفارقة ما هو فيه من ماله. فأعتق جواريه وتحلل م معامليه وتصدّق بما بقي، حتى صار يبيع البقل، وتبعته على ذلك الجارية. فدخل عليه سفيان بن عيينة وفضيل ابن عياض فوجدا تحت رأسه لَبِنَةً وليس تحته شيء. فقال له سفيان: إنه لم يَدَعْ أحد لله شيئًا إلَّا عوضه الله منه بدلًا، فما عوّضك مما تركت له؟ قال: الرضى بما أنا فيه»[1].

توبة جعفر بن حرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذكر أبو القاسم التنوخي عن أبيه أن جعفر بن حرب كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان. وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة في غاية الوفور، ومنزلته بحالها في الجلالة. فسمع رجلًا يقرأ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. فصاح: اللهم بلى! فكررها دفعات وبكى.

ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه، ودخل إلى دِجْلة واستتر بالماء، ولم يخرج منه حتى فرّق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه وردّها وتصدّق بالباقي.

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٧).

فاجتاز رجل فرآه في الماء قائمًا -وسمع بخبره- فوهب له قميصًا ومئزرًا فاستتر بهما وخرج، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات»[١].

توبة جارية من بنات الكبار على يد أبي شعيب البراثي وزواجها منه:

□ قال الجُنيد: «كان أبو شعيب البراثي أول من سكن براثي في كوخ يتعبد فيه. فمرّت بكوخه جارية من بنات الكبار كانت رُبيت في قصور الملوك. فنظرت إلى أبي شعيب فاستحسنت حاله وما كان عليهن فصارت كالأسير له، فعزمت على التجرد من الدنيا والاتصال بأبي شعيب فجاءت إليه، وقالت: أريد أن أكون لك خادمة. فقال لها: إن أردت ذلك فغيري من هيئتك وتجردي عما أنت فيه حتى تصلحي لما أردت. فتجردت عن كل ما تملكه ولبست ثياب النساك وحضرته، فتزوجها. فلما دخلت الكوخ رأت قطعة خصاف في مجلس أبي شعيب تقيه النَّدي. فقالت: ما أنا بمقيمة فيها حتى تُخرج ما تحتك، لأني سمعتك تقول: إن الأرض تقول: يا ابن آدم! تجعل اليوم بيني وبينك حجابًا وأنت غدًا في بطني؟ فما كانت لأجعل بيني وبينها حجابًا، فأخذ أبو شعيب الخصافَ فرمى بها. فمكثت معه سنين كثيرة تتعبد أحسن عبادة، وتوفيا على ذلك متعاونين»[٢].

توبة الخليفة العباسي الواثق بالله وابنه المهتدي بالله:

□ قال صالح بن علي بن يعقوب الهاشمي: «حضرتُ المهتدي بالله أمير المؤمنين وجلس للنظر في أمور المظلومين في دار العامة. فنظرت إلى قصص الناس تُقرأ عليه من أولها إلى آخرها؛ فيأمر بالتوقيع عليها، وينشأ

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٦).

(٢) «التوابين» (ص١٢٤).

الكتابُ عليها وتحرَّر، وتُختم وتُرفع إلى صاحبها بين يديه. فسرّني ذلك؛ واستحسنت ما رأيتُ. فجعلتُ أنظر إليه؛ ففطن ونظر إليّ، فغضضت عنه، حتى كان ذلك مني ومنه مرارًا ثلاثًا: إذا نظر غضضت، وإذا شُغل نظرت. فقال لي: يا يصالح! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! وقمت قائمًا. فقال: في نفسك منا شيء تريد -أو قال- تحبّ أن تقوله؟ قلتك نعم يا سيدي! فقال لي: عد إلى موضعك. فَعُدْتُ؛ حتى إذا قام، قال للحاجب: لا يبرح صالح.

فانصرف الناس؛ ثم أذنَ لي دخلتُ فدعوتُ له، فقال لي: اجلس. فجلستُ، فقال: يا صالح تقول لي ما دار في نفسك أو أقول أنا ما دار في نفسي أنه دار في نفسك؟ قلت: يا أمير المؤمنين! ما تعزم عليه وتأمر به، قال: أقول أنا: إنه دار في نفسي أنك استحسنت ما رأيت منا، فقلت: أي خليفة خليفتنا إن لم يكن يقول: القرآن مخلوقٌ؟ فورد على قلبي أمر. عظيم؛ ثم قلتُ: يا نفس! هل تموتين قبل أجلك؟ وهل تموتين إلَّا مرة؟ وهل يجوز الكذب في جد أو هزل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! ما دار في نفسي إلَّا ما قلت. ثم أطرق مليًا وقال: ويحك! اسمع مني ما أقول، فوالله لتسمعنّ الحق، فسُرّي عنّي فقلت: يا سيدي! ومن أولى بقول الحق منك وأنت خليفة رب العالمين وابن عم سيد المرسلين؟ فقال: ما زلت أقول: إن القرآن مخلوق صدرًا من أيام الواثق، حتى أقدم أحمد بن أبي داود علينا شيخًا من أهل الشام من أهل «أَذَنَة» فأدخل الشيخ على الواثق مقيدًا، وهو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة. فرأيت الواثق قد استحيى منه ورق له. فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه. فسلم الشيخ فأحسن، ودعا فأبلغ. فقال له الواثق: اجلس، فجلس، فقال له: يا شيخ! ناظر ابن أبي

داود على ما يناظرك عليه. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! ابن أبي داود يصبي ويضُعف عن المناظرة. فغضب الواثق وعاد مكان الرقة غضبًا عليه.

قال الواثق: أبو عبد الله بن أبي داود يصبي ويضعف عن مناظرتك أنت؟ فقال الشيخ: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك، فائذن في مناظرته. فقال الواثق: ما دعوتك إلَّا للمناظرة. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! إن رأيت أن تحفظ علي وعليه ما نقول. قال: أفعل.

قال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن مقالتك هذه، هي مقالة واجبة داخلة في عقد الدِّين فلا يكون الدِّين كاملًا حتى يقال فيه بما قلت؟ قال: نعم. قال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله إلى عباده، هل ستر شيئًا مما أمره الله به في أمر دينهم؟ قال: لا. فقال الشيخ: فدعا رسول الله ﷺ الأمة إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي داود. فقال الشيخ: تكلم! فسكت. فالتفت إلى الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين! واحدة. فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن الله عز وجل حين أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. هل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي داود. فقال الشيخ: أجب يا أحمد! فلم يُجب، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! اثنتان. فقال الواثق: اثنتان، فقال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن مقالتك هذه، هل علمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟ فقال ابن أبي داود: علمها. قال: فدعا الناس إليها؟ فسكت، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! ثلاث.

فقال الواثق: ثلاث. فقال الشيخ: يا أحمد! فاتَّسع لرسول الله ﷺ أن علمها وأمسك عنها كما زعمت ولم يطالب أمته بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: واتَّسع لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ؓ؟ قال ابن أبي داود: نعم. فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين! قد قدمت القول: إن أحمد يصبي ويضعف عن المناظرة؛ يا أمير المؤمنين! إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة بما زعم هذا أنه اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فلا وسع الله على من لم يسع له ما اتَّسع لهم.

فقال الواثق: نعم، إن لم يتَّسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ؓ فلا وسع الله علينا؛ اقطعوا قيد الشيخ! فلما قُطع القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه. فجاذبه الحداد عليه. فقال الواثق: دع الشيخ يأخذه! فأخذه فوضعه في كمه. فقال له الواثق: يا شيخ! لم جاذبت الحدّاد عليه؟ قال: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصى إليه إذا أنا مت أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، وأقول: يا رب! سل عبدك هذا لم قيَّدني وروَّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي، وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وَسَعةٍ بما ناله، فقال الشيخ: والله يا أمير المؤمنين، لقد جعلتك في حلّ وسَعَةٍ من أول يوم إكرامًا لرسول الله ﷺ، إذ كنت رجلًا من أهله.

فقال الواثق: لي إليك حاجة. فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلتُ. فقال له الواثق: تُقيمُ قِبَلنا فننتفع بك وتنتفع بنا. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! إن ردَّك إياي إلى الموضع الذي أخرجني عنه هذا الظالم؛ أنفع لك

من مقامي عليك؛ وأخبرك بما في ذلك: أصير إلى أهلي، وولدي فأكف دعاءهم عليك، فقد خلَّفتهم على ذلك. فقال له الواثق: فتقبل منا صلةً تستعين بها على دهرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين! لا تَحُلُّ لي، أنا عنها غني وذو مرة سوي فقال: سل حاجة. فقال: أو تقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: تأذن أن يُخَلي لي السبيل الساعة إلى الثغر. قال: قد أذنت لك فسلمَّ وخرج. قال المهتدي بالله: فرجعتُ عن هذه المقالة، وأظن أن الواثق رجع عنها منذ ذلك الوقت»[١].

قوة العزيمة دافعٌ إلى التوبة:

□ عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلَّا الفضيخ، البسرُ والتمر، فإذا مناد يُنَادي، فقال: اخرج فانظر، فخرجتْ فإذا منادٍ يُنادي: ألا إنَّ الخمر قد حُرِّمت، قال: فَجَرَتْ في سِكَكِ المَدِينَةِ، فقال لي أبو طلحة: اخرجْ فاهْرِقْها، فهرقتُها»[٢].

قالوا عن التوبة:

□ عن الشعبي قال: «كان يقال: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين؛ فإذا أحب الله عبدًا، لم يضره ذنب؛ وذنب لم يضر، كذنب لم يفعل»[٣].

□ عن مغيث بن سمي قال: «كان رجل فيمن كان قبلكم يعمل بالمعاصي؛ فادَّكر يومًا، فقال: اللهم غفرانك؛ فغفر له»[٤].

---

(١) «التوابين» (ص١٢٤- ١٢٨).
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٨٢)، ومسلم (١٩٨٠) واللفظ لمسلم..
(٣) «الحلية» (٤/ ٣١٨).
(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٦٨).

□ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: «جالسوا التوابين، فإنهم أرق الناس قلوبًا»[(١)].

□ عن أحمد بن عاصم قال: «هذه غنيمة باردة: أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضى»[(٢)].

□ عن عون بن عبد الله قال: «جرائم التوابين: منصوبة بالندامة نصب أعينهم، لا تقر للتائب في الدنيا عين كلما ذكر ما اجترح على نفسه»[(٣)].

□ عن أبي ذر قال: «هل ترى الناس ما أكثرهم؟ ما فيهم خير، إلَّا تقي أو تائب»[(٤)].

□ عن شفي الأصبحي قال: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة»[(٥)].

□ عن ميمون بن مهران قال: «من أساء سرًا، فليتب سرًا؛ ومن أساء علانية، فليتب علانية؛ فإن الله يغفر ولا يعير، والناس يعيرون ولا يغفرون»[(٦)].

□ عن سلام قال: «دخلت على مالك بن دينار ليلًا، وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه؛ فقلنا له: يا أبا يحيى، ألا سراج؟ ألا شيء تضع عليه خبزك؟ فقال: دعوني، فوالله إني لنادم على ما مضى»[(٧)].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٤٩).

(٢) المصدر السابق (٩/ ٢١٨).

(٣) «الحلية» (٤/ ٢٥١).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٦٤).

(٥) المصدر السابق (٥/ ١٦٧).

(٦) المصدر السابق (٤/ ٩٢).

(٧) «الحلية» (٦/ ١٨٩).

□ عن أبي حازم قال: «نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب؛ ونحن لا نتوب حتى نموت؛ واعلم، أنك إذا مت، لم ترفع الأسواق بموتك؛ إن شأنك صغير، فاعرف نفسك»(١).

□ عن ميمون بن مهران قال: «لا خير في الدنيا إلَّا لجرين: رجل تائب، ورجل يعمل في الدرجات»(٢).

□ عن سعيد الجديري قال: «قلت للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، حتى متى؟ قال: ما أعلم هذا إلَّا أخلاق المؤمنين»(٣).

□ عن عكرمة قال: «إن الشيطان ليزين للعبد الذنب حتى يكسبه، فإذا كسبه تبرأ منه؛ ولا يزال العبد يبكي منه، ويتضرع إلى ربه، ويستكين؛ حتى يغفر له ذلك الذنب وما قبله، فيندم الشيطان على ذلك الذنب حين أكسبه إياه، فغفر له الذنب وما قبله»(٤).

□ عن حكيم بن جعفر قال: «سمعت أبا عبد الله البراثي يقول: سمعت رجلًا من العباد يبكي، ويقول في بكائه: بكت قلوبنا إلى الذنوب ارتياحًا إلى مواقعتها، ثم بكت عيوننا حزنًا على الذي أتينا منها؛ فليت شعري، أيها المصيب برحمته من يشاء أحدُ البُكائَيْنِ مستولي علينا غدًا في عرصة القيامة عندك؛ لئن كنت لم تقبل التوبة يا كريم، لقد حانت لنا إليك الأوبة يا رحيم، ولئن أعرضت بوجهك، فبحق أعرضت عن المعرضين

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٢).

(٢) «الحلية» (٤/ ٨٣).

(٣) «الحلية» (٦/ ٢٠١).

(٤) «الحلية» (٣/ ٣٤٤- ٣٤٥).

عنك، ولئن تطولت بمنّك، ومننت بطولك علينا، فلقديمًا ما كان ذلك منك على المذنبين. قال: وسمعته يقول: أوثقتنا عقد الآثام، فنحن في الدنيا حيارى، قد ضلت عقولنا عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[١].

□ قال عون بن عبد الله: «قلب التائب بمنزلة الزجاجة، يؤثر فيها جميع ما أصابها، والموعظة إلى قلوبهم سريعة، الذنوب بالتوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى أوفدته عليها؛ وجالسوا التوابين، فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب»[٢].

□ عن عاصم بن رجاء بن حيوة قال: «كان عمر بن عبد العزيز يخطب، فيقول: أيها الناس، من ألمّ بذنب، فليستغفر الله وليتب؛ فإن عاد، فليستغفر الله وليتب؛ فإن عاد، فليستغفر الله وليتب؛ فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها»[٣].

توبة العبد بين توبتيْن من الله عَزَّ وَجَلَّ:

□ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولا حقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا، قبولًا وإثابة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

---

(١) «الحلية» (٦/ ٢٩).

(٢) «الحلية» (٤/ ٢٥٠ - ٢٥١).

(٣) «الحلية» (٥/ ٢٩٦).

﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة]، فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته. فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدي: الهدي بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ٤٧]، فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر» فهو المعدُّ. وهو الممدّ، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**»، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد»[١].

تبديل السيئات بالحسنات عند التوبة من أعظم البشارة:

* قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٢- ٣١٣).

الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح]».

✍ واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

□ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنا عِفَّة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالًا صالحة، كما يدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

□ وقال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره من التابعين: «هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة».

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيام، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها هاهنا»**. قال أبو ذر رضي الله عنه: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول

نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته، وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلكم إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه؛ فلابد إذًا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلَّا من طاب من كل وجه، فإذا بقى عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه؛ فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الموسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأن إزالة التوبة لها الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزال النار بدل

منها، وهي الأصل: فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

وهو أن التائب قد بَدَّل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلًا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجو.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة؛ فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجحب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

* وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧] ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

• وأما في الحديث: فإن الذي عُذّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا

بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي ﷺ عن كبر ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يُقِرُّ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقَرَّر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجوَدِين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلَّا هو الرحمن الرحيم»[(١)].

• عن أبي طويلٍ شطبٍ الممدودِ رضي الله عنه [(٢)] أنهُ قال: أتيت النبي ﷺ، فقال: «أرأيتَ مَن عَملَ الذنوبَ كلَّها ولم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠١- ٣٠٤).

(٢) ذكر المنذري أن «شطب» ذكره غير واحد في الصحابة إلا أنَّالبغوي ذكر في معجمه أن الصواب عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير مُرسلاً: أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويلٌ شَطْبٌ، والشطب في اللغة: الممدود فصحّفه بعض الرواة وظنه اسم رجل راجع الترغيب والترهيب» (٤/ ١٣٣- ١٣٦).

يترُكْ حاجةً ولا دَاجَةً [(١)] إلّا أتاها، فَهَلْ لذلك من تَوبةٍ؟ قال: «فهل أَسْلَمْتَ». قال: أمّا أنا فأشهَدُ أَن لا إله إلّا اللهُ وأنّكَ رسولُ الله، قال: «تَفْعَلُ الخيْرَاتِ وتَتْرُكُ السَّيِّئاتِ فيجعَلُهُنَّ اللهُ لكَ خَيْرَاتٍ كلهُنَّ». قال: وغدراتي وفَجَرَاتِي. قال: «نَعَمْ». قال: الله أكبرُ فما زَالَ يُكبِّرُ حتى تَوَارَى» [(٢)].

• عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رضي الله عنه قالَ: كانَ رسُولُ ﷺ يُسمِّي لنا نفسَهُ أسماءً، فقالَ: «أنا محمدٌ، وأحمدُ، والمقُفِّي [(٣)]، والحَاشِرُ، ونبيُّ التَّوْبةِ [(٤)]، ونَبِيُّ الرَّحمَةِ» [(٥)].

الاستغفار والتوبة:

❑ وأما «الاستغفار» فهو نوعان، مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح]. وكقوله صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل]. وكقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال]. والمقرون كقوله

---

(١) الداجة: الحاجة الكبيرة.

(٢) ذكره في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه البزار الطبراني واللفظ له وهذا إسناد جيد قوي (٤/ ١١٢- ١١٣). وقال الهيثمي في «مجمع الزائد» (١/ ٣٢): ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة.

(٣) المقفي: الآخر والمتبع للأنبياء.

(٤) نبي التوبة: جاء بالتوبة.

(٥) رواه مسلم (٢٣٥٥).

تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]. وقوله هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]. وقول صالح لقومه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود]. وقول شعيب عليه السلام: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود]. فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر؛ فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى. وإلَّا فالعمامة لا تسمى مِغفرًا، ولا القَبع ونحوه مع ستره، فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]. فإن الله لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره،

وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته. والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فها هنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزلة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة،فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذا الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم»[1].

□ قال محمود الوَّراق رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَــدِّمْ لنفــسِكَ توبــةً مَرْجُــوَّةً ... قَبْل المماتِ وقَبْـلَ حـبْسِ الأَلْـسُنِ

بــادِرْ بهــا غَلْـقَ النُّفُـوسِ فإنهـا ... ذُخْرٌ وغُـنْمٌ للمُنيـب المحسـنِ[2]

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٧- ٣٠٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٩٢).

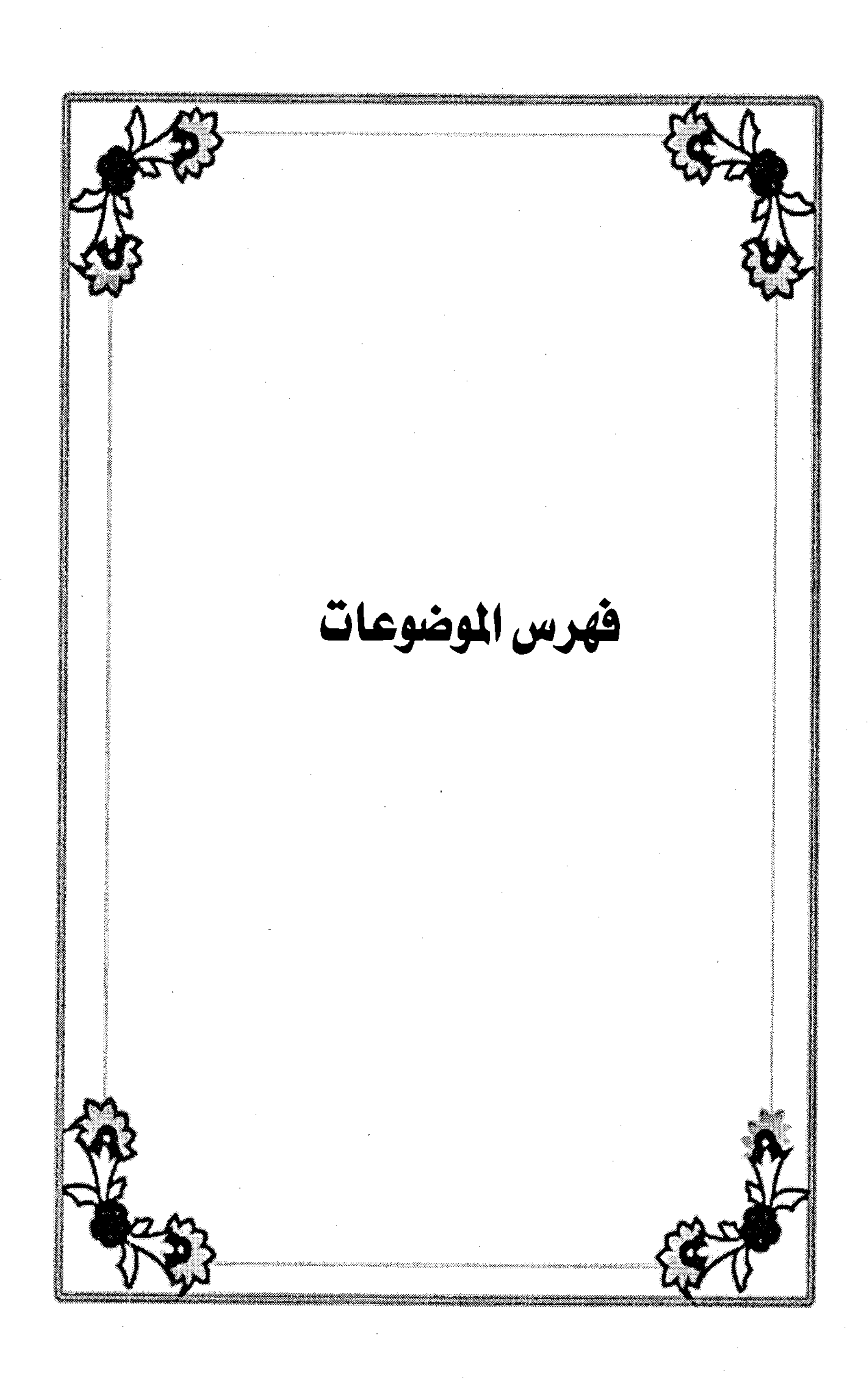
وختامًا:

• قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوَّابين**»(١).

✍ فالبدار البدار إلى التوبة مفتاح استقامه السائلين، ومطلع الأصطفاء والاجتباء للمقرَّبين.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وقال الترمذي: «حديث غريب»، وضعفه الشيخ شعيب الأرنؤوط، وحسنه الشيخ الألباني.

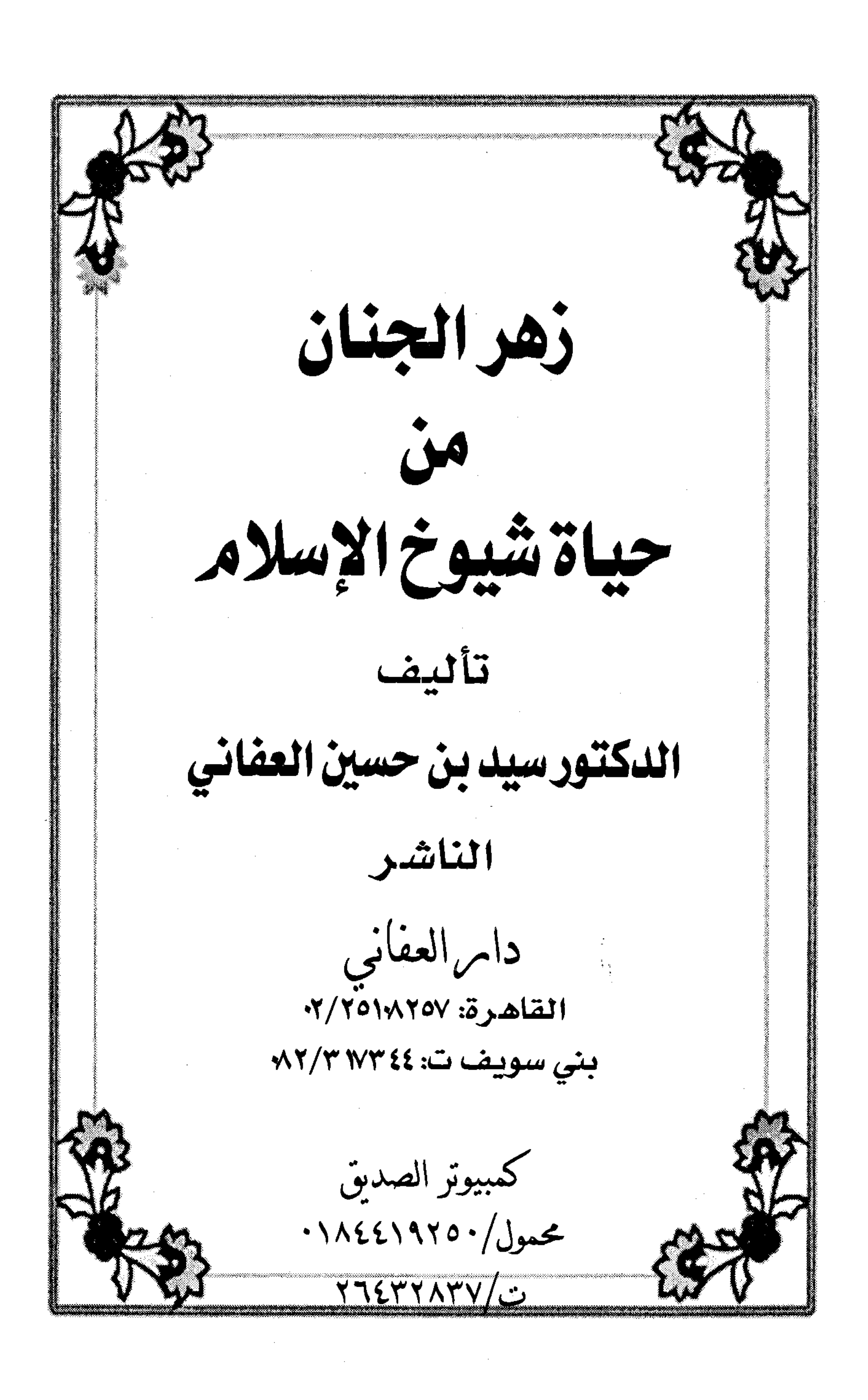


فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

كمبيوتر الصديق
محمول/٠١٦١٩٠٣٦٨٥
٠١٨٤٤١٩٢٥٠
ت/٢٦٤٣٢٨٣٧



زهر الجنان من حياة شيوخ الإسلام

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

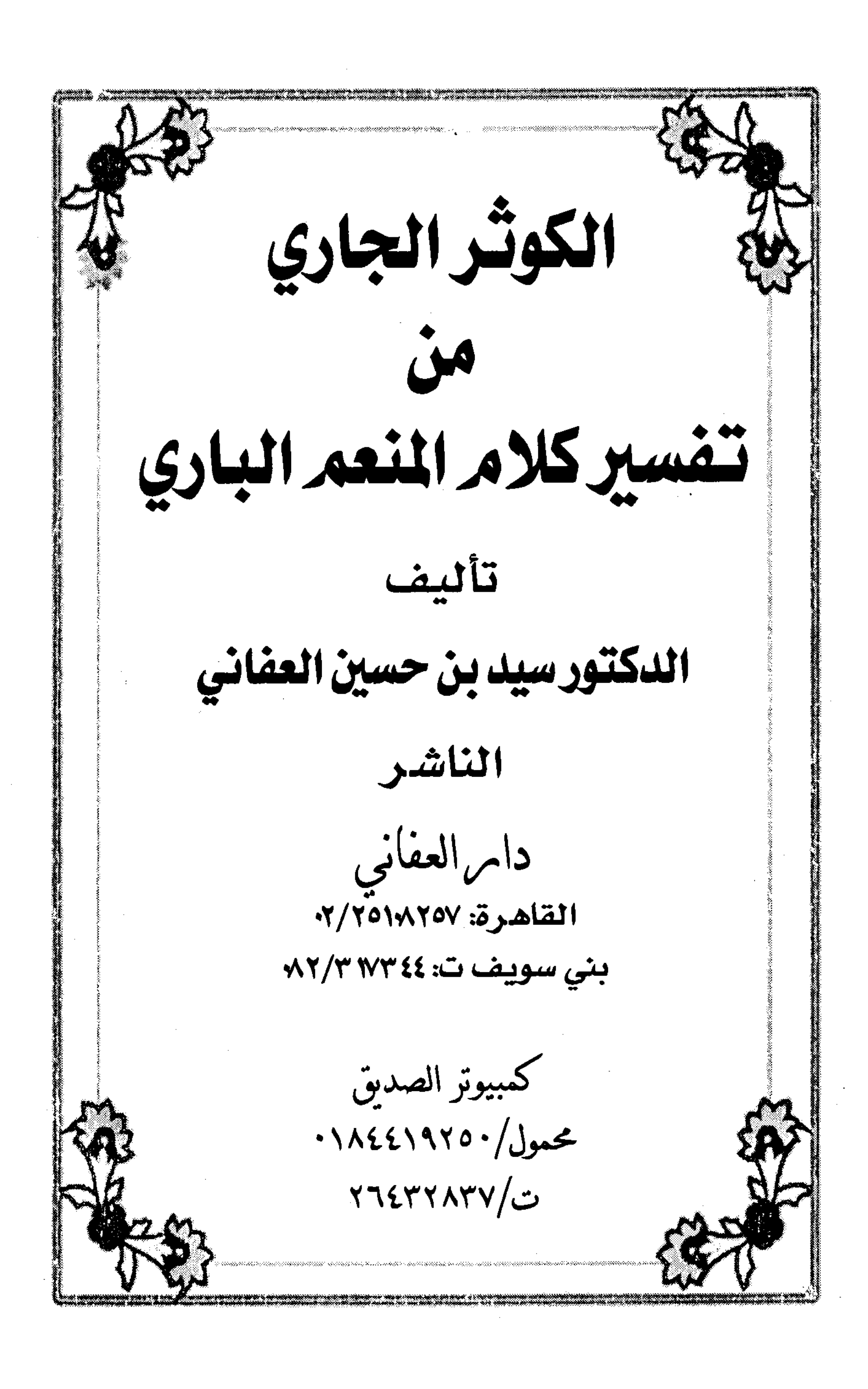
القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧



الكوثر الجاري
من
تفسير كلام المنعم الباري

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧